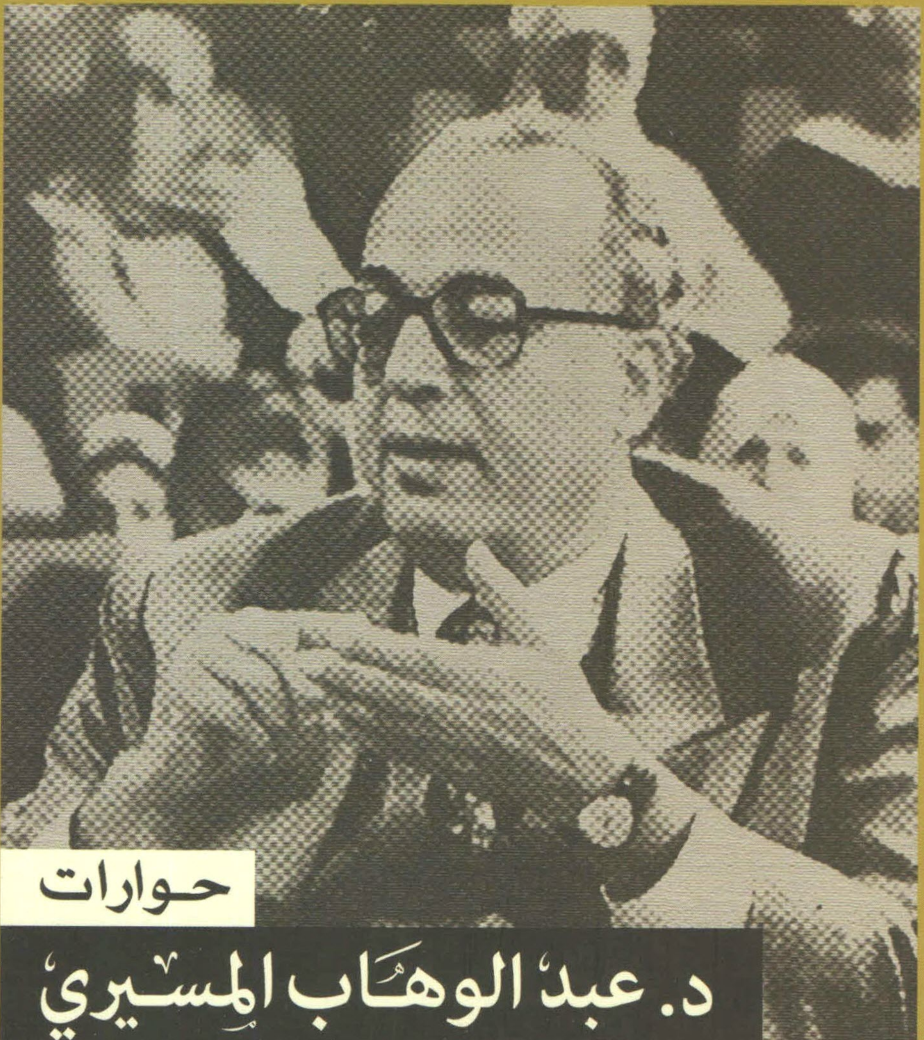

حوارات

د. عبد الوهاب المسيري

الصهيونية واليهودية

حوار: سوزان حرفي

دار دوِّن

حوارات د. عبد الوهاب المسيري

الصهيونية واليهودية

د. عبد الوهاب المسيري: الصهيونية واليهودية، كتاب
طبعة دار دَوِّنْ الأولى: يناير ٢٠٢٤
رقم الإيداع: ٢٥٤٥ / ٢٠٢٤ - الترقيم الدولي: 0 - 423 - 806 - 977 - 978

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محـْــفُوظَةٌ للناشرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الــواردة فــي هــذا الكتـــاب
لا تُعبــر عــن رؤيــة الناشــر بالضــرورة
وإنمــا تعبــر عــن رؤيــة الكـــاتب.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

حوارات

د. عبد الوهاب المسيري

الصهيونية واليهودية

حوار: سوزان حرفي

دَوِّنْ
للنشر والتوزيع

في هذا الكتاب

شكر وتقدير ٧
مقدمة ٩

الباب الأول

(١) الموسوعة ٢١
(٢) الصهيونية ٥٧
(٣) الدولة الصهيونية ١٣٥
(٤) الدولة الوظيفية ٢٠٤

الباب الثاني

(١) اليهود واليهودية ٢٢٩
(٢) الهولوكوست ٢٥٨
(٣) المؤامرة والنفوذ اليهودي ٣٠١

شكر وتقدير

إن مراحل نشر هذا العمل قد مرَّت بعدة تحديات بين عدة فِرق عمل كبيرة، فقد كان النشر الأول لسلسلة حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري في عام ٢٠٠٩، عملت فيه الإعلامية القديرة الأستاذة سوزان حِرفي على محاورة الدكتور عبد الوهاب المسيري في موضوعات شائكة ومهمة، ولها طبقات من الأفكار والفلسفات التي تحتاج إلى تفكيك وترتيب وتوضيح للمصطلحات والمفاهيم، وقد كان الحوار ذكيًّا وثريًّا ومؤثرًا.

وعندما بدأت دار دوِّن في العمل على إعادة نشر السلسلة بعد سنوات طويلة وتقديمها للقارئ العربي، كان لأسرة الدكتور عبد الوهاب المسيري، الدكتورة نور المسيري، والدكتور ياسر المسيري الفضل في إعادة نشر الكتب من جديد، لذا نشكرهم كل الشكر ونقدر دورهم كل التقدير في دعم ظهور محتوى الكتب مرة أخرى.

كما نتقدم بالشكر والتقدير لفريق مكتب الدكتور عبد الوهاب المسيري: الأستاذة الدكتورة هبة رؤوف عزت والأستاذ الدكتور محمد هشام. كما نتوجه بالشكر والعرفان للأستاذ فضل عمران، مدير مكتب الدكتور عبد الوهاب المسيري، والذي كان حريصًا كل الحرص على إعادة نشر الكتب ومتابعة كل التفاصيل الفارقة في خروج السلسلة إلى النور.

مقدمة

ثلاث سنوات كانت رحلة هذه السلسلة حتى اكتمالها أتحمَّل الجزء الأكبر من مسئولية التأخير بسبب عملي خارج مصر، واقتصار اجتماعاتنا المحورية على فترات زيارتي للقاهرة. ولم يكُنْ الدكتور عبد الوهاب المسيري متعجلًا عليها في البداية، فكعادته كان يعمل على عدد من الكتب يريد الانتهاء منها، أولًا، ولكن بعد أن أخذت السلسلة شكلها النهائي اشتد إلحاحه على إصدارها وأخذ يُشير إليها في معظم لقاءاته، وحدد أيلول/ سبتمبر ألفين وثمانية موعدًا زمنيًّا أقصى لصدورها، وجاء أيلول/ سبتمبر ولم تأخذ طريقها للمطبعة. وتجمَّد الورق بين أيدينا مع غياب صاحبه عن متابعة التفاصيل، ولكن بقي كلام الدكتور المسيري قبل رحيله فيما يتعلق بالحوارات يلحُّ علينا لنُنجز ما أراد أن يراه بين دَفَّتي سِجلٍّ في وقت يقترب مما كان مخططًا له.

فالمسيري كان شغوفًا بتقديم مسيرته الحياتية والفكرية ورُؤاه لأكبر عدد من الناس من غير المتخصصين أو المهتمين وكانت إحدى أهم رسالاته توسيع قاعدة المعرفة؛ لأنها اللبِنَة الأساسية لتوسيع قاعدة المشاركة. وجاء أسلوب الحوارات، الذي بُني على صيغة السؤال والجواب يمثل صورة مُثْلى لسعي الدكتور المسيري الدائم إلى تبسيط القضايا مما يساعد على سهولة انتشارها ووصولها إلى القاعدة العريضة من القُراء.

وهذا العمل يبلور شخصية الدكتور عبد الوهاب المسيري الموسوعية المتعددة الاهتمامات من فِكْر ومعرفة إلى تاريخ وفلسفة مرورًا بالثقافة والفن والسياسة. فمع غزارة إنتاج المسيري ظل اسمه مرتبطًا بموضوعات اليهود واليهودية والصهيونية والغرب وما يطرحه من إشكاليات ويجهل غالبية الناس ما للمسيري من إسهامات فكرية وفلسفية في حقول أخرى متنوعة، يأتي على رأسها مجال تخصصه الأساسي وهو الأدب الإنجليزي، وكذا قصص

الأطفال وكتابة الشعر، وهذا ما تحاول هذه السلسلة إلقاء الضوء عليه من خلال عرض الجوانب الحياتية والفكرية بشكل شامل بعد أن سبق عرضها عبر مؤلفات متخصصة تصب اهتمامها على قضايا بعينها.

كما أن هذه السلسلة فرصة لطرح آراء المسيري في قضايا لم يصدر فيها مؤلفات، وقد لا تكون محل اهتمام كبير في اللقاءات الإعلامية على أهميتها وقيمة ما يطرحه فيها المسيري من آراء كالحبِّ والفن والأغاني والقضايا السياسية ومشكلات الأحزاب وغيرها وتنبع أهمية رأي المسيري في هذه القضايا من زاوية نظره وقراءته لها، حيث يضع كلًّا منها في سياقٍ خاص وآخر عام فيشكل منها نموذجًا، أو يضعها هي داخل نموذج تفسيري. فهو يسقط رؤيته الكلية على الأحداث التي قد تبدو مجرد تفاصيل عابرة أو سطحية، ولكن بعد إخضاعها للنظرة المُتفحِّصة نجد أنها جزء من منظومة يريد من يقف خلفها ويتبناها أن تسود ونحن بدورنا نقف أمامها؛ إما مقلدين عن غير وعي أو ناقلين منبهرين. ويحاول المسيري بمنهجه أن يدفع كلًّا منًّا ليفكر قليلًا قبل أن يختار، ولو البسيط من الأمور أو السلوك أو الآراء، ليعرف أولًا ما هو النموذج الكامن وراء ما يفعل، وما هو النموذج الذي يجب أن يتبناه ويستبطنه.

وتضم هذه السلسلة في ثناياها عرضًا لأهمِّ محطات المسيري الحياتية والفكرية، وإنجازه الموسوعي اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد، والظروف التي أحاطت بالعمل، والصعوبات التي واجهها، وردود الفِعْل والانتقادات التي وُجِّهت له وكيف استقبل العامة والخاصة هذا العمل الذي استثمر فيه جُهدًا لما يزيد على ربع قرن من عُمره، وكذلك اجتهاده المميز وغير المسبوق في الاهتمام بقضيتين مَصِيريتين بحكم تحديات الواقع المُعاش الآن وهما المجاز والعلمانية. كما تضم عرضًا لآرائه في واقع حال مصر والأمة العربية والإسلامية، وكذا رؤيته لحال الفكر والثقافة والمثقفين العرب، إلى جانب نظرياته المتعلقة بالزواج وتجربته الشخصية التي استمرت ما يقرب من خمسين عامًا ولم تفقد حيويتها. مع ذلك لا يمكن القول

إن هذه السلسلة تختصر المسيري فكرًا ومسيرة، إذ لم تصل لمستوى حصاد حياته ولم يكن هذا هو الهدف منها في الأساس، ويمكن وضع هذا العمل في إطار التقديم والتعريف بتجربة ثرية كمسيرة عبد الوهاب المسيري، فهو يعرض بكثير من التفصيل الملامح العامة لهذا الموسوعي متعدد الاهتمامات.

وقد شكّل هذا التنوع إحدى الصعوبات التي واجهتني في أثناء عمليات التصنيف والحذف والإضافة، فهناك ما كنت أراه تكرارًا لبعض الأفكار ضمن الإجابات عن أسئلة تحت عناوين مختلفة، وكنت أميل إلى حذفها من بعض المواضع والحفاظ عليها في أكثر العناوين ارتباطًا بها، لكن ذلك أثر بطبيعة الحال على مضمون الفكرة، وناقشت ذلك مع الدكتور المسيري فرفض الحذف ووضح ما كان معروفًا من أن وحدة الرؤية النابعة من مرجعية نهائية لا تعني هنا تكرارًا وإنما هي وضع الحدث في سياقه العام المفسر. فالرؤية التي تحكم المسيري رؤية شاملة يتم إسقاطها على العناوين المختلفة مما يدعم تأكيدها ويساعد على تفسير الحدث ليس في ذاته فقط بل وفي ارتباطه بالأحداث والقضايا بمجموعها. وهذه إحدى سمات فكر المسيري الذي يتعامل مع قطاعات المعرفة المختلفة برؤية ومرجعية حاكمة قادته للتفسير والحكم على ما يتعرض له من قضايا فلسفية معرفية فكرية.

هذا على مستوى الرؤية، أما على مستوى الأحداث والأمثلة فقد تكرر الأمر نفسه، حيث يمكن للمثال أن يكون معبرًا وشارحًا لعدد من القضايا، وهو ما دفعنا إلى استخدام حدَث ما أو مثال شارح في أكثر من موضوع متعلق، مع مراعاة أن زاوية النظر تختلف من موضع إلى آخر.

وهناك مشكلة أخرى واجهتُها في أثناء التحرير؛ إذ تشتمل هذه السلسلة على عديد من الموضوعات؛ بعضها جاء ليعالج قضايا عامة ومن ثَم لم تكن هناك مشكلة في التعبيرات والكلمات المُستخدمة فيها، وبعضها كان متخصصًا. وهنا تجلت قضية المصطلحات والمفاهيم والأفكار التي تدخل في إطار التخصص والتي قد تربك غير المتخصصين. وكان أمامنا إما تجنب

كل المصطلحات ذات الصبغة التخصصية أو التعبير عنها بلغة عامة تتناسب وعوام الجمهور. واخترنا طريقًا ثالثًا. وهو الحفاظ على التعبيرات والآراء والمصطلحات المتخصصة على أن تأتي ضمن سياق لغةٍ بسيطة وأفكار ورؤى واضحة؛ لأن حذف كل المصطلحات قد يدفع بالموضوع إلى العمومية أو التهميش. وقد ساعدنا على استخدام هذا النهج أسلوب المسيري في الكتابة والتخاطب بوجه عام والذي يتميز بسهولة وبساطة لا يخلان على الإطلاق بعمق ما يطرح، بل على العكس تمامًا فهما يؤكدانه ويكرِّسانه.

وها هي ذي السِّلسلة اكتملت بعد أن كانت فكرة أتت في أثناء زيارة لي للدكتور المسيري، وكنت أناقشه في كيف يمكن للإعلام أن يُضيف جديدًا ليس على مستوى الحضور العام للضيف فقط وإنما على مستوى الفِكر أيضًا، وكيف أن بعض اللقاءات التي أُجريت معه كانت ذات قيمة عالية وبعضها الآخر - وإن كان رصينًا - جاء مفتقرًا إلى العُمق، وأن بعض المحاورين نجح في أن يخرج من الدكتور عبد الوهاب المسيري ما يُمثِّل إضافة حقيقية بعيدًا عما سبق نشره من أعمال متوافرة في المكتبات العامة أو على الشبكة الإلكترونية، ومثل هذه اللقاءات جديرة بإلقاء الضوء عليها. ووافقني الدكتور المسيري في ذلك - وإن اختلف معي في تقييم المُفيد من غيره فيما أجراه من لقاءات إعلامية حيث كان من أشد المهتمين بالإعلام والمحدثين بقيمتِه وأثره. وهنا سألته: لماذا لا تُعطيني كل الحوارات التي أُجريت معك أجمعها وأصنِّفها وأضعها في كتابٍ لنَرى الجمهور وحكمه إلى أي منَّا سيميل؟ فرحَّب بالفكرة ثم طوّرها لتكون تلخيصًا للمسيرة الفكرية والمعيشية عن طريق السؤال والجواب... وبدأت الرحلة.

وافاني الدكتور المسيري بما يحتفظ به من لقاءات وحوارات وما كتب عنه وعن أعماله منذ ستينيات القرن الماضي حتى تاريخ لقائنا. والمدهش، وإن كان متوقعًا، أن الأسئلة عن أهم القضايا التي طُرحت للنقاش كانت تتكرَّر على مدار أربعة عقود. وإن شئنا الدِّقةَ قُلنا: إن الأسئلة والإشكاليات موضع الجدل، والسِّجالات الفكرية والسياسية الدائرة في العالم العربي والإسلامي

منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن الحادي والعشرين؛ هي ذاتها، حيث لَمْ يتم حسم الموقف من هذه القضايا بعد. وجدير بالملاحظة أيضًا أن المحاولات الجادة للدكتور عبد الوهاب المسيري في تفكيك الظواهر وتفسيرها لم تتوقف على مدار العقود الأربعة ولم تتحول إلا بقَدْرِ تبلور رؤيته، مما أدى إلى تعميق نظرته ووضع الأحداث داخل سياق واضح المعالم سهل قراءتها وتفسيرها. ولم يقفِ المسيري عند هذا الحدِّ الذي يشترك فيه كثيرون، وإنما حاول بناء نماذج يمكن من خلالها توليد بديل أو بدائل يمكن اتباعها للخروج من التِّيه وإنجاز التحقق الإنساني.

والملاحظ أن رُؤى المسيري تحفظ للإنسان توازنه الذي قد يفقده تحت وطأة الأحداث والتطورات المتسارعة التي يشهدها الواقع المحيط عن طريق إخضاعها لقراءة تفسيرية. فالتفسير لدى المسيري هو أهم مراحل الفهم؛ ولهذا اتبع منهجًا تفسيريًّا مبنيًّا على التحليل والنقد الذي يجعل الفرد كائنًا أمام الآخر وليس مجهولًا أو مهملًا.

ومن هنا كان تأكيده الدائم على قيمة الهوية ودورها، ليس في حماية الأمة فقط، بل وفي تقدمها. وشكَّلت الهوية أهم عناصر النموذج الذي حاول المسيري صكه للبناء وللإعمار، وهو نموذج مُسْتلهم من البيئة العربية والإسلامية غير مهزوم أمام الآخر. وفي هذا السياق أتت الانتفاضة لتستحوذ على إعجابه الشديد لا باعتبارها مجرد مشروع للمقاومة والتحرير - وهي قيمة في حدِّ ذاتها ومَدعاة للفخر - بل باعتبارها أيضًا نموذجًا خلَّاقًا يقف بقوة أمام النموذج الاستهلاكي الغربي الداروين. فقد قدّم الفلسطينيون من خلال الانتفاضة مثالًا مميزًا للقدرة على التكيف مع الواقع، والاستفادة من مقومات الطبيعة الفلسطينية، والعودة للمخزون الحضاري في لاوعي الإنسان العربي، ثم إبداعها في إحياء التراث واستحضار حكمة الأجداد. ومن ثم شكَّلت الانتفاضة عودة للمعجم الحضاري الإسلامي واستخدامه على النحو الأمثل مع مواكبتها للعصر وتطورها مع الحدث الآني، فقدمت بهذا نموذجًا للحياة

والتنمية أسماه المسيري «نموذج التكامل غير العضوي». وما كان ليتأتّى للمنتفضين القيام بذلك لولا إحساسهم بقيمة ذواتهم وتحققهم أمام عدوهم، حيث عرفوا نقاط ضعفه وما أصبح عليه، واختبروا إمكاناته الحقيقية على أرض الواقع ولم يستسلموا للصور والأفكار السائدة، وإن لم يُدرك كثيرون منهم ذلك بعقله الواعي، فانتصار الانتفاضة نابع من تحقق الهوية الفلسطينية.

ومن هنا كان دفاع المسيري عن الهوية - لكونها السلاح وبداية الطريق - ليس من باب الكلام المرسل أو الشعارات التي يرددها بصدقٍ كثير من مثقفي الأمة، وإنما عن دراية بسبل تأكيد الهوية. فقد رأى المسيري أن أولى خطوات النهضة هي إعادة الثقة فيما نملك فلدينا قيمة مطلقة من استخلافنا في الأرض إلى جانب قيم واقعية متمثلة في الموروث الحضاري والقيمي. وثانية الخطوات هي إعادة تعريف الآخر وفقًا لما يطرحه والنتائج التي يحصدها من هذا الطرح، وعدم الاكتفاء بتعريفه وفقًا لما يفرضه هو من تحيزات، ثم الوقوف والتحرك في الحاضر صوب مستقبل تسوده قيم الإنسانية المشتركة وليس الفردوس الأرضي المزعوم.

ولم يكن المسيري لينجز كل ما أنجزه على صَعيد الفكر والمعرفة لولا إدراكه لقيمة الإنسان ومقدرته على الحركة والاختيار الحُر. فقد كانت المسيرة دائمًا مسكونة بالأحداث والتفاصيل، وبعض هذه الأحداث فقط يمثِّل المحطات الرئيسية في الحياة ويُحدد اتجاه الإنسان، وبعض من هذه المحطات يحدد توجهاته وتحولاته.

وتكتسب التفاصيل أهميتها بقُربها أو بعدها من المحطات أو التحولات الفاصلة، والتفاصيل ليست بالقليلة في حياة ابن دمنهور كما أن المحطات هي الأخرى كثيرة، إلا أن حياته لم تشهد كثيرًا من التحولات وما حماه من التقلبات والتحولات الكثيرة أنه امتلك منظومة أخلاقية وقيمًا عامة صاحبته عبر مسيرته، كما أنه وضع لرحلته الفكرية هدفًا نهائيًّا حدده منذ البداية، وهو ما أعانه أيضًا على أن يكتشف الطريق الذي منحه الإجابة عن جل تساؤلاته، فاختاره وسار فيه.

ولم يكن المسيري يستطيع العيش خارج نسَقٍ يفسر سلوكه ويحكمه، ويفسِّر له ما يحدث من حوله، ولذا تولدت لديه أسئلة وجودية شغلته منذ كان يافعًا وبقيت معه وتطورت بتطوره، وطرق عددًا من الأبواب الإيديولوجية بغية الرد عليها إلى أن أدرك وجود الله المتجاوز للسطح المادي، فآمن إيمان الواعي المدرك المحب، ليشكِّل تحوله من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان التحول الأهم في حياته. وإذا كان البعض يراه أحد التحولات فإنني أميل إلى القول إنه التحول الوحيد على مستوى المسيرة الفكرية.

أما على مستوى تحوله من الأدب الإنجليزي إلى **اليهود واليهودية والصهيونية** فلا أراه إلا انتقالًا أو لِنَقُل تغييرًا في الأولويات وليس تحولًا بالمعنى الحرفي للكلمة، فالأدب الإنجليزي كان المدخل الرئيسي لإدراك الدكتور عبد الوهاب المسيري لمضامين نهاية التاريخ ووحدة الوجود المادي في الغرب في أثناء إعداده للدكتوراه في شعر وليام ورذورث وولت ويتمان شاعر الديمقراطية الأمريكية كما يَدَّعي الخطاب التحليلي الأدبي الأمريكي، وهذه الرؤية فسرت له طبيعة الصهيونية ومنطلقاتها. كما أنه لم يهجر الأدب الإنجليزي أو يتهَّجم عليه؛ بل ظلت علاقته به قوية لكنها ثانوية في إطار اهتماماته.

ومن خلال إدراك المسيري لمعنى الله المتجاوز استطاع أن يضع نماذجه التفسيرية التي تحدد علاقة كل من الخالق والإنسان والطبيعة أحدها بالآخر، ومن ثم أصبح بالإمكان قراءة الأحداث على تنوع مجالاتها وساحاتها بين فِكرٍ ومعرفة وسياسة وأدب وفنٍّ وثقافة، من خلال وضعها داخل نماذج فضفاضة لا تنغلق على ذاتها. وأُومن أن النماذج التي وضعها المسيري تعتبر من أهم إنجازاته الفكرية. وإذا كان قد حقق إنجازًا غير مسبوق في دراسته التشريحية **لليهود واليهودية والصهيونية** فإن نجاعة هذا التشريح جاءت عبر قراءتهم من خلال نماذجه التي يمكن تطبيقها على معظم ما يحدث في العالم. وعليه فمن غير المستغرب أن تدخل أغنية لروبي أو نانسي عجرم ضمن إطار هذه النظرة الفلسفية؛ لأنهما خضعتا للنموذج ولم تقفا عند حدودهما الذاتية

كإحدى تجليات الفيديو كليب، بل هما من تبديات التحيز للنموذج الغربي وما فيه من مضامين تحاول تطبيع الجنس وإعادة الإنسان إلى ذاته وغرائزه.

وفي هذا الجانب أقرّ بأن النماذج كانت بحاجة إلى مساحة وتعميق أكثر بكثير مما أتت عليه ولكن السعي للإيجاز وتقديم الأهم داخل كل عنوان كان هو المعيار الحاكم. وتبقى مؤلفات المسيري وما فيها من شرح وافٍ معينًا لمن يرغب في الاستزادة.

وكانت هذه السلسلة في الأساس تجميعًا للقاءات التي أُجريت مع المسيري منذ أواخر الستينيات، فقمت بتصنيفها وتبويبها طبقًا للموضوع، ثم رتبت الأسئلة تحت كل عنوان فتكوّن هيكل لبعض الموضوعات وعظام متناثرة لبعضها الآخر، في حين أخذ قليل منها شكله النهائي. وعرضت الناتج على الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي رأى أنه نواة لعمل جامع، واقترح أن نضيف إليه المحاضرات والندوات إلى جانب اللقاءات التلفازية وساعدت الأسئلة والأجوبة المضافة في ملء بعض الفراغات، لكنها أيضًا طرقت عناوين جديدة تمت إضافتها، فأخذ كل موضوع ملامحه ولكن بقيت المعلومات الواردة تحت كل عنوان كحاملات الجسور تحتاج إلى وصل المسافات وملء المساحات فيما بينها، وتم ذلك من خلال جلسات بيني وبين الدكتور المسيري والدكتورة هدى حجازي وأخرى دعا إليها الدكتور عبد الوهاب المسيري عددًا من تلاميذه الذين ناقشوا عددًا من الموضوعات التي كانت بحاجة إلى استكمال.

وجاءت أسئلة واستفسارات الحضور ووجهات نظرهم وإجابات الدكتور المسيري لتكسُوَ العظام لحمًا فتجسدت الحورات في شكلها قبل النهائي، وعند هذه المرحلة أصبح الموضوع هو المركز بعد أن كان التركيز في البداية ينصب على النقاط الرئيسية والأسئلة محل اهتمام الإعلام واللقاءات.

ولم يكتف الدكتور المسيري بذلك، بل قام بتوزيع الأبواب والفصول على تلاميذه وأصدقائه كل حسب اهتمامه وتخصصه ليطرحوا ملاحظاتهم ويضيفوا من الأسئلة والنقاط ما يرَوْن أنه قد فاتنا ونحن في زَخَم الانفعال

بالعمل؛ لتعود مجتمعة للمراجعة وإعادة ترتيب الأسئلة والإضافة والحذف مرة ثانية وثالثة وقبل نهائية ونهائية. ولقد استفدت أيّما استفادة من أسلوب المسيري في إنجاز أعماله الفكرية على مستوى الجهد والتدقيق وأيضًا الرحلة الماراثونية لمادة هذه المجموعة بين عدد من المعنيين والمهتمين، التي لم تقتصر على إثراء الأفكار وملء الفراغات بما أضافه كل من وُضعت المادة أو جزء منها بين يديه وحسب، بل كانت رحلة عبّرت عن ذكاء المسيري التاجر بحكم الوراثة فرُدُود الفِعل الآتية من أشخاص مختلفين كانت نموذجًا لما يمكن أن يكون عليه استقبال الجمهور عبر عيِّنةٍ كاشفة من الأصدقاء والأبناء والتلاميذ.

ونتيجة لذلك، كانت هذه السلسلة تجميعًا للحوارات التي أجراها صحفيون وإعلاميون ومتخصصون ومهتمون عبر محاضرات أو ندوات أو لقاءات إعلامية، مضافًا إليها ما قام به أبناءُ المسيري وتلامذتُه من استكمال الموضوعات؛ ولذا فهو ثمرة مجهود جماعي قمت فيه بدور المنسق والمحرِّر، فالشكر هنا واجب ومُستحَقٌّ لكل من أجرى حوارًا أخذناه كاملًا أو وزعناه على عدد من الفصول، والشكر لكل من طرح سؤالًا كان له أثر في لفت النظر إلى تعدد اهتمامات المسيري أو فتح لنا بابًا لفكرة جديدة. وفي هذا السِّياق أشكر الدكتور أحمد عبد الحليم عطية الذي كانت حواراته مع الدكتور المسيري خير مُعين لنا، والشكر كل الشكر لمن واكَب هذا المشروع فِكرةً وجمعًا حتى نهايته بمجهود بحثي أو نقدي، وكل من منَحه من وقته واهتمامه، وأخُصُّ بالذكر الأبناء الأدبيين (إن جاز التعبير) للدكتور المسيري: الدكتور محمد هشام، والدكتورة جيهان، فاروق، والدكتور ياسر علوي، ولا يفوتني هنا تقديم الشكر للسيدة منى البقلي التي بدأت رحلة جمع الأحاديث الصحفية وتصنيفها وبذلت في ذلك جهدًا كبيرًا. كما أتوجَّه بالشكر إلى السيدة أماني عزت التي تولت كتابة المخطوطة على الحاسوب، وكذلك إلى جميع العاملين في مكتب الدكتور عبد الوهاب المسيري على ما قاموا به من مُتابعةٍ ودورٍ محمودٍ في إتمام العمل؛ فشكرًا للأستاذ فضل عمران والأستاذة دينا رمضان، والأستاذ محمد الأشول.

وشكر خاص إلى الدكتورة هدى حجازي، التي كانت رفيقة الفِكْرة، وشَريكة الجلسات، وصاحبة الفضل الأكبر في إكمال رحلة الحوارات بإشرافها على متابعة النسخة الأخيرة، وطباعتها، فلها التحية والتقدير الكبيران لشخصها أولًا، ولإصرارها ثانيًا على استكمال ما أوصى به الدكتور عبد الوهاب المسيري فكانت خيرَ راعٍ لما ترَكَ.

وغنيٌّ عن القول إنني من أشد المعجبين بأفكار المسيري ورؤيته التي تتسِمُ بالوضوح وصفاء الرؤية. فقد كان المسيري يمتلك قوة ملاحظة استثنائية تجعله يتوقف أمام ما يمرره كثيرون باعتباره من باب الأمر الواقع أو الشيء الطبيعي ليراه هو تعبيرًا عن نسَقٍ أو تحيز أو نموذج ما. كما كانت لديه قُدرة فائقة على وضع النظرية التي يمكن من خلالها قراءة الحدَث العابر أو الموضوع البسيط أو القضية السطحية. وكانت هذه ميزة فكرية كبيرة ولكنها أيضًا مصدر استمتاع بما يكتب، والمصدر الأشمل للاستمتاع بكتاباته وحواراته هو أسلوبه السهل الناطق بخبايا وتلابيب الأفكار والمغلَّف بخفة ظل لا تفارقه في أكثر القضايا تعقيدًا وعمقًا. وهذا الاستمتاع قادر على سرقة اهتمام المُتلقِّي رغمًا عنه أحيانًا، وهو ما حدَث معي طوال تحريري لهذه السلسلة، فتحولت مرات كثيرة إلى قارئةٍ أكثر منِّي مُحررة، وكنت أقرأ كثيرًا من الأجزاء لنهايتها ثم أعود مرة أخرى لقراءتها بعينِ المُحرِّر وليس بعقل المتلقي. وأرجو أن يكون الحال نفسه مع كل قارئ وأتمنى أن يكون صدى هذا العمل في حجم ما توقَّعه الدكتور المسيري له.

وختامًا أدعو الله عز وجل أن يأجُرَ صاحبه على كلِّ ما جاء فيه من قولٍ كان يعبِّر به عن سعي سعاه نحو الله، أو عن فِعل ابتغى من ورائه تحقيق العدل وإعمار الأرض..

والله عنده خير الجزاء.

سوزان حرفي

الدوحة

تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٨

الباب الأول

- الموسوعة.
- الصهيونية.
- الدولة الصهيونية.
- الدولة الوظيفية.

(١)
الموسوعة

س: عندما قررت الاستقالة من العمل الجامعي والتفرغ الكامل لإنجاز الموسوعة ألم ينتابك القلق من أثر قرارٍ كهذا على وضعكم المادي؟

ج: لا، لم أفكِّر ولم أترك لنفسي فرصة لتشعر بأي معاناة؛ لأنني أنا وزوجتي كنا كالمجانين، أصابنا ما يمكن أن أسميِّه الجنون المقدس، أتذكّر أني قلت لزوجتي إنني سأستقيل من الجامعة حتى أنتهي من الموسوعة، فوافقت فورًا دونَ نقاشٍ، مع أن تلك الوظيفة كانت موردنا المالي الوحيد آنذاك. وطبعًا كانت هناك معاناة لم أكن أُدركها في ذلك الوقت، وأكبر دليل على ذلك أنه يوم سلَّمت الأقراصَ المُدمجة لدار الشروق أُصبت بما يشبه الجلطة في المخ، ولكني، والحمد الله، شُفيت منها. والغريب أن الأطباء اكتشفوا بالصدفة أن بعض فقرات ظهري تآكلت، ولكن يبدو أنني لم أشعر بشيء على الإطلاق وقد ظهر فيما بعد أنها تآكلت بسبب السرطان. وطبعًا كانت هناك بعض المعاناة المالية، فحينما تقرَّر إجراء عملية جراحية لاستئصال ورم سرطاني كان يضغط على النخاع الشوكي أدى إلى إصابتي بشلل نصفي، لم يكن معي مليمًا واحدًا ولكن حدَثت مجموعة من المعجزات التي ساعدتنا على الاستمرار. على سبيل المثال، بعد أن أنفقنا أنا وزوجتي كل ما لدينا من مال، كان عندنا شقة في العمارة التي نمتلكها وحاولنا بيعها دون جدوى، وفجأة جاءتنا صديقة أخبرتنا أنها تحتاج إلى شقة؛ فهي مُقيمة في الولايات المتحدة، ولكنها أعجبتها عمارتنا وطلبت شراء شقة بها. وبعد يومين جاءت بالثمن كاملًا لتحلَّ بذلك أزمة كبيرة كانت تواجهنا. وهكذا سارت الأمور وتمكَّنا من إنفاق أكثر من ٥٠٠ ألف دولار على الموسوعة خلال ٢٥ عامًا،

كما أُجريت العملية الجراحية بنجاح.

س: ما طبيعة الضغوط التي مارسها الجانب الصهيوني لإيقاف العمل بالموسوعة؟

ج: أولًا: حدَث أن تمت سرقة منزلنابأمريكا بطريقة غير عادية حيث أخذوا كل أوراقي وكتبي. عادة لصوص المنازل لا يأخذون الأوراق والكتب؛ لأنها ليست ذات قيمة عندهم، سرقوا أيضًا النسخة الخطية الوحيدة لرسالة الدكتوراه الخاصة بزوجتي، كما سرقوا مراجعي ومخطوط كتاب كنت أعدُّه عن إسرائيل وجنوب إفريقية، وقيل لنا: إن سرقة الأشياء المنزلية تمت لتغطية السرقة السياسية والهدف كان أن يختل توازننا، وهو ما حدث بالفعل لمدة وجيزة. فحدث لي نوع من عدم التوازن، وكانت هذه أول مواجهة. أما ثاني مواجهة فقد حدثت عندما توالت التهديدات من جماعة (كاخ) المتطرفة في أثناء عملي بالتدريس بالرياض حتى بلغت ١٢ رسالة تهدِّد بالقتل؛ ستة أرسلت إلى عنواني بالقاهرة وستة إلى عنواني بالرياض. وعند عودتي للقاهرة لقضاء عطلة نصف السنة وصلتني الرسالة الثالثة عشر وجاء فيها: «علمنا أنك عُدت للقاهرة وأعددنا لك قبرًا»! وهو ما دفع السلطات المصرية لتعيين حراسة لي رُفِعت لاحقًا. وقد اعترف مائير كهانا رئيس جماعة كاخ بأن جماعته هي التي أرسلت الخطابات وذلك في مقالٍ له بجريدة يديعوت أحرونوت.

والمواجهة الثالثة كانت خطابًا وصل لجريدة العربي الناصرية عن طريق أحد العاملين المصريين في السفارة الأمريكية، وكان الخطاب مرسلًا من جامعة بارإيلان الإسرائيلية إلى السفير الأمريكي بيليترو تقول فيه إنهم يودون تشويه سمعتي بإشاعة أنني أتعامل مع الأمريكيين والإسرائيليين في الخفاء. وبالفعل حدَث أن اتصل بي أحد معارفي لتهنئتي بتعييني رئيسًا لوفد ثقافي سيزور إسرائيل.. فقلت له: ليس لديَّ علم بهذا الموضوع، وأعتقد أنني لست الشخص المناسب لترؤس وفد ثقافي ذاهب إلى إسرائيل.

أما آخر المواجهات فحدثت عندما كنت أعرض شقةً من دورين في عمارتي للإيجار وأتاني أحد السماسرة لاستئجارها لأحد عملائه، وعرض عليَّ مبلغًا كبيرًا جدًّا فوافقت في بداية الأمر ثم تمهَّلت قليلًا وسألت عن شخصية الرجل، فقال لي: إنه دبلوماسي إسرائيلي. فرفضتُ بطبيعة الحال، وأعتقد أن هذه كانت آخر مواجهة.

س: وهل توقفت جهود الصهاينة عند هذا الحد؟

ج: بعد الانتهاء من الموسوعة كنت دائمًا أترك رسالة على جهاز «الأنسر ماشين» أقول فيها إنني وضَعت الأقراص المُدمجة الخاصة بالموسوعة في عِدَّة أماكن بالعالم، وبهذا أصبحت أنا شخصًا غير مهمٍّ. وهذا ما حدث بالفعل فقد أرسلت نسخة لصديقي سعيد الحسن في المغرب، ونسخة لصديقي سامي عبده في لندن، ونسخة لصديقي محمد جابر في الأردن فلم يعد بإمكان الصهاينة ضرب الموسوعة. وأعتقد أنهم كانوا يراقبونني وأدركوا أن المسألة فات أوانها؛ لأنهم ليسوا مهتمين بي شخصيًّا وإنما مهتمون بي مفكرًا، وإن تحول فكري إلى عمل منفصل عني فالمسألة منتهية فأصبحوا حتى يخافون من مهاجمتي؛ لأن مهاجمتي تلقى الضوء على أعمالي ومن ثَم لجئوا للصمت. لم أسمعهم قط يذكرون الموسوعة بخير أو بشر ولو مرة واحدة.

س: لكن الجانب الصهيوني يتورط كثيرًا في حوادث الاعتداء على المثقفين مثل د. جمال حمدان وغيره؟

ج: أتصور أنه بالنسبة إلى العلميين الذين يشكِّلون خطرًا ماديًّا على التفوق الإسرائيلي الأمر طبعًا محسوم، لكن أعتقد أنهم لم يحاولوا اغتيال المثقفين حتى الآن لسببٍ بسيط؛ لأنهم بذلك يُلقون الضوء على أعمالهم. وبالنسبة لي فقد حذرت الصحف الإسرائيلية مائير كاهانا عندما هددني بالقتل، وقالت إنه لا يجب المساس بالمثقفين العرب؛ لأن هذا يشكل تجاوزًا لخط أحمر إن تم تجاوزه فسوف تتجاوز المقاومة المصرية هذا الخط الأحمر أيضًا ويمكن أن تبدأ في اغتيال السائحين. الصحافة الإسرائيلية أدركت خطورة

اغتيال المثقفين المصريين وحذَّرت منه.

س: أنت أحد المفكرين الذين سعوا إلى قراءة إسرائيل وحالتها العنصرية وتاريخها ومستقبلها. ما هي البواعث الشخصية والدوافع العلمية التي دفعتك إلى المضي في هذا المسار؟

ج: الدوافع الشخصية عديدة وواضحة؛ وهي أنني عربي يعيش في المنطقة العربية، ومن ثَم فإن الدولةَ الصهيونيةَ هي إحدى القضايا الأساسية التي تواجه المجتمعات العربية ومن ثَم تواجهني باعتباري مفكرًا مهتمًّا بقضايا الوطن. ولكن مع هذا لا بد أن أعترف أنني حينما تركت مصر عام ١٩٦٣؛ لأدرس في الولايات المتحدة لم تكن الدولة الصهيونية تمثل إشكالية فكرية أو سياسية بالنسبة لي؛ لأنني كنت واقعًا تحت تأثير الرؤية الإعلامية العربية الاختزالية للقضية الفلسطينية، التي كانت تذهب إلى أن الفلسطينيين أساسًا شعب من اللاجئين وأن قضيتهم قضية إنسانية غير سياسية. كما كان يتم الإشارة إلى إسرائيل باعتبارها «إسرائيل المزعومة». فكانت استجابتي المنطقية لهذا الموقف هو أنها إذا كانت مزعومة حقًّا، فلماذا نعطل التاريخ العربي من أجل شيء مزعوم؟ ولا سيما أن القضية قضية لاجئين فلسطينيين! وكانت إسرائيل في ذلك الوقت تدَّعي أنها لا تُمانع في عودة عدد من اللاجئين الفلسطينيين على أن تستوعب البلاد العربية بقيتهم، وحل القضية برُمَّتها حلًّا إنسانيًّا، فهي قضية إنسانية وليست قضية سياسية. كما أنني بطبيعة الحال كنت متأثرًا بالرؤية الماركسية للقضية آنذاك، وهي أن الإشكالية طبقيَّة وأن حلَّها يكمُن في تعاون الطبقة العاملة اليهودية مع الطبقة العاملة الفلسطينية، ويقوم الطرفان بالثورة ضد المرجعية العربية واليهودية.

ولكن بالتدريج اكتشفت أن قضية اللاجئين الفلسطينيين ليست قضية إنسانية وإنما قضية سياسية استراتيجية لها أبعاد إنسانية: قضية شعب طُرِد من أرضه وحلَّت محله كتلة بشرية قادمة من الغرب، وأن هذا النمط ينتمي إلى النمط الاستعماري الاستيطاني الإحلالي في العالم، وأن الدولة الصهيونية

دولة وظيفية، عبارة عن قاعدة سكانية عسكرية أُقيمت في منطقة ذات أهمية استراتيجية بالنسبة للغرب لتَخدُمَ مصالحه، بما في ذلك الحفاظ على وضع التجزئة في العالم العربي. كل هذا جعلني في الواقع أقرِّر أن أتخلى عن دراستي للأدب الإنجليزي وأنتقل إلى دراسة الصهيونية. لكن وجدت أن تغيير موضوع بعثتي مسألة من سابع المستحيلات، وقرَّرت أن أقسِّم وقتي بين الدراسة للدكتوراه في الأدب الإنجليزي والأمريكي وبين قضية الصهيونية.

حينما بدأت الموسوعة كان هناك دراسات كثيرة عن الصراع العربي الإسرائيلي، كثير منها يدور داخل الإطار التآمري الذي يؤكد خصوصية اليهود وفرادتهم ويتهمهم بأنهم وراء كل شرور العالم، والبعض الآخر يدور داخل إطار فِكْرٍ عام يصِف نفسه بالعلمية يركز على الجوانب العامة للظاهرة الصهيونية. فثمة تأرجح شديد بين العام والخاص دون محاولة للجمع بينهما، مما ينتج عنه نوع من الاختزال يفرز مقولات ليس لها مقدرة تفسيرية مثل (إن اليهود إن هُم إلا جزءٌ من مؤامرة مستمرة ضد البشر) أو (إن إسرائيل إنْ هي إلا قاعدة للاستعمار الغربي).

ومما يجدر ملاحظته أن معركتي مع الصهيونية بدأت في الغرب ولم تبدأ في الشرق، ومن ثم رأيتها باعتبارها ظاهرة استعمارية غربية لا تختلف كثيرًا عن الظواهر الاستعمارية الأخرى التي أفرزتها الحضارة الغربية، ومن ثَمَّ أصبح عدائي للصهيونية عداءً إنسانيًّا ضد أي شكل من أشكال العنصرية والاستعمار؛ ولذا فأنا أزعم أنه حتى لو تصالحت الحكومات العربية مع إسرائيل ومع الصهيونية، فإنني لن أتصالح معها؛ لأنني أحاربها كما أحارب النازية وأحارب العنصرية وأحارب التعصب الديني، وكما حاربت النظام العنصري في جنوب إفريقيا.

س: هل تلقيت دعمًا ماديًّا وأدبيًّا ساعدك في إنجاز الموسوعة؟

ج: الموسوعة كلفت ٥٠٠ ألف دولار، فقد كان عندي مكتب للترجمة عن العبرية وعدد كبير من مساعدي الباحث؛ منهم مدير للموسوعة في

القاهرة، ومساعدي باحث في الولايات المتحدة. وما كان يمكن الاستمرار من دون دعم بعض الأصدقاء الشخصيين، الذين اشتروا نسخًا من الموسوعة قبل النشر. وهذه العملية بدأت عام ١٩٩٠ تقريبًا. قبل ذلك التاريخ، كنت أنا وزوجتي نقوم بعملية التمويل من مواردنا الخاصة. ثم استقلتُ من عملي في جامعة عين شمس لأتفرغ للموسوعة تمامًا، وهذا التفرغ لم يكن ممكنًا من دون مساعدة بعض الأصدقاء. وقد شاء الله أن أقابل في ذلك الوقت سعيد الحسن الأستاذ الجامعي في المغرب، ونجل القيادي الفلسطيني المرحوم خالد الحسن والأستاذ سامي عبده، وهو مَصْرِفي فلسطيني في لندن، هذان الصديقان ساعداني بصورة مباشرة وغير مباشرة من خلال اتصالهما ببعض أصدقائهما من المهتمين بالقضية الفلسطينية ليشتروا نسخًا من الطبعة الفاخرة قبل النشر، وبعد صدور الموسوعة قام الشيخ الدكتور سلطان القاسمي حاكم الشارقة بشراء مائتي نسخة من الطبعة الفاخرة. كما ساهم الأمير عبد العزيز بن فهد في تغطية التكاليف. وصديقي الأستاذ جميل سعود حبّاش رجل الأعمال الفلسطيني المقيم في لندن، رحمه الله. وقد مكنني هذا العون المادي والمعنوي من الاستمرار وأنا أعتبر أن تمويل عملية بحثية بهذه الطريقة التي اتبعتها كارثة كبرى؛ إذ يجب أن تقوم بتمويل عملية كهذه مؤسسات بحثية، وليس شبكة علاقات شخصية.

س: متى بدأت في كتابة الموسوعة؟

ج: أحب أن أميز ابتداءً بين العمل الموسوعي وكتابة الموسوعة، حينما عُدت إلى مصر عام ١٩٦٩ بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه قدَّمني الدكتور أسامة الباز إلى الأستاذ هيكل، وكنت قد طوَّرت أطروحة نهاية التاريخ في أثناء كتابة رسالة الدكتوراه. وقدمت اقتراحًا للأستاذ هيكل أن يقوم أحد الباحثين بتطبيق هذه الرؤية على فلسفة التاريخ الصهيونية، فقرأ الأستاذ هيكل الاقتراح ثم اتصل بي وأخبرني أنه من الصعب أن يجدَ مثل هذا الباحث، وأنه من الأجدر أن أقوم أنا بإنجاز هذا البحث، فوافقت

وكتبت دراسة بعنوان: (نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني)؛ أي إنني كتبت دراسة عن الصهيونية ليست ذات طابع سياسي مباشر، وإنما لها بُعْد معرفي وفلسفي، ومن ثَم لها بعد استراتيجي. أُعجِب الأستاذ هيكل كثيرًا بالدراسة وبالاتفاق مع الأستاذ حاتم صادق عُينتُ مسئولًا عن الفكر الصهيوني في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

وكان من المألوف في ذلك الوقت أن كل من كان يكتب دراسة عن الصهيونية كان عليه أن يتوقف ويُعرِّف في الهامش أو في المتن بعض المصطلحات التي لم تكن مألوفة حين ذاك مثل (الكنيست) و(الهستدروت). فقررتُ أن أُنهي الدراسة دون أن أوقف عملية السرد والتتالي المنطقي، على أن أُلحِق بالكتاب مسردًا بالمصطلحات. وحينما بدأت كتابة المسرد اكتشفت أن المفردات التي تَرِدُ في الخطاب السياسي العادي حينما ترد في الخطاب السياسي الصهيوني تَكتسِب معنًى ومضمونًا مختلفين عن مضمونها ومعناها العادي والمألوف؛ فعلى سبيل المثال، حينما ترد كلمة مثل (الشعب) في نص صهيوني فإن معنى الكلمة مختلف عن معناها حينما نتحدث عن (الشعب الفرنسي) أو (الشعب الإنجليزي) أو (الشعب المصري وهكذا، وإن وردت كلمة «حزب سياسي» في نص صهيوني فهي تُشير إلى مؤسسة مختلفة بشكلٍ جوهريٍّ عن الأحزاب السياسية في البلدان الأخرى؛ فالأحزاب الإسرائيلية - على سبيل المثال، تتبعها مستشفيات وجهاز خدمات ولها فروع في الخارج فيما يسمونه الدياسبورا.وحينما نتحدث عن الديمقراطية الإسرائيلية سنكتشف أنها ليست ديمقراطية ككلِّ الديمقراطيات؛ لأنها مقصورة على اليهود وتستبعد غير اليهود، كما أنها ديمقراطية مبنية على أرض مغتصبة من شعبها. فوجدت أن المفردات الصهيونية ذات طبيعة مصطلحية وتحتاج إلى تعريف. فانقلب المسرد إلى موسوعة صغيرة، وانقلبت الموسوعة الصغيرة إلى موسوعة من مجلد واحد صدرت عام ١٩٧٥ من مؤسسة الدراسات السياسية والاستراتيجية في الأهرام.

س: ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

ج: بعد أن انتهيت من كتابة الموسوعة عام ١٩٧٥ كان عليَّ أن أذهب إلى الولايات المتحدة لألحق بزوجتي حيث كانت تدرس للحصول على الدكتوراه. فقرَّرت أن أبدأ عملية تحديث الموسوعة وتوسيع نطاقها لأني سأكون بجوار المكتبات اليهودية الأساسية (مكتبة مدينة نيويورك - مكتبة جامعة كولومبيا- مكتبة الكونجرس)، فاقترحت على مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام أن يُعين مساعد باحث تكون مهمته فتح ملفّات عن كل مداخل الموسوعة فيضع فيها ما يجد من أخبار، ويفتح ملفات جديدة عن كل ما يجد من ظواهر ومفاهيم على أن أقوم بالاطلاع على المراجع وآخر الدراسات وأنا في الولايات المتحدة، وبهذا فحينما أعود وأبدأ في عملية التحديث تكون المعلومات جاهزة. فرُفِض الطلب لأن رياح التطبيع كانت قد بدأت تَهُبّ، وقد نصحني أحد العاملين في المركز أن أنسى الموضوع برُمته؛ لأن القصة انتهت والطريف أن القول نفسه تكرَّر عند توقيع كامب ديفيد، ثم عند توقيع أوسلو وهكذا، وفي كل مرة كنت أهز رأسي وأستمر). ثم كتبت لمعظم مراكز البحوث في العالم العربي حتى نصدر ما أسميتُه حينذاك «الموسوعة العربية الشاملة للمصطلحات والمفاهيم الصهيونية»، وكانت الإجابة تأتيني دائمًا بالرفض بسبب عدم توافر الكفاءات البحثية التي يمكن أن تُنجز مثل هذا العمل الضخم. وكنت عادة أرى أنه يمكن تدريب العناصر البحثية في أثناء العمل ذاته؛ فأنا مؤمن أن الشباب العربي قادر على أشياء كثيرة إن وفرت له الفرصة والإمكانات، ولكن لم يقتنع أحد برأيي.

استمررت في العملية البحثية واستفدت من الملفات التي أعددتها وأصدرت كتاب (The Land of Promise، أرض الوعد) في أثناء وجودي في الولايات المتحدة، ثم أصدرت كتابًا من جزأين بعنوان (الإيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة) عام (١٩٨١، وقد تزامن نشره مع مذبحة صَبْرا وشاتِيلَا.

واتصل بي شابٌّ هو الدكتور مجدي زعبل واقترح عليَّ أن أقوم بتحديث الموسوعة من خلال مجموعة من الباحثين فوافقت ودعوتُ مجموعة من الباحثين إلى منزلي (بلغ عددهم حوالي ٢٠) كي نبدأ في تحديث الموسوعة. وقد هيمن على الجو الرغبة في مقاومة التطبيع، بمعنى أن التوجُّه كان علميًّا، ولكن كانت هناك درجة عالية من الحرارة الثورية ووزعنا المداخل على الباحثين واستكتبنا بعض الباحثين الذين لم يحضروا وسافرت إلى السعودية. وكان تصوري أن العملية ستستغرق سنتين وستكلف عشرة آلاف جنيه، وبعد عدة شهور بدأت المداخل تصلني وكانت جيدة من الناحية التوثيقية، ولكنها كانت معلوماتية تراكمية لا تحلل ولا تُفسر وأعتقد أن الباحثين بذلوا جهدًا غير عادي، ولكن نظرًا لأنني لم أزودهم بإطار نظري وبنموذج تحليلي فقد سقَطوا في قبضة النموذج المعلوماتي التراكمي والموضوعية المتلقية. حينذاك شعرت أن ثمة مشكلة ما، كما لاحظت أنني لم أعُدْ أقتنع بتفكيك المصطلحات وأنني أريد أن أطرح بدائل لما أُفكك، أي إن الموسوعة بدأت تتحول من موسوعة تفكيكية (العنوان الفرعي لموسوعة ٧٥ هو رؤية نقدية إلى موسوعة تأسيسية)، (العنوان الفرعي للموسوعة عام ٢٠٠٠ هو نموذج تفسيري جديد). ولو ظلت الموسوعة معلوماتية لأصبح حجمها ضعف الحجم الحالي (ثمانية مجلدات) ولتم إنجازها في أقل من نصف الوقت الذي قضيته في كتابة الموسوعة الحالية، ولنشرت الموسوعة عام ١٩٨٤ بعد أن انتهى السادة الباحثون من كتابة مداخلهم.

ومما أسهم في تأخير صدور الموسوعة أن أطروحاتي النظرية تداخلت وتبلورت؛ إذ بدأت أرى علاقة الحلولية بالعلمانية، وعلاقة الإمبريالية والجماعة الوظيفية بكل منهما. وكلما كنت أكتشف علاقة ما كنت أعيد كتابة ما ورد من قبل؛ فالموسوعة كانت كلًّا متماسكًا؛ ولذا رفضت أن أصدرها جزءًا جزءًا، وبدلًا. من ذلك أصدرتها في ثمانية مجلدات يضم الجزء الأول الإطار النظري، فهناك جزء عن مصطلحي الفلسفي وآخر عن النموذج

بوصفه أداة تحليلية، ثم ثلاثة أجزاء عن المفاهيم التحليلية الأساسية: الحلولية والعلمانية والجماعات الوظيفية وهذا الإطار النظري يتجاوز الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية؛ ولذا فبقية الموسوعة هي مجرد دراسة حالة case study..

س: ما طبيعة دور فريق الباحثين في الموسوعة؟

ج: يجب أن أشير ابتداء إلى أن الموسوعة التي كتبتها هي الأولى من نوعها، فهي أول موسوعة عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل يكتبها باحثون غير يهود. والموسوعة تقدِّم رؤية منهجية ومعرفية متكاملة لا عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل كل على حدةٍ، وإنما عن كلِّ هذه الظواهر في ترابطها. والتوصل للنماذج التحليلية التفسيرية اللازمة لدراسة هذه الظواهر في تركيبِيَّتها وتشابكها لم يكُن ممكنًا في البداية من خلال فريق عمل. كان من الضروري أن يقوم فردٌ واحد بالاطلاع على كلِّ المادة العلمية المُتاحة، وهذا ما قمت به خلال مدة ربع قرن تقريبًا. من بينها أكثر من خمسة عشر عامًا من التفرغ الكامل. كنت أدرس في جامعة الملك سعود في الرياض بين ١٩٨٣ - ١٩٩٠ حينها أُتيح لي ما يُشبه التفرغ الكامل، ثم استقلت من الجامعة المصرية عام ١٩٩٠ ولم أنته من الموسوعة إلا عام ١٩٩٩. إبَّان هذه الفترة تمكَّنت من بلورة الإطار النظري والنماذج التحليلية، حينئذ أصبح من الممكن أن أستعين ببعض الباحثين الذين وافقوا على الإطار النظري والنماذج التحليلية التي طورتها واستبطنوه تمامًا وقاموا باستخدامه «نادية رفعت» على وجه الخصوص كانت تكتب بطريقة تُدهشني لأقصى درجة؛ لأني كنت أتصور أحيانًا أن ما كتَبته هِي كان من تأليفي أنا. أول مدخل كلفتُها به سألتها: بصراحة يا نادية مَن كتب هذا المدخل؟ أنا أم أنت؟ فقالت: أنا. قلت: ما شاء الله. ولذلك كتبت مجموعة هائلة من المداخل، وكانت مجدة ومبدعة. حين كلفتها أن تكتب مدخلًا عن الموسيقا عند اليهود، عرفت من زوجها صديقي عمرو كمال حمودة أنها ذهبت وتعلمت النوتة الموسيقية

وتعلمت العزف على العود، ثم كتبت المدخل. كان يوجد أيضًا ياسر علوي وهو شاب متميز كتب عدة مداخل وهو الآن مشرف على الموسوعة التي أعدها عن إسرائيل. وهناك بطبيعة الحال زوجتي د. هدى حجازي التي تقرأ كل ما أكتب ثم تقدِّم لي النقدَ البنَّاء أحيانًا، والمُدمر أحيانًا أخرى. وقد كتَبَت المداخل عن التربية عند الجماعات اليهودية، فهي أستاذة الأصول الاجتماعية والفلسفية للتربية.

س: أحب أن أتوجه لك بالسؤال حول طبيعة الجهد الذي قدمته في الموسوعة من حيث الشكل والمضمون.. فهذا الجهد الكبير، الذي حرصت فيه على أن يُخصَّص المجلد الأول منها لطرح الأسس النظرية له، يبدو وكأنه مشروع فِكري مُحدَّد المعالم يمكن على سبيل المثال، مقارنته بجهد جمال حمدان في شخصية مصر، فإلى أي مدًى يجوز أن نُطلق عليه اسم «موسوعة» سواء من حيث الشكل أو المضمون؟

ج: كلمة (موسوعة) في المعجم العربي الحديث كلمة مُبهمة بعض الشيء، متعددة الدِّلالات؛ فهي تُعرَّف أحيانًا بأنها كتاب ضخم وحسب، وأحيانًا أخرى بأنها سِجلٌ للمعرفة الإنسانية في المستوى الذي وصلت إليه وقت ظهور هذا السجل، الذي عادةً ما يُصنف ألفبائيًّا لتسهيل عملية الوصول إلى المعلومات. وحين بدأت في كتابة الموسوعة الأولى عام ١٩٧٠ (صدرت عام ١٩٧٥ كنت أتصور أنني سأكتب موسوعة مثل غيرها من عشرات الموسوعات، ثم وجدت تدريجيًّا أنه من المستحيل أن أستمر في التحرُّك داخل الأُطر القديمة التقليدية وأنه بدلًا من أن أبدأ من تصنيفات جاهزة، لا بد أن أبدأ من المادة العلمية التي أدرسها والإشكاليات التي أواجِهها، على أن أدع المادة نفسها تُساعدني على التصنيف. ومن هنا، قُسِّمت الموسوعات إلى نوعين: موسوعات معلوماتية، وهي الموسوعات المألوفة (المتخصِّصة وغير المتخصصة مثل: الموسوعة البريطانية - الموسوعة الأمريكية - الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية - الموسوعة اليهودية «جواديكا»). وهذه

موسوعات مصنفة ألفبائيًّا، فيمكن الوصول إلى المعلومة بسرعة. ومهمة مثل هذه الموسوعات هو تلخيص ما توصَّل إليه المتخصصون في حقل ما؛ أي إنها بهذا المعنى تتعامل مع علم مستقر، ومصطلحات مستقرة، ورؤى تمَّ الإجماع أو الاتفاق عليها تقريبًا من قبل المتخصصين. هذا هو المفهوم التقليدي للموسوعة.

ولكن الوضع بالنسبة لنا في العالم العربي والعالم الثالث جِد مختلف؛ فنحن لا نزال نحاول استكشاف العالم من حولنا، ولا يوجد عندنا ما يُسمى بـ(الجماعة العلمية) صاحبة الإجماع والمفاهيم المستقرة. ومن هنا، كان لا بد أن أطرح مفهومًا جديدًا للموسوعة. ولأجل هذا طُرحت مفهوم الموسوعة النقدية (أو التفكيكية)، فهي موسوعة لا تهدف إلى تقديم المفاهيم المستقرة في حقل معرفي ما، وإنما تهدف إلى تفكيكها، وكشف ما تهمشه هذه المفاهيم والمصطلحات، وما تركز عليه، وما تناولته، وما تستبعده، وكشف ما تُخبئه المصطلحات من مفاهيم إيديولوجية وتحيزات معرفية. ولذا فالموسوعة التي كتبتها عام ١٩٧٥ بعنوان (موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية) كان عنوانها الفرعي (رؤية نقدية).

وقد بدأت موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (٨) مجلدات-١٩٩٩) التصور النقدي التفكيكي نفسه، ولكنني أدركت تدريجيًّا أن التفكيك غير التأسيس، وأن ما أقوم به هو تفكيك وحسب. وأخذ هذا الإدراك في التبلور تدريجيًّا، الأمر الذي غير من رؤيتي لكثير من الأمور. ومما لا شك فيه أن للتفكيك فائدةً، بل هو أمر حتمي وضروري، فهو يكشف المفاهيم الكامنة ويزيل الغشاوات، ولكنه - مع ذلك- يترك كثيرًا من جوانب الظواهر موضع الدراسة دون تفسير. فالتفكيك عملية هدم. جذرية تطهيرية، تشبه الشخص الذي يمسك بمِطرقة ضخمة يهوي بها بكل عنفٍ على الأبنية التي يقابلها كلها، بحسبانها بِنًى أسطورية مستغلة، تبلور علاقات القوى القائمة ورؤية السلطة. ومهمة الناقد التفكيكي أن يبين

عناصر التحيز الكامنة في النماذج الإدراكية والتحليلية المهيمنة وأنها تعبير عن السلطة القائمة، وكيف أنها تولد معرفة تخدم هذه السلطة. وفي ضوء هذا تكون وظيفة الناقد التفكيكي الأساسية هي أن يكشف هذه التحيزات، وأن يفضحها ويفتِّتها، (ولعل أعمال فوكُو وغيره تنتمي إلى هذا النوع). ولكنَّها - في تصوري - عملية تمدد أفقي لا تؤدي إلى أي حكمة، ولا تطرح بديلًا، ولا تفسر شيئًا، بل إنها قد تؤدي إلى العَدمية الكاملة والنسبية المُطلقة.

أما التأسيس، فهو عملية إبداعية تركيبية تتجاوز التفكيك، وتتطلب نَحْت نماذج تفسيرية مختلفة والربط بينها، كما تتطلب الغَوْصَ في كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة، وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها في ضوء النماذج التفسيرية الجديدة. وقد اكتشفت أنني لم أعُد أفكِّك وحسب، وإنما بدأت أطرح مصطلحات ومقولات تحليلية بديلة، وأصوغ نماذج تفسيرية جديدة، (أكتشف) من خلالها حقائق مُهمَّشة (متناثرة في بطون المراجع المختلفة، وقامت النماذج السائدة بتهميشها)، وبدأت أمنحها المركزية التفسيرية التي تستحقها. كما بدأت أسكُّ مصطلحات جديدة، وأعيد تعريف بعض المصطلحات القائمة، بما يتفقُ وحقيقة الواقع كما أراه، لا كما صاغته المراجع والمصطلحات الصهيونية، وعلى هذا فإن الموسوعة لم تَعُد مجرد موسوعة معلوماتية تحاول توفير المعلومات للقارئ عن طريق ترجمتها ومراكمتها من المراجع والصحف الأجنبية والعربية، ولا حتى موسوعة تفكيكية تحاول أن تهدم النماذج القائمة، وإنما أصبحت موسوعة تأسيسية تعرض نماذج تحليلية مترابطة ومصطلحات بديلة وبرنامجًا بحثيًّا جديدًا في الموضوعات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية (أي إنها تعرض بعض الأفكار، ولا تدَّعي أنها أفكار نهائية مغلقة). ولهذا فعنوانها الفرعي هو نموذج تفسيري جديد.

في محاولة التأسيس لا يكتفي الباحث بتفكيك مصطلحات مثل (الشعب اليهودي) و(المنفى) أو (الدياسبورا) ليبين تحيزاتها الكامنة

ولتوضيح قصور مقدرتها التفسيرية، بل عليه أن يأتي بمصطلحات جديدة ذات مقدرة تفسيرية عالية؛ ولذا بدلًا من الحديث عن (الشعب اليهودي في المنفى أذهب إلى أنه يمكن الحديث عن الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم بمحض إرادتها فهي ليست منفية قسرًا، وكل جماعة تستمد خِطابها الحضاري من المجتمع الذي تعيش فيه.

وكنت أنوي أن تُرتّب الموسوعة ألفبائيًّا كما هو شائع، ولكني وجَدت أن هذا الشكل يناسب الموسوعة المعلوماتية وقد يكون مناسبًا للموسوعة النقدية التفكيكية، ولكنه لا يناسب الموسوعة التأسيسية، فقرَّرت أن تُقسَّم الموسوعة إلى عِدة ملّفات، يدور كل ملف حول موضوع، ويضم كل ملفٍّ عددًا من المداخل تتناول هذا الموضوع وحده، وبهذا يمكن أن تُقرأ الموسوعة ككتابٍ متسلسل منطقيًّا، ولكنني ألحقت بالموسوعة فهرسًا ألفبائيًّا حتى ييسر الوصول إلى المعلومات. وأنا أعرض هذا النوع من الموسوعات باعتباره شكلًا مناسبًا لتأسيس علوم عربية إنسانية وطبيعية حديثة، تعبر عن رؤيتنا للكون كما نَخْبُره، وكما نتجاوب معه.

س: هل نجحت في توصيل هذه الفكرة؟

ج: إلى حدٍّ كبير، وإن كان ثَمَّة من لا يزال يتصور أن موسوعتي موسوعة معلوماتية؛ ولذا تجدينهم يكيلون لي المديح لأن الموسوعة تضم معلومات كثيرة وآخر المعلومات، أو معلومات لم يكونوا يعرفونها من قبل. ومن ثَم فهم لم يدركوا أن إنجاز الموسوعة ليس في حشد المعلومات، وإنما في طريقة النظر والمنهج والتحليل المُستخدم، والرؤية والمصطلحات الجديدة، وأن الإنترنت تحوي من المعلومات أضعافَ أضعافَ ما يوجد في الموسوعة.

س: صرّح أحد الأساتذة المُتخصصين في جلسةٍ خاصة أن المسيري بعد أن انتهى من كتابة موسوعته المكونة من ثمانية مجلدات ضخمة لم يَعُد عنده جديد يقوله. فما رأيك؟

ج: هذا التصريح نابع من تصور معلوماتي تراكمي يذهب إلى أن ثَمَّة

كمٌّ من المعلومات إن جمعته ودوَّنته في سِفر ضخم أغلق باب الاجتهاد. ولكن العنوان الفرعي للموسوعة هو نموذج تفسيري جديد؛ أي إنه منهج في القراءة والنظر والبحث، طريقة في الرؤية، وليس مجرد تجميع للمعلومات ومراكمتها وتدوينها، أما الثمرة فهي تختلف باختلاف الباحث وزاوية الاهتمام؛ ولذا أُبيِّن أن الموضوعية الاجتهادية غير الموضوعية المتلقية؛ أي التي لا تتلقى من الآخر فتنقل عنه، بل تجتهد وتعمل العقل. فالموسوعة إن هي إلا أجندة بحثية. أنا شخصيًّا أعرف عشرات الموضوعات التي لا تزال تحتاج لمزيد من البحث. كما يمكن لأحد الباحثين أن يُخالفني الرأي في الأساسيات أو في التفاصيل فيأتي برؤية مختلفة، ومن ثَم بمعلومات جديدة مختلفة، أو ربما يُعيد تفسير ما أوردت من معلومات. كما أقول دائمًا: بعضُ الباحثين ولا سيما في عالم الإعلام وأروقة الجامعة لا يُميِّزون بين الحقائق، والحقيقة وبين المعلومات المتناثرة والمعرفة وبين الأفكار والفِكر. في دراسة كتبها أحد الأساتذة عنِّي كان المفروض أن تُنشر في كتاب في عالم عبد الوهاب المسيري الصادر عن دار الشروق وحرره الدكتور أحمد عبد الحليم عطية زعم الأستاذ أن الموسوعة في جوهرها منقولة عن الموسوعات الأخرى. فاتصل بي المُحرر وعرض عليَّ الأمر فقلت له: عملًا بالمنطق العلمي لا بد من نَشْر المقال، على أن يوثِّق الأستاذُ رأيه هذا عن طريق دراسة مقارنة للنص الذي كتبته وعرضت أن أقوم بتصوير ثلاث مداخل من موسوعتي عن (التاريخ اليهودي) و(الشعب اليهودي) و(المنفَى). ثم أقوم بتصوير مداخل مماثلة من عدَّة موسوعات إنجليزية وفرنسية وعبرية ويقوم هو بمقارنتها لتوثيق مقولتِه هذه. فقام المُحرر بإعادة الدراسة للأستاذ المذكور مع العرض الذي قدَّمته؛ فوافق الأستاذ فقُمت بإعداد المادة وأرسلناها له، وحتى الآن لم يرُد علينا، مع مُضي نحو ثلاثة أعوام وصدور الكتاب من دون دراسته.

معلومة مثل أن المؤتمر الصهيوني الأول عقد عام ١٨٩٧ في بازل، موجودة في الموسوعات والمعاجم كلها ويتصور البعض أن هذه هي الحقيقة،

وكأن الحقائق الصماء هي الحقيقة. المهم ليس المعلومة في حدِّ ذاتها، وإنما تفسير كثير من أبعادها. ويمكن أن نطرح السؤال التالي: لماذا عُقد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ وليس قبل ذلك أو بعد ذلك؟ للإجابة عن ذلك السؤال يمكن الإشارة إلى أن حِدة المسألة اليهودية في شرق أوربا تزايدت في ذلك الوقت كما تزايد الفائض البشري اليهودي الذي كان لا بد أن يصدر خارج أوربا، وهو أيضًا التاريخ الذي وصل فيه التشكيل الإمبريالي الغربي إلى قمته، وكان يتم تقسيم العالم، وفي هذه المرحلة اكتشف هرتزل أن الحل الوحيد للمسألة اليهودية هو الحل الاستعماري؛ أي تصدير اليهود إلى خارج أوربا، وأنه في أواخر القرن التاسع عشر في أوربا كان لا يمكن القيام بأي مشروع استيطاني من دون دعم غربي، وأن الصهيونية ليست استثناء للقاعدة. بهذه الطريقة نتجاوز الرصد المعلوماتي السلبي لنصل إلى التفسير، الذي يشكل في رأيي جوهر العملية البحثية.

س: ما أبرز ما تناولته الموسوعة؟

ج: الموسوعة تتناول جوانب تاريخ العبرانيين كلها في العالم القديم، وتواريخ الجماعات اليهودية على امتداد بلدان العالم وتعداداتها، وتوزعاتها، وسِماتها الأساسية وهياكلها التنظيمية وعلاقات أفراد الجماعات اليهودية بالمجتمعات التي يوجدون فيها وبالدولة الصهيونية، وسواها من موضوعات. وتقع الموسوعة في ثمانية مجلدات يتناول كل منها موضوعًا محددًا، ويضم كل مجلد عدة أجزاء وكل جزء عدة أبواب ويضم كل باب عِدة مداخل.

وتغطِّي الموسوعة كذلك أشهر الأعلام من اليهود مثل موسى بن ميمون، وغير اليهود ممن ارتبطت أسماؤهم بتواريخ الجماعات اليهودية مثل نابليون وهتلر. كما تتناول الموسوعة كل الجوانب المُتعلقة بتاريخ اليهودية وفِرقها وكُتبها الدينية وطُقوسها وشعائرها وأزمتها في العصر الحديث وعلاقتها بالصهيونية وبمعاداة السامية، وتغطي الموسوعة الحركة الصهيونية

ونشاطاتها ومدارسها وأعلامها بهدف توفير الحقائق التاريخية والمعاصرة عن الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية وإلى تقديم رؤية جديدة للموضوعات التي تغطيها وهي تحاول إنجاز ذلك من خلال عِدة طرق منها تقديم تاريخ عام للعقيدة والجماعات اليهودية وللحركة الصهيونية وإسرائيل، والتعريف الدقيق للمفاهيم والمصطلحات السائدة والتأريخ لها من منظور جديد وإبراز جوانبها.

س: يرى البعض أنك في الموسوعة كنت قاطعًا حاسمًا لا تقبل النقاش حول تعريف مفاهيمك؟

ج: بالعكس، لقد ذكرت أن هذا اجتهاد منِّي فإن أصبت فلِي أجران وإن لم أصب فلي أجر واحد. وأنا بالطبع عندي ثِقة بأن ما ذكرته في الموسوعة له مقدرة تفسيرية أعلى من المقولات التحليلية السائدة، ولولا ثقتي لما عكفت على هذا العمل ٣٠ عامًا؛ لأن الموسوعة ليست إنجازًا عاديًا، بل هي مشروع عمر بأكمله. ولكن ثقتي هذه لا تعني انغلاقًا على الذات، فقد أصدرت الموسوعة وأنا أعرف أن هناك ثغراتٍ، وقد ذكرتُ هذا في المُقدمة. ولو كنت فكرت في تنقيح الثغرات لكنت في حاجة إلى ٣٠ عامًا أخرى، لكنني أعرف أنني لست مخلدًا، وأنني سأقابل ربِّي في يوم من الأيام.

س: من ضمن الملاحظات النقدية التي وُجِّهت للموسوعة، عدم ذكر المراجع، فما تعليقك؟

ج: جرت العادة أن تضم قائمة المراجع الكُتبَ التي استعان بها المؤلف في وضع بحثه أو مؤلفه، وخصوصًا تلك التي اقتبس منها بشكلٍ مباشر، وهذا يدل على هيمنة النماذج التراكمية والمادية؛ فالمصادر التي لم نقتبس منها قد تكون أكثر أهمية من تلك التي نقتبس منها؛ وذلك إن أثرت في صياغة النموذج الإدراكي والتفسيري نفسه الذي يستخدمه الكاتب في طريقة رؤيته للظواهر، على حين نجد أن كثيرًا من الكتب التي نقتبس منها هي مجرد مصدر للحقائق؛ مادة وثائقية وحسب.

ويمكننا هنا أن نُميز بين المراجع والمَرْجعيَّة؛ فالمراجع تتناول الاقتباسات المباشرة، أما المَرْجعية فتتناول جذورَ الفكر نفسه وتشكِّل النموذج التفسيري والتحليلي. وأعتقد أنه لا بد أن يوجد ثَبْتٌ بالمرجعية إلى جانب ثبت المراجع، تُدرج فيه أسماء الأساتذة والمؤلفين والشخصيات التي أثرت فكريًّا في الكاتب وإن لو لم يقتبس مباشرة من كتاباتهم، وهذا ما فعلته. في الموسوعة.

وقد جرت العادة على ألَّا تورد الموسوعات بشكل عام، والموسوعات المتخصصة على وجه التحديد قائمة بالمراجع التي استخدمها كاتب مدخل ما. ولعل هذا يعود إلى أن مراجع المداخل التي تدور حول موضوعٍ ما ستكون في الغالب واحدة وهو ما يؤدي إلى التكرار، كما أن مراجع مدخل واحد قد تكون من الضخامة بحيث إن حجم الموسوعة يمكن أن يتضاعف نتيجة هذا وقد ضربت مثلًا بالمداخل التي تغطِّي حروب الفرنجة (المجلد السادس المعنون الصهيونية») والتي بلغت أكثر من عشرين مرجعًا، أُدرجت في صفحتين، فإذا أضفنا إلى هذا كله التواريخ الأساسية للجماعات اليهودية مثل التواريخ الأوربية التي كتبها جرايتز وبارون وفنكلشتاين وبن ساسون وغيرهم، ثم المراجع الخاصة بالخلفية الأوربية والعربية الإسلامية لحروب الفرنجة لزاد ثبت المراجع صفحتين أو ثلاث، وعدد مداخل الموسوعة - على ما أتذكَّر - يزيد على ثمانمائة، فإذا ذكرت مراجع كل مدخل لاحتجت لمجلد أو مجلدين مستقلين.

لهذا كله نجد أن الموسوعات كلها لا تُدرج المراجع التي استخدمها مؤلِّف المدخل، ويكتفي بعضها بإدراج قائمة ببعض المراجع المهمة تحت عنوان (لمزيد من الاطلاع) (بالإنجليزية فور فيرذر ريدنج For Further Reading وقد وجدت أن ما يحتاجه القارئ العربي ليس مجرد ثبت عادي بالمراجع، وإنما يحتاج ثبتًا نقديًّا يلخِّص أطروحات الكتاب والمقالات التي ترد عناوينها فيه ويبين مواطن قوتها أو ضعفها والتحيزات الكامنة فيها وهو جهد ضخم يقع خارج نطاق هذه الموسوعة.

س: من المعروف أن رؤيتك للصهيونية وخطابك ومنهجك التحليلي الذي يستند لهذه الرؤية يتسمان بقَدر كبير من الجِدَّة، فهل يمكن أن تُحدثنا عن هذا الخطاب والمنهج؟

ج: حينما ازداد اهتمامي بالظاهرة الصهيونية لاحظت أن ثمة خلطًا شديدًا بين (الخطاب (التفسيري وما أُسميه بـ: الخطاب الأخلاقي الحقوقي)؛ وهو الدفاع عن حقوق العرب مثلًا أو إظهار عدم مشروعية المشروع الصهيوني برُمته، وأن قرارات هيئة الأمم بتقسيم فلسطين أمر غير قانوني، وأن إسرائيل لا تلتزم بالاتفاقيات الدولية (مثل اتفاقية جنيف ولا تنفذ أيًّا من قرارات هيئة الأمم. وهناك كذلك الخطاب الإعلامي) وهو محاولة إقناع العالم بعدالة المطالب العربية، أنواع الخطاب هذه كلها مهمة لكنها ليست بخطاب تحليلي تفسيري. وأنا أذهب إلى ضرورة التفريق بين الخطاب التحليلي التفسيري وأنواع الخطاب الأخرى؛ فالخطاب التفسيري ينطلق من دراسة دقيقة لتفاصيل الواقع ثم يطرح نموذجًا له. وهذا ما حاولت أن أنجزه في الموسوعة، وقد أتيت في الموسوعة ببعض النماذج والمفاهيم التي أتصور أنها ذات مقدرة تفسيرية وتحليلية عالية؛ فمثلًا توصَّلت إلى أن الحديث عن اليهود بشكل عام وباعتبارهم كتلة متماسكة Jewry غير مجدٍ، وأننا طالما كنا نستخدم نموذجًا واحديًّا فلن نفهم شيئًا، فنموذج الوحدة يجعلنا نبحث عن عناصر التجانس، على حين أعضاء الجماعات اليهودية ونهمل عناصر عدم التجانس. بينما وجدت أن اليهود هم في واقع الأمر جماعات يهودية، وأن ما هو غير مشترك بين هذه الجماعات أهم بكثير مما هو مشترك، فكل جماعة تستمد خطابها الحضاري من مجتمعها الذي تعيش فيه؛ فيهود الولايات المتحدة ليسوا يهودًا بشكل عام إنما هم أمريكيون يهود، والفلاشاه ليسوا بيهود بشكل عام ومطلق وإنما هم متأثرون بالخطاب الحضاري في إثيوبيا؛ ولذا أرى أننا في دراستنا للجماعات اليهودية يجب ألا تكون نقطة البدء التوراة أو التلمود أو ما يسمى التاريخ اليهودي، وإنما المحيط الحضاري

الذي تعيش فيه هذه الجماعات.

من المفاهيم الأخرى المهمة التي وردت في الموسوعة أن الظاهرة الصهيونية ليست ظاهرة يهودية وإنما ظاهرة غربية، وأبين في الموسوعة من خلال المراجع والوثائق أن جذور الفكر الصهيوني ليست يهودية؛ فقد ظهر هذا الفكر في بداية الأمر بين العلمانيين في الغرب في الأوساط الاستعمارية على وجه التحديد، إذ إن أوربا كانت تبحث عن طريقة للتخلُّص مما كان يسمى الفائض البشري اليهودي، وقد وجَدت ضالتها في الفكر الصهيوني الذي يجعل وطن اليهودي آرتس يسرائيل (أي فلسطين وليس البلد الغربي الذي يعيش فيه. وقد تبلور الفكر الصهيوني تمامًا في منتصف القرن التاسع عشر على يد لورد شافتسبري والسير لورانس أوليفانت، وكلاهما ليسا يهوديين، بل كانا معاديين لليهود واليهودية، ولم يتبن بعض المثقفين اليهود الرؤية الصهيونية إلا في أواخر القرن التاسع عشر مع تفاقُم ما (المسألة يسمى اليهودية).

وبطبيعة الحال هناك الإسهام المنهجي فقد تناولت قضية (الموضوعية المتلقية) و(الموضوعية الاجتهادية)، كما أشرت إلى خطورة هيمنة النموذج المعلوماتي التراكمي، وإلى ضرورة رؤية المعلومات في سياقها التاريخي والاجتماعي لكي تصبح جزءًا من نمط متكرِّر وليس مجرد معلومة، ومن ثم ضرورة استخدام النماذج الإدراكية التحليلية أداةً للتحليل.

س: بطبيعة الحال ثمة جوانب أخرى لتناولك للظاهرة الصهيونية؟

ج: أنا أذهب إلى أنه يجب أن أتعامل مع الظاهرة الصهيونية كأي ظاهرة إنسانية؛ ولذا لا بد من دراسة الظواهر اليهودية والصهيونية من الداخل والخارج. هذا يعني ضرورة أن نرى القضية كما يراها الصهاينة، كما هو الحال في دراسة أي ظاهرة إنسانية إذ لا بد من دراسة دوافع الفاعل الإنساني. ولكن هذا لا يكفي ألبتة، إذ لا بد أن توضع الظواهر الصهيونية مرة أخرى (شأنها شأن أي ظاهرة إنسانية) في سياق اجتماعي وتاريخي واقتصادي، بل وفي سياق مقارن، وهذه هي الرؤية من الخارج.

الصهاينة يتحدثون عن تاريخ يهودي، وعن الأشكال السياسية اليهودية، وهذا هو الحديث من الداخل وحسب، وكأن ما يسمى (بالتاريخ اليهودي) شيئًا مستقلًّا بذاته، شيئًا يهوديًّا صرفًا. مثلًا، تاريخ يهود إنجلترا، لو نظرت لتاريخ يهود إنجلترا من الداخل على أنه تاريخ يهودي مستقل فإن ما يحدث لهم لن يكون له أي تفسير واضح، فالثورة الصناعية على سبيل المثال، يتم استبعادها؛ لأنها ليست جزءًا من التاريخ اليهودي. ولذا على الباحث الذي يود الوصول إلى رؤية مركبة أن ينظر إلى تاريخ يهود إنجلترا من الخارج في سياق الثورة الصناعية التي قامت بتحديث أعضاء الجماعات اليهودية ودمجتهم، والتي اجتذبت عشرات الآلاف من المهاجرين اليهود من شرق أوربا مما هدد الأمن الاجتماعي ف ودفعها إلى إصدار وعد بلفور لتحويل سيل الهجرة اليهودية. وفي الوقت ذاته يجب أن ننظر إلى الظاهرة من الداخل فنرى كيفية استجابة الفاعل الإنساني أي يهود إنجلترا) لما يحدث لهم. لا يمكن فهم تاريخ يهود إنجلترا إلا عندما ندرسهم باعتبارهم أقلية لها ديناميكيتها الخاصة من الداخل ولكنها خاضعة لديناميكيات المجتمع من خارجها ومن حولها، فهذه الرؤية رؤية مركبة لها مقدرة تفسيرية عالية.

س: كيف ترى الموسوعة بعد أن انتهيت منها؟ كيف تصفها وتصنفها؟

ج: إن الموسوعة هي دراسة لحالة محدّدة هي اليهود واليهودية، في الحضارة الغربية أساسًا، والصهيونية وإسرائيل، وهي دراسة تاريخية اجتماعية مقارنة تركز على العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء الجماعات اليهودية (بما في ذلك المستوطن الصهيوني من جهة، وأعضاء المجتمعات المختلفة من جهة أخرى)، كما تركز على الأبعاد المعرفية لهذه العلاقات. لكن هذه الدراسة، مع أنها دراسة حالة، إلا أنها دراسة لنماذج تحليلية مركبة ذات مقدرة تطبيقية تتجاوز الحالة موضع الدراسة؛ فهذه النماذج تتوجَّه لقضايا إنسانية عامة مثل: علاقة الأقلية (خاصةً أعضاء الجماعات الوظيفية بالأغلبية)، وعلاقة الأقليات بالدولة القومية المركزية،

وطبيعة الحضارة الغربية الحديثة، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الحلولية بالتوحيد وعلاقة الفكر بالمادة، وعلاقة الذات بالموضوع، والصراع بين الواحدية (المادية) والثنائية الفضفاضة، فالحالة التي أدرُسها لا تختلف في أبعادها الأساسية عن أي ظاهرة أخرى مماثلة.

والجماعات اليهودية تشكل جماعات وظيفية مثل كل الجماعات الوظيفية الأخرى، لكن وجودها داخل الحضارة الغربية أعطاها تفرُّدًا معينًا. وهي تتفاعل مع المجتمعات العلمانية ومع التشكيل الإمبريالي تفاعلَ الجماعات البشرية الأخرى، ولكنها نظرًا لوضعها الخاص فإن تفاعلها مع العلمانية يأخذ شكلًا أكثر حِدَّة. وهي جماعات تتنازعها النزعات الجنينية والربانية شأنها شأن كل البشر في كل زمانٍ ومكان، لكن اليهودي هو الإنسان في حالة ضيق متبلورة وبسبب حالة الضيق هذه، تظهرُ كثير من أبعاد الظاهرة الإنسانية بشكل نماذجي متبلور من خلاله. وخصوصية الجماعات اليهودية، أو خصوصياتها التي تتنوع في كل زمانٍ ومكان، هي خصوصيات لا تختلف عن خصوصيات الجماعات الأخرى، وإن كان هناك شيءٌ فريدٌ بالفِعل فربما يكون متمثلًا في نوعية العناصر الإنسانية العامة التي تدخل في تشكيل الموضوع اليهودي وطريقة ترابطها وهي عناصر تدخُل في تشكيل كثير من الظواهر الإنسانية الأخرى وتترابط بطرقٍ فريدة مختلفة؛ ولأنه تم أنسَنة اليهود في الموسوعة فإنه تم وضعهم في سياقِ الحَداثة الغربية المنفصلة عن القِيمة.

وتُورِد الموسوعة أسئلةً معرفية كلية ونهائية عامة تخصُّ البشر كلهم في العصر الحديث: ماذا يحدث للإنسان في عالم من دون إله؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم نسبيٍّ لا توجد فيه ثوابت ولا مُطْلقات ولا قيم عالمية؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم توجد فيه حقائق بلا حقيقة ولا حق؟ وما هو مصير الإنسان في عالم انفصل فيه العلم عن القيمة وعن الغائية الإنسانية؟ ثم تُطبق هذه الأسئلة على اليهودي وتسأل: اليهودي الذي تمَّ تهجيره إلى إسرائيل تحت مظلة الإمبريالية الغربية وتم تحويله إلى شخصية داروينية شرسة حتى

يتسنَّى توظيفه في خِدمتها والذي تمت إبادته في ألمانيا النازية بطريقةٍ منهجية، وتم دمجه في الحضارة الاستهلاكية حتى لم يبقَ من ماضيه وهُويته سوى القشور وتم قمعه وترشيده من الداخل والخارج: أليس هذا اليهودي مثلًا صارخًا لما يحدُث للإنسان في عصر الحَداثةِ والعقلانية واللاعقلانية المادية؟ فالموسوعة لا تضع اليهودي في قِسمٍ خاص به.

س: وماذا عن المصطلحات؟

ج: نحت مصطلحات جديدة كثيرة لتفسير الظاهرة الصهيونية المركبة مثل (تواريخ الجماعات اليهودية) بدلًا من (التاريخ اليهودي) و(العداء لليهود) بدلًا من (العداء للسامية)، وقد حاولت - قدر استطاعتي - ألَّا نترك المصطلحات الإيجابية تسقط في أيدي، الصهاينة فإن قالوا: لنتحاور. فأجيب هيا نتحاور فأنا لست ضد الحوار، لكن الحوار أنواع؛ الحوار العادي الذي يكون بين طرفين ينطلقان من أرضية مشتركة متفقان على المبادئ الأساسية. أما إذا كانت ثمة اختلاف مبدئي وجوهري فلا بد من الحوار النقدي، وهو أن أُبين للآخر خَلل رؤيته، وهذا ما قُمت به في الموسوعة التي هي شكل من أشكال الحوار النقدي. ولكن ماذا يمكن أن يحدث بعد الحوار النقدي والطرف الآخر مُصِرٌّ على رأيه ويُمسك بالسلاح ويستخدمه ليفرض وِجْهة نظره عليك؟ في هذه الحالة لا يوجد سوى الحوار المسلح.

وعندما يقول الصهاينة إن الفلسطينيين لا وجودَ لهم، هنا على الفلسطينيين أن يُحاوروا الصهاينة ويقذفوهم بالحجارة، وحينما يشج الحجر رءوسهم فإنهم قد يعرفون من خلال هذا الحوار المسلح أن هذه الأرض يعيش عليها شعب. وحزب الله حاور الإسرائيليين بطريقة مسلحة؛ فالإسرائيليون كانوا يزعمون أن أمنهم كان يستلزم احتلال جزء من لبنان، لكن حزب الله قال لهم هذه أرضنا وعزز قوله هذا بالحوار المسلح، فاكتشفوا أن أمنهم مهدد بسبب احتلالهم للأرض فانسحبوا منها.

س: وماذا عن مصطلحات متواترة مثل (الوحدة اليهودية) و(الخصوصية اليهودية)؟

ج: هذه المصطلحات وغيرها مثل الشخصية (اليهودية) و(الإثنية اليهودية) و(العبقرية اليهودية) أُسمِّيها (مصطلحات الوحدة اليهودية) فهي كلها، شأنها شأن مصطلح «التاريخ اليهودي»، تفترض أن ثمة وحدةً يهودية، وأن ثمة جوهرًا يهوديًا كامنًا في يهود العالم كلهم، بغضِّ النظر عن الزمان والمكان؛ ولهذا فاليهود أينما كانوا يتسمون بالسمات نفسها ويواجهون المشاكل نفسها. وهو افتراض ليس له سند في الواقع، إن قرأتِ كتابات موسى بن ميمون ستجدين مدى عمق تأثره بالتراث الإسلامي؛ ولذا أشير أحيانًا إليه بأنه عالم عربي إسلامي يؤمن باليهودية، وهو مختلف تمامًا عن الحاخام راشي، أحد أهم العلماء اليهود الذي كان يعيش في فرنسا في العصور الوسطى. إذا ذهبتي إلى الصين ستجدين شيئًا مذهلًا؛ فاليهود هناك يُطلقون على الإله اسم (تيّن Tien؛ أي السماء)، ويعبدون الأسلاف، ولذا يوجد معبدان؛ معبد لعبادة تيّن وبجواره آخر لعبادة الأسلاف، (في هذه الحالة هم إبراهيم ويعقوب وإسحاق)؛ أي إن المنظومة الكونفوشية فرضت نفسها. أما في بولندا فستجدين أن اليهودية تأثرت بالتراث الصوفي السلافي، وكان المكون الحلولي الوثني فيه قويًا جدًّا، فالمسيحية لم تدخل البلاد السلافية إلا في القرنين العاشر والحادي عشر، والريف السلافي ظل وثنيًا حتى ذلك التاريخ. اليهودية التي نعرفها تغذَّت بهذه التربة الحلولية الوثنية وهي التي أنتجت الصهيونية في نهاية الأمر. وقد أشرت من قبل إلى يهود الفلاشاه ومدى تأثرهم بمحيطهم الإثيوبي المسيحي (وأحيانًا الإسلامي)، يهود إثيوبيا يتحدثون بالأمهرية ويتعبدون بالجعيزية. لا يمكن تفسير هذه الثنائية اللغوية إلا في إطار المجتمع الذي يعيشون فيه؛ فالإثيوبيون يتحدثون بالأمهرية، واللغة الجعيزية هي اللغة المقدسة في الكنيسة الإثيوبية، وقُل الشيء نفسه عن يهود الولايات المتحدة الذين يتحدثون بالإنجليزية ويتعبد

بعضهم بها أيضًا، أو بالعبرية أو الآرمية وتوجد أقلية تتعبد باليديشية، فبأي معنًى من المعاني يمكن أن نضع هؤلاء اليهود كلهم في سلة واحدة؟ وقد يُقال إنه يوجد في العالم الإسلامي قدر كبير من عدم التجانس، وهذا حقيقي. لكن الفارق الأساسي أنه في داخل الإسلام توجد معايير مركزية مُتفق عليها؛ مثلًا شهادة أن لا إله إلا الله، الصلاة، الزكاة، الصوم، كما توجد سُلطة مركزية تحدد المعايير. لكن اليهودية منذ البداية فقَدت السلطة المركزية الدينية أو الزمنية التي تحدِّد المعايير، فحدَث من خلال الانتشار في أنحاء الأرض أن كل جماعة يهودية انفصلت عن المركز واكتسبت خصوصية لا من التوراة والتلمود، وإنما من محيطها الحضاري؛ ولهذا لا وجود لـ(خصوصية يهودية وإنما خصوصيات يهودية. ولا توجد «إثنية يهودية» وإنما (إثنيات يهودية)، يهود المغرب على سبيل المثال، كانوا مغاربة إلى درجة أنهم حينما ذهبوا إلى فرنسا كانوا يسمونهم (كوشر كُسكس)؛ أي إن يهوديتهم مرتبطة «بالكسكس المغربي» أي بهويتهم التي اكتسبوها في المغرب لا يمكن فصل الواحد عن الآخر. ويرى بعض الأنثروبولوجيين أنهم إذا تخلوا عن هويتهم المغربية سيفقدون عقيدتهم أيضًا، فالواحد مرتبط بالآخر. والشيء نفسه ينطبق على يهود أمريكا، الذين يسمونهم جويش واسبس Jewish Wasps والواسب هو الدبور، ولكن الكلمة مكونة من الحروف الأولى White Anglo Saxon Protestant وهو البروتستانتي الأبيض من أصل أنجلو ساكسوني؛ أي الأمريكي الأبيض النمطي أو النماذجي، فكأن الأمريكي اليهودي لا يختلف ألبتة عن الأمريكي النمطي، والبُعد اليهودي مرتبط تمامًا بانتمائه الأمريكي.

ومن هنا طرحتُ نموذجًا أنه لا توجد (وحدة يهودية) ولا (شعب يهودي) إنما توجد جماعات يهودية تفسر في إطار المحيط الحضاري الذي تعيش فيه، وأن اليهودية ذاتها ليست وحدة متكاملة، وإنما تركيب جيولوجي، وفي داخل هذا التركيب الجيولوجي توجد طبقة توحيدية واضحة. خُذِي

التلمود على سبيل المثال، تجدينه يحتوي على عبارات توحيدية في غاية النقاء، وعلى حديث عن العدل وحديث عن المساواة والتضحية بالنفس من أجل الأغيار، ولكن إلى جانب هذا توجد طبقة أخرى حلولية شوفينية قومية ترى أنه لا بد من قتل الأغيار وهكذا.

س: كثيرة هي الدراسات الغربية والعربية التي رصدت ودرست الصهيونية فكرًا وحركةً. ما أبرز ملاحظات المسيري على هذه الدراسات؟ وما ملامح النموذج المعرفي الذي من خلاله درس المسيري الصهيونية؟

ج: وقعت الدراسات الغربية والعربية على حدٍّ سواء في فخٍّ ما يُسمى (الدراسات اليهودية). وهو تخصص (أكاديمي) نشأ في الغرب يصدر عن تصور أن اليهود يشكِّلون كتلة مستقلة تُسمَّى (Jewry، وأن لهم تاريخًا مستقلًّا. وهذه رؤية إنجيلية صميمة، تمت عَلْمَنتُها. وهي أيضًا أساس رؤية كلٍّ من الصهاينة والمعادين للسامية أي (لليهود واليهودية ولأعضاء الجماعات اليهودية)؛ فهم يؤمنون بأن أعضاء هذه الجماعات يشكِّلون كيانًا مستقلًّا، يُدرس في تخصُّص أكاديمي مستقلٍّ، سموه (الدراسات اليهودية)، مرجعيته (يهودية). لكني طرحتُ كلَّ هذا جانبًا، ودرستُ كل جماعة يهودية على حِدةٍ في وجودها المُتعيَّن. فوجدت أن مرجعية كل جماعة هي سياقها الإنساني التاريخي المُتعيَّن، والمجتمع الذي تعيش فيه، وليس السياق اليهودي الخالص العام.

لا يمكن أيضًا تفسير هذا إلا في إطار أن الولايات المتحدة مجتمع مهاجرين، اندمج فيه بعض اليهود لغويًّا فتعبَّدوا بالإنجليزية، وبعضهم تعبَّد بلُغته الأصلية التي هاجر بها، أما اليهود الأرثوذكس فيتعبَّدون باللسان المُقدس (العبرية).

س: ما هي الإنجازات التفسيرية الأخرى لنموذجك التحليلي؟

ج: النموذج التفسيري الذي يفترض الوحدة اليهودية ووجود (تاريخ يهودي) وليس تواريخ يهودية، وضع اليهود كلهم في سلَّة واحدة وعلى قَدَم

المساواة، ومن ثَم أخفق في إدراك أهمية يهود بولندا ومركزيتهم، وهم في تصوري أهم الجماعات اليهودية. فمن الناحية الديموجرافية، ثمةَ إحصائيات تذهب إلى أن يهود أوربا كلهم (أي نحو ٩٠٪ من يهود العالم في أواخر القرن التاسع عشر) أو على الأقل غالبيتهم الساحقة أتوا من الجيب اليهودي البولندي (فيهود روسيا هم أصلًا يهود بولندا)، وكي نفهم تاريخ يهود بولندا، ومؤسساتهم الإدارية المختلفة - لا بد من فَهم تاريخ بولندا، وتطور المجتمع البولندي منذ القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين؛ وهذا ما فعلتُه فلاحظتُ أن النظام السياسي البولندي مختلف تمامًا عمّا نعرفه؛ بولندا كانت (جمهورية) يحكمها مَلِك، لكن هذا الملك مُنتخب، وهذا الملك المنتخب لم يكن بالضرورة من بولندا. كما يُلاحظ أن التطور التاريخي في معظم أوربا هو أن الملك كان يتحالف مع البرجوازية ويقلِّص من قُوة النبلاء الإقطاعيين بالتَّدرج إلى أن تظهر الدولة المُطلقة، ثم تستولي البرجوازية على الحُكم فتقوم بعزل الملك أو تقلص من سلطاته. حدث العكس في بولندا؛ فقد أخذ النبلاء يقلِّصون من نفوذ الملك إلى أن أصبح واحدًا منهم، وظهر (السييم) وهو البرلمان الذي يجمع النبلاء كلهم والملك وكان لكلِّ نبيلٍ حق الفيتو. المهم تزايد نفوذ طبقة النبلاء التي كانت تُدعَى الشلاختا، ومع هذا كان أحد القوانين ينصُّ على أنه لا يُمكنهم أن يعملوا بالتجارة.

والمجتمعات التقليدية مبنية على الفصل بين الأقليات والطبقات؛ لأن الدولة في المجتمعات التقليدية كانت لا تتعامل مع أفراد، وإنما مع جماعات. وقد حدَث في بولندا تطورات تاريخية وسياسية جعَلت وضْعَ الجماعة اليهودية فريدًا إلى حدٍّ ما، فقد ضمَّت بولندا أوكرانيا في القرن السادس عشر، واحتاج النبلاء الإقطاعيون البولنديون (الشلاختا) لَمن يمثِّلهم في أوكرانيا؛ لأنهم -كما أسلفتُ- ممنوعون من ممارسة التجارة، كما كان لا بد أن يتواجدوا في وارسو لممارسة السلطة؛ ولذا كان لا بد أن يذهب وكيلٌ لهم ينوب عنهم في إدارة الأرض وفى اعتصار الفلاحين الأوكرانيين

لصالحهم. وقد قام بعض أعضاء الجماعة اليهودية بهذا الدور، فكان الوكيلُ يقوم باستئجار الأرض (أرندا: كلمة بولندية تعنى استئجار)، ويدفع للنبيل الغائب الرِّيع مُقدمًا، ثم يقوم باستخلاص القيمة من الفلاحين الأوكرانيين، فظهر ما أسمِّيه (الإقطاع الاستيطاني) فهو إقطاع بجهة علاقات الإنتاج، ولكنه استيطاني؛ لأن النبلاء غائبون يُمثلهم عنصر إثني مختلف عن الفلاحين وانقسم المجتمع في أوكرانيا إلى نبلاء بولنديين كاثوليك يتحدثون البولندية داخل تشكيل زراعي إقطاعي يمثلون قمته، ووكلاء يهود يؤمنون باليهودية ويتحدثون باللغة اليديشية ويقومون بالأعمال المالية والتجارية، أما الفلاحون فكانوا الفريق الثالث، يتحدثون الأوكرانية ويؤمنون بالمسيحية الأرثوذكسية، ويعملون بالزراعة؛ أي إنه كانت توجد حواجز ثقافية ولغوية ودينية بين طبقات المجتمع الثلاث، مما يَعني أن المجتمع كان يتَّسم بدرجة عالية من التوتر الذي يؤدي إلى الصراع وكان عُرضة للانفجار في أي لحظة؛ ولهذا السبب كان أعضاء الجماعة اليهودية مدجَّجين بالسلاح تحميهم القوة العسكرية البولندية خوفًا من انتفاضات الفلاحين ضدهم، وفي هذا الإطار ظهر طراز معماري فريد، هو المعبد/ القلعة؛ فهو معبد يهودي على هيئة قلعة يتعبَّد فيه اليهود ويلجئون إليه في حالة انتفاضة الفلاحين، وكانت جُدران هذا المعبد سميكة كجدران أي قلعة، وكانت توجد به كُوّات تخرُج منها المدافع والبنادق لإطلاق النار على الفلاحين لحين وصول القوة البولندية العسكرية. وفي تصوري أن الدولة الصهيونية هي المعبد/ القلعة، والتقسيم الثلاثي في أوكرانيا يُشبه التقسيم السائد في فلسطين؛ فالأمريكيون يقابلهم النبلاء البولنديون وأعضاء الجماعة اليهودية المدجَّجون بالسلاح هم المستوطنون الذين يكونون قوةً مسلحة، وليس عليهم انتظار القوة البولندية، أو الأمريكية لقمع الشعب الفلسطيني. والفلاحون الأوكرانيون هم الفلسطينيون. اكتشافي لهذه الحقيقة جعَلني أجزِمُ بأنه ليس من الأمانة أن أنشُر الموسوعة في عام ١٩٨٤، دون أن أُعطي ليهود بولندا المركزية التي

يستحقونها. المسألة، إذن مركّبة للغاية. وأن نتحدث عن (يهود) بشكل عام هكذا دون تخصيص أو تحديد ظلمٌ كبيرٌ لأعضاء الجماعات اليهودية، وللمعايير العلمية أيضًا.

س: العنوان الفرعي للموسوعة هو نموذج تفسيري جديد، ما معني هذا؟

ج: حاولت أن أنظر للظاهرة الصهيونية واليهودية والإسرائيلية (نظرة تاريخيةاجتماعية ذات طابع إنساني)، بمعنى أني أراها ظاهرة إنسانية خاضعة لظروف الزمان والمكان وليست ظاهرة خارقة للطبيعة؛ ولإنجاز هذا الهدف استخدمتُ ثلاثة نماذج أساسية، أوَّلها: الحلولية ووحدة الوجود وذهبت إلى أن الصهيونية هي ثمرة تصاعد معدَّلات الحلولية داخل اليهودية؛ فحل الخالق في اليهود فتألَّه هذا الشعب، وأصبح له مِن ثَم حقوق مطلقة في فلسطين؛ لأن ما يراه هذا الشعب هو الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا مِن خلفها. وأصبحت الدولة الصهيونية هي موضع الحلول أو العِجْل الذهبي الذي يعبُده اليهود (كما يقول بعض اليهود من الرافضين للصهيونية).

والنموذج الثاني: هو العلمانية الشاملة والتي ترى العالم باعتباره مادة استعمالية يوظِّفها القوي لحسابِهِ والإمبريالية في تصوُّري هي إفراز لهذه الرؤية العلمانية الشاملة أو تطبيق لها على مستوى العالم. الإنسان الغربي حوَّل نفسه إلى إلهٍ يسخِّر بقية العالم لصالحة، والصهاينة لا يختلفون عن ذلك؛ فهُم قد حوَّلوا فلسطين إلى مادة استعمالية، مجرد أرض يستوطنون فيها، وحولوا يهود العالم إلى مادة استعمالية تَنقل من أوطانها إلى إسرائيل، ثم حوَّلوا الفلسطينيين إلى مادة استعمالية تنقل خارجها. والنموذج الثالث: هو الجماعات الوظيفية.

س: ادعى أحد الكُتاب أنك من خلال كتاباتك - وخاصة هذه الموسوعة - تدعو للصهيونية وتروِّج لأفكارها وتُدافع عنها بأسلوبٍ غير مباشر أو على الأقل تدعو للتعاطف معها، فما ردُّك؟

ج: دوافعي يعلمها الله، سبحانه وتعالى، ولا أعتقد أن من يدعو للصهيونية ويروِّج لأفكارها ويدافع عنها بأسلوب غير مباشر - كما

يزعمون - يُخصص ملفات ومداخل كثيرة للحديث عن مذابح الصهيونية وإسرائيل. وأذهب إلى أن ثمةَ صهيونيتين لا صهيونية واحدة؛ صهيونية استيطانية والأخرى توطينية. الأولى هي أن يترك اليهودي بلدَه ويحمل متاعه ويتحوَّل من مواطن في بلده إلى مستوطن في بلادنا فلسطين، وهذه الصهيونية مصدرها الأساسي هو شرق أوربا. والصهيونية الثانية هي الصهيونية التوطينية، وهي أن يكتفي اليهودي بأن يدفعَ أموالًا للمنظمة الصهيونية لتمويل الدولة الصهيونية ويَدْعَمها سياسيًّا ويضغط من أجلها، ولكنه لا يهاجر أبدًا. ومصدر هذه الصهيونية هو غرب أوربا والولايات المتحدة. هذا التقسيم ليس دعوةً للصهيونية، وإنما محاولة للقراءة الدقيقة للواقع الصهيوني. وحينما أُبيِّن أن اليهود كانوا يشكِّلون جماعات وظيفية؛ أداة في يد الحاكم، وأن الدولة الصهيونية دولة وظيفية توظِّفها الولايات المتحدة لخدمتها، وأن الولايات المتحدة هي التي توظِّف إسرائيل وليس العكس، يقول البعض: إنني جعلتُ من إسرائيل الضحيةَ وبرَّأت ساحتها! وهذا يمكن الرد عليه بأننا لسنا في مجال محاكمة الصهاينة، وإنما نحاول فَهم هذه الظاهرة حتى نستطيع التصدِّي لها. ثم مَن قال: إن الجنود المُرتزقة غير مسئولين عما يقومون به من جرائم وقتل؟

س: كيف استقبل الناس هذا العمل؟

ج. أمضيت في بداية الأمر ما يقرُب من أربع سنوات أمُرُّ على الناشرين واحدًا بعد الآخر وأعرض عليهم العمل، وجميعهم كان يخاف ويُحجم عن النشر. وفي الحقيقة إن نشر موسوعة من ثمانية مجلدات ليست عملية سهلة وتحتاج إلى أموال طائلة، وبتوفيق من الله حالفني الحظ وقابلتُ الأستاذ إبراهيم المعلم مدير دار الشروق؛ صاحبها الذي وافق بعد خمس دقائق على نشر الموسوعة، وكان من الحماس بحيث أخبرني أن أكتب العقدَ الذي أريده، وكتبتُ عقدًا مليئًا بالأخطاء القانونية ولكن (ما بين الخيِّرين حساب). وكلَّما كانت تظهر مشاكل كنا نحلها بسهولة. وتم طبع الموسوعة، ولدى

دار الشروق جهاز توزيع جيدٍ وفوجئنا بالإقبال الجماهيري غير العادي، ولا أعتقد بأن ثمةَ كتابًا استقبل من الجمهور العربي مثل الموسوعة وقد تجاوز عدد المقالات التي كَتبتُ عنها ١٧٠ مقالة، وهذا ما استطعتُ جمعه.

ولكن المُحزن هو أنه مع أن الموسوعة قد نَفِدت إلا أن المشترين كانوا من الأفراد وليس المؤسسات، علمًا بأنها ليست رخيصة، وهذا شيء يُثير الدهشة. عندما كتبتُ هذه الموسوعةَ عبر ما يزيد على ربع قرنٍ كان في ذهني صانعو القرار الذين لا يعرفون عن إسرائيل إلا أنها عدو صهيوني، دون معرفة الخريطة الدقيقة القادرة على مساعدة المجاهد في جهاده والمفاوض في تفاوضه. وكثيرًا ما نرسل خطابات لوزارات التعليم في الوطن العربي فيأتينا الرد بطلب نسخةٍ واحدة لمكتب السيد الوزير، لا توجد دولة عربية واحدة اشترت الموسوعة إلا الشيخ د. سلطان القاسمي أمير الشارقة، والأمير سلمان بن عبد العزيز من السعودية. في حين ساهم الأمير عبد العزيز بن فهد بطريقة مختلفةٍ، لكن الدولة المصرية لم تشترِ أي نسخة.

س: ما الاستجابة الإسرائيلية الصهيونية للموسوعة؟

ج: يلاحظ أنه على الرغم من صدور الموسوعة عام ٢٠٠٠ وأنها نفدت بعد صدورها بعام ونصف العام، ومع أنني كتبت ما يزيد على ثلاثين كتابًا عن الصهيونية واليهودية؛ فإن الإعلام الإسرائيلي والصهيوني والمؤسسة الثقافية الإسرائيلية لم تتعرَّض من قريب أو بعيد لأعمالي أو للموسوعة، مع علمي أنهم يعرفون عنهم، ولا سيما أنني نشرت بعض المقالات بالإنجليزية في الأهرام ويكلِي (التي يُتابعها الإسرائيليون) أوضِّح فيها بعض المفاهيم التحليلية الأساسية في الموسوعة. مرة واحدة أشاروا إلى هذه الموسوعة بعد صدورها بيوم واحد فاتهموها بالعنصرية؛ لأنني أذهب إلى أن الصهيونية عقيدة دينية وليست قومية، وهذا ما يتفق معي فيه كثيرٌ من يهود العالم. ويبدو أنهم قضوا يومًا كاملًا بعد صدور الموسوعة فقرءوا مجلداتها الثمانية وخَلَصوا إلى ما خلصوا إليه. ومؤامرة الصمت هذه هي نتيجة أن الموسوعة

وأعمالي الأخرى تقدِّم رؤيةً نقدية للفكر الصهيوني، ورؤية رافضة للدولة الصهيونية دون أن تسقط في العنصرية؛ فهي محاولة للاشتباك مع الفِكر الصهيوني خارج إطار الفكر العنصري التآمري. فرفضي للصهيونية لا ينبع من كون أن إسرائيل دولة يهودية، بل من كونها دولة استعمارية استيطانية إحلالية، فمقاومتنا للمستوطنين الصهاينة لا تنبع من كونهم يهودًا، وإنما لأنهم احتلوا الأرض الفلسطينية وطردوا سكانها. وعادة ما أضيف أنه لو كان المستوطنون من المسيحيين أو البوذيين، بل المسلمين، فإن مقاومتنا لهم لن تقل حِدة. ولكن يبدو أن المؤسسة الثقافية الصهيونية لا تريد الاشتباك الفكري معي أو مع غيري من الباحثين الذين يتَّسمون بقدر من الجِديةِ.

س: سؤال تكرَّر طرحه عليكَ دون شكٍّ، وهو كيف تأتَّى لك أن تكتب موسوعة عن اليهود واليهودية والصهيونية من ٨ مجلدات وأنت لا تعرف العِبريةَ؟

ج: اللغة العبرية هي لغة الدولة الصهيونية، وهي مهمة للغاية لدراسة التجمع الصهيوني من الداخل، وكنت قد بدأت بالفعل في تعلم اللغة العبرية عام ١٩٧٢، حين بدأت في التخصص في الصهيونية. ولكني لاحظت أنني أضع إسرائيل في سياقات متداخلة متسعة؛ فالسياق الأول هو الإيديولوجية الصهيونية، والنصوص الصهيونية الأساسية باللغة الألمانية، ثم هناك سياق تاريخ شرق أوربا ولا سيما بولندا ولغة الجماعات اليهودية هناك هي اليديشية، ثم أضع إسرائيل في سياقِ الجماعات اليهودية في العالم، ولغة الغالبية العظمى ليهود العالم هي الإنجليزية، وآخر السياقات هو الحضارة الغربية الحديثة. ولعل اللغات الأساسية هنا هي الإنجليزية والفرنسية والإسبانية. وإذا أراد الدارس أن يدرُس تاريخ الجماعات اليهودية عَبْر التاريخ، فهو سيحتاج لعدد لا بأس به من اللغات من أهمها اللاتينية واليديشية. بعد أن أدركت هذا توقَّفت عن دراسة العِبرية، وقرَّرت أن أستخدم اللغات التي أعرفها؛ العربية والإنجليزية والفرنسية واللاتينية في دراستي، ولا سيما أنني لاحظت أن أهم تواريخ الجماعات اليهودية مكتوبة بالإنجليزية. فالكِتابُ

العمدة في هذا المِضمار هو كتاب سالو بارون (التاريخ الاجتماعي لليهود)، وهو يصل إلى نحو ٢٠ جزءًا في بعض الطبعات، وهو مكتوب بالإنجليزية. كما أن معظم الكتب التي تكتب بالعبرية تترجم إلى الإنجليزية بما في ذلك تواريخ الجماعات اليهودية. وتوجد الآن طبعة عربية ليديعوت أحرونوت وطبعة إنجليزية لهآرتس، وكذا جريدة الجيروساليم بوست الإنجليزية بخلاف عدد من الحوليات المتخصصة والمجلات بالإنجليزية التي تتناول الموضوع اليهودي والصهيوني، كما أن كثيرًا من الصحف العربية ومراكز البحوث تغطي ما يدور في إسرائيل تغطية مستفيضة وتنشر ترجمات عديدة لكثير من المقالات والنصوص العبرية. ثمة فيض من المعلومات أكثر مما يمكن لفرد واحد الإحاطة به؛ ولإنني أؤمن بتقسيم العمل قرَّرت أن أستفيدَ مما عندي من خبرات ولغات في تحليل الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، على أن يقوم من يعرفون العبرية بالكتابة عن الظواهر التي تتطلب معرفة بالعبرية مثل الأدب الإسرائيلي، كما أنني دائمًا استشير أساتذة اللغة العبرية. ففي أثناء كتابة الموسوعة كان ثمة مكتب يزودني بتراجم عن الصحف الإسرائيلية، كما أن نشرة مؤسسة الجليل كانت هي الأخرى تقدم ترجمة لأهم المقالات كما قام الدكتور أحمد حماد، رئيس قسم اللغة العبرية بآداب عين شمس، بكتابة المداخل الخاصة باللغة العبرية وبعض المداخل الخاصة بالأدب. كما أنه قام بمراجعة كل كلمة عبرية وردت في الموسوعة ودقَّق المعنى والنُّطق.

وعلى كلٍّ كما أؤكد دائمًا أن المسألة ليست مسألة معلومات، وإنما مسألة أنماط متكررة، ونماذج تفسيرية يستخرجها المرء من كمٍّ المعلومات الهائل المتوفر لديه. وأنا أدركت منذ البداية أنني لا أستطيع أن أقوم بعمل كل شيء والعمر لن يكفي، ولا بد من تقسيم العمل بين أعضاء الجماعة العلمية. وكما ذكرتُ، فهذا ما وسعني وأنا أتمنَّى أن مَن يأتي بعدنا من شباب الباحثين يمكنه أن يُكمل المشوار.

س: بالمناسبة كيف ترى تجربة تدريس اللغة العبرية في الجامعات العربية؟

ج: أعتقد أن التركيز على اللغة معيارًا وحيدًا وأساسيًّا قد أدَّى إلى خَلل كبيرٍ يُشبه الخَلل الذي حدَث في الدراسات الاستشراقية في الغرب؛ فقد كانوا يتصورون أن من يعرف اللغة العربية يصبح خبيرًا في حقل الدراسات العربية، وهذا أمرٌ غير حقيقي بالمرة. فمن يودُّ أن يعمل في حقل الدراسات العربية فعليه أن يدرُسَ الحضارة العربية المُتمثلة في القرآن والسنة والأدب والمعمار وليس مجرد اللغة العربية، مهما كان إتقانه لها. وقد تغيَّر الأمر في الغرب إذ إن من يودّ التخصص في الدراسات العربية عليه أن يدرُسَ السياسة أو الفن أو الأدب أو علم الاجتماع، ثم يتعلم اللغة بعد ذلك.

وأعتقد أننا لا بد أن نتَّبع المنهج ذاته، فلا نفتح أقسامًا للغة العبرية تُخرِّج الألوف، فلسنا في حاجة إلى هذا العدد الكبير من المترجمين. وأعتقد من المستحسن أن تكون دراسات الجماعات اليهودية والمجتمع الإسرائيلي على مستوى الدراسات العليا، فينضم لها بعض الخريجين ممن درسوا تخصصات مختلفة مثل علم الاجتماع والتاريخ، ثم يدرسون اللغة العبرية ليتخصصوا في المجتمع الإسرائيلي وتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية. وبهذه الطريقة يمكننا أن نخرِّج متخصصين حقيقيين في شتَّى التخصصات يدرسون المجتمع الإسرائيلي ويهود العالم مستخدمين المناهج والآليات التي تعلَّموها في تخصصاتهم الأصلية.

س: د. عبد الوهاب المسيري لو توقفت عند الموسوعة وكأنك لم تؤلفها ووقفت أمامها محايدًا تعيد قراءتها مرة ثانية، ما هو اليقين الذي يمكن أن تمنحك إياه، إذا اعتبرنا أن الفكر يمنح يقينًا سواء بالسلب أو بالإيجاب؟

ج: طبعًا اليقين الكامل مستحيل، فأنا باعتباري مسلمًا أؤمن أن مثلَ هذا اليقين مستحيل بالنسبة لأي إنسان، وأن كتابَ الله هو الذي يمنحني اليقين؛ لأنه وحده هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويتعامل مع الثوابت الإنسانية والأخلاقية الكبرى، أما هذه الموسوعة فهي

تتعامل مع ظاهرة متغيرة. داخل هذا الإطار يمكنني أن أقول: إنه عندي درجة عالية من اليقين ومن أهم هذه النتائج أنني بعد قراءتي لمِلَفِّ السلام ثبت لي أنه محكوم عليه بالفشل، وهذا ليس من قَبيل التفاؤل أو التشاؤم، بل هو تحليل يرَى أن هذه الدولة لكي تحقق لنفسها البقاء يجب أن تقضي على الفلسطينيين، وبناء على ذلك فإن الهاجِسَ الأمني عند إسرائيل له أساس حقيقي، وشارون أو أولمرت داخل النَّسق الصهيوني، ليس متطرفًا، بل هو إنسان معتدل جدًّا؛ لأنه سرق أرض شعب أعزل وأسَّس عليها دولة ومن الطبيعي أن يعيش حالة خوفٍ وقلق، ومن ثَم أن يتحدث كثيرًا عن الأمن. كما أنني بعد دراسة متأنية أذهب إلى أن الدولة الصهيونية مآلها الزوال؛ لأنها جيب استيطاني إحلالي سيختفي؛ فهو لا يحتوي على أي من مقومات الحياة داخله، ولا يمكنه الاستمرار دون الدعم الخارجي. كما أن معرفتنا التاريخية تبيِّنُ أن الجيوب الاستيطانية التي أبادت السكان الأصليين هي وحدها التي كُتِب لها الاستمرار (مثل أمريكا الشمالية وأستراليا، أما تلك الجيوب التي أخفقت في ذلك فكان مآلها إلى الزوال (مثل الجيب الاستيطاني في الجزائر، ومثل النظام العنصري في جنوب إفريقيا). وإسرائيل تنتمي إلى النمط الثاني، ولا أراها قد تشكِّل استثناء لهذه القاعدة أو النمط، ولا سيما أن السكان الأصليين في حالة إسرائيل؛ أي الفلسطينيين، يزدادون كمًّا وكيفًا ووعيًا، وقد قاموا بتنظيم أنفسهم في جماعات قادرة على تطوير أسلحة تتناسب مع الإمكانات واللحظة، ابتداءً من الحجر في الانتفاضة المباركة الأولى حتى قسَّام ١ و٢ و٣ في انتفاضة الأقصى، والفلسطينيون أصحاب تاريخ وتراث وليسوا مجرد قبائل متناثرة، ويُساندهم بقية الجماهير العربية وتتعاطف معهم القُوَى المناهضة للعولمة والاستعمار كلها.

هذا بخصوص وضع إسرائيل التاريخي. ويمكن أن نضيف أنَّ الكِيان الصهيوني يمر بمرحلة أزمة شديدة وعدم سقوط إسرائيل حتى الآن من أكبر الأدلة على خيبة العرب الكبرى وليس على قوة إسرائيل، إنه غياب عربي

وليس حضورًا إسرائيليًا.

هذا لا يعني أن إسرائيل ستنتهي غدًا، فلحظة انتهائها تتوقف على عناصر عديدة بعضها مجهول لدينا. لقد سقط الاتحاد السوفييتي فجأة، ولكننا بعد سقوطه أدركنا أنه مات منذ مدة طويلة وأنه كان يقف ميتًا. كما أن نهاية إسرائيل لا تعني القضاء على الإسرائيليين، وإنما تعني إزالة الإطار العنصري الصهيوني الذي تدور داخله الدولة الصهيونية؛ فنهاية إسرائيل تعنِي من منظوري نهاية العنصرية الصهيونية وعودة الفلسطينيين لديارهم وتحول المستوطنين الصهاينة إلى مواطنين في دولة مُتعددة الإثنيات والعقائد، إنه في واقع الأمر محاولة لتطبيع الدولة الصهيونية، فهي كِيان شاذٌّ غير طبيعي، فهي دولة ليهود العالم كلهم ولا لمواطنيها. والمطلوب هو أن تصبح دولة طبيعية، أن تصبح دولة لمواطنيها مما يعني أن تصبح دولة غير عنصرية؛ أي غير صهيونية.

س: ماذا تمثل الموسوعة بالنسبة لكم؟ وهل لقِي المؤلف من المؤسسات التقدير الذي تلقَّته الموسوعة؟

ج. «الموسوعة تعتبر في مقام زوجتي الثانية، بل إن زوجتي عندما تسمعني أقول هذا الكلام تقول: لا، بل إنها زوجتك الأولى. أما من ناحية التقدير الشخصي، فقد حصلت على جائزة أحسن كتاب في معرض الكتاب عام ١٩٩٩، كما حصلت على جائزة العويس، وجائزة الدولة التقديرية لمجمل أعمالي. ولكن ما يهمني هو الاهتمام بالموسوعة باعتبارها آليةً لفهم العدو، وقد لاحظت أن كثيرًا من المقولات التحليلية التي وردت في الموسوعة قد وصلت مثلًا إلى بعض من يحاولون تقديم رؤية عقلانية مبنية على تحليل الواقع الصهيوني بتركيبيَّته وتناقضاته كلها. هذه الرؤية لا تعني الاستسلام أو التطبيع، لكن تعني التعريف بالعدو تعريفًا دقيقًا بعيدًا عن التعريف التآمري الذي شاع بين الجميع، وهو تعريف اختزالي كسول حوّل اليهود إلى قوة شيطانية.

(٢)
الصهيونية

س: ذكرت أن اهتمامك بالصهيونية أخذ يتشكَّل في الولايات المتحدة الأمريكية أي بعيدًا عن جغرافية المواجهة، أليس هذا غريبًا؟

ج: قد يبدو كذلك، لكن عندما تركت مصر عام ١٩٦٣ كان الخط الإعلامي حينذاك يشير- وكما سبق وذكرت- للدولة الصهيونية بأنها «إسرائيل المزعومة» أما جيشها فكان «العصابات الصهيونية»؛ مجرد شرذمة من المقاتلين يمكن القضاء عليهم ببساطة، وأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي مشكلة إنسانية. مثل هذه المقدمات التي شاعت وشكَّلت الخريطة الإدراكية للكثيرين، وأنا منهم بعض الوقت، جعلتني أخْلُص إلى أن الدولة الصهيونية لا تمثِّل أي خطورة علينا، وأنه يمكن أن تحلّ مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بإعادة توطينهم في فلسطين، ولا سيما أن إسرائيل كانت تزعم حينذاك أنها لا تُمانع ألبتة في ذلك، وكان الخط الذي تبنَّيته آنذاك أن علينا الوصول إلى تسوية مع المستوطنين الصهاينة حتى يمكننا استئناف التاريخ العربي بعد أن توقَّف بسبب الصراع العربي الإسرائيلي.

ولكنني في الولايات المُتحدة اكتشفتُ أن الصورة مغايرة تمامًا، وأن القضية لها أبعاد استراتيجية، وأن مصر في واقع الأمر هي الدولة المُستهدفة، وأن الصهيونية ليست مجرد ٧٠٠ ألف مستوطن صهيوني يستولون على فلسطين ويطردون الفلسطينيين من ديارهم، وإنما هي جزء من المخطط الاستعماري الغربي لتقسيم العالم العربي والهيمنة عليه. ومن هذه الرؤية يمكن القول: إنني كنت في مركز النموذج مما أتاح لي قراءته وإدراك خطورة أبعاده، وعند هذه النقطة قرَّرت التخصص في الصهيونية، وقد كتبت أولى

دراساتي عن إسرائيل، وهو كُتيب صغير بالإنجليزية صدر عام ١٩٦٩ في الولايات المتحدة، وصدرت منه عدة طبعات بعنوان (إسرائيل قاعدة للاستعمار الغربي، Israel: Base of Western Imperialism) وتداوله الطلبة العرب في الولايات المتحدة حتى أواخر السبعينيات.

س: كثير من المفكرين العرب عندما يتعاملون مع الصهيونية والصراع العربي الإسرائيلي لا يخرجون عن نطاق التناول الصحفي أو التعليق السياسي المعهود، أما المسيري فقد تعامل معه من مُنطلق فكري تسميه «معرفي» ألم يكن ذلك غريبًا أيضًا؟

ج: نعم، أنا أعتقد أن إحدى مشاكل الخطاب التحليلي العربي أنه تم تسييسه بشكل غير عادي، وكما ذكرني حدث انفصال بين الخطاب الفلسفي التحليلي، والخطاب السياسي التحليلي، في حين أذهب إلى أن البُعد المعرفي لأي ظاهرة هو الذي يُحدِّد هويتها الحقيقية، بمعنى أننا لو أخذنا خطابات الصهاينة وتصريحاتهم، وحللنا مضمونها بشكل سطحي، سنجد أنهم - مثلًا- يدعون إلى السلام وإلى التعاون بين اليهود والعرب وأشياء من هذا القَبيل. وهنا يجب أن نصل إلى البُعد المعرفي؛ وهو البُعد الكلي والنهائي والذي يُعبر عن نفسه في قضايا مثل رؤية الإله، والطبيعة والإنسان، وأهم هذه العناصر هي رؤية الإنسان. خُذي مثلًا النظام العالمي، حينما نقرأ الدعوة لفتح الحدود، وحرية تبادل السلع ورأس المال، سنجد أن البعد المعرفي هنا هو صورة الإنسان الاقتصادي، ومعايير المنفعة الاقتصادية، وماذا عن الثقافة؟ ماذا عن الهوية؟ ماذا عن التطلّعات؟ ماذا عن التجاوز؟ يوجد غيابٌ كامل لأي إجابة عن هذه الأسئلة، مما يعني أن هذه القضايا ليس لها أهمية من منظور النظام العالمي الجديد الذي يتحرَّك داخل إطار اقتصادي مادي نفعي يحدِّد أجندته. الشيء نفسه بالنسبة إلى الصهيونية، ما هو موقفها من الإنسان؟ بالنسبة إلى الإنسان العربي ثمة إنكار لوجوده، أو تهميش له، أما بالنسبة إلى الإنسان اليهودي؛ فيهود المَنفى لا قيمة لهم ويجب تصفيتهم، أما اليهودي الذي يهاجر إلى فلسطين ويستوطنها (أي يغزوها ويستولى

عليها) فهو يشغل المركزَ، ويستند إلى هذا التصور نظريًا في الحقوق، وميزة البعد المعرفي أيضًا أنه من خلال الوصول إليه بوسعنا أن نربط بين الصهيونية وحركات أخرى مماثلة، على عكس الاستراتيجية المعرفية الصهيونية التي تعزل الظاهرةَ اليهودية والصهيونية عن الظواهر الأخرى كلها، لنجد أنفسنا نعود للتوراة والتَّلمود، وما يسمى بالتراث اليهودي، على حينٍ أننا عندما نصل إلى البُعد المعرفي سنقوم بعملية تجريد للتفاصيل، ونحررها من فضائها الزماني والمكاني المباشر غير أنه يمكن ربطها بظواهر مماثلة كالتجارب الاستيطانية الإحلالية الأخرى، بل وممالك الفرنجة (التي يقال لها: الممالك الصليبية)، وبذلك نخرج بالظاهرة الصهيونية من الجيتو اليهودي الصهيوني المعرفي وندخل بها حقل الدراسات الإنسانية العامة، وتتحول الصهيونية من ظاهرة يهودية فريدة إلى ظاهرة تاريخية إنسانية نسبية. فنحن حين نتحدَّث عن (حقل الدراسات اليهودية)، فإننا في الواقع لا نخضعها لقوانين علم الاجتماع ونفصِّل هذه الدراسات عن رقعة العلوم الإنسانية.

س: هل يمكن تحديد طبيعة منهجك في التعامل مع الصهيونية؟

ج: موقفي من الصهيونية يبتعد عن الموضوعية المتلقية، ويستخدم النماذج التحليلية. وهو لا يستند إلى قوالب اختزالية جاهزة (تكفي صاحبها مؤنة التفكير) وإنما يستند إلى تحليل مفصَّل لبِنْية الكِيان الصهيوني، وهي بنية تتجاوز النيات الحسنة والسيئة، وأنا لا أُعنَى كثيرًا بالسياسات المتغيرة (هدنة- اتفاقيات سلام - تصريحات كبار المسئولين)، كما أنني أميز بين التصريحات والواقع، ولا أتعامل مع المتغيرات إلا في ضوء الثوابت. هذا التحليل يستند بدوره إلى تعريف مركَّب متعدِّد الأبعاد يأخذ الداخل والخارج والعام والخاص في الاعتبار.

في دراستنا للظاهرة الصهيونية لا بد أن نراها من الداخل أي من منظور الصهاينة، ومن الخارج أيضًا أي من المنظور التاريخي العام الذي يتجاوز المنظور الصهيوني. فحينما ينظر للظاهرة اليهودية من الداخل بمنظار صهيوني يتم

فصل الظاهرة عن أي سياق تاريخي ويتم استبعاد أي عناصر غير يهودية تكون قد دخلت في تكوين الظاهرة، بل أدت إلى ظهورها، كما يتم استبعاد أي عناصر تبين عدم تجانس الجماعات اليهودية، وبهذا يمكن للصهاينة فرض أي معنى يشاءون على الظاهرة. وسأضرب مثلًا، حين نرى الهولوكوست من الداخل أي من منظور صهيوني؛ فإننا سنراها حدَثًا فريدًا داخل السياق اليهودي، ليس له نظير، وأن اليهود دائمًا ضحايا عنفِ الأغيار، ولكننا حين ننظر إليها من الخارج سنراها جزءًا من ظاهرة تاريخية إنسانية ونمط إبادة متكررًا في الحضارة الغربية. ولأضرب مثلًا آخر، تقدِّم التواريخ الصهيونية اضطهاد اليهود في روسيا باعتباره أمرًا حاق باليهود وحدهم وأن سببه هو يهودية اليهود، لكن بالنظر إلى هذه الظاهرة من الخارج سنجد أن روسيا القيصرية اضطهدت الأقليات والشعوب التابعة لها كلها حتى إن لينين كان يُسميها «سجن الشعوب»، بل إن روسيا القيصرية صنَّفت الشعوب والأقليات إلى إيروسنتي irosinty (أي سلافيين) ونان إيروسنتي non irosinty (غير سلافيين)، وقد وقع الاضطهاد الحقيقي، بل والإبادة على غير السلافيين. وكان اليهود من الإيروسنتي، أما الشعوب الإسلامية فكانوا من غير السلافيين، ومن ثم كان الاضطهاد الواقع عليهم يفوق بمراحل الاضطهاد الواقع على السلافيين.

س: وماذا عن عزلة اليهود وعدم اندماجهم، هل تخضع للقراءة نفسها؟

ج: القول بأن اليهود لا يحبون أن يندمجوا وأنهم يعيشون في عزلة كاملة هذا مجرد ادعاء، بل كان بعضهم يتحدث عن النقاء العرفي، هذه هي الرؤية من الداخل، فلنتجاوزها ثم ننظر للظاهرة من الخارج، سنلاحظ أن النقاء العرقي لا أساس له من الصحة؛ ومن الطريف أن التوراة تتحدَّث عن أن إبراهيم تزوج من هاجر المصرية، ويهودا تزوج من كنعانية ويوسف تزوج من مصرية، وداود تزوج من راعوت المؤابية، بل إن اليهود ويهودا حينما خرجوا من مصر -حسب ما جاء في التوراة- كان معهم ما يُشار إليه باللفيف المختلط mixed multitude؛ أي جماعات غير عبرانية. ثم هناك قبائل الخزر التركية التي تهودت،

ويقال إن اليهود الإشكناز هم من نسل هؤلاء فهم ليسوا بساميين، أما عدم الاندماج وحب العزلة فهذه أكذوبة كبرى لا يساندها الواقع التاريخي، ففي القرن الأول الميلادي بلغ عدد اليهود في العالم ما بين ثلاثة ملايين وسبعة ملايين حسب التقديرات التخمينية، لو ظل اليهود منعزلين لم يندمجوا وينصهروا في مجتمعاتهم لبلغ عددهم بلايين في الوقت الحاضر، ولكن في القرن السادس الميلادي بلغ عددهم مليونًا وحسب، مما يعني أنهم اندمجوا وانصهروا ومن ثم اختفوا. وهذا ما حدث لليهود الذين تم سبيهم على يد الأشوريين ونقلوا إلى أشور واختفوا، فابتدعوا أسطورة أسباط إسرائيل العشرة المفقودة، حتى لا تفسر المسألة على أنها اندماج وانصهار، ولننظر إلى اليهود في العصر الحديث، قبل اعتلاء هتلر سُدَّة الحكم، كان يهود ألمانيا آخذون في الاختفاء، فقد تنصَّر نصف يهود برلين. وفي الولايات المتحدة يتحدثون عن الهولوكوست الصامت؛ أي اختفاء اليهود ونقصان عددهم لعدَّة أسباب من أهمها الاندماج والزواج المُختلط، إن أسطورة العزلة اليهودية هي محاولة صهيونية لإضفاء الشرعية على فِكرة الوطن القومي اليهودي! ومع أن هذه الرؤية من الداخل هي رؤية تزيف الواقع، فلا بد من فَهمها حتى يمكن تجاوزها.

س: أغلب الباحثين في الصهيونية يعتقدون أن الفكر الصهيوني فكر رجعي أسطوري غيبي، ولكنه على ذلك أنجب دولة مُتقدِّمة، فما الذي حصَل لإفراز هذا التقدُّم؟

ج: القول بأن ثمة تناقضًا بين مفهومي العلم والغيبية، هو قول غير سليم؛ فالعلم له غيبيته إذ عندما نؤمن بالتقدُّم فهذه غيبية، وحينما نقول: إن العلم قادر على كذا وكذا في المستقبل؛ فهذا أمل غيبي. فالدولة النازية كانت دولة حديثة متقدمة حقق فيها العلم إنجازات عديدة، ولكن مع كل هذا التقدم التقني والعلمي كانت تنطلق من غيبيات مادية وأساطير علمانية مثل تفوق الجنس الآري وضرورة إبادة أي إنسان غير نافع أو غير منتج.

وفي أول كتاب لي خَصَّصت فصلًا كاملًا لغيبيات الصهيونية العلمانية،

الغيبيات أساسية لتجنيد الجماهير لأنه لا يمكن تجنيد الجماهير باسم المفاهيم العامة المجردة أو القوانين العلمية، وإنما من خلال شعارات وأساطير تمسّ حياة الإنسان الفرد؛ فالصهيونية لم تخبر اليهودي بأنه سيذهب إلى فلسطين للاستيلاء عليها ونهبها وتأسيس دولة تخدم المصالح الغربية، بل قالت له: إنك صاحب الحقوق المطلقة والرسالة الأبدية، وقد وعدك الإله بهذه الأرض، وأنت ستعود تنفيذًا للوعد الإلهي إن كنت متدينًا، أو لتأسيس دولة ديمقراطية إن كنت ديمقراطيًّا أو اشتراكية إن كنت اشتراكيًّا.

س: وكيف نجح الصهاينة في فرض أساطيرهم؟

ج: أعتقد أنهم أنجزوا ما أنجزوه من خلال ما يسمَّى في اللغة الإنجليزية (الحقائق الكاذبة) true lies وهي ذِكر مجموعة من الحقائق الصارمة بعد نزعها من سياقها وإخفاء عدد كبير من الحقائق الأخرى، وبذلك يمكنهم فرض المعنى الذي يريدون على الحقائق التي يذكرونها. على سبيل المثال، الأسطورة الصهيونية المركزية: إن اليهود كانوا يعيشون في وطنهم القومي فلسطين، كتلة قومية متماسكة، ثم جاء القائد الروماني تيتوس على رأس الجيوش الرومانية وهزم اليهود وهدم الهيكل، وطرد اليهود من بلادهم وشتتهم في بقاع الأرض. ثم يشيرون إلى أن عدد اليهود في فلسطين بعد هدم الهيكل كان بضعة مئات الآلاف، في حين كان يبلغ مجموعهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وبابل بضعة ملايين (قبل هدم الهيكل وكان عددهم حسب بعض التقديرات التخمينية يصل إلى سبعة ملايين)، وهذه حقيقة إحصائية صُلبة لا مراء فيها. ولذا يتحدث الصهاينة عن (المنفي) و(الشتات) و(الدياسبورا)، كما يتحدثون عن الرغبة الأزلية لليهود وتطلعهم الدائم للعودة لأرض المِيعاد التي نفوا منها قسرً؛ لإنهاء حالة الشتات وتأسيس دولتهم الصهيونية وإعادة بناء الهيكل. والخطاب الغربي في عمومه يدور في إطار هذه المصطلحات والمفاهيم. وقد بدأ الشك في هذه القصة والنموذج التفسيري يتسلَّل إلى نفسي حينما لاحظت أن الغالبية الساحقة ليهود العالم لم

تترك منفاها المقيت لتعود إلى (وطنها القومي) المزعوم. فعدت إلى التاريخ لأختبر مدى مصداقية النموذج الصهيوني ومدى مقدرته التفسيرية. وجدت أن ما أتى به الصهاينة هو حقائق و(الحقائق) غير (الحقيقة)؛ فالإحصائيات التي ذكروها لترويج أساطيرهم لم يتم تزييفها ولكن تمَّ ما هو أسوأ من ذلك، إذ تم نزعها من سياقها التاريخي؛ ولذا نسميها (أكاذيب حقيقية) أو (حقائق كاذبة)؛ لأننا إن نظرنا إلى الإحصائيات الخاصة بأعداد اليهود قبل هدم الهيكل، سنكتشف أنه قبل هدم الهيكل كان عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين يفوق عددهم داخلها، وكان عدد يهود الإسكندرية (الذين نسوا العبرية والآرامية وكانوا يتحدثون اليونانية) يفوق عدد يهود القدس بعدة أضعاف، فاليهود لم (ينفوا) ولم (يشتتوا) قسرًا وإنما (انتشروا) وحسب، شأنهم في هذا شأن كثير من الجماعات البشرية الأخرى!

أما بخصوص تيتوس فلاحظت أن الحرب التي خاضها لم تكن حرب الرومان لليهود، وإنما كانت حربًا للرومان كفريقٍ من اليهود؛ إذ إنه كان يقف إلى جواره (وإلى جوار الجيش الروماني المحاصر للقدس)، جيش يهودي بقيادة (ملك اليهود) أجريبا الثاني، أما في سريره فكانت تنام عشيقته برنيكي، أخت أجريبا، وكان ينوي الزواج منها (لولا اعتراض الأرستقراطية الرومانية).

بل ويمكن القول بأن المُستهدف من الحملات الرومانية لم يكن اليهود وإنما يهودا (كما كانت تسمي إحدى مناطق فلسطين آنذاك)؛ ولذا نجد أن فسبسيان وابنه تيتوس من بعده رفضا لقب (جودايكوس judaicus) أي (هازم اليهود) مثلما تلقَّب فسبسيان بلقب (جيرمانى كوس germanicus) أي (هازم الألمان)؛ لأن ثمرة الحملة لم تكن هزيمة اليهود كقوم (إثنوس ethnos) وإنما هزيمة يهودا كمنطقة جغرافية، ولذا سكت العملات في عهد تيتوس وعليها عبارة (جوديا كابتا judca capta؛ أي (يهودا التي تم أسرها). فالذي تم أسره ليس اليهود وإنما المنطقة الجغرافية، وما تم تهدئته هو بعض العناصر المعادية للرومان داخل المجتمع اليهودي في فلسطين وليس اليهود

كلهم. إن تقويض النموذج السائد ومحاولة نحت نموذج تفسيري جديد، قد أعطى مركزية لبعض المعلومات التي آثر الصهاينة؛ إما إخفاؤها وإما تجاهلها تمامًا، وقوض من صلابة بعض المعلومات (الصلبة) الأخرى.

س: هل يمكن أن تذكر مثلًا آخر على استغلال اليهود لما تسميه «الحقائق الكاذبة»؟

ج: سأضرب مثلًا لا يختلف عن سابقه وإن كان أكثر درامية: يروِّج الصهاينة لأسطورة ماسادا، وهي آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان في أثناء التمرد اليهودي الأول (٦٦-٧٠ ميلادية) على الإمبراطورية الرومانية، وتذهب الرواية الصهيونية إلى أن الرومان حاصروا القلعة لمدة ثلاثة وسبعين أسبوعًا، ولكن المُحاصرين اليهود آثروا الانتحار على الاستسلام. ويوزع الصهاينة صورا للقلعة، ويوجد مُتحف فيه بعض الآثار اليهودية لبقاياها، وهذا كله يبين أن ماسادا (حقيقة تاريخية) ملموسة، وحينما يدرس الموضوع فإن الباحث الذي يهيمن عليه هذا التصور لواقعة ماسادا يراكم الحقائق في إطاره.

ولكن يوجد من الحقائق الأخرى ما يمكنها أن تُغير تمامًا من مضمون الواقعة. القلعة قائمة، نعم، وثمة بقايا أثرية يهودية، نعم. ولكن كُتب التاريخ الصهيونية حجبت كثيرًا من العناصر التاريخية لتفرض على ماسادا معني صهيونيًّا لتصبح ماسادا رمزًا لوحدة الشعب اليهودي ولرفضه التام للاستسلام للأغيار، فمثلًا، لا تذكر المصادر الصهيونية شيئًا عن الحرب الطبقية التي دارت رحاها بين فقراء اليهود وأثريائهم، قبل حادثة ماسادا، وأنه تم ذبح ما لا يقل عن اثني عشر ألف يهودي على يد إخوانهم من اليهود الفقراء. كما لا تذكر قادة التمرد الذين استسلموا وسيقوا إلى روما حيث أعدموا. وهي لا تذكر كذلك شيئًا عن القلاع اليهودية الأخرى، مثل هيروديوم وماكايروس، التي أثرت الاستسلام والبقاء على الانتحار والموت عام ٧٠ ميلادية، لعلمها أن الرومان لن يبيدوا من فيها لأنهم لم يرتكبوا جريمة الإبادة ضد الحاميات الرومانية التي استسلمت لهم، هذا على عكس

ما كان عليه سكان ماسادا الذين كانوا يعرفون أن مصيرهم هو الموت بسبب إبادتهم الحامية الرومانية التي استسلمت لهم. وكانت قلعة ماكايروس أقوى حصن وأهمه بعد القدس؛ ولذا لم يكترث الرومان كثيرًا بماسادا وتركوها حتى انتهوا من جيوب التمرد الأخرى، ثم هاجموها وقضوا عليها عام ٧٣ ميلادية. وإذا كان لا بد من اختيار رمز ما يعبِّر عن الواقع اليهودي إبان التمرد اليهودي الأول على الرومان، فإن قلعة ماكايروس، التي استسلم سكانها، أصلح لذلك من ماسادا.

وأسطورة ماسادا وتحويلها إلى رمز يعبر عن (العقلية اليهودية) التي تحجب عناصر أخرى كثيرة. فمن المعروف أن العقيدة اليهودية تحرم الانتحار؛ فهل المنتحرون يعبرون عن هوية يهودية أم عن انحراف عنها؟ من المعروف كذلك أن العاملين بالتجارة لا يتسمون بالفروسية فهم قادرون على التكيف وعلى التفاوض والمساومة، وأن كثيرًا من الجماعات اليهودية في العالم تعمل بالتجارة. وقد لاحظ دوركهايم في دراسته عن الانتحار، أن نسبة الانتحار بين الجماعة اليهودية في فرنسا أقل النسب بمقارنتهم بالجماعات الإنسانية الأخرى.

بل إن هناك من علماء الآثار اليهود وغير اليهود الذين يؤكدون أن قصة ماسادا قصة خرافية وأسطورة ملفقة؛ إذ لا يمكن البرهنة تاريخيًّا على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند إليها هذه القصة، والمصدر الوحيد للقصة هو يوسيفوس، وهو كاتب لا يعتَد بِهِ كمؤرِّخ. وحينما نبحث عن تبديات ما يسمى (عقدة ماساداه) (أي رفض الاستسلام بإيثار الانتحار عليه) في سلوك الإسرائيليين؛ فإننا لا نجد لها أثرًا! فحينما حوصرت بعض القوات الإسرائيلية في خط بارليف عام ١٩٧٣، استسلمت بطريقة عملية ورشيدة للغاية على مسمع الصليب الأحمر الدولي والتلفاز المصري ومَرْآه. وفي أحد هذه المواقع، سأل الجنود قيادتهم بتهكم إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت على طريقة ماسادا، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التلفاز المصري.

ومع اندلاع الانتفاضة، لم يتحدَّث الصهاينة عن نهاية الدولة الصهيونية في الإطار الانتحاري، بل تحدثوا عن الطائرة المروحية التي ستأخذ بقية المستوطنين من على سطح السفارة الأمريكية، تمامًا كما حدث في فيتنام. وقد تزايد بشكل ملحوظٍ عدد الجنود الإسرائيليين الذين ينتحرون في مواجهة الضغوط النفسية وما تشكله محاولة إخماد الانتفاضة من إرهاق، وقد شكّلت أكثر من لجنة تحقيق لدراسة هذا الموضوع. وامتدت الظاهرة لتشمل المهاجرين الفلاشاه والسوفييت؛ إذ لوحظ مؤخرًا تزايد معدّل الانتحار فيهم بسبب الإحباط الذي يعانونه في الدولة الصهيونية، وفشلهم في تحقيق أحلامهم وآمالهم.

وأخيرًا، في جنوب لبنان، إذ يلاحظ أن عددًا من الجنود الإسرائيليين انتحروا في جبهة القتال، ومن الواضح أنهم قاموا بفعلتهم هذه يأسًا من الحرب وثمنها الفادح؛ إذ لم يكونوا داخل موقع محاصر، ومن ثم فإن انتحارهم لم يكنْ من أجل الدولة والمُثل الصهيونية، وإنما كان احتجاجًا عليها. وفي الشهور الأخيرة للاحتلال الإسرائيلي، لم نسمع أن أحدًا منهم قد آثر الانتحار على الانسحاب، بل إنهم كانوا يتعانقون ويهللون فرحًا بالانسحاب. فهل يمكن أن نتحدَّث عن ماسادا بعد ذلك على أنها رمز حقيقي لما يسمى (العقلية اليهودية)، أم أنها نموذج إدراكي يحمل تحيزات العدو، روجها بيننا حتى لا نرى سوى الحقائق المرتبطة به وننسي ما عداها؟ فيبث العدو في قلوبنا الخوف، ويكسب الحرب دون أن يدخل المعركة! الصهاينة بارعون في نحت الأساطير والترويج لها وعلينا إدراك ذلك والحذر منه.

س: المؤرخ البريطاني كيث وايتلام في كتابه المهم (اختلاق إسرائيل القديمة) يقدم محاولة جادة لإعادة كتابة تاريخ فلسطين في ضوء الكشوفات الأثرية لأشكال التراث التي خلفتها الشعوب العربية والتي برهنت على تجذرهم قديمًا في فلسطين وهو ما يمثل ردًّا على محاولة تزوير التاريخ من جانب الصهيونية، ما مدى حاجة العرب لتكريس هذه الجهود؟

ج: الرؤية الصهيونية في جوهرها رؤية معادية للتاريخ بمعنى أنهم

يودون إعادة كتابة التاريخ، سواء تاريخ العرب أو تاريخ أعضاء الجماعات اليهودية أو تاريخ أرض فلسطين، وإعادة كتابة التاريخ هذه محاولة من جانبهم لفرض رؤية تاريخية جديدة تسوغ مسألة اغتصابهم لفلسطين بحيث تُصبِح (عودة) إلى فلسطين، ويصبح المستوطنون الصهاينة مجرد حركة قومية تودُّ استرداد الأرض أو (تخليصها) كما يقولون في الأدبيات الصهيونية. الصهيونية تنطلق من مقولة بسيطة جدًّا هي أن فلسطين أرض بلا شعبٍ وأن اليهود شعبٌ بلا أرضٍ، بمعنى أن الشعب اليهودي هو وحده الذي له الحق في هذه الأرض، وهم يحاولون إعادة كتابة تاريخ الفلسطينيين وتاريخ أعضاء الجماعات اليهودية انطلاقًا من هذه الصيغة اللفظية التي تتَّسم بالتناسق الهندسي، والتي لا يربطها رابط بالواقع. فيركزون مثلًا على الوجود اليهودي في فلسطين مع هامشيته متجاهلين الوجود العربي تمامًا، حتى تبدو فلسطين كأنها أرض فارغة من أهلها وأنها تنتظر عودة اليهود إليها. الاكتشافات الأثرية التي قامت بها الحكومة الإسرائيلية أثبتت عكس ذلك على طول الخط، وهذا قد سبب لهم حرجًا شديدًا. وقد كتب أحد الأثريين الإسرائيليين ويسمى زئيف هرتزوج دراسة أثارت ضجة تبين أن معظم الأساطير التوراتية التي تستند إليها الصهيونية لا أساس لها من الصحة، وأنه لا توجد أي اكتشافات أثرية تؤيد الادعاء الصهيوني، بل على العكس هناك العديد من الدراسات التي تبين أن الوجود العربي في فلسطين مسألة ممتدّة عبر التاريخ لم تنقطع، ابتداء بالوجود الكنعاني ثم الآرامي بعد ذلك، مما يدلُّ على أن هذه المنطقة؛ أي فلسطين، هي جزء من التشكيل الحضاري السامي الذي يتزعمه العرب والذين صبغوا فلسطين بصبغتهم بعد أن أصبحت جزءًا عضويًّا من التشكيل الحضاري العربي الإسلامي.

وثمة كثير من الدراسات، وخاصة دراسات مخطوطات البحر الميت، التي يجب أن نعتني بها لأنها تقوِّض كثيرًا من الادعاءات الصهيونية. ومن أكبر المحاولات الصهيونية لإعادة كتابة تاريخ الجماعات اليهودية أنهم

يستبعدون تمامًا تاريخ يهود الخَزَر. ويهود الخزر هؤلاء من أصل تركي، ويذهب أرثر كوستلر -المفكر اليهودي الإنجليزي، المجري الأصل- إلى أن معظم يهود أوربا من أصل خزري؛ أي من أصل تركي، وليسوا من أصل سامي، مما يعني أن المحاولات الصهيونية لتأكيد حق اليهود في العودة لفلسطين على أساس عرقي أو تاريخي لا أساس له من الصحة.

س: بعد أن وضَّحت الفرق بين التعامل مع الصهيونية من الداخل والخارج، ذكرت أنه يجب أيضًا أخذ العام والخاص في الاعتبار؟

ج. نعم، العام في تصوري أن الصهيونية ليست جزءًا من العقيدة اليهودية، وإنما هي تجل إمبريالي للعلمانية الشاملة؛ فالصهاينة ينزعون القداسة عن كل شيء ويلغون تاريخ فلسطين والفلسطينيين ويهود العالم ويوظِّفونهم (يحوسلونهم). أما الخاص فيتبدَّى في أنها ليست مجرد تبدٍّ عام للإمبريالية الغربية وإنما هي حركة استيطانية إحلالية تمت في كنف الإمبريالية الغربية وتحت مظلتها، وبدون هذه الإمبريالية لما أمكن وضع الصهيونية موضع التنفيذ، وأنها استخدمت الديباجات اليهودية لتجنيد يهود العالم ولتحسين صورتها أمام العالم.

كما يمكن تلخيص الجانب الخاص فيما يلي:

إن الجيب الاستيطاني الإحلالي الصهيوني لم ينجح في إبادة السكان الأصليين لعدة أسباب منها: أنَّ الفلسطينيين يتكونون من كتلة بشرية موحدة، في غاية التركيب والوعي، قادرة على استخدام الأسلحة الممكنة كلها، كما أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر (تاريخ الاستيطان الصهيوني) أصبح العالم أصغر في حجمه بسبب وسائل المواصلات ووصول الإعلام لأرجائه كلها، وقد تزايد ترابط العالم على مرِّ الأيام، مما يجعل عمليات الإبادة أمرًا مستحيلًا، فهي عادة ما تتم وراء ستار كثيف من الصمت، حتى لا يحتج أحدٌ، كما أن فلسطين توجد في وسط العالم القديم ومن ثم يصعُب إبادة سكانها. إلى جانب هذا كله يُحيط بالفلسطينيين دول عربية تضم جماهير متعاطفة مع الفلسطينيين وقضيتهم تزودهم بالعَوْن.

س: هل إخفاق الجيب الصهيوني في التطهير العرقي؛ أي إبادة السكان الأصليين أو طردهم، ترك أثره على المستوطنين الصهاينة؟

ج. نعم، الإسرائيلي يعيش في خوف دائم من العرب، وهو مُحقٌّ في خوفه هذا؛ فقد اغتصب أرضهم وشرَّدهم وهو يعلم أنهم لن يستسلموا ولن يقبلوا وضعهم هذا بكل ما يتضمنه من ألم، ولذا نجد أن اتفاقيات (السلام) كلها اتفاقيات أمنية تهدف بالدرجة الأولى لتحقيق أمن إسرائيل، وهو الشيء المستحيل.

ولا شك في أن الإسرائيليين يعرفون مصير ممالك الفرنجة كما يعرفون أن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التي قُدِّر لها البقاء (مثل أمريكا الشمالية وأستراليا) نجحت لأنها أبادت السكان الأصليين، أما تلك التي لم تنجح في ذلك (مثل الجزائر وأنجولا وجنوب إفريقيا) فقد تم تصفيتها. ويعرفون أنه لا يوجد أي سبب لأن يمثِّل الجيب الاستيطاني الصهيوني استثناء لهذه القاعدة التاريخية العامة.

س: ولكن ألَا توجد خصوصية يهودية للجيب الاستيطاني الصهيوني؟

ج. يمكن القول بأن الصهيونية نجحت في تطوير خطاب مراوغ، فأرسلت الإشارات إلى يهود العالم تُخبرهم أنها حركة لتهجير لا كلّ اليهود وإنما بعضهم وحسب (على أن يبقى الآخرون؛ الأثرياء والمندمجون، في بلادهم)، ويلاحظ أن الكتلة البشرية اليهودية التي نقلت إلى فلسطين ليست من بلد واحد وإنما من عدة بلاد، وهي في هذا تختلف عن الكتل البشرية التي نقلها الاستعمار إلى الجزائر على سبيل المثال. ولذا نجد أن علاقة الإمبريالية بهذه الكتلة ليست علاقة عضوية، وإنما شبه عضوية (بل هي علاقة وظيفية تعاقدية)، وتكمن واحدة من أهم ملامح خصوصية الصهيونية في ديباجاتها (اليهودية)، فنقل الكتلة البشرية يصبح (عودة اليهود) إلى أرض أجدادهم فلهم حقوق مطلقة فيها، وهم مرتبطون بها برباط عضوي (مقدَّس) لا تَنفصِم عُراه على تغير الزمان والمكان؛ أي إن الحلولية اليهودية التي تخلع القداسة على اليهود وعلى أرضهم هي الإطار العام الذي يتحركون من

خلاله. ولكن الديباجات تتغير؛ فهي تارة دينية وتارة علمانية ليبرالية أو علمانية اشتراكية أو إلحادية فاشية.

س: حسنًا فلنتحدث عن موضوع الحلولية اليهودية، كيف استخدمت نموذج الحلولية في تفسير الصهيونية؟

ج. نعم، إن الفكر الحلولي في بُعده المعرفي يدور، كما بينتُ سابقًا، حول ثلاثة عناصر: (الإله - الطبيعة - الإنسان)، وفي إطار الحلولية اليهودية، يتحوَّل الإنسان إلى الشعب اليهودي، وتتحول الطبيعة إلى الأرض اليهودية (آرتس يسرائيل - أرض المِيعاد)، أما الإله فيتحول إلى المبدأ الواحد الذي يحل فيهما معًا، ولا تختلف هذه الرؤية الحلولية (الدينية) عن الصهيونية العلمانية المادية إلا في بعض التفاصيل، وفي الطريقة التي تسمَّى بها العناصر التي تكوِّن دائرة الحلول. ويمكن التعبير عن هذه الرؤية الحلولية الكُمُونية، اليهودية والصهيونية، على النحو التالي:

الشعب اليهودي ← المبدأ الواحد ← الأرض اليهودية

ويسمى (المبدأ الواحد) (أهم عنصر في الثالوث الحلولي) تسميات عديدة؛ فالمتدينون يسمونه (الإله) (وحدة وجود روحية)، أما المُلحدون فيسمونه تسميات كثيرة: (روح الشعب) - (التراث اليهودي) - (العِرْق اليهودي) - (التوراة بوصفها تعبيرًا عن روح الشعب) (وحدة وجود مادية). ولكن كِلَا الفريقين يري المبدأ الواحد باعتباره الرباط العضوي الذي يربط بين الشعب والأرض، أو القوة التي تَسْري فيهما.

نجم عن حلول الإله في كل من الشعب والأرض أن أصبح الشعب مقدَّسًا وأصبحت الأرض هي الأخرى مقدسة، يختلف الفريقان العلماني والديني في تسمية مصدر القداسة ولكنهما لا يختلفان ألبتة في أن القداسة تسري في الشعب والأرض. وتسمية مصدر القداسة في المنظومات الحلولية ليست أمرًا مهمًا، إذ إن الحلول يجعل المادة المقدسة أهم من مصدر القداسة.

ويتفق العلمانيون والمتدينون على أن المبدأ الواحد (الإله أو روح الشعب) حالٌّ في المادة، كامِنٌ فيها، غير مفارق لها، ومن ثم يستطيع أعضاء الفريقين الصهيونيين؛ الديني والإلحادي، أن يترجموا العناصر الحلولية إلى شعار سياسي مثل: أرض يسرائيل لشعب يسرائيل حسب توراة يسرائيل، وهي صيغة تفترض علاقة عضوية صارمة بين العناصر الثلاثة تمنح أعضاء هذا الشعب حقوقًا مطلقة، وتصبح توراة يسرائيل كتابًا مقدسًا مرسلًا من الإله بالنسبة إلى الصهاينة الدينيين، أو كتاب فلكلورٍ يعبِّر عن روح الشعب بالنسبة للصهاينة الملحدين. وبينما يؤكد الحاخام كوك (الأب الروحي والفكري لجماعة جوش إيمونيم)، على سبيل المثال، أن روح الإله وروح يسرائيل شيء واحد، أي إن الشعب في قداسة الرب، فإن فلاديمير جابوتنسكي يشير إلى الشعب اليهودي بوصفه ربه، ويشير موشيه ديان إلى الأرض باعتبارها ربّه أيضًا، وصياغة كوك الدينية وصياغة جابوتنسكي وديان الإلحادية متشابهتان تمامًا في بِنْيتهما؛ فكلتاهما تنتهي إلى شعب مقدس له حقوق مطلقة في أرضه المقدسة؛ فهو شعب حل الإله فيه وفي أرضه، حسب صياغة كوك، فهو شعب/ إله، وأرض/ إله في صياغة الملحدين، والفارق بين الصياغتين أمرٌ شكليٌّ.

وقد قال نوفاليس إنه لا يوجد فرق كبير بين أن أقول: (أنا جزء من الإله) أو أقول: (إن الإله جزء مني)، ولا فارق بين أن أقول: (إن الإله هو العالم) أو أن أقول: (إن العالم هو الإله). ويمكننا القول بأنه لا يوجد فرق كبيرٌ بين أن يقول الصهيوني المتدين: (الإله هو الشعب)، وأن يقول الصهيوني المُلحد: (إن الشعب هو الإله)؛ فالمسافة بين الكل والجزء تختفي فيصبح الكل هو الجزء، ويصبح الشعب هو الإله.

واكب هذه الحرفية في التفسير ظهور ديباجات علمانية حلولية، فالشعب في الخطاب الصهيوني أصبح الشعب العضوي (فولك)، وهو مفهوم يصدر عن الإيمان بأن ثَمة وحدة وجود (عضوية) تربط الشعب (العضوي) وأرضه وتراثه، وأن الجميع تَسري فيهم روح واحدة هي مصدر الترابط العضوي

هذا، الذي لا تنفصِم عُراه، وهذه الفكرة فِكْرة حلولية تجعل الذات القومية موضع التقديس وتخلع عليها المُطلقية، والنَّسق الفلسفي الكامن وراءها نسق مغلق؛ إذ إن هذه الذات تصبح مرجعية نفسها، وهي البداية والنهاية، وحتى برامجها السياسية تصبح مقدسة. وعادة ما تصل هذه النماذج إلى لحظة تحقُّقها في لحظة نهاية التاريخ والفردوس الأرضي، وحين تتجلَّى في مناحي الحياة كلها، وتتجسَّد من خلالها.

س: ما هي أهم تبديات الحلولية في الخطاب السياسي الصهيوني؟

ج: تتبدَّى الحلولية في موقف كل من المتدينين والملحدين من الجيش الإسرائيلي. فقد ذهب الحاخام تسفي كوك، حفيد الحاخام إسحاق كوك، إلى أن الجيش الإسرائيلي هو القداسة الكاملة، وهو الذي يمثِّل حكمَ شعب الإله فوق أرضه. ولا يختلف الملحدون الحلوليون عنه في موقفهم من الجيش، فهم، عند احتفالهم بعيد الاستقلال على سبيل المثال، يغيرون منطوق المزمور ١١٨/ ٢٤ الذي يقول: (هذا هو اليوم الذي صنعه الرب) بحيث يصبح: (هذا هو اليوم الذي صنعه تسهال)؛ أي الجيش الإسرائيلي (مصدر التماسك والوحدة العضوية)، وقد أسس الصهاينة دولتهم الصهيونية، بحيث تكون الإطار الشعائري (الحلولي المادي) الذي يعزل اليهودي عن العالم، فهي الدولة الجيتو التي تحيط المواطن برموز وشعارات يهودية، وهي الأداة التي يتحقَّق من خلالها الثالوث الحلولي المقدس.

س: هل هذا يعني أنه لا يوجد أي اختلاف بين الدينيين والعلمانيين؟

ج. لا، بطبيعة الحال، فثمة اختلافات؛ فحلولية المُلحدين هي وحدة وجود مادية؛ أي حلولية من دون إله، على عكس حلولية المتدينين، فهي تنبع من وحدة الوجود الروحية؛ ولذا، نجد أن الدولة بالنسبة إلى الدينيين هي أهم تجلٍّ للإله، أما بالنسبة إلى الملحدين، فهي ليست تجليًا، وإنما هي نفسها موضع التقديس. وعادة ما يسوَّى هذا الخلاف بالطرق اللفظية السلمية. فعلى سبيل المثال، حين نوقش إعلان دولة إسرائيل، أصرَّ المتدينون على ذكر عبارة

العناية الإله، فرفضها اللادينيون، وتم حل المشكلة باستخدام عبارة «تسور يسرائيل»؛ أي (صخرة إسرائيل)، وقد اختيرت العبارة عن عمدٍ لإبهامها، فهي قد تَعْني الملك المقدس الذي يتوجه إليه اليهودي المتدين، كما أنها قد تكون هوية إسرائيل الجمعية الصخرية (الصلبة) والإرادة القومية التي تحدث عنها روسو (وآحاد هعام من بعده)، والتي توجِّه مصير الأمة؛ أي إن العبارة تعني «الإله الذي يحل في الشعب ويجعله مطلقًا» بالنسبة إلى المتدينين، وتعني (الذات القومية ومصدر المطلقية وموضع القداسة) بالنسبة إلى غير المتدينين.

س: هل لاحظ أحد هذه السِّمة في الإيديولوجية الصهيونية؟

ج. نعم، وقد وضع كثير من اليهود وغير اليهود من أعداء الصهيونية أيديهم على هذه الخاصية في الصهيونية واعتبارها (وحدة وجود روحية) تم تحويلها إلى (وحدة وجود مادية). وقد أشار بعض الحاخامات إلى دولة إسرائيل باعتبارها (العِجْل الذهبي الجديد الذي يعبده اليهود، شيء مادي ألَّهه اليهود بدلًا من الخالق. وكما احتج الحاخام جرسون كوهين بقوله: «إن كثيرًا من يهود العالم يتصورون أن إسرائيل هي معبدهم الأساسي، وأن رئيس وزرائها حاخامهم الأكبر». وقد ظهرت في ألمانيا، في الثلاثينيات، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذين أدركوا العناصر الفكرية المشتركة بين النازية والصهيونية (باعتبارهما إيديولوجيتين حلوليتين وثنيتين) وأبعادهما العَدَمية، ومن هؤلاء هاينريش فريك الذي حذر اليهود من فكرة الشعب العضوي التي يدافع عنها النازيون والصهاينة، كما عرَّف كلًا من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا الأرضية (الارتباط بالأرض) والدنيوية (الارتباط بالدنيا) - وهي أمور مادية إلى كيانات ميتافيزيقية؛ أي إلى دين. أي إنهما انتقلتا من وحدة الوجود المادية إلى وحدة الوجود الروحية ليتسَربَلَ إلحادهم العدمي برداءٍ روحي!

وأشار فريك إلى أن النازية والصهيونية تتبنَّيان صورة مجازية عضوية؛ فألمانيا كيان عضوي متماسك، واليهود كيان عضوي متماسك؛ ولذا لا يمكن لكيان عضوي أن يستوعب الآخر، والمحصلة النهائية هي القول بأن ألمانيا

لا يمكنها أن تقبل اليهود أو تظهر التسامح تجاههم.

وفي عام ١٩٢٦، حدد فيلي ستارك ما تصوّره موقف المسيحية من مسألة الشعب العضوي (أي الشعب الذي يرتبط أعضاؤه برباط عضوي لا تنفصم عُراه؛ رباط يربطهم الواحد بالآخر، كما يربطهم بتراثهم وبأرضهم)، فأشار إلى نقاط التشابه بين الصهيونية والنازية، فكلتاهما تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية؛ الدم والتربة (الشعب والأرض في الثالوث الحلولي)، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية، وفي ممالك الأرض بدلًا من مملكة السماء، ومن ثم توصل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي (فولك) اليهودية أو النازية. كما توصّل إلى أن كلًّا من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسِّس الهيكل الثالث؛ أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث؛ أي الدولة النازية)، تجسيدٌ لعدم فهم البعد المجازي في العقيدة الألفية الاسترجاعية في المسيحية. ومن ثم، فإن كلتا الحركتين ضرْبٌ من ضروب المشيحانية السياسية، التي تحول الدنيوي (المدنَّس) إلى مقدَّس، وبذلك يمثل كل منهما تهديدًا لليهودية والمسيحية، بل وللجنس البشري بأسره.

س: كيف ينجح الخطاب الصهيوني في تمرير مفاهيمه وتحيزاته؟

ج. ثمة آليات كثيرة، ولنحاول أن نحصر بعضها:

١- استخدام مصطلحات دينية مثل (إسرائيل) و(أرض الميعاد) و(الشعب المختار) في سياقات تاريخية زمنية، فالشعب المختار في العقيدة اليهودية ليس شعبًا بالمعنى السياسي الحديث، وإنما جماعة دينية مختارة طالما أنها متمسكة بعقيدتها، ولكن الصهاينة جعلوا كلمة شعب تعني شعبًا بالمعنى الحديث ولا يهم الإيمان بالعقيدة اليهودية من عدمه. والشيء نفسه يحدث مع الهجرة الاستيطانية (عالياه) والتي تعني الصعود والعلو؛ فكأن الهجرة إلى فلسطين بالنسبة إلى اليهودي تجربة روحية وليست عملية استيطانية دموية.

وهذا بطبيعة الحال ليس له ما يسنده في الواقع.

٢- تغليب عنصر المكان وإسقاط الزمان؛ فأرض الميعاد تقع خارج التاريخ؛ ولذا يُعد الوجود العربي وجودًا عرضيًّا.

٣- استخدام مصطلحات لكل منها معنيان؛ معنًى معجمي مباشر، ومعنًى سياسي كامن؛ فحينما يتحدث الصهاينة عن (القانون الدولي العام) فهم يتحدثون في واقع الأمر عن القانون الغربي، والشيء نفسه حين يتحدثون عن (السلام) أو (الحوار).

٤- أيقنة بعض العبارات والظواهر والدول كأنها مطلقات لا يمكن مناقشتها وكأنها أيقونة يتجسد الإله من خلالها؛ مما يعني أن هذه ظاهرة فريدة لا تتكرَّر مثل (ستة ملايين يهودي) و(الاعتراف بإسرائيل).

٥- إشاعة بعض الصور والصيغ اللفظية التي تختزل الواقع مثل (إسرائيل واحة الديمقراطية) أو إسرائيل باعتبارها (داود الصغير يُقاتل طالوت الكبير).

٦- التأرجح المستمر والمُتعمَّد بين أعلى مستويات التعميم والتجريد وأدنى مستويات التخصيص؛ فحين يكون الخطاب عن اليهود فالحديث يكون عن حق اليهود الأزلي في العودة إلى أرض الأجداد، أما إذا كان الحديث موجَّهًا إلى العرب، فيكون الحديث عن ضرورة تناسي الماضي وقبول الأمر الواقع. وثمة حديث عام عن حق اليهود في فلسطين ولكن في المفاوضات كلها لا يمكن التوجُّه لمشاكل الحل النهائي.

٧- استخدام مصطلحات تبدو محايدة، ولكنها تقوم بتغييب العرب؛ فالمستوطنون هم مجرد (رواد) ولكن كلمة (رواد) تعني أنهم جاءوا إلى أرض خالية من السكان لم يكتشفها أحد من قبل مما يعني تغييب العرب. بل إن كلمة (إسرائيل) نفسها تعني أن فلسطين ليس لها وجود.

٨- الخلط المتعمد بين الدوال فيتم الخلط بين مفردات مثل صهيوني ويهودي وإسرائيلي، مع أن الصهيوني ليس بالضرورة يهوديًّا، فثمة صهاينة

مسيحيون وصهاينة لا ملَّةَ لهم ولا دين، واليهودي ليس بالضرورة صهيونيًّا، فثمة آلاف اليهود من غير المكترثين بالصهيونية، بل معادين لها. وليس كل الإسرائيليين صهاينة، فثمة إسرائيليون يرفضون الصهيونية وثمة من يرى أنها إيديولوجية لعبت دورًا في تأسيس الدولة ولم يَعُد لها أي فعالية.

٩- استخدام دال يشير إلى دوال مختلفة فمصطلح مثل (الشعب اليهودي) يشير إلى الجماعات اليهودية غير المتجانسة كلها، كما يشير إلى الإسرائيليين، ومصطلح (حدود إسرائيل) مصطلح مطاط، فهو أحيانًا يشير إلى حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات، وينكمش أحيانًا فيشير إلى حدود إسرائيل من النهر إلى البحر (أي من نهر الأردن حتى البحر الأبيض المتوسط)، ولدينا الحدود المقدَّسة التي ورد ذِكرها في التوراة وهذه بدورها حدود بلا حدود، فقد أتى في العهد القديم ثلاثة أو أربعة خرائط مختلفة للأرض المقدسة، وظهر مؤخرًا مصطلح (الحدود الآمنة) وهي حدود يحددها المزاج الإسرائيلي وموازين القوى، وكذا جدار الفصل العنصري الذي يريد تحديد حدود إسرائيل بطريقة تروق للمؤسسة الصهيونية.

١٠- لكن من أهم آليات الخطاب المراوغ إخفاء مرجعية المصطلحات فحيث حينما يتحدثون عن السلام فهم لا يذكرون أن السلام بالنسبة إليهم يعني ضم الأراضي وعدم فك المستوطنات، وهذا الموقف يتضح حينما يحاول العرب الحديث عن الشرعية الدولية باعتبارها مرجعية المصطلح.

١١- لكن أهم الآليات المراوغة هي تجاهل الأصول التاريخية للظاهرة والسياق التاريخي للمصطلح أو المفهوم. فعلى سبيل المثال، الادعاء بأن سبب الصراع هو رفض العرب قرار التقسيم أو كُره العرب لليهود، وأن المقاومة (أي الإرهاب في المصطلح الصهيوني) هي رفض العرب للآخر، هذا الادعاء يهدف إلى تحويل الأنظار عن سبب الصراع الحقيقي أي الاستعمار الصهيوني الاستيطاني الإحلالي الذي أتى بكتلة بشرية من الغرب ووطَّنها في أرض الفلسطينيين وطرد السكان الأصليين.

س: وبهذا نجح الصهاينة في ترويج كثير من مقولاتهم الفكرية؟

ج: نعم، ولهذا يجب أن نفرِّق بين الدعاية الصهيونية من جهة، ومن جهة أخرى بِنْية الفكر الصهيوني ومنطقه الداخلي. لقد نجحت الدعاية الصهيونية في ترسيخ بعض المفاهيم في الوجدان الغربي من بينها أن الجماعات اليهودية المختلفة هي في واقع الأمر أمة يهودية واحدة، لا بد من جمع شمل أعضائها لتأسيس دولة يهودية في فلسطين، بل نجحت الدعاية الصهيونية في إعطاء الاستعمار الصهيوني بعدًا دينيًّا من خلال الصهاينة المسيحيين. وقد التزم الصهاينة الصمت الكامل حِيال العرب إما لتغييبهم تمامًا وإما لمحاولة تشويه صورتهم إن كان ثمة ضرورة لذِكْرهم. كما رسَّخ الإعلام الصهيوني قضية البقاء؛ فالدولة الصهيونية ليست دولة معتدية استولت على الأرض الفلسطينية وطردت سكانها، وإنما هي تحاول الحفاظ على بقائها وأمنها فحسب، وقد ركزت الدعاية الصهيونية على حقوق اليهود التاريخية والمطلقة في فلسطين و(حق) عودتهم بعد ألفي عام من الغياب، وتجاهلت تمامًا حق عودة الفلسطينيين إلى منازلهم بعد غيابٍ لا يتجاوز أحيانًا ثلاثين عامًا. وتؤكد الدعاية الصهيونية أن إسرائيل واحة للديمقراطية الغربية في وسط عالم عربي تحكمه نظم شمولية. كما يلاحظ أن الدعاية الصهيونية تؤكد دائمًا أن اليهود هم الضحية الأزلية الدائمة؛ لذلك ومع كل ما ترتكبه إسرائيل من جرائم، تظل الخريطة الإدراكية المسيطرة على الإنسان الغربي هي اليهودي باعتباره الضحية، ولذا يجب أن تكون مهمة الفكر العربي والإعلام العربي توضيح كذب هذه الادعاءات حتى تهتز الخريطة الإدراكية التي نجح الصهاينة في إشاعتها في أرجاء العالم بما في ذلك العالم العربي ذاته.

س: كيف يمكن تجاوز هذه المراوغة وهذا الاختراق المعرفي والمفاهيمي والمصطلحي؟ وكيف يمكن فكّ رموز الخطاب الصهيوني؟

ج. إذا كان الهدف من الحِيل البلاغية كلها هو فصل الأسباب عن النتائج، والحدَث عن الدوافع، والواقعة عن السياق (فصل أ عن ب) فإن محاولة فك

رموز الخطاب الصهيوني يجب أن تأخذ شكل ربط (أ) بـ (ب). ويمكن إنجاز هذا عن طريق وضع الظاهرة -الحدث- المعلومة في سياقها التاريخي وربطها بأحداث مماثلة تاريخية واجتماعية. وقد ضربنا مثلًا باضطهاد الجماعة اليهودية في روسياالقيصرية، وربطناه باضطهاد الأقليات والشعوب الأخرى كلها.

س: أثمة خطوات منهجية أخرى على الباحث أن يتبعها في دراسته للصهيونية؟

ج. يجب على الباحث أولًا ألّا يتأرجح بين العام المغرق في العمومية والخاص المغرق في الخصوصية؛ فلا ينظر للصهيونية باعتبارها جزءًا من التحرك الرأسمالي الإمبريالي العالمي أو تعبيرًا عما يسمى البرجوازية اليهودية، كما أن الصهيونية ليست تعبيرًا عن الخصوصية اليهودية أو هذه الواقعة أو تلك الواقعة، يجب على الباحث أن يجد النقطة التي يلتقي فيها العام بالخاص.

- ويجب أن يلاحظ الباحث التحولات التي تطرأ على الواقع؛ وعدم التمسك بالرؤية السائدة، فالمصطلح والمفهوم الكامن وراءه ينحت في لحظة تاريخية معينة نتيجة لأسباب معينة وواقع معين، ولكن الأسباب والمصالح تتغير والواقع يتبدل؛ ولذا فالمصطلح يفقد دلالته وقد يكتسب دلالة جديدة، وقد لا يكتسب أي دلالة وبذلك يؤدي إلى سوء الفهم وعدم إدراك الواقع، على سبيل المثال، تصور أن المستوطن الصهيوني مقاتل متمرس شرس، ولكن بعد عام ١٩٦٧ تغير الوضع ومع تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة بدأ هذا المستوطن يتراخي وتقل عنده النزعة القتالية، وهذا ما كان يعنيه السيد حسن نصر الله، بالإشارة إلى التجمع الصهيوني على أنه خيوط العنكبوت.

- البعد عن المقولات التحليلية ذات الأصل التوراتي مثل المنفَى، والعودة، والشَّتات، فهي تُدخل الباحث في متاهات لا علاقة لها بالواقع الاستيطاني الصهيوني.

- البعد عن استخدام مصطلحات عامة مثل (اليهود بشكل عام) أو (الشخصية اليهودية) أو (التاريخ اليهودي) أو حتى (المسألة اليهودية)؛ فهذه كلها المصطلحات تنبع من المفهوم الصهيوني المحوري الخاص بالوحدة

اليهودية وأن اليهود شعب واحد مستقلّ عن الشعوب الأخرى، له تاريخ واحد مستقل عن التواريخ الأخرى، وأن اليهودي له شخصية مستقلة، وأن ثمة خصوصية يهودية. لكن الواقع التاريخي يكذِّب هذا كله؛ فيهود الولايات المتحدة لا توجد علاقة كبيرة بينهم وبين يهود إثيوبيا أو يهود مصر؛ ولذا من الأفضل استخدام مصطلح (الجماعات اليهودية). كما أن المسألة اليهودية في شرق أوربا كانت مختلفة عنها في غربها.

لا بد من البحث عن المصطلح البديل فإذا كانت الدياسبورا كما بيَّنا ليست نفيًا بالفعل فلنُسمِّها إذن (انتشار)، شأنها شأن أي انتشار إنساني آخر، وانتقال اليهودي إلى «فلسطين» بدلًا من «عاليا»، أي علو وتجاوز، فلنسمه (الهجرة الاستيطانية)، وإذا كانت الصهيونية المسيحية، لا علاقة لها بالمنظومة الأخلاقية المسيحية، فلنشر إليها باعتبارها (الصهيونية ذات الديباجة المسيحية)، من الضروري معرفة أن العملية البحثية تنقسم إلى قسمين: القسم الأول هو عملية التحليل والتفكيك، ويجب على الباحث ألَّا يسقط مُعتقداته وآماله ومشاعره على الظاهرة حتى يُدركها حسب منطقها الداخلي، ثم تبدأ عملية إعادة التركيب، وهنا يجب أن يتحرك خياله ووجدانه وعقله ومعتقداته.

- كما يجب على الباحث ألَّا يتقبَّل الإحصاءات والأرقام باعتبارها نهائية، بل يجب أن ينظر إليها على أنها مادة وثائقية تحتاج للتصنيف والتفسير.

- لا بد من إدراك البُعد الاستيطاني في المصطلح الصهيوني؛ فحين يقول الصهاينة إن إسرائيل دولة يهودية، فيجب معرفة أن اليهودية هنا هي الإيديولوجية الصهيونية التي تعطي اليهود الحق المطلق في استيطان فلسطين أي الاستيلاء عليها وطرد سكانها.

- كما يجب أن يدرك الباحث ما أُسميه اصطلاحيَّة المفردات الصهيونية/ الإسرائيلية؛ فكلمة الديمقراطية في السياق الإسرائيلي تعني ديمقراطية المستوطنين وحسب، وكلمة (الاقتصاد الإسرائيلي) لها معنى محدَّد فهو اقتصاد استيطاني يعتمد على الدعم المالي الأمريكي بشكل غير مسبوق في

تاريخ البشرية، ومعايير الجدوى الاقتصادية لا تنطبِقُ عليه، فمشروع بناء المستوطنات في الضفة الغربية لا تنطبق عليه هذه المعايير.

س: وكيف تتعامل مع ادعاء الصهيونية بأنها (القومية اليهودية) وأنها بذلك حركة تحرير يهود العالم؟

ج. للإجابة عن هذا السؤال، يَجْدُر في البداية إلقاء الضوء على الدين اليهودي وبعض سماته الأساسية. فالملاحظ أن الدين اليهودي، على خلاف الديانات السماوية الأخرى، يمزج، على مستوى المصطلح على الأقل، بين فكرة (الشعب) بالمعنى العِرْقي وفكرة (الأمة) بالمعنى الديني، وعلى الرغم من تداخل (الزمني) بالمقدس و(القومي) بالديني في اليهودية، فقد ظلت (القومية اليهودية) إمكانية فكرية كامنة تعبِّر عن نفسها بشكل روحي عاطفي لا يتعدى نطاق الصلوات والدعوات، مثل (اللقاء العام القادم في أورشليم).

وقد ساهم إحساس اليهود بواقع حياتهم في إخماد الشعور بالانتماء القومي الوهمي؛ فلم يسجل تاريخ الجماعات اليهودية أي حركات منظمة للعودة لأرض الميعاد، وظل ارتباطهم بالأرض أشبه بارتباط المسيحي أو المسلم بأرضه المقدسة.

ومع هذا، يمكن الإشارة إلى سمة خصوصية انفرد بها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي وهي تحولهم إلى جماعات وظيفية تعمل بالتجارة والربا، ومن سمات هذه الجماعات الوظيفية أنها تشعر بالغُربة في مجتمع الأغلبية، ومع أنها تستمد خطابها الحضاري من هذا المجتمع، فإنها تتصور أنها ذات هوية مستقلة وأن لها وطنًا آخرَ (صهيون)، فتنعزل عن هذا المجتمع، وتبدأ في الإحساس بأنها أقلية (إثنية) مع أنها في واقع الأمر (جماعة وظيفية)، مما أوجد نوعًا من الإبهام. ولكن حُسم هذا الإبهام مع عمليات التحديث والاستنارة فقامت قيادات الجماعات اليهودية إما بإلغاء الصلوات ذات الطابع (القومي) (اليهودي)، أو تفسيرها بطريقة تطهرها من مضمونها العِرْقي أو الإثني، وذلك من أجل تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه وقصر انتمائه اليهودي على الدين وحده.

ولكن الصهاينة، ممثلي العقلية الجيتوية، وقفوا ضدَّ التيار الإصلاحي وراحوا يعملون على تحويل (الإحساس الديني) بالانتماء إلى جماعة دينية واحدة، والارتباط العاطفي بالأراضي المقدسة اليهودية، إلى (شعور قومي) و(برنامج سياسي)، وقالوا: إن اليهود شعب واحد بالمعنى العرقي أو الإثني، وإن لهم قوميتهم المستقلة. مع أن الواقع التاريخي مختلف تمام الاختلاف عن هذا التصور؛ فاليهود ليسوا شعبًا، بل جماعات متناثرة تستمد كل جماعة خطابها الحضاري من المجتمع الذي تعيش فيه؛ فيهود أمريكا أمريكيون يهود، ويهود المغرب مغاربة يهود، وأكبر دليل على أن اليهود ليسوا شعبًا أنه بعد إنشاء الدولة الصهيونية التي تدَّعي أنها دولة الشعب اليهودي بأسره، لا تزال غالبية هذا الشعب مُستقرة في أوطانها الحقيقية، وأنه بعد هجرة أعضاء الشعب الوهمي إلى (وطنهم القومي الوهمي) اكتشفوا أنهم ليسوا يهودًا بشكل عام وإنما إشكناز وسفارد وفلاشاه، إلى آخر هذا (الكتالوج)، بل إنهم لم يتوصلوا بعد لتعريف من هو اليهودي، وأن الدولة الصهيونية لم تحررهم من الأسر وإنما أوقعتهم في فخٍّ جغرافي وورطة تاريخية!

س: ما هي جذور الفكر الصهيوني؟

ج: الفكر الصهيوني ليس نِتاجًا للتراث الديني اليهودي ولا نِتاجًا لحركة ثقافية يهودية، بل هو نتاج مباشر للفكر الاستعماري الغربي، ومن هنا أعتقد أن ثمةَ خللًا أساسيًّا في رؤيتنا لتاريخ الحركة الصهيونية. التاريخ يُكتب دائمًا من وجهة نظر متحيزة، وتاريخ المقهورين عندما يُكتب بأيدي القاهرين من الطبيعي أن يُعبِّر عن تحيزاتهم، كما حدَث مثلًا في تاريخ إفريقيا؛ فقد قال المؤرخون الغربيون: إن إفريقيا كانت تضم شعوبًا همجية وإن الإنسان الغربي هو الذي أدخل الحضارة، وهذه التواريخ الغربية لم تذكر شيئًا عن عشرات الملايين من الشباب الذين هُجِّروا قسرًا إلى الولايات المتحدة، ولم تذكر شيئًا عن عمليات النهب المستمرة، كما لم تذكر شيئًا عن الإمبراطوريات الضخمة في إفريقيا والتشكيلات الحضارية الثرية فيها، والتواريخ التي كتبها الصهاينة

تنتمي إلى النمط نفسه؛ فالصهاينة هم الذين كتبوا التاريخ الصهيوني، ولذلك يبدءون بالمؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧، وحينما يحاولون أن يتعمقوا قليلًا يذكرون الجماعات الصهيونية مثل أحباء صهيون وغيرها من جماعات صهاينة روسيا وشرق أوربا، لكنهم لا يذكرون شيئًا عن النزعة الصهيونية المتأصلة في الفكر البروتستانتي وفي الفكر العلماني الغربي، ولا يذكرون أن البدايات الحقيقية للفكر الصهيوني كانت في إنجلترا في القرن السابع عشر في بعض الأوساط البروتستانتية المتطرفة التي نادت بالعقيدة الاسترجاعية؛ أي ضرورة عودة اليهود إلى فلسطين شرطًا لتحقيق الخلاص وعودة المسيح. وقد تبنَّت الأوساط الاستعمارية العلمانية في إنجلترا هذه الأطروحات وعلمنتها، ثم بلورتها بشكلٍ كامل في منتصف القرن التاسع عشر على يدِ مفكرين غير يهود، بل معادين لليهود واليهودية، هما لورد شافتسبري الذي تحتوي كتاباته على المقولات الأساسية الصهيونية كلها، والسير لورانس أوليفانت الذي حاول تحويل المشروع الصهيوني إلى حقيقة استيطانية وأنشأ مستوطنة صهيونية. والتواريخ الصهيونية الآن لا تذكرهما، وإن كان ناحوم سوكولوف في كتابه (تاريخ الصهيونية)- وهو كتاب قام بتأليفه بتكليف من المنظمة الصهيونية في أوائل القرن العشرين- يذكُر هذين المؤلِّفَين وغيرهما من المفكرين الصهاينة غير اليهود؛ لأن الصهاينة ساعتها كانوا يحاولون توضيح أن الصهيونية جزء من الحضارة الغربية، كما تذكر شيئًا عن المرحلة التي أعقبت إجهاض تجربة محمد علي؛ لأن التفكير الصهيوني في الغرب عند هذه النقطة بدأ يتحرك من الهامش الرومانسي والديني إلى الوسط السياسي، هذا كله لا تذكره التواريخ الصهيونية وإن ذكرته فبشكلٍ هامشي، مع ملاحظة أن هذا الفكر نما وتبلور قبل ظهور هرتزل وقبل ظهور الفكر الصهيوني بين المفكرين اليهود. ولا تذكر التواريخ أيضًا أن كثيرًا من الشخصيات الداعية للفكر الصهيوني كانت معادية لليهود وتُكِنُّ لهم الكره تمامًا مثل بلفور صاحب الوعد الشهير، الذي كان كارهًا لليهود ومعاديًا لهم، وكان يرى أن اليهود عبء على الحضارة الغربية.

س: لماذا استخدمت في كتابك مصطلح (الوعود البلفورية) وليس وعد بلفور؟

ج. مصطلح (الوعود البلفورية) يعني أن ثمة نموذجًا كامنًا متكررًا في الحضارة الغربية، يجعلها تنحو منحى (صهيونيًّا)، والوعود البلفورية هي مجموعة من التصريحات التي أصدرها بعض رجال السياسة في الغرب تعبِّر عن هذا التوجُّه، وجوهرها هو الدعوة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ونقل يهود العالم الغربي إليها، مما يعني تخليص أوربا منهم، وكان من الضروري القول بأن لليهود حقوقًا مطلقة في فلسطين، على حين لا توجد أي حقوق لسكانها الأصليين، وكانت هذه التصريحات تهدف إلى أن يكون نقل اليهود هو مقدمة لتأسيس دولة يقوم الغرب بتمويلها ودعمها اقتصاديًّا وعسكريًّا، على أن تكون وظيفتها هي خدمة مصالح الدولة الغربية التي تقدم الدعم، ومن ثم فإن الدولة الصهيونية هي دولة وظيفية، وهذه هي العناصر الأساسية في كل الوعود البلفورية التي تَدعَم هذه الدولة وتضمن بقاءها واستمرارها.

وليس من قَبيل الصدفة أن أول غازٍ للشرق في العصر الحديث، وهو نابليون بونابرت، كان أيضًا أول من أصدر وعدًا بلفوريًّا، يتضمن معظم العناصر التي يتضمنها وعد بلفور، والوعود الأخرى.

كما صدر وعد بلفوري ألماني في أيلول/ سبتمبر ١٨٩٨، وكان عبارة عن خطاب من دوق إيلونبرج باسم حكومة القيصر إلى هرتزل جاء فيه أن القيصر على استعداد أن يأخُذَ على عاتقه مسئولية محمية يهودية في حالة تأسيسها.

ومن الأمثلة الأخرى على الوعود البلفورية، الوعد البلفوري الروسي القيصري. فقد قام هرتزل، بتفويض من المؤتمر الصهيوني الخامس ١٩٠١، بمقابلة فون بليفيه، وزير الداخلية الروسي المُعادِي لليهود، حتى يحصل على تصريح يعبر عن نيات الروس يتلوه في المؤتمر الصهيوني السادس المُزمَع عقده سنة ١٩٠٣. وبالفعل، صدَر الوعد البلفوري القيصري في شكل رسالة وجَّهها بليفيه إلى هرتزل، وجاء فيها:

«ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين، وتنظيم

هجرة اليهود الروس، فمن المؤكد أن تظل الحكومة الروسية تحبِّذ ذلك، وتستطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسيا إذا ساعدت الإجراءات العملية التي يفكِّر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسيا».

ويمكن القول إن الغرب لا يزال ملتزمًا بوعوده البلفورية ولا يزال يؤكدها؛ ففي المؤتمر الصحفي الذي عقد في واشنطن يوم ١٤ إبريل/ نيسان ٢٠٠٤، كشف شارون وبوش عن رسائل متبادلة بينهما قبل وصول شارون إلى البيت الأبيض تضمنت تقديم وعود وضمانات أمريكية لتنفيذ خطة شارون بالانسحاب من قطاع غزة. من بينها ضرورة تخلِّي اللاجئين الفلسطينيين عن حق العودة إلى أراضي عام ١٩٤٨، وأن لإسرائيل الحق في الاحتفاظ ببعضٍ (المستوطنات) (المستعمرات) في الضفة الغربية، وأنه من غير الواقعي توقُّع اتفاق سلام نهائي بانسحاب إسرائيل إلى حدود ما قبل ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، على اعتبار أن هذه الحدود ليست مقدسة ومن ثَم يمكن تجاوزها، وأن الفلسطينيين والعرب عليهم الاعتراف بالأمر الواقع الجديد.

س: إذن ما هو دور هرتزل والمنظمة الصهيونية العالمية؟

ج: هرتزل صحفي نمساوي من الدرجة الثالثة لا يتمتَّع بأي عمق ولكنه كان يتسم بذكاء سطحي وسرعة بديهة، ولذا اكتشف أن يهود شرق أوربا الذين هاجروا بأعداد كبيرة إلى غربها يشكلون عبئًا على الغرب، وكان هو نفسه يعيش في النمسا في فيينا التي كان يوجد فيها في بداية القرن التاسع عشر خمسة آلاف يهودي مندمجين في مجتمعهم، ولكن مع نهاية القرن كان هناك أكثر من مائة ألف يهودي من شرق أوربا يرتدون أزياء مختلفة ويتحدثون اليديشية وهي رطانة ألمانيا كانوا يستخدمونها في الحديث فيما بينهم وفي الغش التجاري، ولم يكن عندهم أي كفاءات تؤهلهم للاندماج في المجتمع. اكتشف هرتزل أن مثل هذه الجماعة البشرية المهاجرة تشكل عبئًا على الحضارة الغربية فوجد أن الحل الوحيد هو التخلص منهم عن طريق تحويل سَيْل الهجرة إلى خارج أوربا، وأن الحل الصهيوني الذي يطالب بتوطين اليهود الفائضين عن

الحاجة في فلسطين هو حل أمثل لهذه القضية. ولكن الأهم من هذا أن هرتزل اكتشف أنه لا يمكن تنفيذ أي مشروع، بما في ذلك المشروع الصهيوني، إلا من خلال القوى الإمبريالية الغربية، وأنه كي يخلص أوربا من اليهود يمكن نقلهم خارجها تحت مظلة الإمبريالية الغربية على أن يقوموا على خدمتها.

وقبل ظهور هرتزل في أواخر القرن التاسع عشر، لم يكن فكري صهيوني بين اليهود؛ فاليهودية تحرم العودة إلى فلسطين، وتعد مثل هذا الفعل كفرًا وتجديفًا. ولكن مع تعثُّر التحديث في روسيا (وبولندا) التي كانت تضم غالبية يهود العالم، ومع الانفجار السكاني الذي حدث في صفوف الجماعات اليهودية فيها، تحولت روسيا القيصرية إلى بلد طارد لليهود، وبدأت الألوف بالهجرة إلى وسط أوربا وغربها والأمريكتين. وقد تصورت بعض هذه البلاد أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إليها بهذه الأعداد- خاصة أن أعدادًا كبيرة منهم لم تكن عندها الكفاءات المهنية أو الحرفية أو الثقافية اللازمة للاندماج في المجتمع، كما أن بعضهم كان يعمل في أعمال هامشية طفيلية- تصوَّرت هذه البلاد أن هؤلاء اليهود يهدِّدون أمنها الاجتماعي، ولذا كان لا بد من تحويل سَيل الهجرة للتخلص منهم، وظهر في شرق أوربا نفسها جماعات صهيونية صغيرة تُطالب بتهجير اليهود إلى أي مكان في العالم وليس بالضرورة فلسطين، وفي هذا الإطار ظهرت مشاريع استيطانية عديدة مثل مشروع توطين أعضاء الجماعات اليهودية في الأرجنتين أو في شرق إفريقيا، ثم صدر أخيرًا وعد بلفور. وأنا أسمِّي وعد بلفور (العقد الصامت بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية العالمية)، وجوهر هذا العقد أن يقوم الصهاينة بنقل الفائض البشري اليهودي من الغرب إلى فلسطين ليؤسِّسوا جيبًا استيطانيًّا، في مقابل أن يقوم الغرب بحماية هذا الجيب الاستيطاني ودعمه وتمويله كما هو حاصل الآن.

س: هذه هي التربة التاريخية والعوامل الاجتماعية التي أدت إلى ظهور الصهيونية، ولكن ما هي العناصر الفكرية والأُطر المعرفية؟

ج. أنتِ مُحقة في سؤالك هذا؛ فالتربة التاريخية والعوامل الاجتماعية

ضرورية لظهور ظاهرة ما، ولكنها ليست كافية إذ لا بد أن يكون هناك إطار حضاري وفكري ومعرفي كي تتحققَ العوامل الكامنة وتصبح ظاهرة، وأعتقد أن هذا الإطار هو الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية. فثمة علاقة بنيوية بين الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والتشكيل الاستعماري الغربي من جهة، والصهيونية من جهة أخرى. والرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية مبنية على تصدير المشاكل للخارج بشكلٍ يدفع بقية العالم فواتير التقدم الأوربي، والحل الصهيوني بهذا المعنى هو حل إمبريالي مبني على تصدير المسألة اليهودية إلى فلسطين لحلِّ مشاكل أوربا وتوظيف العنصر البشري لصالحها. أما على المستوى السياسي فقد قامت الإمبريالية الغربية بتأسيس الدولة الصهيونية حتى أصبحت قاعدة للاستعمار الغربي تَدين له ببقائها وتقوم على خدمته، فهي دولة وظيفية تابعة للإمبريالية الغربية، والرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية تجعل الإنسان الغربي مركز الكون وتُسبغ عليه محورية وقداسة ومطلقية؛ فهو صاحب رسالة حضارية تسمى عبء الرجل الأبيض، وهذا ما فعلته الصهيونية مع اليهود الذين تحولوا إلى شعب مختار بالمعنى المادي العلماني، وجعلت منهم شعبًا عضويًا يرتبط ارتباطًا عضويًا بأرضه وتراثه وهو ما يعطيه حقوقًا مطلقة في هذه الأرض يمكنه بمقتضاها أن ينقل سكانها بعيدًا عنها أو يوظفهم في خدمته، ثم يستورد إلى هذه الأرض من يشاء من البشر (المهاجرين السوفييت) ويمنع عنها من يشاء (الفلسطينيين العرب).

والمنظومة العلمانية الإمبريالية تُنكر الآخرَ وأي منظومات قيمية أخلاقية إلا أخلاق القوة، وهذا يتضح في النزعة النيتشوية القوية في الفكر الصهيوني؛ فالرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية منظومة تركز على هذه الدنيا فتراها في إطار الواحدية المادية، وترى أن هدف الإنسان في الكون هزيمة الطبيعة والإنسان وحوسلتهما وتسخيرهما، وترى العالم بأسره باعتباره مادة نسبية يمكن للقوي أن يوظِّفها لحسابه، وهي تقوم بترشيد الإنسان والمجتمع على هدي هذه المنظومة. وهذا ما فعلته الصهيونية بفلسطين، وباليهود والعرب، فقد فرضت

الواحدية المادية على فلسطين ورشدئها وحولتها من أرض مقدسة (صهيون) إلى مكانٍ غير مقدس للاستيطان، كما رشَّدت اليهود والعرب في الإطار المادي؛ أي نزعت عنهم أي قداسة وحولتهم إلى مادة بشرية تنقل من مكان إلى آخر، فاليهود مادة استيطانية نافعة تنقل من أوربا إلى فلسطين، أما العرب فهم مادة بشرية لا نفع لها؛ ولذا فهي تُطرد من فلسطين، فلا قداسة ولا حُرمة لأي شيء.

أما من الناحية الأخلاقية، يمكن القول إن الصهيونية ممارسة علمانية إمبريالية تقوم على العنف وإبادة السكان الأصليين أو طردهم من أرضهم وتستعين بالإمبريالية الغربية في تنفيذ مخططها، سواء في نقل اليهود من بلادهم أو في طرد الفلسطينيين من وطنهم. في هذا الإطار يمكن الإشارة إلى أن ثمة مفاهيم علمانية مادية أخرى صبت في الصهيونية مثل مفهوم المنفعة المادية؛ فالصهيونية والعالم الغربي يرون اليهود باعتبارهم مادة نافعة وعنصرًا وظيفيًّا يمكن توظيفه في خدمة العالم الغربي، كما أن الفكر الليبرالي صاغ المشروع الصهيوني على هيئة مشروع ليبرالي ديمقراطي، ولكنها ديمقراطية المستوطنين فحسب، وفي البداية تبنَّى الصهاينة الفكر الاشتراكي باعتباره طريقة لتحويل اليهود إلى عناصر منتجة وفي الوقت ذاته لتأسيس اقتصاد جماعي وهي صيغة أساسية ضرورية للمجتمعات الاستيطانية كلها، حتى نتمكن من صدِّ هجمات السكان الأصليين؛ فلو كانت مشاريع المستوطنين الاقتصادية تُدار بطريقة فردية لقام السكان الأصليون بالهجوم عليها والاستيلاء عليها الواحدة تلو الأخرى بسهولة، ومن هُنا كانت ضرورة تحويلها إلى مزارع جماعية، ومن ثم تحويلها إلى ما أسميه الاقتصاد الاستيطاني، أي إن المستوطنين عادة ما يشكلون وحدات اقتصادية لا تُدار بشكل فردي وإنما تُدار بشكل جماعي عسكري، ومع هذا بعد أن استقر الوضع نبذ الصهاينة الأشكال الاشتراكية ذات الطابع الأمني العسكري وتبنوا الأسلوب الرأسمالي المألوف، وتكفل الجيش الإسرائيلي بالدفاع عن الجيب الاستيطاني الذي أصبح يسمى (الدولة الصهيونية).

س: أثمة أفكار غربية أخرى دخلت في تشكيل الفكر الصهيوني؟

ج. لعل من أهم الأفكار الغربية التي ساهمت في تشكيل الفكر الصهيوني فكر حركة الاستنارة، فقد رفض الصهاينة ما سموه «سلبية الدين اليهودي وغيبيته»، فرفضوا خضوع الشخصية اليهودية وتمردوا عليها. كما أمن الصهاينة بالتقدم التِّقني وادعوا أن اليهود هم حملة التقدم للشرق، كما قالوا: إن العودة إلى فلسطين لن تتم إلا من خلال التخطيط البشري وليس من خلال الانتظار لأمر الإله، كما يقول الحاخامات. وقد ذهب الصهاينة إلى أن الدولة هي القيمة المطلقة والقيمة الحاكمة في المجتمعات الحديثة كلها وهي الإطار الذي ستوظف من خلاله المادة البشرية المنقولة، وقد تبنوا بذلك مفهومًا أساسيًا في الحداثة الغربية، كما ذهب الصهاينة إلى أن اليهود يكونون شعبًا عضويًا مرتبطًا بأرضه برابطة عضوية لا يمكنه الفكاك منها، وأن الدولة القومية هي الإطار الذي يعبِّر الشعب العضوي من خلاله عن نفسه. وقد تعززت هذه الأفكار من خلال الفكر العرقي العلماني (ولا سيما معاداة اليهود والفاشية والنازية) فاعتمد الصهاينة العِرْق والوراثة (لا الدين) مقياسًا لتعريف البشر ونادوا بتفوق اليهود على العرب، ومن مصادر الفكر العنصري الغربي الداروينية أو نظرية التطور التي ذهبت إلى أن البقاء (المادي) هو القيمة الوحيدة المطلقة، وقد ذهب الصهاينة إلى أن اليهود سيحققون البقاء باعتبارهم العنصر الأصلح والأقوى، وأنه يمكن حل الصراع العربي الإسرائيلي بالقوة. وقد تزاوجت الداروينية بالنتشوية؛ فذهبت الصهيونية إلى أن اليهود «سوبر أمة» متفوقة ترفض أخلاق الضعفاء (الدينية) وطرحت القوة باعتبارها المطلق الأخلاقي الوحيد.

لهذا كله لا يمكن القول إن الصهيونية نابعة من التوراة والتلمود والتراث الديني اليهودي. مما لا شك فيه أن الصهاينة استخدموا الدين ديباجات لتجنيد الجماهير اليهودية، كما أنهم ترجموا بعض المفاهيم العلمانية المادية الداروينية إلى مفاهيم دينية، فعلى سبيل المثال، عادوا للتراث الديني

وأعادوا تعريف الشعب المختار وسموه الـ«سوبر أمة»، ولكن تظل الجذور الحقيقية للفكر الصهيوني هي الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية.

س: تشير وفي أكثر من مؤلف لك أنه لا يمكن فَهم تاريخ الحركات الصهيونية ولا تاريخ العداء لليهود، بما في ذلك النازية، إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية. ما الجديد الذي يقدمه هذا الإطار؟

ج. الحضارة الغربية الحديثة حضارة فريدة إلى حدٍّ ما؛ فقبل ذلك الحضارات كلها كانت دائمًا مبنية على مطلق ما؛ عبادة الله أو عبادة الوثن، أما الحضارة الغربية الحديثة فقد جعلت الوثن الأساسي هو الإنسان (الطبيعي/ المادي) ومصلحته ولذّته الطبيعية / المادية، وقد بدأت هذه الحضارة بالفكر الإنساني الهيوماني الذي قام بتهميش الإله أو رفضه باسم مصلحة الجنس البشري، ولكن في ظل غياب المرجعية المتجاوزة وغياب فكرة الحدود أصبح من حق أي إنسان أن يعلن بأنه هو وحده الجنس البشري وما عدا ذلك فمادة استعمالية، وهذا ما فعله الإنسان الأوربي فأعلن أنه قِمَّة التطور والحضارة وأنه وحده له حقوق مطلقة لا تحدها حدود، وبقية البشر مجرد مادة يمكنه استخدامها لصالحه، فحول الدين إلى مجرد تجارب ذاتية وديباجات تستخدم لتجنيد الجماهير. وقد طورت في هذا المجال كلمة «حوسلة» وأعني بها تحويل كل شيء إلى وسيلة، وبعد مدة وجيزة من عصر النهضة في الغرب، تحول الإنسان الغربي من إنسان «هيوماني» إلى إنسان إمبريالي وعنصري يجد أنه هو مركز الكون وأن الطبيعة بأسرها توجد لِخدمته. وهذا ما فعله النازيون إذ صنَّفوا البشر إلى نافعين وغير نافعين («أفواه تأكل ولا تنتج» useless eaters) ويمكن تسخير النافعين في معسكرات العمل للاستفادة منهم، أما غير النافعين فيذهبون إلى معسكرات الإبادة، والجميع يوظف في خدمة الإنسان النازي. الصهيونية فعلت الشيء نفسه؛ فهي أعلنت أنها تمثل التقدم الغربي والديمقراطية الغربية، ومن ثم لها حق مطلق في الاستيلاء على فلسطين وطرد أهلها وتوظيفهم في خدمتها.

س: تقول في أدبياتك: إن إسرائيل ليست دولة يهودية وإنما دولة علمانية استيطانية إحلالية تستخدم ديباجات دينية. فهل تتعامل مع يهودية الدولة على أنها إحدى الأكاذيب الاستعمارية التي مرَّروها؟

ج: للإجابة عن هذا السؤال يجب أن ننظر إلى كلٍّ من الماضي والحاضر، لقد أدركت الصهيونية هويتها، منذ البداية، باعتبارها حركة علمانية شاملة ترفض العقيدة اليهودية وترفض الإيمان بأي مطلقات أخلاقية أو دينية متجاوزة لعالم المادة والقوى السياسية والطبقية والصراعات الفكرية، ولنا أن نلاحظ أن مؤسسي الحركة الصهيونية الذين أتوا أساسًا من مجتمعات وسط أوربا لم يعيروا اليهودية أي انتباهٍ إلا باعتبارها مشكلة تبحث عن حل، بل إن بعضهم اعتبر العقيدة اليهودية نفسها مشكلة اليهود الحقيقية، وقد أظهر بعض زعماء الصهيونية عداءً واضحًا لليهودية، فتيودور هرتزل تعمَّد انتهاك العديد من الشعائر الدينية اليهودية حين قام بزيارة القدس، وذلك لكي يؤكد أن الرؤية الصهيونية رؤية لا دِينية، وكذا كان الوضع مع ماكس نوردو الذي كان يجهر بإلحاده، ويؤكد دائمًا أن كتاب هرتزل (دولة اليهود) سيحل محل التوراة باعتباره كتاب اليهود المقدس. وقد اتخذ الصهاينة موقفًا لا دينيًّا من كثير من المفاهيم المحورية في العقيدة اليهودية، وصهيون (فلسطين) بالنسبة إلى الصهاينة لم تكن أرضًا ذات قداسة خاصة، مرتبطة بالخلاص، وإنما كانت مجرد أرض ينقل إليها اليهود لأسباب مادية علمانية.

وقد وجَّه الصهاينة سهام نقدهم إلى الشخصية اليهودية (الدينية) مستخدمين في نقدهم هذا مقولات تحليلية ونقدية وأنماطًا إدراكية استوردوها من كلاسيكيات الفكر العرقي الغربي، وخصوصًا أدبيات معاداة اليهود. وأعاد الصهاينة تعريف اليهود على أساس عرقي أو إثني (مادي). ومن ثَم، أصبح اليهود بالنسبة إليهم شعبًا مثل الشعوب كلها؛ فهم مادة بشرية نافعة يمكن نقلها وتوظيفها لصالح من يدفع الثمن. إن فلسطين بالنسبة إلى الصهاينة

ليست صهيون، وإنما مادة طبيعية (أرض للاستيطان)، والشعب المختار ليس شعبًا مقدسًا، وإنما هو شعب مثل الشعوب كلها (مادة استيطانية).

س: وماذا عن عقيدة العودة؟

ج. أشرتُ إلى أن اليهودية الحاخامية تحرِّم العودةَ، لكن الصهاينة وجَّهوا سهام نقدِهم لفكرة العودة الدينية (وعودة المسيح المخلِّص وآخر الأيام)، فوصفها هرتزل بأنها رؤية متخلِّفة، ووسَمَها بن جوريون بالسلبية ووضع بدلًا من ذلك فكرة العودة بقوة السلاح وبمساعدة القوى العظمى لتأسيس دولة يهودية، ووضعت الصيغة الصهيونية الأساسية التي تشكل العمود الفقري للصهيونيات كلها: وهي صيغة علمانية كاملة لا تعترف بقداسة أرض أو إنسان ولا تعترف بأي أخلاقيات تضبط عملية العودة.

والصهاينة العلمانيون هم مؤسسوا المستوطن الصهيوني الحقيقيون، وهم ملحدون تمامًا، وكان المستوطنون الأوائل ينظمون مسيرة كل عام للإعلان عن إلحادهم. وكان فريق منهم يحرصون على الذهاب إلى حائط المبكى (أكثر الأماكن قداسة) في يوم الغفران (أكثر الأيام قداسة في التقويم الديني اليهودي) ويلتهمون (ساندوتشات) من لحم الخنزير تعبيرًا عن رفضهم اليهودية. وقد توارت هذه الطفولية الثورية الرافضة إلى حدٍّ كبير، ولكن الإلحاد الصريح ما يزال يعلن عن نفسه؛ فلا يزال صهاينة من أمثال شالوميت آلوني ويائيل ديان يحملون بغضًا عميقًا للعقيدة اليهودية والمؤسسة الدينية. بل إن الأولى كانت وزيرة للتربية في إسرائيل وكانت لا تكُفُّ عن التعبير عن احتقارها للتقاليد الدينية اليهودية، أما الثانية، وهي كاتبة روائية وابنة موشيه ديان، فكانت تصر دائمًا على أن الملك داود كان مصابًا بالشذوذ الجنسي، وأن علاقته مع يوناثان تدل على ذلك (وثمة مسرحية بهذا المعنى تُعرض في إسرائيل)، ولا تزال الكيبوتسات (العمود الفقري للمجتمع الإسرائيلي، وفي صفوفها تجند أعدادًا كبيرةً من أعضاء النخبة الحاكمة) مؤسسات علمانية تمامًا ترفض الاحتفال بالأعياد الدينية وتطور احتفالات

خاصة بها، وتُعيد تفسير كثير من النصوص الدينية والشعائر ليحل القومي الزمني محل الإلهي المتجاوز. كما أن غالبية المستوطنين الصهاينة لا يقيمون أي شعائر دينية يهودية؛ سواء شعائر السبت أو القوانين الخاصة بالطعام المباح شرعًا (الكوشر).

وتُعدُّ الدولة الصهيونية من أكثر المجتمعات إباحية واستهلاكية على وجه الأرض، وكانت ستطبع فيها طبعة عبرية من مجلة (بنت هاوس) الإباحية، التي استقبل محرِّرها عند حائط المبكى احتفالًا بهذه المناسبة السعيدة! وتنتشر محلات الأشياء الإباحية في مدينة القُدس وتُقام المسرحيات المهرطقة التي لا تعرف حرمة لأي شيء.

وقد نجحت الصهيونية كذلك في تصعيد معدلات العلمنة بين يهود العالم حتى حلت الصهيونية محل اليهودية، وأصبحت المشاعر الدينية تعبِّر عن نفسها من خلال التظاهر من أجل إسرائيل وتحرير الشيكات لها، وأصبحت وتل أبيب إحدى أهم عواصم الشواذ جنسيًّا وتعاطي المخدرات.

س: ومع هذا نجح الصهاينة في الترويج لمقولة: إن الدولة الصهيونية دولة يهودية، ومن ثم فاليهود الذين يستوطنون في فلسطين المحتلة هم عائدون إلى وطنهم القومي اليهودي؟

ج. بالفعل، ولذا يجب أن تكون استراتيجيتنا الإعلامية الآن أن إسرائيل ليست دولة يهودية مع استخدامها ديباجات يهودية، بل هي دولة استعمارية استيطانية إحلالية ذات توجه عنصري لا تلتزم بأي قيم أخلاقية يهودية كانت أم غير يهودية، فهي دولة أسَّسها جماعة من العلمانيين الملاحدة. والفكر الصهيوني ذاته لم ينشأ في صفوف اليهود في بداية الأمر، وإنما الأوساط البروتستانتينية المتطرفة الاستعمارية، وهو فكر يرمي إلى تخليص أوربا من اليهود. إن صُنِّفت الدولة الصهيونية على أنها يهودية فإن المقاومة تصبح إرهابًا ضد «العائدين»، ولكنها لو صُنفت على أنها دولة استيطانية إحلالية فإن المقاومة تصبح حقًّا وواجبًا حسب القوانين الدولية والأعراف الإنسانية.

س: وماذا عن نفوذ الأحزاب الدينية في إسرائيل؟

ج. الأحزاب الدينية في إسرائيل، أحزاب أقلية لا تمارس نفوذها إلا في رقعة ضيقة جدًّا من الحياة العامة، وهي على كل أحزاب تعبر عن يهودية تمت علمنتها على يد الصهاينة (أي صهينتها)، ولذا فهي يهودية المظهر علمانية المَخْبَر.

س: أنت مع من يرى أن الصهيونية حركة علمانية معادية لليهودية، لكن الصهاينة يزعمون أنهم يدافعون عن اليهود؟

ج. هذا هو الانطباع المبدئي الذي قد تتركه الكتابات الصهيونية لدى القارئ، لكننا لو تمعَّنا لوجدنا أن النموذج الكامن وراء الكتابات المعادية لليهود لا يختلف في أساسيته مطلقًا عن النموذج الصهيوني. خُذ على سبيل المثال، مفهوم «الوحدة اليهودية» وهو مفهوم يفترض أن اليهود (أي أعضاء الجماعات اليهودية) يكونون كلًّا واحدًا متجانسًا وأنهم أينما وجدوا- في أي مكان وزمان- يشكلون وحدة مستقلة عما حولهم، ويتمتعون باستمرارية في حياتهم، تسري عليهم قوانين لا تسري على مجتمع الأغلبية، ومن ثم فلهم خصوصيتهم اليهودية (التي تتبدى في طعامهم وشرابهم وزيِّهم ولغتهم ومؤسساتهم السياسية...إلخ).

وتأسيسًا على مفهوم الوحدة والاستقلالية اليهودية يقف اليهودي في الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود دائمًا في مقابل الأغيار (غير اليهود)، إذ إن ثمة خاصية كامنة فيهم تجعل من العسير على المجتمعات كلها دمجهم واستيعابهم، وتجعل من العسير عليهم الاندماج فيها. ومن ثم فاليهودي عادة يعاني من ازدواج الولاء ولا يشعر بالاستقرار في وطنه، ويحن دائمًا لوطنه الحقيقي في صهيون؛ ونتيجة لهذا يصبح اليهودي شخصية مريضة لا تخضع للقوانين الإنسانية العامة، تقاوم الاندماج مع الأغيار وتقع ضحية لعنفهم، ومن ثم فالدفاع عن حقوق اليهود الدينية والمدنية في مجتمعاتهم أمرٌ عديم الجدوى، بل يجب الوقوف ضده لتظل المجتمعات الإنسانية مجتمعات طاردة لليهود، الذين تتجه حركتهم الطبيعية إلى صهيون على أي حال. ثمة

لقاء كامل بين منطق الصهاينة ومنطق المعادين لليهود واليهودية.

والسمة الأساسية لنموذج العداء لليهود أنه نموذج عام للغاية، لا يصدِّع رأسه قط بالمنحنيات الخاصة بالظواهر، فهو مشغول بالقوالب الجاهزة العامة، ولا يُعنَى باكتشاف الواقع بكل تناقضاته ونتوئه وتدافعه، وبما يحويه من إمكانات انتصار وانكسار. فلنأخذ على سبيل المثال، هذا التصنيف الذي انتشر في الخطاب العربي؛ إسرائيل باعتبارها دولة دينية، إذا قرأ الباحث خطابًا لـ«بن جوريون» يتحدث عن التوراة ويرى شمعدان المينوراه الشعار الإسرائيلي، ويرى بعض اليهود الأرثوذكس يرقصون حول حائط المبكي، فيسرع بالتعميم من المشاهدة السطحية السريعة، ومن مجموعة المعلومات الجزئية، التي لا تنتظمها رؤية شاملة تستند إلى دراسة عميقة للمعطيات كلها. بينما لو تجاوز المقولات الشائعة ونظر إلى المعطيات المختلفة في ترابطها وتناقضاتها للاحظ أن مؤسِّسي الحركة الصهيونية كانوا ملاحدة، يدورون في إطار الداروينية والنيتشوية؛ أي الفلسفات الحاكمة في أوربا آنذاك. ولتبين أن هرتزل، على سبيل المثال، كان لا يعرف الشعائر اليهودية، والحاخام الذي جاء لعقد زواجه غادر دون أن يُكمل مهمته؛ لأنه وجد أنه لا يمكن اعتبار هرتزل يهوديًا. أما صديقه ماكس نوردو فكان يرى أنه سيأتي يوم سيحلُّ فيه كتاب هرتزل (الدولة اليهودية) محل التوراة، بل إن «الدولة اليهودية «ذاتها كانت ستسمى «الدولة العبرية «حتى يتم الابتعاد عن كلمة «يهودية» الكريهة (في تصور مؤسسي هذه الدولة)، وبعد قيام الدولة الصهيونية نجد أن غالبية السكان من اللادينيين، الشرسين في موقفهم العدائي للدين والأخلاق.

والخلاف بين أعداء اليهود والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الوصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل وإنما في آليات الحل وحسب؛ أي إن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس اختلافًا كليًا شاملًا. فكِلا الفريقين يطرح حلًا بسيطًا لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج، ألا وهو ضرورة «خروج» اليهود من أوطانهم،

ولكن بينما يرى أعداء اليهود أنه لا مناصَ من استخدام العنف في هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه على أن تكملها بطريقة منهجية ومنظمة.

وهذا النموذج الصهيوني/ المعادي لليهود يترجم نفسه إلى كُره أعمى لليهود يطالب بملاحقتهم والانتقام منهم وطردهم من أوطانهم والتضييق عليهم، ومع الأسف يروج بعض العرب لهذا النموذج دون إدراك منهم أن المواطن اليهودي الذي يتم التضييق عليه وطرده من وطنه يضطر للهجرة إلى فلسطين ليصبح مستوطنًا صهيونيًّا في وطننا يحمل السلاح ضدنا.

س: هل يمكن أن نعود للسؤال الأصلي، أي إن الصهيونية تزعم أنها تحاول الدفاع عن اليهود؟

ج. أعتقد أن هذا أحد الأكاذيب الصهيونية. يجب أن نتذكر أن الأفكار الصهيونية والمعادية لليهود ظهرت في أوربا في القرن التاسع عشر، وهي الحقبة التاريخية التي تبلورت فيها النظرية العرقية الغربية الخاصة بالتفاوت بين الناس بسبب الاختلاف بينهم في خصائصهم التشريحية والعرقية والإثنية، ومن ثم نجد أن الرؤية الكامنة في كل من الصهيونية ومعاداة اليهود واحدة، وأن كثيرًا من مقولات الصهيونية هي مقولات عرقية معادية لليهود.

وفي الأدبيات الصهيونية يوجد إدراك عميق للتلاقي بين الصهاينة والمُعادين لليهود واليهودية؛ فالصهاينة يذهبون إلى أن معاداة اليهود ظاهرة طبيعية ورد فعل طبيعي وحتمي لوجود اليهود باعتبارهم جسمًا غريبًا في المجتمعات المضيفة؛ فهرتزل يتحدث عن أصدقائنا «أعداء اليهود»، وقد نشأت صداقة عميقة بين حاييم وايزمان وريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) حين اعترف هذا الأخير بأنه (معادٍ لليهود بالطبع)، وقد كان تعليق وايزمان على ذلك: لو قال كروسمان غير ذلك فإنه يكون إما كاذبًا على نفسه وإما كاذبًا على الآخرين. وقد وصف المفكر الصهيوني جيكوب كلاتزكين العداء لليهود بأنه دفاع مشروع عن الذات. وقد بين هرتزل أن

معاداة السامية حركة بين الشعوب المتحضرة تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها، بل يرى الصهاينة أن هذه المعاداة هي إحدى ثوابت النفس البشرية؛ فقد وصف وايزمان معاداة اليهود بأنها مثل البكتيريا التي قد تكون ساكنة أحيانًا، ولكنها حينما تسنح الفرصة فإنها تعود إليها الحياة، وهكذا يرى الصهاينة أن معاداة السامية تنتمي إلى نمط واحد يتكرر في كل زمان ومكان، كما يرون عدم جدوى الحرب ضد هذه الظاهرة باعتبارها إحدى الثوابت وإحدى الحتميات.

وقد تبنى الصهاينة كثيرًا من مقولات المعادين لليهود في الغرب، وكثيرًا من صورهم الإدراكية النمطية، وتزخر الكتابات الصهيونية بالحديث عن الشخصية اليهودية المريضة غير الطبيعية والهامشية وغير المنتجة التي لا تجيد إلا العمل في التجارة، بل إن ماكس نوردو، ومِن بعده هتلر، طبَّق الصورة المجازية العضوية لا على معاداة اليهود، بل على اليهود أنفسهم؛ فقد شبَّههم بالكائنات العضوية الدقيقة التي تظل غير مؤذية على الإطلاق طالما أنها في الهواء الطلق، لكنها تسبب أفظع الأمراض إذا حرمت من الأكسجين. ثم يستطرد هذا العالم العنصري ليحذر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن أن يصبحوا مصدرًا لمثل هذا الخطر. وقد ذكر يهودا جوردون أن تفوق اليهودي المستمر يكمن في أنه يعترف بالحقيقة؛ أي يقبل اتهامات المعادين لليهود. وقد قال برنر: «إن مهمتنا الآن هي أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا، فاليهود شعب نصف ميت يعيش بقيم السوق، لا يمانع في حياة كحياة النمل أو الكلاب، مُصاب بطاعون التجول»، ويمكن أن نجد عبارات مماثلة أو أكثر قسوة في الأدبيات الصهيونية. ومن هنا، يؤمن الصهاينة بضرورة تطبيع الشخصية اليهودية حتى تتفق مع نمط الشخصية غير اليهودية الطبيعية السوية.

س: هل ثمة أحداث محددة لتعاون الصهاينة مع أعداء السامية؟

ج. كان تيودور هرتزل على استعداد للتعاون مع فون بليفيه وزير الداخلية الروسي، كما تحالف فلاديمير جابوتنسكي مع الزعيم الأكراني

بتليورا الذي ذبَحت قواتُه آلاف اليهود بين عامي ١٩١٨ و١٩٢١، وتعاون الصهاينة مع النازيين داخل ألمانيا وخارجها، وبتحالف الصهاينة في الوقت الحالي مع الجماعات الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة والمعروفة بعدائها العميق لليهود. بل إن المؤسسة الصهيونية تستخدم أحيانًا وسائل المعادين لليهود لحمل اليهود على الهجرة، كما حدث في العراق عام ١٩٥١ حين ألقى العملاء الصهاينة بالقنابل على المعبد اليهودي في بغداد. وعلى كلٍّ، فقد صرَّح المفكر الصهيوني كلاتزكين بقوله: «إنه بدلًا من إقامة جمعيات لمناهضة المعادين لليهود الذين يريدون الانتقاص من حقوقنا، يجدر بنا أن نقيم جمعيات لمناهضة أصدقائنا الراغبين في الدفاع عن حقوقنا».

وقد استمرت ظاهرة معاداة الصهيونية لليهود بعد تأسيس الدولة الصهيونية، بل يلاحظ أنها ازدادت حدة وتبلورًا بين أعضاء جيل الصابرا (أي أبناء المستوطنين الصهاينة المولودين في فلسطين). فهؤلاء ينظرون إلى «يهود المنفى» (أي يهود العالم) من خلال مقولات معاداة اليهودية وصورها النمطية. ويزخر الأدب الإسرائيلي بأعمال أدبية تصدر عن رفض ثقافي وأخلاقي، بل وعرقي عميق ليهود الخارج.

س: يمكن أن ننتقل إلى نقطة أخرى وهي موقف الصهاينة من يهود العالم، (يهود الدياسبورا) كيف يمكن أن تحدد لنا طبيعة هذا الموقف؟

ج: ينادي الصهاينة بضرورة أن تصبح الدولة الصهيونية مركزًا روحيًا وثقافيًا وأحيانًا سياسيًا للجماعات اليهودية في العالم، وأن تكون الدولة الصهيونية الملجأ الوحيد لليهود، وبأن تقوم وحدها بالدفاع عنهم، وقالوا: إن الحروب التي يخوضها المستوطنون الصهاينة إنما تهدف إلى الدفاع عن كل يهود العالم. ويرى الصهاينة أن الدولة الصهيونية هي التي تساعد يهود العالم في الحرب ضد خطر الاندماج وفي الحفاظ على الهوية اليهودية، وأنها هي التي تضمن استمرار التراث اليهودي وتطوره، وتحسن صورة اليهود أمام الأغيار، فبدلًا من صورة اليهودي التاجر والمرابي والجبان تأكدت صورة

اليهودي باعتباره المقاتل الشرس، وبذا يستعيد اليهودي احترامه لنفسه بعد أن فقده بسبب آلاف السنين من النفي. وهذا ما يسمى في الأدبيات الصهيونية مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا «، وهو مفهوم يفترض هامشية أعضاء الجماعات اليهودية وأن وجودهم هو وجود عرضي، بل مرضي يجب تصفيته.

فالصهيونية، بحسب تصور المفكر الصهيوني كلا تزكين، هي «رفض الدياسبوراة؛ لأنها لا تستحق البقاء». وهذه النغمة الصهيونية كانت من أكثر النغمات تكرارًا، فالحاخام موردخاي بيرون، كبير حاخامات الجيش الإسرائيلي، وصف الشتات بأنه «لعنة إلى الأبد.. لعنة دائمة»، ولم يستثن من ذلك حتى العصور الذهبية المختلفة ليهود الشتات. كما أشار بن جوريون إلى الشتات على أنه «غبار إنساني متناثر»، ووصفه كلا تزكين بأنه «دمار وانحلال وضعف أبدي».

وانطلاقًا من ذلك ينظر الصهاينة إلى موروثات أعضاء الجماعات على أنها بلا قيمة ولا تستحق الحفاظ عليها، بل تجب تصفيتها لأنها تجسد هامشية اليهود وشذوذهم وقيمهم غير القومية (غير العضوية) التي يجب التخلص منها. ومن ثم، فإننا نجد إشارات إلى أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم من عبدة الإله الكنعاني بعل. يعيشون في بابل عبيدًا لشهواتهم المادية الرخيصة (قدور اللحم)، ومن هنا الحديث عن ضرورة غزو الدياسبورا.

س: غزو الدياسبورا؟ هذا مصطلح جديد، هل يمكن أن تُعرِّفه لنا؟

ج: «غزو الدياسبورا» مصطلح صهيوني يعني ضرورة الهيمنة الصهيونية على الجماعات اليهودية كلها في العالم شاءت أم أبت، وذلك باعتبار أن الدولة الصهيونية هي المركز والجماعات اليهودية هي الأطراف. وبناء على نصيحة ماكس نوردو، أعلن هرتزل في المؤتمر الصهيوني الثاني ١٨٩٨ ضرورة غزو الحركة الصهيونية للجماعات اليهودية. والواقع أن الحركة الصهيونية لا تهدف إلى تهجير العرب من فلسطين إلى المنفى وحسب، وإنما تهدف أيضًا إلى تهجير اليهود من المنفى إلى فلسطين. ولكن حينما أعلنت الحركة الصهيونية

برنامجها بشأن الوطن القومي وتجميع اليهود؛ أي تهجيرهم، قوبلت الدعوة بالرفض من جانب جميع المنظمات اليهودية في العالم. ووجد الصهاينة أنفسهم معزولين في جزيرة صغيرة، وذلك على حدِّ قول وايزمان في أثناء محادثاته مع الحكومة الإنجليزية لإصدار وعد بلفور؛ أي إنهم وجدوا أنفسهم مفتقرين إلى قاعدة جماهيرية. ولحل هذا الوضع، تبَنّى الصهاينة استراتيجية حل المشكلة من أعلى (أي من ناحية المصالح الإمبريالية) وليس من أسفل (من ناحية الجماهير اليهودية). ومعنى هذا أنهم قرروا غزو الجماعات من خلال القوى الاستعمارية العظمى، فقدموا أنفسهم منذ البداية باعتبار أن بإمكانهم لعب دور الوسيط بين القوى الاستعمارية من جهة واليهود من جهة أخرى، لتجنيدهم وتوطينهم في الموقع الجغرافي الذي يهم تلك القوى. وقد أخبر هرتزل القُسّ هشلر (الذي كان يساعده في جهوده الصهيونية) بأنه لا يمكنه فرض شروطه على اليهود إلا إذا نال قسطًا من الشرعية من إحدى الدول العظمى حتى يقبله اليهود، وبالفعل، فحالما وافقت إنجلترا على المشروع الصهيوني (١٩١٧) اكتسبت الصهيونية شرعية هائلة أمام الجماهير اليهودية في الغرب فاضطرت إلى الاعتراف بها. وهذا ما حدث أيضًا في الولايات المتحدة حين اتجه النظام الأمريكي اتجاهًا ممالئًا للصهيونية برغم معارضة اليهود، فاكتسبت المنظمة الصهيونية الشرعية التي تحتاج إليها وفرضت هيمنتها في نهاية الأمر على الجماعة اليهودية، ومن ثم، يُصر الصهاينة على أن ينظر إلى المشروع الصهيوني في ضوء المصالح الإمبريالية، وكان القاضي الأمريكي اليهودي برانديز يؤكد لليهود أن صهيونية اليهودي الأمريكي لا تتعارض ألبتة مع أمريكيته. وبذا حققت الصهيونية أولى خطوات عملية غزو الجماعات. ويلاحظ أن ثمة تماثلًا بين الطريقة التي اتبعتها الحركة الصهيونية في غزو الجماعات اليهودية وبين طريقتها في غزو فلسطين؛ أي الاعتماد على القوى الاستعمارية الخارجية، وقد قال الزعيم الصهيوني أهارون جوردون: إن الأقليات في الخارج يجب أن تكون بمنزلة مستعمرات للوطن الأم.

س: أنت تؤكد إذن الجذور الغربية العلمانية للصهيونية، ولكنك ذكرت من قبل «الصهيونية المسيحية»، هل يمكن أن نتوقف قليلًا عند هذا المصطلح؟

ج: نعم، في الآونة الأخيرة، بدأ يتواتَر في الدراسات العربية مصطلح «الصهيونية المسيحية»، الذي انتشر في اللغات الأوربية وتسلَّل منها إلى اللغة العربية. والواقع أن هذا المصطلح يضفي على الصهيونية صبغة عالمية تربطها بالمسيحية ككلٍّ، وهو أمر مخالف تمامًا للواقع؛ إذ ليس ثمة صهيونية مسيحية في الشرق، بل إن أوائل المعادين للصهيونية بين عرب فلسطين كانوا من العرب المسيحيين، وأول مفكر عربي تنبأ بأبعاد الصراع العربي - الصهيوني وبمدى عمقه هو المفكر المسيحي (اللبناني الأصل الفلسطيني الإقامة) نجيب عازوري. كما أن الكَنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تعارضان الصهيونية على أساس عقائدي ديني مسيحي، وإن حدث تقارب ما (كما هو الحال مع الفاتيكان)، فإن ذلك يتم مع دولة إسرائيل ولاعتبارات عملية خارجة عن الإطار الديني العقائدي إلى حدٍّ كبير. وفي الغرب المسيحي البروتستانتي، ثمة عشرات من المفكِّرين المسيحيين الذين يرفضون الصهيونية على أساس ديني مسيحي أيضًا؛ ولهذا، فإن مصطلح «الصهيونية المسيحية» مصطلح غير علمي نظرًا لعموميته ومطلقيته. ومن هنا، يجب الحديث عن «الصهيونية ذات الديباجة المسيحية»، فهي صهيونية غير مسيحية بأي حال، بل صهيونية استمدت ديباجتها (عن طريق الحذف والانتقاء) من التراث المسيحي، دون الالتزام بهذا التراث بقيمه وأبعاده كلها، ودون استعداد منها لأن يحكم عليها من منظوره الأخلاقي.

س: ما هي منطلقات هذه الصهيونية ذات الديباجات المسيحية؟

ج: تستند هذه الصهيونية إلى العقيدة الألفية الاسترجاعية التي تعود جذورها إلى اليهودية وإلى كثير من العقائد الشعبية، ولكنها مع هذا أصبحت فكرة مركزية في المسيحية البروتستانتية، إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلص (الذي يشار إليه بأنه «الملك الألفي») سيحكم

العالم (باعتباره الملك المقدّس) هو والقديسون، لمدة ألف عام يشار إليها أحيانًا باسم «أيام المسيح» أو «الألف السعيدة»، وهي مرحلة سيسود فيها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان.

وكي تبدأ الألف السعيدة، لا بد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيدًا لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هي مركزٌ والعقيدةُ الألفية وعَصَبُها، ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشري الأعوام الألف السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار «القديم أو الأول». (باعتبار أن المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثاني)، وأن أرض فلسطين هي أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تسقط حتى إن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ومن الطبيعي، في إطار هذه الرؤية، أن ينظر إلى كل من يقف في وجه هذه العودة باعتباره من أعداء الإله والخلاص المسيحي؛ فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ولكن يذهب الاسترجاعيون إلى أن اليهود أنكروا المسيح وصلبوه، وأن عملية استرجاعهم إن هي إلا جزء من عملية تصحيح لهذا الخلل التاريخي وجزء من عملية تطهيرهم من آثامهم. فاليهود ليسوا مركز الخلاص، بل هم مركز الخلل وسببه، وإن كانوا مركز الخلاص، فبإنكارهم المسيح أصبحوا مركز الخَلل وسببه الأساسي وتجسيدًا للشر في التاريخ، والخلاص لا يمكن أن يتم إلا بتطهير مركز الخطيئة (تنصير اليهود أو إبادتهم)، ولعل هذا التركيز على أن اليهود أصل الخطيئة يفسر أن المسيخ الدجال (الذي سيكون ظهوره أقصى درجات الشر) سيكون يهوديًا (من سورية)، وأنه هو الذي سيقود ملوك الأرض ضد المسيح في المعركة الأخيرة (هرمجدون). وتذهب العقائد الألفية والاسترجاعية إلى أن عملية الخلاص النهائي ستصاحبها معارك ومذابح تصل ذروتها في معركة واحدة أخيرة (هرمجدون)، وهي معارك سيروح ضحيتها ثُلُثا يهود العالم وستُخرب أورشليم (القدس).

س: ما علاقة هذا كله بالمسيحية؟

ج: يرى الاسترجاعيون أنه كلما ازداد العنف ازدادت لحظة النهاية اقترابًا، فكأن التعجيل بالنهاية لا يتم هنا من خلال فعل أخلاقي يقوم به المسيحيون، وإنما من خلال تقديم قربان مادي جسدي للإله (هولوكوست) يشوى بأكمله، بل إن أبعاد هذه المذبحة ستكون أوسع مدًى من المحرقة النازية، فكأن العقيدة الاسترجاعية هي عكس العقيدة المسيحية. ففي العقيدة المسيحية، يأتي المسيح وينزف دمه ويُصلب ويهزم، فهو قُربان، يقدم للإله فداء للبشر بأسرهم، قربان لا حاجة بعده إلى قرابين. أما العقيدة الاسترجاعية فتذهب إلى أن المسيح قائد عسكري يدخل المعارك ويثخن في الأعداء ثم ينتصر، واليهود هم الذين سينزفون، وهم قربان للرب الذي لا حاجة به إلى قرابين؛ ولذلك فإن ذبحهم (أو صلبهم) يشير إلى النهاية الألفية السعيدة، كما أن اليهود، حسب الرؤية المسيحية التقليدية، كانوا دعاة القومية، على حين أن المسيح هو داعية العالمية. أما هنا، فإن العكس هو الصحيح؛ فاليهود هم مركز خلاص العالم والمسيح هو القائد القومي الذي سيؤسس مملكته في صهيون.

انتهت حياة المسيح الأولى بإنكار اليهود له وصلبه، أما حياته الثانية فستنتهي بإعلان انتصاره وبالتدخُّل في آخر لحظة لإنقاذ البقية الباقية من اليهود (وإعادتهم إلى أرضهم)، فيخر اليهود أمام المسيح ويعترفون بألوهيته ويقابلونه باعتباره الماشيح المنتظر ويتحولون إلى دعاة تبشير بالمسيحية ينشرون الإنجيل في العالم؛ أي إن المسيح سينجح في إقناع اليهود بما فشل في إقناعهم به أول مرة. وحينما يحدث ذلك، تكون الدائرة قد اكتملت وتمت هداية العالم بأسره.

إن العقيدة الاسترجاعية عقيدة تُحوسِل اليهود تمامًا؛ أي تحوِّلهم إلى وسيلة أو أداة نافعة وأساسية لخلاص المسيحيين. ولكنها، في حد ذاتها، لا قيمة لها، فهم يستمدون قيمتهم من مقدار أدائهم لوظيفتهم ومقدار تعجيلهم بعملية الخلاص المسيحية.

س: ما أثر هذه العقيدة على دولة إسرائيل القائمة الآن؟

ج: سأضرب مثلًا بتيري ريزنهوفر (المليونير المسيحي الأصولي الأمريكي الذي يقوم بتمويل عملية إعادة بناء الهيكل) يرى هذا المليونير أن السلام بين إسرائيل وجيرانها مسْألة مستحيلة، فـ»هرمجدون» نبوءة حتمية لا بد أن تتحقق. بل ويرى الاسترجاعيون ضرورة تحريك الأمور باتجاه الحرب لإضرام الصراع والتعجيل بالنهاية (ولذا، فإن موقفهم من مفاوضات السلام أكثر تشددًا من موقف أكثر صقور إسرائيل تشددًا). ولا يختلف الأمر كثيرًا بشأن حدود أرض الميعاد، فهذه الحدود معطًى ثابت مقدس لا يمكن التفاوض بشأنه. كما أن حدود إسرائيل التي يتخيلها الاسترجاعيون أكثر اتساعًا من حدود إسرائيل الكبرى التي يتخيلها أكثر الصهاينة تطرفًا؛ فحدودها، حسب الرؤية الاسترجاعية، تضم الأردن وأجزاء من مصر ولبنان ومعظم سورية (وضمنها دمشق)، أي إن الاسترجاعيين يرون ضرورة سفك الدم اليهودي تحقيقًا لرؤيتهم لنبوءات الكتاب المقدس.

لهذا كله، لا يرحب يهود أمريكا كثيرًا بهذه الصهيونية التي تدَّعي المسيحية (والتي تُطالب بنقلهم إلى إسرائيل ووضعهم في حالة حرب دائمة). هذا على عكس الدولة الصهيونية التي تجد أن هؤلاء الصهاينة الذين يستخدمون الديباجات المسيحية يكونون اللوبي الصهيوني القوي الذي يعيش في صلب المجتمع الأمريكي.

س: بعد أن قدمت الجذور التاريخية والفكرية للصهيونية، هل يمكن أن تطرح علينا تعريفك للصهيونية؟

ج: كما أسلفت الصهيونية ظاهرة مركبة تتسِم بشيء من الفرادةِ، إلى جانب ديباجاتها الدينية والقومية المصقولة، وهذا يشكِّل صعوبة في عملية التعريف. وابتداء لا بد من تجاوز التعريفات الاختزالية الشائعة، صهيونية كانت أم معادية للصهيونية، مثل «الصهيونية هي عودة اليهود لأرض أجدادهم، أرض الميعاد»، أو «الصهيونية هي تعبير عن الشر المتأصِّل في النفس اليهودية

والمؤامرة اليهودية للسيطرة على العالم، أو «الصهيونية إن هي إلا تعبير عن الإمبريالية الغربية» أو «الصهيونية تعبير عن رغبة الرأسمالية اليهودية في استغلال الفلسطينيين والعرب». أرفض هذه التعريفات كلها بسبب طبيعتها الاختزالية وضعف مقدرتها التفسيرية، وحاولت أن أصِلَ إلى تعريف أكثر تفسيرية. ولتحقيق هذا الهدف طرحت طريقة جديدة للتعريف، مختلفة بعض الشيء عن طريقة التعريف التقليدية؛ إذ لجأت إلى ما سميته الصيغة الصهيونية الأساسية، وهي الصيغة التي توصلت إليها أوربا قبل أن يظهر اليهود لاعبين سياسيين، هذه الصيغة الخصها فيما يلي: اليهود يكونون شعبًا عضويًّا متماسكًا -لا ينتمي لأوربا لارتباطه بأرض الميعاد أي فلسطين - هذا الشعب هو في واقع الأمر جماعات وظيفية بلا وظيفة؛ ولذا أصبح أعضاؤها فائضًا بشريًّا human surplus ولذا يجب التخلص منه عن طريق نقله من أوربا إلى أي مكان خارجها (مدغشقر - الأرجنتين - العريش - الإحساء) ولكن تم اختيار فلسطين في نهاية الأمر (بسبب موقعها الاستراتيجي) بحيث لينقل إليها الفائض البشري هناك، على أن يتم إبادة السكان الأصليين أو طردهم أو تسخيرهم عمالة رخيصة، كما هو الحال في الجيوب الاستيطانية الأخرى كلها. وتقوم الكتلة البشرية الوافدة بخدمة المصالح الغربية، وفي المقابل يقوم الغرب بحمايتها وضمان بقائها واستمرارها؛ أي إن الفائض البشري اليهودي الذي لم يمكن استيعابه داخل التشكيل الحضاري الغربي سيتم استيعابه داخل التشكيل الإمبريالي الغربي، بأن توكل إليهم وظيفة قتالية بدلًا من وظيفتهم التجارية الربوية التي فقدوها، ومن ثم يتم حل المسألة اليهودية من خلال حل المسألة الشرقية، فتوطين الفائض البشري اليهودي في فلسطين سيعني الإسراعَ بتقسيم الدولة العثمانية.

إن هذه الصيغة الشاملة لم يُفصح عنها أحد بشكل مباشر، إلا بعض المتطرفين في بعض لحظات الصدق النماذجية النادرة، وإن كان بشكلٍ غير مباشر، ولكن عدم الإفصاح عنها لا يعني غيابها، فهي تشكِّل هيكل المشروع

الصهيوني والبِنية الفكرية التي أدرك الصهاينة الواقع من خلالها، كما أدرك العالم الغربي مسألته اليهودية وطريقة حلها من خلالها.

س: هل ظلت هذه الصيغة التعاقدية بين اليهود والغرب قائمة مع ما حدث من تطورات تاريخية؟

ج. كثير من الأسس التي تستند إليها الصيغة الشاملة قد اختفت بفعل التطورات التاريخية، وما يتم الإفصاح عنه هو الصياغة المهودة للصيغة الصهيونية الأساسية، فهي تبدو أكثر إنسانية، وتحقق القبول الذي لا يمكن أن تحققه الصيغة القديمة بسبب إمبرياليتها وماديتها الشاملة. وقد طوَّر هرتزل ما أسميه الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الأبواب المغلقة أمام كل الديباجات اليهودية المتناقضة، والتي بسبب كثافتها، غطت على الصيغة الأساسية وأخفت إطارها المادي النفعي الإمبريالي، حتى حلت بالنسبة إلى معظم قطاعات العالم الغربي محل الصيغة الأساسية، والصيغة الجديدة (أي المهودة) ترى مثل الصيغة الأساسية أن اليهود شعب واحد لا مكان له في أوربا، وإنه لا بد أن يُنقَل من العالم الغربي إلى فلسطين، ولكن الهدف من النقل ليس التخلص من اليهود أو تأسيس دولة وظيفية تقوم على خدمة الغرب (كما تُقرر الصيغة الصهيونية الأساسية)، وإنما هو إصلاح الشخصية اليهودية وتطبيعها، وتأسيس دولة اشتراكية (كما تدعي الصهيونية العمالية)، أو الاستجابة للحلم الأزلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية، وتأسيس دولة تستند إلى الشريعة اليهودية (كما تزعم الصهيونية الدينية)، أو تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يهودية بالمعنى العلماني، تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (كما ينادي دعاة الصهيونية الثقافية العلمانية)، أو تحقيق مثل الحرية وتأسيس دولة ديمقراطية غربية (كما يدَّعي أتباع الصهيونية السياسية). واكتسب المكان الذي سينقل إليه الشعب معنًى داخليًّا إذ أصبحت الأرض هي الأرض الوحيدة التي تصلح للخلاص؛ فهي «أرض الميعاد» الدينية أو العلمانية، بل إن خلاص الشعب هو خلاص الأرض،

وهو نفسه مشيئة الإله، وآليات الانتقال أو النقل إلى الأرض الجديدة، ليس الاستعمار الغربي أو العنف والإرهاب وإنما هو «القانون الدولي العام» متمثلًا في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية الأساسية)، أو تنفيذًا للوعد الإلهي والميثاق مع الإله (في الصياغة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الصهيونية التصحيحية). ولكن بغض النظر عن التبريرات والديباجات تظل النتيجة النهائية واحدة وهي: نقل كتلة بشرية من الغرب إلى الشرق، وفي حالة الصهاينة وفلسطين، هي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى مهاجرين، وعلى هذا، فإن عملية نقل اليهود من المنفَى إلى فلسطين (سواء بسبب الوعد الإلهي أو بسبب وعد بلفور) تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (إلى المنفَى).

س: الاستعمار الصهيوني جزء من التشكيل الاستعماري الغربي في شكله الاستيطاني، فما هي أهم الصفات المشتركة بين الاستعمار الغربي والاستعمار الصهيوني؟

ج: الاستعمار بجميع أشكاله ينطلق من رؤية عنصرية للآخر؛ فالمستعمر (في هذه الحالة الإنسان الغربي) يرى نفسه باعتباره عنصرًا متفوقًا عرقيًّا وحضاريًّا؛ ولهذا السبب له حقوق مطلقة، أما الآخر فهو أدنى حضاريًّا وعرقيًّا؛ ولذا فإنه لا حقوق له، ومن حق الإنسان الأبيض صاحب الحقوق والقوة أن يوظفه لصالحه فيحوله إلى مادة استعمالية نافعة.

ولكن إذا كان الآخر لا يمكن توظيفه فما هو الحل؟ هنا تظهر الإبادة حلًّا. حينما ذهب الإنسان الأبيض إلى أمريكا الشمالية اكتشف أنه لا يمكنه توظيف الهنود الحمر فهم أصحاب الأرض وكانوا متماسكين اجتماعيًّا وحضاريًّا وقاوموه، فقام بإبادتهم. وفي الوقت ذاته قام باختطاف ملايين الأفارقة من بلادهم ونقلهم إلى الأمريكتين، وقام بتوظيفهم. وبالمناسبة كان الأفارقة الذين لا تنطبق عليهم المواصفات المطلوبة لتحويلهم إلى مادة استعمالية يقذف بهم في البحر ليلتهمهم سمك القرش، وفي أثناء عملية النقل

كان من يمرض ويصبح عديمَ الفائدة يَلْقَى المصير نفسه!

الصيغة الصهيونية هي صيغة إبادية، فالعبارة التي وردت في وعد بلفور والتي تذهب إلى أن إنشاء الدولة الصهيونية يجب ألا يضير الجماعات غير اليهودية، قامت بتهميش العرب، الأغلبية الساحقة للسكان، وحينما جاء الصهاينة وقالوا: إن فلسطين هي أرض الميعاد وإن لهم حقوقًا مطلقة. هذه أيضًا صيغة إبادية، وحينما يقولون: إن أمن إسرائيل يمتد من النهر إلى البحر أو من النيل إلى الفرات أو من كذا إلى كذا. فهذه كلها صيغ إبادية، لكنها صيغ إبادية تساقطت على صخرة الواقع الفلسطيني المقاوم.

س: في ضوء تعريفك للصهيونية، ما الفرق بين اليهودية والصهيونية؟ وهل كل يهودي صهيوني، وكل صهيوني يهودي؟

ج: الشرع اليهودي عرَّف اليهودي بأنه كل مَن وُلِد لأم يهودية أو تهوَّد حسب الشريعة اليهودية، ولكن نتيجة للتطورات الكثيرة التي دخلت على العقيدة اليهودية، وعلى واقع أعضاء الجماعات اليهودية، اهتز هذا التعريف وأصبح لا علاقة له بالواقع ويمكن القول بأن كلمة «يهودي» في الوقت الحالي تشير إلى اليهودي بالمعنى الإثني الديني، كما تنص الشريعة اليهودية، ولكنها تشير أيضًا إلى اليهود بالمعنى الإثني المحض؛ أي اليهودي الملحد الذي لا يؤمن بالعقيدة اليهودية ولكنه يرى نفسه يهوديًا لأنه ينتمي إلى ما يسمى «التراث اليهودي»، ويلاحظ أن اليهودية الإصلاحية عدَّلت من الشريعة اليهودية ليعد يهوديًا من وُلِد لأمٍّ يهودية أو لأبٍ يهودي.

ويجب أن نفرق بين «العبراني» و«اليهودي». فالعبراني هو عضو في الأسباط العبرانية الإثني عشر، التي كانت مستقرة في أرض كنعان/ فلسطين وهاجرت إلى مصر ثم خرجت منها وعادت إلى كنعان/ فلسطين، وقد تم هذا كله قبل أن تتبلور العقيدة اليهودية. ولذا فلفظ «يهودي» لا يمكن أن يطلق على العبرانيين، ولا يمكن استخدامه إلا في مرحلة متأخرة من تاريخ هذه الجماعة البشرية.

أما «الصهيوني» فهو من يؤمن بالعقيدة الصهيونية (إما في شكلها الاستيطاني، وإما في صورتها التوطينية) ومن يدعو إليها، والعقيدة الصهيونية إيديولوجية سياسية علمانية، قد يؤمن بها يهودي ملحد، وقد يدافع عنها مفكر أمريكي لا ملة له ولا دين. وثمة كثير من الصهاينة المسيحيين الذي يعتنقون الرؤية الصهيونية ويدافعون عنها انطلاقًا من بعض المقولات المسيحية التي فسرت تفسيرًا حرفيًّا.

أما «الإسرائيلي» فهو المستوطن الصهيوني الذي يقيم في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧ وبعده، فهو مواطن في الدولة الصهيونية، وغالبية الإسرائيليين تتبنى الرؤية الصهيونية أو ما تبقى منها، ومنهم من يرفض الرؤية الصهيونية ويرون ضرورة وضع نهاية لهذا المشروع وتحويل إسرائيل إلى دولة لمواطنيها وليس للشعب اليهودي.

من هذا كله يمكن القول بأن ليس كل اليهود صهاينة وليس كل الصهاينة يهودًا، وأن ثمة فارقًا بين اليهودي والصهيوني من جهة والإسرائيلي من جهة أخرى.

س: الإبادة باعتبارها حلًّا موجودة داخل الفكر الصهيوني، ماذا عن الممارسة، عن الواقع ذاته؟

ج: الإبادة بالفعل واردة على مستوى الوجدان والفكر ولكنها مستحيلة على مستوى الممارسة الفعلية؛ فالصهاينة يعرفون تمامًا أن كل عمليات الإبادة التي قام بها الإنسان الأبيض ضد السكان الأصليين تمت من القرن السابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر، وهي إبادة تمت ضد شعوب ذات حضارة جميلة، ولكنها بسيطة، ليس لها أبعاد تاريخية واضحة، ولذا لم يمكنها أن تستوعب دروس التاريخ وهي شعوب لم تتمكن من استيعاب التقنية الحديثة، ولا سيما التقنية العسكرية، كما أن بعض هذه الشعوب كانت متصارعة ومتنافرة، وتعاون بعضهم مع الإنسان الأبيض، كما أنهم لم يكونوا منظمين، ولم تكن عندهم نظم إدارية قادرة على التخطيط. هذه الصفات

كلها غير متوافرة في حالة فلسطين؛ فالعدو الصهيوني يحارب شعبًا يتزايد كمًّا وكيفًا. وكما قال أرنون سوفير عالم الجغرافية الإسرائيلي: إن الفلسطينيين سيهزموننا في غرف النوم ومدرجات الجامعات، والشعب المطلوب إبادته، شعب له تراث تاريخي طويل فهو ليس من الشعوب البسيطة، وليس مجرد قبائل متناثرة، هو شعب تسانده بقية الجماهير العربية والإسلامية التي تعطيه المدد المعنوي والمادي، كما تتعاطف معه كل القوى المناهضة للاستعمار. وهو شعب قادر على تطوير نفسه وتطوير استخدام السلاح بما يتناسب مع الإمكانات واللحظة ابتداء من الحجر ثم صعودًا إلى قسّام واحد وقسام اثنين وقسام ثلاثة... وهكذا، وتنظيماته السياسية تتطور وتتحسن، بالإضافة إلى أنه أدرك أهمية العلاقات الدولية، وكيف أن الخارج الدولي يؤثر في الداخل القومي. وهو يعرف أن الإعلام قوة ضخمة لا يمكن تجاهلها؛ فالفضائيات تبث ما يحدث في نقطة ما في العالم إلى بقية أجزاء العالم. في الماضي كان من الممكن إبادة شعب دون أن يشعر أحد، وحين تعرف حقيقة الأمر بعد عشرات السنين فإن المسألة: تُصبح أكاديمية، أما الفضائيات فهي تجعل هذا الأمر صعبًا في الوقت الحاضر، والإعلام، بما في ذلك الإعلام الغربي، فيه من الشرفاء من يرصد الإرهاب وعمليات الإبادة، ما حدث في سجن أبو غريب عرفه العالم بأسره في غضون شهرين، ومسألة الصورة الإعلامية أصبحت مسألة مهمة للغاية، ولا سيما في حالة إسرائيل التي تستمد قوتها وشرعيتها من صورة إعلامية قامت بترويجها، بمعنى أن كل العناصر التي جعلت الإنسان الأبيض في أمريكا الشمالية أو أستراليا ينجح في إبادة السكان الأصليين غير متوافرة في الحالة الصهيونية.

س: ومع هذا يتواتر ذكر إبادة الفلسطينيين؟

ج: يجب هنا التمييز بين الصحافة الصفراء والفكر العسكري؛ الصحافة الصفراء يُساهم فيها صحفيون يبغون التهييج ولا يقومون بتقديم خطط محددة وتوضيح طريقة تنفيذها والعواقب الناجمة عنها، أما الفكر العسكري فهو أمر

مختلف، فهو يحسب المسألة بطريقة علمية، ولذا حين طرح المفكر الاستراتيجي الإسرائيلي فان كريفيلد حلًّا لإشكالية الانتفاضة لم يقترح الإبادة حلًّا، وإنما اقترح توجيه ضربة موجعة مؤلمة للفلسطينيين، على أن تتم هذه الضربة بالمدافع حتى يراها الفلسطينيون كلهم ثم ينسحب الجيش الإسرائيلي ويبني حائطًا لا يمكن للطيور أن تعبره. الإبادة ليست حلًّا مطروحًا.

س: وماذا عن الترانسفير؟

ج: الترانسفير بمعنى نقل الفلسطينيين قسرًا من الضفة إلى خارجها أمرٌ مستحيل هو الآخر؛ فهذا الحل يتصور أن الفلسطينيين سيجلسون كشيء سلبي وتأتي الحافلات الإسرائيلية لنقلهم خارج الحدود. وهذا تصور ساذج للغاية. أما الترانسفير بمعنى التضييق على الفلسطينيين اقتصاديًّا ومعنويًّا وجعل حياتهم في فلسطين أمرًا في غاية المشقة، فهذا قائم على قدم وساقٍ، وعلى الأمة العربية أن تتصدَّى لهذه المحاولة بشتَّى السُّبل.

س: تؤكد في الكثير من كتاباتك أن المشروع الصهيوني يُشبه في كثير من الوجوه المشروع الصليبي. فما هي نقاط التشابه بين الحالتين؟

ج: ابتداء أفضل دائمًا استخدام مصطلح «ممالك الفرنجة» وهو المصطلح الذي استخدمه المؤرخون العرب القدامى. ولكننا بسبب تبعيتنا الإدراكية، آثرنا ترجمة المصطلح عن الإنجليزية والفرنسية Crusades وأصبحنا نقول: الممالك الصليبية، مع أنها أبعد ما تكون عن المسيحية؛ فالمسيحية بالنسبة إليها، تمامًا كاليهودية بالنسبة إلى الصهيونية، هي مجرد اعتذاريات تبريرية؛ ولذا أفضل أن أستخدم عبارة «ممالك الفرنجة» أو «ممالك الفرنجة التي يقال لها صليبية»، إلا إذا تطلب السياق غير ذلك، وإذا وردت العبارة في اقتباس ما، وهو في هذه الحالة يُنسب إلى صاحبه.

س: فلنعُد إذن للسؤال الأصلي، ما هي نقاط التشابه بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية؟

ج. لا يملك الدارس للمشروعين الفرنجي والصهيوني إلا أن يُلاحظ

عُمق التشابه بينهما، وهو أمر متوقَّع لأن كليهما جزء من المواجهة التي تتفاوت في حدتها بين التشكيلين الحضاريين السائدين في الغرب والشرق العربي؛ فحملات الفرنجة التي يُقال لها الحملات الصليبية، هي نقطة انطلاق أوربا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج، وعلى حدِّ قول أحد مؤرخي حملات الفرنجة الغربيين إن حملات الفرنجة احتوت بذور كل أشكال الإمبريالية الأوربية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم. ولعله لهذا السبب أصبحت حملات الفرنجة صورة مجازية أساسية في الخطاب الاستعماري الغربي، وأصبحت ديباجاتها هي نفسها ديباجات المشروع الاستعماري الغربي. وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني، من اليهود وغير اليهود، أنه استمرار وإحياء للمشروع الفرنجي (أي الصليبي) ومحاولة وضعه موضع التنفيذ من جديد في العصر الحديث، فلويد جورج، رئيس الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور، صرح أن الجنرال اللنبي الذي قاد القوات الإنجليزية التي احتلت فلسطين شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصارًا. ويمكننا القول إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية بعد تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية الغربية المسيحية.

ولنحاول الآن أن نبين بعض نقاط التشابه الأساسية بين المشروعين، يبدو أن فلسطين مستهدفة دائمًا من صُناع الإمبراطوريات إذ إنها تُعد مفتاحًا أساسية لآسيا وإفريقيا، وتعد معبرًا على البحرين الأحمر والأبيض، وتقف على مشارف الطرق البرية التي تؤدي إلى العراق وإيران، وهي أيضًا معبر أساسي لشطري العالم الإسلامي؛ ولذا نجد أن المشروعين الفرنجي والصهيوني قد جعلا من فلسطين مسرحًا لأطماعهما ونقطة ارتكاز لانطلاقهما باعتبارهما مشروعين استعماريين.

ولكن كلًّا من المشروعين لم يكونا مشروعين استعماريين وحسب، وإنما كانا مشروعين من النوع الاستيطاني الإحلالي؛ فالمشروع الفرنجي

كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربية وممالك فرنجية داخل العالم الإسلامي، ولكنها تدين بالولاء الكامل للعالم الغربي، ولذا جاءت جيوش الفرنجة ومعها كتلة بشرية من الغرب المسيحي ليحل محل العنصر البشري العربي، والمشروع الغربي في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل؛ فغزو فلسطين تم أولًا على يدِ القوات البريطانية، ثم حَضَر المستوطنون الصهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصرًا يقوم بالزراعة والقتال. وقد كانت المؤسسات الاقتصادية للفرنجة، مثلها مثل قرينتها الإسرائيلية، تتسِمُ بطابع عسكري، كما أن التنظيم الاقتصادي التعاوني لم يكن مجهولًا لدى الفرنجة. ويمكن القول بأن دويلات الفرنجة، مثلها مثل الدولة الصهيونية، كانت ترسانات عسكرية في حالة تأهب دائم «للدفاع عن النفس» وللتوسع كلما سنحت لها الفرصة.

ومن المعروف أن الغزاة الاستيطانيين عادة ما يسلكون طريق البحر ثم يستقرون على الساحل أو يحتفظون بركيزتهم الأساسية فيه (كما حدث في جنوب إفريقيا والجزائر) حتى لا يفقدوا صلتهم بالوطن الأم، فهم يعتمدون عليه اعتمادًا يكاد يكون كاملًا. وهذا يعود إلى طبيعتهم الاستيطانية الإحلالية، فقد طردوا السكان الأصليين وحلُّوا محلهم ومن ثم خلقوا مشكلة لاجئين، تحولوا إلى وقود يجند سكان المنطقة ضدهم، لهذا يضطر المستوطنون دفاعًا عن أنفسهم وضمانًا لبقائهم واستمرارهم أن يستمدوا مقومات بقائهم واستمرارهم من دعم عسكري ومالي وهوية ثقافية ومادة بشرية من وطنهم الأصلي. وهذه سِمَة أساسية في الكيانين الفرنجي والصهيوني، مع تنويعات فرعية تنصرف إلى التفاصيل لا الجوهر؛ فمثلًا اعتمدت ممالك الفرنجة على أوربا كلها مصدرًا للدعم، ولكن اعتمادها كان على فرنسا بالدرجة الأولى. وكذلك، فإن الدولة الصهيونية التي عدت أوربا قاعدتها الاستراتيجية واعتمدت على معظم دول العالم الغربي الرأسمالي مع التركيز على بلد واحد هو إنجلترا ثم فرنسا لمدة قصيرة وأخيرًا، الولايات المتحدة منذ منتصف الستينيات.

والغزوتان الفرنجية والصهيونية كانتا تهدفان إلى حل بعض مشاكل المجتمع الغربي وتخفيف حدة تناقضاته؛ فالمجتمع الوسيط الغربي كان يخوض عملية بعث اقتصادي فتحت شَهيته للاستيلاء على طُرق التجارة المتجهة إلى الشرق، وهذا يُشبه من بعض الوجوه، وإن كان بدرجة أقل، انفتاح شهية رجل أوربا الشَّره في القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم يهدأ له بال إلا بعد أن وقع العالم كله في قبضته. وقد استخدمت أوربا كِلَا المشروعين؛ الفرنجي والصهيوني، في التخلُّص مما أطلق عليه في القرن التاسع عشر الميلادي «الفائض البشري»؛ أي العناصر التي لم تستطع أن تحقق الحراك الاجتماعي داخل مجتمعاتها، ولذا كانت تهدد السلام الاجتماعي، ولم يكن هناك مفرٌّ من تصديرها للشرق حتى يحقق الغرب سلامًا اجتماعيًّا داخليًّا والمشروع الفرنجي بدوره كان يهدف أيضًا إلى تخليص أوربا من فائضها البشري الذي كان يهدد سلامها الاجتماعي حسب تصور البعض على الأقل.

وكلا المشروعين يستخدم الديباجات الدينية الإنجيلية والتوراتية لتحقيق أهداف مادية إمبريالية علمانية؛ فالمشروع الصليبي جهز الحملات العسكرية باسم أمير السلام (المسيح) وقام باحتلال الأرض وذبح الآلاف من سكانها. والمشروع الصهيوني هو الآخر جرد حملاته العسكرية باسم الوعد الإلهي وقداسة الشعب اليهودي فقام بإهدار قداسة وإنسانية الفلسطينيين وطردهم من أرضهم، وكلا المشروعين، على ادعاءات المستوطنين الدينية الصاخبة، لا يمكن أن يقبلوا محاكمتهم من منظور المعايير الأخلاقية لعقائدهما الدينية.

ويبدو أن أزمة التجمع الفرنجي لا تختلف عن أزمة التجمع الصهيوني، فيلاحظ أن الكيان الفرنجي كان يعاني من أزمة سكانية، وذلك نظرًا لانخفاض عدد سكان أوربا عام ١٣٠٠ بعد انتهاء فترة تزايد السكان، الأمر الذي أدى إلى عدم مجيء مزيد من المادة البشرية، كما كان الكيان الفرنجي يعاني من تناقص نسبة المواليد. وهذا لا يختلف كثيرًا عن أزمة المستوطن

الصهيوني السكانية، بعد أن جفَّت ينابيع الهجرة اليهودية من شرق أوربا؛ لأن يهود غرب أوربا والولايات المتحدة لا يهاجرون إلى الدولة الصهيونية.

ويلاحظ أن كلًّا من التجمع الفرنجي والصهيوني كان يتَّسم بتقسيم ثلاثي؛ ففي القمة كان يأتي الفرنجة في الممالك الصليبية، يقابلهم الإشكناز في التجمع الصهيوني، وفي الوسط كان يوجد بعض المسيحيين الشرقيين الذين تعاونوا مع الفرنجة يُقابلهم السفارد في التجمع الصهيوني، وفي القاع كان يوجد العرب المسلمون في كلا المجتمعين.

ومن المعروف أن الجيوب الاستيطانية التي لا تبيد السكان الأصليين مآلها إلى الزوال؛ لأن السكان الأصليين يستمرون في مقاومتهم حتى ينهكوا عدوهم تمامًا. وهذا ما حدث بالنسبة إلى ممالك الفرنجة فقد تم القضاء عليها، لأسباب عديدة، من أهمها أن الشعوب الإسلامية لم ترضَ بوجود الفرنجة، فاستمرت عملية المقاومة زهاء قرنين حتى انتهى المشروع الفرنجي ولم يبقَ منه سوى بعض الخرائب الصليبية، وبالنسبة إلى الصهيونية فمازال العرب يقاومون والحمد لله، وأعتقد أن مدريد وأوسلو وقبول الكيان الصهيوني للسلطة الفلسطينية هو تعبير عن الإرهاق الصهيوني؛ فقبول إسرائيل بالسلطة الفلسطينية هو بدايات الهزيمة، وكما يقولُ بعض المتطرفين الصهاينة إنه لأول مرة تم تعريف حدود الدولة الصهيونية، وفي هذا اعتراف ضمني بالوجود الفلسطيني. ولأول مرة توجد داخل الدولة الصهيونية كتلة بشرية ضخمة تطالب بحقِّ تقرير المصير، كما توجد مناطق فلسطينية محررة، بل إن مجرد دخول مصطلح «فلسطيني» في المعجم الصهيوني هو انتصار ضخم؛ لأنه يهز الخريطة الإدراكية الصهيونية.

س: إلى أي مدًى يُدرك الصهاينة أوجُه التشابه هذه؟

ج. ثمة اهتمام عميق من جانب المستوطنين الصهاينة بتاريخ ممالك الفرنجة، وهو اهتمام في جوهره تعبير عن إدراك أولي لطبيعة دورهم في المنطقة دولة توظفها قوى عظمى خارجية لصالحها، وهو إحساس يصعد

من هاجسهم الأمني، ولذا يدرس العلماء الإسرائيليون المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي، والعلاقة بين هذا الكيان والوطن الأصلي المساند له. وقد وجه كثير من الباحثين الصهاينة اهتمامهم لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة التي واجهها الكيان الفرنجي ومحاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت به.

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل إسحاق رابين وموشيه ديان ويوري أفنيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة، ففي أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، عقد إسحاق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها، ويعقد أفنيري في كتابه (إسرائيل بدون صهيونية) ١٩٦٨ مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية، ويرى أنه لا بد أن يتعلم الصهاينة من التاريخ؛ فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة مُحاصَرة عسكريًّا لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا مفرَّ منه) كما يتصور بعض الصهاينة، وإنما هي مُحاصَرة عسكريًا؛ لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين.

وقد عاد أفنيري مرة أخرى إلى الموضوع نفسه (١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥) فكتب مقالًا بعنوان «السلام بدل السلامي» (طعامٌ يُشبه في شكله السجق) قال فيه: المقامر شخصية معروفة في الأدب. إنه مقامر مدمن، يجالفه الحظ في أحد الأيام، ولكنه لا يمكنه التوقف. كان بإمكانه أن ينهض وأن يمنع الكارثة، ولكنه مقامر مدمن. إنه مضطر للاستمرار، حتى تؤخذ آخر فيشة من أمامه، ويؤخذ معها كل ما يملك في هذه الدنيا. ينهض الرجل، في الروايات، يخرج بخطوات متعثِّرة، يَستل مسدسًا في حديقة الكازينو ويطلق النار على رأسه.

يقول أفنيري إنه استخدم هذه الصورة المجازية قبل سنوات ليصف الخطر الذي يحوم فوق الدولة الصهيونية الاستيطانية، وأنه تذكرها مرة أخرى، عندما قرأ مقالًا كتبه محلل يَمِيني، من معارضي الانسحاب من غزة، تنبأ فيه أنه بعد هذا الانسحاب سيضطر الصهاينة إلى الانسحاب أكثر وأكثر، حتى يصلوا إلى الخط الأخضر، ولكنهم حينما يصلون إلى هذه النقطة لن يمكنهم التوقف. ولذا فوجود الدولة ذاته سيكون معرضًا للخطر (إلى أن يقوموا بالانتحار مثل المقامر الذي أطلق الرصاص على رأسه).

ثم يبدأ أفنيري في عقد المقارنة بين الصهاينة والفرنجة فيقول: «بعد أن احتل الصليبيون القدس، عام ١٠٩٩ استمر توسعهم. وانتشرت مملكة الصليبيين، من رفح في الجنوب وحتى تركية وتمركزوا عبر الأردن في الشرق. ثم احتلوا أيضًا قطاع غزة الذي كان يمتد حتى عسقلان (أشكلون)».

«ولكن شيئًا فشيئًا، دار الدولاب، وبدلًا من المزيد من التوسع بدأت مملكة الصليبيين بالاضمحلال، كانت تسقط القلعة تلو الأخرى بأيدي المسلمين، حتى جاء صلاح الدين وانتصر عليهم بجانب طبرية عام ١١٨٧، ثم سقطت البلاد كلها بين يدَيه، فيما عدا عكا. ولكن مصيرهم كان قد حسم، ففي نهاية الأمر، وفي عام ١٢٩١، سقطت عكا أيضًا، وقذف بآخر الصليبيين إلى البحر، بكل ما في هذه الكلمة من معنى».

وقد بين المؤرخ البريطاني ستيفن رانسيمان، وهو أحد كبار مؤرخي الحملات الصليبية، أن الصليبيين كان أمامهم فرصة المصالحة مع المسلمين والتوصل إلى سلام دائم حينما كانوا في أوج قوتهم، ولكنهم فوتوا الفرصة، وبهذه الطريقة أنزلوا بأنفسهم الدمار عندما دار الدولاب.

ثم يضيف أفنيري أن المستوطنين يستخدمون خطابًا عنصريًّا ترد فيه عبارات مثل «[نقاء]الدم اليهودي»، و«كل العرب هم حيوانات»، و«لا يفهم العرب سوى لغة القوة»، ويطالبون بالاحتفاظ بكل الأراضي وبزيادة المستوطنات والضرب بيدٍ من حديد على العرب، وكأنهم سيمكنهم الحفاظ

على قوتهم أبدَ الآبدين، بدلًا من ذلك حذَّر أفنيري الإسرائيليين من مصير الفرنجة: «الانسحاب من غزة الذي كان من شأنه أن يكون خطوة كبيرة أولى باتجاه السلام، تم تنفيذه دون إجراء حوار مع الفلسطينيين، دون اتفاقية، ويكاد يكون أشبه بعملية عسكرية. وبالفعل بعد أسبوعين فقط من انتهاء الانسحاب، بدأت حملة أخرى من الاعتقالات، القذائف، التصفيات الموجَّهة، صواريخ القسام وقصف سلاح الجو».

ثم يشير أفنيري إلى أن الدولة الصهيونية ستضطر إلى تنفيذ المزيد من الانسحاب؛ لأن الظروف التاريخية التي أجبرتنا على الانسحاب من غزة، تنطبق على الضفة الغربية أيضًا، فالاعتبارات الديموجرافية تجبر إسرائيل الصهيونية على الخروج من المناطق الفلسطينية المكتظة بالسكان. وقد تعب الجمهور الإسرائيلي ذاته من الحرب، وهو يتوق إلى العيش الطبيعي بسلام. لا يتمتع المستوطنون في الضفة الغربية بشعبية، وقد بدأت مكانتهم تتضعضع بين أوساط الجمهور».

«الاحتفالات الفلسطينية الهائلة التي حدثت في غزة بعد الانسحاب، كانت تنبع من الإيمان بأن هذا هو انتصار للمقاومة الفلسطينية. الفلسطينيون على قناعة بأن إسرائيل قد فرت من وجه الأبطال الفلسطينيين الذين ضحوا بأنفسهم من أجل شعبهم، مثلما فرت قبل خمس سنوات من وجه الشيعة في جنوب لبنان؛ لأن «إسرائيل تفهم لغة القوة فقط». وكل ولد عربي يتعلم تاريخ الحروب الصليبية ويقارننا بهم».

أي انسحاب كَأحادي الجانب آخر من قبل إسرائيل، سيعزز هذا الإيمان، بهذه الطريقة سنصل إلى الخط الأخضر، ليس في إطار «الأرض مقابل السلام» بل في واقع الحرب: أي انسحاب من قبلنا ليس إلا مرحلة تحضيرية للانسحاب التالي. ستكون إسرائيل أشبه (بنقانق السلامي)، التي يتم قصها شريحة بعد شريحة. سلامي بدل سلام، العملية كَأحادية الجانب هي مسيرة من الحماقة. سندفع نحن ثمن السلام كاملًا، دون التوصل إلى سلام.

عامل الزمن ليس في مصلحتنا. نحن الآن في ذروة قوتنا؛ نحن نتمتع بأفضلية عسكرية، تكنولوجية واقتصادية هائلة، بل لدينا احتكار نووي في المنطقة. القوة العظمى الوحيدة في العالم هي حليفتنا التي تلازمنا.

ولكن القوة لا تدوم إلى الأبد. الشعوب العربية ستتطور، ستبدأ موازين القوة بالاختلاف، القنبلة النووية ستكون من نصيب الجميع في منطقتنا أيضًا. لن تظل الولايات المتحدة هي القوة العظمي الوحيدة في العالم، وستبدأ الصين والهند بمنافستها. يمكن أن تنشب في العالم العربي ثورة إسلامية متطرفة، من شأنها أن تقضي على أنظمة الحكم الفاسدة وأن توحد المنطقة من حولنا. ويمكن أن يقام نظام حكم من المتطرفين المسلمين في فلسطين ذاتها. هل سيكون من الأسهل علينا آنذاك أن نتوصل إلى السلام؟

«لقد تمتعنا حتى الآن بحظ تاريخي. تعالوا نتوقف عن المقامرة بمصير الدولة». هذا هو الإدراك الذي ترسخ في الوجدان الصهيوني، فهل سيعِي الحكام العرب الدرس، ويتذكرون صلاح الدين، وتاريخ الحروب ضد ممالك الفرنجة؟

س: يرى البعض أن الصهيونية وتصاعد حركتها بين يهود الولايات المتحدة هو دليل قاطع على وحدة الشعب اليهودي. فما رأيك؟

ج: أحب هنا أن أُميز بين الصهيونية التوطينية والصهيونية الاستيطانية، وقد عُرفت الصهيونية بأنها حركة تهدِف إلى تجميع يهود العالم في وطنهم القومي، لكن من الواضح أن هذا الهدف لم ولن يتحقق، فقد مرت ستة عقود على إنشاء الدولة الصهيونية وما يزيد على قرن على ظهور الحركة الصهيونية ولا تزال الأغلبية الساحقة ليهود العالم خارج الكيان الصهيوني، لقد انقسمت الحركة الصهيونية منذ بدايتها إلى صهيونية شرق أوربا الاستيطانية؛ أي صهيونية اليهودي الذي يذهب إلى فلسطين ويستولي على الأرض ويطرد شعبها منها، وإلى صهيونية غرب أوربا وأمريكا، وهي صهيونية توطينية؛ أي الصهيوني الذي لا يذهب إلى فلسطين للاستيطان وإنما يكتفي بالدعم المالي والسياسي

والمعنوي للكيان الاستيطاني. وقد عرف أحدهم الصهيونية التوطينية بأنها صهيونية الصالونات، بمعنى أن يجلس اليهودي على كرسي وَثِير في صالونه، ثم يُثرثر عن أرض الميعاد وعن الشعب اليهودي وضرورة تجميعه دون أن يُهاجر هو نفسه. وكما قال آخر: إن الصهيونية التوطينية هي أن يقوم يهودي بدفع أموال ليهودي ثانٍ لإرسال يهودي ثالث لأرض الميعاد. وقد شبَّه أحدهم هذا النوع من الصهيونية بأنه مثل فرقة إنشاد عسكرية تقف على المسرح وهي تحرك قدميها: محلَّك سِر وتغنِّي «فلنهاجر إلى إسرائيل»، وصهيونية يهود أمريكا من هذا النوع التوطيني، وهي صهيونية سهلة لا تكلف صاحبها سوى دفع بعض الأموال للحركة الصهيونية، وقد تزداد حدة هذه الصهيونية في أمريكا لكنها لا تعني بأي حال الصهيونيةَ بمعناها الاستيطاني.

وعزوف يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون غالبية يهود العالم عن الاستيطان في إسرائيل يشكل فشلًا ذريعًا، فهم قد قلبوا الأسطورة الصهيونية رأسًا على عقِب، فبدلًا من الحديث عن إسرائيل باعتبارها البلد الذي سيعودون إليه يتحدثون عنها باعتبارها بلد الأصل؛ أي البلد الذي جاءوا أو جاء آباؤهم منه، فهم يسمون أنفسهم أمريكيون يهود، مثل الأمريكيين الإيطاليين؛ أي أمريكيين من أصل إيطالي، أو مثل العرب الأمريكيين أي الأمريكيين من أصل عربي، هذا يعني أن إسرائيل أصبحت البلد الذي يهاجرون منه ولا يعودون إليه إلا للزيارة والسياحة، وهذا مقلوب الأسطورة الصهيونية.

وينظر كثير من يهود الولايات المتحدة إلى إسرائيل بوصفها ديزني لاند يهودية أو متحفًا قوميًّا يهوديًّا يستمدون من زيارته بعض الحماس الإثني ثم يعودون إلى أوطانهم الحقيقية، وأحد المثقفين الإسرائيليين لخَّص هذه العلاقة بأن وصف إسرائيل بأنها «فندق صهيون» إذ يحضر يهود العالم إليها فقط عندما يكون الجو حسنًا في الربيع والصيف، في حين يغلق الفندق أبوابه في الخريف والشتاء لإجراء الصيانة والتجديد. وكما قال أحد الإسرائيليين

ساخرًا إن أهم دولة يهودية في العالم هي دولة ولاية نيويورك اليهودية (كلمة state يمكن ترجمتها بكلمتي دولة وولاية).

في هذا الإطار لا يمكننا الحديث عن تزايد النزعة الصهيونية في أمريكا وتناقصها بين الإسرائيليين؛ فكل منهما يؤمن بصهيونية مختلفة عن صهيونية الآخر، بل يمكن القول إن تصاعد معدلات الحُمَّى الصهيونية في أمريكا هي محاولة من جانب يهود أمريكا للتخفيف من معدلات اندماجهم العالية، فيصعدون من التزامهم بالصهيونية التوطينية ويجزلون العطاء للحركة الصهيونية حتى يمكنهم أن يتمتعوا بحياتهم الأمريكية دون تأنيب ضمير. ومع هذا يجب أن نشير إلى أن هناك انصرافًا حقيقيًّا من جانب يهود أمريكا يتمثل في عدم حضورهم لانتخابات المندوبين الذين يمثلونهم في المؤتمر الصهيوني العام الذي يعقد كل أربعة أعوام في إسرائيل، حتى إن كثيرًا من المرشحين ينجحون بالتزكية لعدم وجود منافسين أو لعدم وجود ناخبين، كما يلاحظ أن تبرعات يهود أمريكا للحركة الصهيونية آخذة في التناقص، وأن معظم التبرعات الآن تأتي من يهود مسنين أثرياء ممن هاجروا من شرق أوربا.

س: هل انعكست هذه الأزمة على الفكر الصهيوني؟

ج: بطبيعة الحال، كان لا بد أن تتحرك آلة المصطلحات الصهيونية لتتكيف مع الوضع الجديد، وقد قُمت بجمع مجموعة من المصطلحات الجديدة التي يحاول الصهاينة بواسطتها تغطية إخفاقهم فهم يتحدثون عن «الصهيونية الاقتصادية» وهي أن يرسل يهود العالم برأسمالهم إلى فلسطين ولا يهاجرون، كما ينطبق هذا المصطلح على اليهود الذين يستوطنون في فلسطين بحثًا عن الحراك الاجتماعي ورغَد العيش والتي يمكن أن نُسميها صهيونية المرتزقة، بمعنى أن الدوافع الإيديولوجية المثالية السابقة قد تساقطت وأصبح من الواضح أنهم يبحثون عن حياة مترفة ولا سيما مع هجرة اليهود السوفييت بأعداد كبيرة إلى فلسطين المحتلة. وعلى سبيل المثال، فإن الإعلانات عن الاستيطان في الضفة الغربية لا تورد شيئًا عن أرض

الميعاد وإنما تذكر التسهيلات الائتمانية وحجم حمام السباحة.. وهكذا.

وكذلك «الصهيونية التقنية» و«الصهيونية الإلكترونية»؛ وهي أن يتواصل يهود العالم مع إسرائيل من خلال البريد الإلكتروني ويرسلون من خلاله أيضًا باختراعاتهم وإسهاماتهم ولا يهاجرون بأنفسهم!

وهناك مصطلح «الصهيونية المكوكية»، ويعني هؤلاء الذي يعيشون في الضفة الغربية ويعملون في تل أبيب؛ فهم ليسوا في الضفة الغربية لتنفيذ الوعد الإلهي أو لتحقيق الرؤية الصهيونية أو في إطار حلم أرض إسرائيل الكبرى، وإنما طلبًا للراحة والمنازل الفاخرة التي لا يمكنهم الحصول عليها في تل أبيب نظرًا لارتفاع أسعارها!

وثمة بعض المصطلحات النقدية اللاذعة التي طورها بعض منتقدي الصهيونية؛ فثمة من يصف الاستيطان الجديد بأنه «الصهيونية اللوكس» و«الصهيونية مكيفة الهواء». وكذلك «صهيونية دفتر الشيكات» أي أن يُرسل اليهودي بتبرعاته المالية ولا يُهاجر هوَ نفسه، و«صهيونية النفقة» وكأن اليهودي الذي يعيش في «المنفى» استعذب منفاه بعيدًا عن الدولة الصهيونية فطلق زوجته إسرائيل، ولكي يُسكت مطلقته (إسرائيل) فإنه يدفع لها نفقة حتى لا تفضحه.

س: ومع هذا تروج الدعاية الصهيونية لصورة مفادها أن الأغلبية العظمي من يهود العالم تؤمن بالعقيدة الصهيونية، وتؤازر الدولة الصهيونية وتقِف وراءها صفًّا واحدًا؟

ج: قد يكون شيء من الحقيقة السطحية والمباشرة في هذا القول، فمع أن يهود إسرائيل لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة من يهود العالم، فإن الحركة الصهيونية قد هيمنت على معظم المؤسسات اليهودية في العالم، ومنها كثير من الجمعيات اليهودية الأرثوذكسية والإصلاحية التي يوجد بينها وبين الصهيونية تناقُض من ناحية العقيدة؛ فاليهودية الأرثوذكسية ترى أن اليهود شعب بالمعني الديني فحسب وليس بالمعني العِرْقي كما يتصور الصهاينة. أما اليهودية الإصلاحية فتري أن اليهود ليسوا شعبًا أساسيًّا وإنما جماعة دينية

يؤمن أفرادها بالعقيدة نفسها. وقد أصبح من يرفضون الصهيونية بشكل علني وعقائدي أقلية هامشية لا يعتد بها ولا يسمع لها صوت.

ولكن، مع ذلك، يمكن القول إن العلاقة بين الجماعات اليهودية والحركة الصهيونية ليست طيبة دائمًا، والمعروف أن الحركة الصهيونية لاقت مقاومة شديدة عند ظهورها من أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم واضطرت إلى «غزو الدياسبورا»؛ أي لجأت إلى أنواع من العنف لقهرها والسيطرة عليها، وهذا ما تم بالفعل مع منتصف الخمسينيات. ولكن حتى بعد أن حقَّقت الحركة الصهيونية ذلك، رفَض أعضاء الجماعات اليهودية - في الممارسة العملية - الخضوع للأوامر والنواهي الصهيونية. فَهم، على سبيل المثال، يرفضون الهجرة إلى إسرائيل «وطنهم القومي» الوهمي، وهم قد يقبلون الصهيونية اسمًا وشكلًا لكنهم يرفضونها فعلًا وعملًا. وهذا ما نسميه «التملص اليهودي من الصهيونية».

س: هل يمكن شرح هذا التعبير؟

ج: «التملُّص اليهودي من الصهيونية» يُشير إلى محاولة أعضاء الجماعات اليهودية التظاهر بالولاء للصهيونية وإعلان ذلك بصوت عالٍ، ودفع التبرعات وكتابة الخطابات للضغط من أجل إسرائيل، ولكن الموقف المُعلن ليس له علاقة كبيرة بسلوكهم السياسي أو الثقافي المُتعين. هذا التملص يأخذ أشكالًا كثيرة من أهمها رفض الهجرة إلى إسرائيل، كما يتبدَّى في أن اهتمام أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ينصب على موروثهم الثقافي من المجتمع الذي يعيشون في كنفه؛ فيهود الولايات المتحدة على سبيل المثال، يهتمون بموروثهم الأمريكي اليهودي ويتعلمون اللغة الإنجليزية ويضعون مؤلفاتهم الدينية والدنيوية بها، كما أنهم لا يدرسون العبرية إلا في مراكز خاصة لدراسة اليهودية يعاني خريجوها من البطالة لعدم وجود اهتمام كافٍ بهذه الدراسات. وهذا الوضع هو تعبير عن رفض ضمني كامن للمفاهيم الصهيونية الخاصة بنفي الدياسبورا وبمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا،

وهي مفاهيم تؤكد أن يهود العالم مجرد أداة لتحقيق الهدف الصهيوني، وأنهم يمثلون هامشًا يدور حول المركز «القومي» الصهيوني أي الدولة الصهيونية.

وهناك مصطلح آخر قريب من مصطلح «التملص» وهو عبارة «عدم الاكتراث بالصهيونية» وهي ترجمتنا لعبارة «نان زايونيزم Non-Zionism»، والتي تعني حرفيًا «اللا صهيونية» (مقابل «التعاطف مع الصهيونية»، و«رفض الصهيونية»)، وقد اخترنا هذه العبارة؛ لأن اليهودي إن لم يكن منتميًا إلى الصهيونية ولا متعاطفًا معها، ولا رافضًا لها ولا متملِّصًا منها، فإن هذا يعني في واقع الأمر أنه يعتقد أن الصهيونية لا تعنيه أصلًا، شأنه شأن أي مواطن غير يهودي في بلده. ولأن الأمر لا يعنيه، فهو غير مطالب بتحديد موقف منها. والواقع أن كثيرًا من كبار المفكرين والأدباء اليهود غير مكترثين بالصهيونية (ولا باليهودية). ويمكن اعتبار عدم الاكتراث بالصهيونية أحد أشكال التملص منها

س: أريد أن أستوضح منك عن مَن هي الجماعات اليهودية التي ترفض المشروع الصهيوني وتقف ضد دولة «إسرائيل» وتؤيد حقوق العرب؟

ج: أحب الإشارة إلى ما يلي، أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت اليهودية الحاخامية تُحرِّم العودة إلى فلسطين، وتسمِّي محاولة العودة «دحيكات هاكتس»؛ أي التعجيل بالنهاية؛ لأنه كان من المفروض على اليهودي ألا يعود إلى فلسطين/ صهيون، وأن ينتظر في صبر وأناةٍ إلى أن يأذن الإله فيرسل الماشيح (المسيح المخلص اليهودي) ليقودَ شَعبه بنفسه، وذلك في آخر الأيام. ولذا كانت العودة تعدُّ ضربًا من التجديف والهرطقة، هذه مسألة دينية مستقرة، ولذلك إذا عُدتِ إلى (موسوعة إسرائيل والصهيونية) لروفائيل باتاي، ستجدين أنه جاء فيها حرفيًا: حين عقد المؤتمر الصهيوني الأول عارضته جميع الجمعيات اليهودية الدينية والثقافية في العالم، بمعنى أنها كانت مرفوضة. وكما أبين في الموسوعة أن الفكر الصهيوني تبلور ليس في أحضان الجماعات اليهودية وإنما في أحضان السلطات الاستعمارية في إنجلترا.

وفي هذا الإطار تكونت عدة جماعات دينية أرثوذكسية معادية للصهيونية وقررت محاربتها باعتبارها كُفرًا، ولكن تم صهينة العقيدة اليهودية ذاتها. ومن المفارقات أن هذه الجماعات ذاتها تحولت إلى جماعات صهيونية متشددة، ولم يبقَ منها سوى جماعة (الناطوري كارتا) التي حافظت على موقفها الديني المناهض للصهيونية باعتبارها كُفرًا. وهذه المنظمة لا تعترف بالدولة الصهيونية وتعتبر استقلالها يوم حداد، ويحرق فيه العلم الإسرائيلي، ولهم مندوب في منظمة التحرير الفلسطينية.

س: تتحدث عن «موت الشعب اليهودي» في الغرب والولايات المتحدة الأمريكية، وكيف أن أعضاء الجماعات اليهودية تتناقص أعدادهم لأسباب عدة من أهمها اندماجهم ثم انصهارهم في المجتمعات الغربية، فهل يمكن تفسير هذه القضية؟

ج: عبارة «موت الشعب اليهودي»، لست أنا الذي صغتها، بل صاغها عالم الاجتماع (الفرنسي اليهودي) فريدمان وأصدر كتابًا بهذا العنوان في أوائل الستينيات. كما يشير صهاينة أمريكا إلى ما يسمونه «الهولوكوست» الصامت؛ أي تناقص أعداد اليهود من خلال التزاوج المختلط والانصهار.

الهولوكوست الصامت هذا، يؤثر في الكثافة البشرية اليهودية، والصهيونية باعتبارها حركة استيطانية تحتاج للمزيد من البشر. وما حدث أن الخزان البشري الأساسي للهجرة الاستيطانية من شرق أوربا قد نَضبَ من خلال الإبادة النازية، وقد أتت الهجرة السوفييتية الأخيرة على البقية الباقية منه، وثمة عناصر أخرى تؤدي إلى «موت الشعب اليهودي» من أهمها تزايد معدلات الاندماج؛ فكثير من اليهود الذين يندمجون يخفون هويتهم اليهودية وانتماءهم اليهودي ويسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود. كما يلاحظ أن أعدادًا لا بأس بها من أعضاء الجماعات اليهودية يتنصرون أو ينخرطون في سلك العبادات الجديدة، ومن ثم يسقطون عن أنفسهم تسمية «يهودي».

ويؤدي الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود، والذي وصل إلى

درجة لم يشهدها يهود العالم من قبل إلى الاختفاء. وقد بلغت معدلات الزواج المختلط ما يزيد على ٥٠٪ في الولايات المتحدة والعالم الغربي على وجه العموم (بما في ذلك روسيا وأوكرانيا).

ويلاحظ أن الأنثى اليهودية التي كانت تُعَد العمود الفقري للهويات اليهودية في الماضي، بدأت هي الأخرى تندمج في المجتمع الذي تعيش في كنفه، وذلك بمعدلات عالية تقترب من معدلات الذكور، وهي تُقبل الآن على الزواج المختلط بعد أن كان ذلك مقصورًا تقريبًا على الذكور وحدهم. ويلاحظ أن أبناء الزواج المختلط يكونون عادة إما غير يهود وإما غير مكترثين باليهودية، وقد ساهمت حركة التمركز حول الأنثى (الفيمينزم) في تعميق هذه الاتجاهات كلها.

إلى جانب هذا توجد عناصر تؤدي إلى انخفاض نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، مع ملاحظة أن بعض هذه الأسباب ليس مقصورًا على أعضاء الجماعات اليهودية، فهي ظاهرة عامة في الغرب، فيلاحظ أن معظم اليهود من سكان المدن. ومن المعروف أن المدن لا يمكنها الاحتفاظ بكثافتها السكانية من خلال التزايد الطبيعي. ومن العناصر الأخرى المهمة التي تؤدي إلى انخفاض معدلات الإنجاب تفشِّي قِيم المنفعة واللذة والفردية والأنانية في المجتمعات الغربية التي يُقال عنها «متقدمة»، وهي قيم تتناقض مع فكرة الأسرة والزواج وإنجاب الأطفال وتنشئتهم، بكل ما يتضمن ذلك من قيد على الحرية وتخلٍّ عن المُتعة الحسية المباشرة. وقد أدى هذا البعد أيضًا إلى تفسخ الأسرة اليهودية وتزايد نسبة الطلاق.

وقد تزايد عدد الشذاذ جنسيًّا في المجتمعات التي يُقال عنها «متقدمة »، وتوجد بينهم نسبة عالية من اليهود. ومعظم الشذاذ ينتمون إلى المرحلة العمرية النشطة جنسيًّا، وهذا يعني أن عددًا كبيرًا من الذكور والإناث ينسحِبون من عملية الإنجاب.

كما انسحب كثير من النساء من عملية الإنجاب في المجتمعات الغربية

بتأثير حركة التمركز حول الأنثى التي تجعل أي نشاط أنثوي خاص (مثل الإنجاب) أمرًا سلبيًا أو معوقًا لنشاط المرأة في الحياة العامة. ومن المعروف أن نسبة كبيرة من قيادات هذه الحركة من اليهوديات، وأن نسبة اليهوديات المنخرطات فيها يفوق المعدل القومي.

كما أن مستوى العناية الصحية آخذٌ في التحسُّن، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة معدلات العمر، وإلى زيادة نسبة كبار السن وهي شريحة غير خصبة من السكان. وقد أدَّى هذا كله إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأصبحت واحدة من أقل النِّسب في العالم، ومن المعروف أن المطلوب هو أن تنجب الأنثي ٢,١ طفل في المتوسط حتى يتسني لأي جماعة إنسانية إعادة إنتاج نفسها بيولوجيًا. والمرأة اليهودية في إسرائيل تقترب من هذا المعدل بالكاد، فهي تنجب ٢,٩١ (وهو أقل معدل منذ تأسيس الدولة إذ وصل إلى مستواه الحالي عام ١٩٩١). لكن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة في العالم؛ فالإناث في المرحلة العمرية ٣٥-٤٤ ينجبن ١,٥٧، أما في المرحلة العمرية ٢٥-٣٤ فإن المتوسط هو ٠,٨٧ أي أقل من طفل واحد.

وكل هذه العناصر التي تؤدي إلى موت الشعب اليهودي تقوِّض في الوقت ذاته مفهوم الشعب اليهودي المنفي وأنه يجب أن يعود إلى وطنه الأصلي!

س: **أتفق معك في هذا الشأن، لكنك تعلم أن بعض الحاخامات الأرثوذكس قاموا بتهويد الهنود الحمر في بيرو؛ فإسرائيل تريد دعم نفسها بشريًا؛ ولذا تقوم باستقطاب أشخاص لا علاقة لهم بالدين اليهودي، وتقول: إنهم من أسباط إسرائيل العشرة المفقودة؟**

ج. كنت سأضيف إلى ما قلت أن تناقص أعداد اليهود في العالم، قد لا يؤثر كثيرًا على المشروع الصهيوني، والهجرة السوفييتية الأخيرة كان أكثر من نصف أعضائها غير يهود، ومع ذلك سمحت لهم المؤسسة الإشكنازية الصهيونية بالهجرة. وأشير دائمًا إلى الفلاشاه، فحتى عام ١٩٧٣ كان الخط

الرسمي للوكالة اليهودية بالنسبة للفلاشاه أن يتنصروا، حلًّا لمشكلتهم؛ لأن عقيدتهم ليست يهودية وليست مسيحية مائة في المائة، لكن في أواخر الثمانينيات تغير الوضع بسبب الحاجة إلى مادة استيطانية. هذا يعطينا مؤشرًا أن الدولة الصهيونية قد تتحول إلى دولة استيطانية وحسب، وإن كانت ديباجتها يهودية. ثمة مشكلة، أن هؤلاء المهاجرين حين يأتون يحلون مشكلة أولية لكنهم يخلقون مشاكل كثيرة، ومشكلة الهوية آخذة في التفاقُم؛ الفلاشاه سببوا مشاكل، وقبلهم اليهود المغاربة والروس، فإن أتى الحاخامات الأرثوذكس الصهاينة ببعض الهنود الحمر من بيرو وقاموا بتهويدهم على عجل وتوطينهم في المستوطنات في الضفة الغربية، فأنا أعتقد أن مشكلة الهوية ستتفاقم بشكل أكثر حدة.المشكلة لها جانب آخر، فبعض القبائل في آسيا وإفريقيا التي تأثرت ببعض جوانب اليهودية من خلال بعثات التبشير المسيحية، بدأت تُطالب هي الأخرى بحق العودة، مما يعني أن الوجه الغربي الإشكنازي للدولة الصهيونية سيتراجع، وهذا ما يُخيف النخبة الإشكنازية؛ ولذلك ينادي بعض المثقفين الإشكناز بإلغاء قانون العودة.

س: هل حقق المشروع الصهيوني ما يهدف إليه فيما يسمى «نفي الدياسبورا» أي تصفية الجماعات اليهودية وانتقال غالبية ما يسمى بالشعب اليهودي إلى فلسطين؟

ج: تصفية الجماعات اليهودية في أنحاء العالم أمر مستحيل؛ فأعضاء هذه الجماعات يقاومون ويراوغون ويتملَّصون ولا يهاجرون فهم سعداء في «المنفي» وهذا ما تنبَّه إليه هرتزل من البداية، إن من سيُهاجر إلى فلسطين ليس اليهود كلهم وإنما الفقراء أساسًا (فيما كان يسمى «الفائض البشري اليهودي»). ولذا تراجعت المؤسسة الصهيونية وظهرت صيغ صهيونية أقل حدة من الصيغة الراديكالية؛ الأولى ترى أن الموروث الثقافي لأعضاء الجماعات قد تكون له أهمية، ولكنها أهمية ثانوية بالقياس إلى إنجازات اليهود الحضارية في فلسطين تحت حكم دولة مستقلة. وانطلاقًا من هذا، يمكن

استغلال أعضاء الجماعات اليهودية بدلًا من تصفيتهم، ويمكن توظيفهم في خدمة الدولة الصهيونية بدلًا من نفيهم. بل إن المُفكر الصهيوني العُمالي أهاردن ديفيد جوردون اقترح أن تكون علاقة يهود العالم بالدولة الصهيونية مثل علاقة الدول الاستعمارية بالمستعمرات؛ أي علاقة يستفيد منها طرف واحد ويدفع الآخر الثمن. فالجماعات اليهودية، من هذا المنظور، هي مجرد وسيلة تستخدم للوصول إلى الغاية الصهيونية، أو جسر يستخدم للعبور إلى أرض الميعاد، أو لبنة تستخدم في بناء الدولة الصهيونية.

وقد ظلت الدعوة إلى نفي الدياسبورا واستغلالها قائمة حتى عام ١٩٤٨. ولكن بعد إنشاء الدولة وتزايد اعتمادها على الولايات المتحدة وعلى يهود العالم، تخلى الصهاينة عن الصيغة المتطرفة، وتم تبنِّي صيغة معدَّلة مقلصة، ومن ثم أصبحت الدولة الصهيونية لا تهدف إلى نفي الجماعات وتصفيتها وإنما تنظر إليها باعتبارها مصدر دعم مادي وسياسي ومعنوي؛ أي قبلت ما نسميه «الصهيونية التوطينية»؛ ولذا، فإن الآلة الصهيونية تركز كل همها على جمع التبرعات.

وقد طرحت مؤخرًا صيغة جديدة للتعاون بين الصهيونية وأعضاء الجماعات اليهودية، تشكل تراجعًا صهيونيًّا. فهذا المشروع يركز على القدرات المهنية والفكرية لأعضاء الجماعات انطلاقًا من القول بأن العقول هي رأسمال عصر العلم، تمامًا كما كانت النقود رأسمال عصر الصناعة. ولذا، فإن هذا المشروع يهدف إلى أن تكون إسرائيل أول المجتمعات في عصر الفضاء وأكثرها تركيبًا من الناحية التقنية والعلمية والثقافية، وتتحول بذلك إلى قوة عظمى صغيرة تنتج التقنية وتُصدرها، فتحل مشكلة ميزان المدفوعات وترفع مستوى مواطنيها، وتسد الهُوة الاجتماعية الإثنية داخل المجتمع الصهيوني، ثم تضمن في النهاية استمرار وجود الهُوة الكيفية بينها وبين جيرانها. ولذا، لن يطلب من أعضاء الجماعات اليهودية أن يُهاجروا وإنما سيطلب منهم إقامة مشاريع ذات طابع كيفي مُتميز في إسرائيل. وسيكون بوسع المساهمين في هذه المشاريع قضاء أوقات أطول في إسرائيل والمساهمة بكفاءتهم العلمية

والتقنية دون أن يهاجروا بالفعل. كما يمكنهم أيضًا المساهمة في استيراد السلع الإسرائيلية وتسويقها، بل يمكن أن يتحولوا إلى وكلاء يتقاضون عمولة كبيرة تستخدم لتمويل المشاريع المختلفة. وغني عن القول أن هذه مهمة يمكن أن يقوم بها أيضًا أي إنسان يطمع في تحقيق الربح، فهي لا تتصل بالضرورة بالهوية اليهودية أو بوحدة الشعب اليهودي كما لا تتصل بالعلاقة الخاصة بين دياسبورا يهودية في المنفى ومركز يهودي في فلسطين!

س: ما تقوله لا يعني إخفاق الصهيونية بقدر ما يعكس قدرتها على التكيف والالتفاف على الواقع الأمر الذي يؤدي لانتصارها في النهاية؟

ج:الانتصارات التي أحرزها الصهاينة هي حقائق لا يمكن إنكارها، ولكنها حقائق صماء منزوعة من سياقها، لو دققنا النظر قليلًا سنجد أنها من قبيل «الحقائق الكاذبة.true lies» فمع هذا الحديث المستمر عن الانتصارات الإسرائيلية والتقدم الاقتصادي الباهر والقوة العسكرية الساحقة الماحقة، والتي يرددها الإعلام العربي وكأن عقله في أذنيه، إلا أن هذه الانتصارات لم تنجز شيئًا حقيقيًّا، فلا تزال جميع المشاكل الأساسية التي واجهها الكيان الصهيوني معلَّقة، وكل الأسئلة التي طرحت عليه من دون إجابة؛ ولذا فهم لا يتوجهون أبدًا إلى قضايا الحل النهائي، وحينما يتصدَّى لها أحد الإسرائيليين فإنه يُقابلها بلاءات متكررة، وكما قال مفكر إسرائيلي: إن إسرائيل ستركض من نصر إلى نصرٍ حتى تصل إلى نهايتها المحتومة. وقد تحدَّث المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون عن عُقم الانتصار impotence of victory، وأنا أُسمِّي الانتصار الإسرائيلي، «انتشارًا» تمددًا في المكان، ولكنه يصطدم دائمًا بحائط الزمان والتاريخ متمثلًا في المقاومة الفلسطينية النبيلة.

س: ما هو دور المنظمة الصهيونية داخل إسرائيل الآن؟

ج: من الملاحظ أن دور المنظمة الصهيونية آخذ في التراجُع؛ ولذا لم تَعُد الصحف الإسرائيلية تحفل بالمؤتمر الصهيوني أو اجتماعاته، لقد بلغ عدم الاكتراث الإسرائيلي أن أخبار المؤتمر الصهيوني الذي يُعقد عادة في

القدس، تنشر أحيانًا بجوار صفحة الوفيات. وفي أحد المؤتمرات تغيب الوزير الإسرائيلي المنوط بتمثيل الحكومة الإسرائيلية عن الحضور، وظهر فيما بعد أنه مكث في منزله لمشاهدة مباراة كرة قدم يلعبها فريقه المفضل. ومع أنني أتابع الصحف الإسرائيلية بشكل شبه يومي، إلا أنني لم ألمح أخبار عقد المؤتمر الصهيوني الأخير؛ إذ يبدو أن الصحف الإسرائيلية قد أهملت أخباره تمامًا، وعلى كل حين اطلعت على قراراته فوجدت أنها لا تختلف عن قرارات المؤتمرات الصهيونية الأخرى، فالمشاكل هي هي، والحلول المقترحة هي هي، فيما سميته «الأسطوانة الصهيونية الرتيبة».

س: من خلال أبحاثك في فكر الصهيونية وفلسفتها وتاريخها في أي سياق تضع الصراع العربي الصهيوني؟

ج: سأنطلق للإجابة عن هذا السؤال من تعريف «العلمانية»، وأسمِّيها» العلمانية الشاملة» فهي ليست فصل الدين عن الدولة، وإنما فصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن مجمل حياة الإنسان بشكلها العام والخاص، ومن ثم نجد العلمانية الشاملة تمتد لتشمل حتى الأزياء، (موضة) القميص الذي يكشف عن البطن، لا علاقة لها بفصل الدين عن الدولة فما هو تصنيفها؟ أذهب إلى أنها تبدٍّ للعلمانية الشاملة بمعنى أنها تحول المرأة إلى كائن طبيعي مادي لا يتمتع بأي قداسة أو خصوصية، وتحولها إلى مادة استعمالية. والصراع العربي الصهيوني يندرج ضمن هذا الإطار، والصهيونية حوَّلت كلًّا من اليهود والعرب، بل وفلسطين ذاتها إلى مادة استعمالية.

فالصهيونية إذن ليست حركه يهودية كما تدَّعي، وإنما حركة علمانية إمبريالية شاملة، وأعتقد أن الكفاح العربي الإسلامي ضد الصهيونية يجب أن يأخذ هذا بعينِ الاعتبار، إننا يجب أن نقف ضد هذه الصهيونية باعتبارها معادية للفلسطينيين وللعرب وللإنسانية كافة؛ فهي رؤية تحول الإنسان إلى مادة وتوظف هذا الإنسان في خدمتها.

س: من المصطلحات التي ظهرت مؤخرًا مصطلح «ما بعد الصهيونية» ماذا يعني؟

ج: «ما بعد الصهيونية» مصطلح سياسي يشير إلى مجموعة من العلماء الإسرائيليين تشمل المؤرخين الجُدد وعلماء الاجتماع والآثار النقديين. وقد تأثر بهم عدد من العاملين في حقول الثقافة والفن والأدب. ويستخدم المصطلح للإشارة إلى انحسار الإيديولوجية الصهيونية ودخول التجمع الصهيوني عصر ما بعد الإيديولوجيات، (كلمة «بعد» في الخطاب الفلسفي الغربي تعني أن النموذج المُهيمن قد ضَمُر وذوَى ولم يُولَد نموذج جديد يحل محله؛ أي إن ثمة أزمة على مستوى النموذج لم يظهر لها حل بعد ولعلها تعني أيضًا «نهاية»). ومن أهم مصطلحات المَا بَعْد مصطلح «ما بعد الحداثة» الذي صيغ مصطلح «ما بعد الصهيونية» قياسًا عليه.

وثمة من يرى أن ما بعد الصهيونية معادية للصهيونية، وأنها تُعيد النظر في المقولات الصهيونية الأساسية كلها، في حين يؤكد آخرون أن ما بعد الصهيونية إنما هي امتداد للصهيونية. فعلى سبيل المثال، يذهب بني موريس، وهو من أهم المؤرخين الجُدد، إلى أنه «صهيوني يقوم بعمل إيجابي «من خلال البحث عن الحقيقة التاريخية. بل يرى بعض هؤلاء أن ما بعد الصهيونية هي تحقق للصهيونية، وأن السلام مع العرب هو الثمرة الطبيعية للإنجاز الصهيوني، وكما يقول بني موريس: «إن الكشف عن أعمال الطرد ومجازر ضد العرب في سنة ١٩٤٨، وأعمال إسرائيل على امتداد الحدود في الخمسينيات، وعدم استعداد إسرائيل للقيام بتنازلات من أجل السلام مع دول عربية (الأردن وسورية) بعد سنة ١٩٤٨، ليس دعاية معادية للصهيونية، وإنما هو إضاءة لجانب من مسارات تاريخية مهمة، عتمت عليه عمدًا طوال عشرات من الأعوام المؤسسة الإسرائيلية - بمن في ذلك الباحثون والصحافة - خدمة للحكومة وللإيديولوجية السائدة».

وأعضاء هذا الفريق «الصهيوني»، لا ينكرون شرعية ما يسمى «القومية اليهودية» التي أدت إلى إقامة الدولة، ولكنهم يطالبون بإنهاء الرابطة النفسية

والعائلية بين يهود إسرائيل والجماعات اليهودية خارجها.ومما يجدر ذكره أن ما بعد الصهيونية لها جذور تسبِق تاريخ ظهورها في الثمانينيات؛ فتحدي الرواية الإسرائيلية للأحداث أمرٌ قام به إسرائيل شاحاك من قبل بشكل منهجي شامل، أما يوري أفينيري فقد أكد في أكثر من مناسبة أن الصهيونية مثل البيوريتانية هي إيديولوجية الأصل التي انتهى دورها، وثمة من قال: إن الصهيونية إن هي إلا حركة إنقاذ ليهود أوربا (من الكارثة المحيطة بهم) انتهى دورها مع إعلان الدولة الصهيونية، وعلى الجميع تقبُّلها دون الخوض في النقاش بخصوص الأصول، وبطبيعة الحال الحركة الكنعانية التي نادت (حتى قبل قيام الدولة) بفصل الدولة الصهيونية عن يهود العالم وضرورة التفرقة بين الإسرائيليين (الكنعانيين) واليهود. وعلى مستوى التطور التاريخي لوحظ أن جيل الصابرا كان قد بدأ يبتعد عما يسمى «التراث اليهودي»، مما دعا جورج فريدمان إلى الإشارة لهم بأنهم «أغيار يتحدثون العبرية».. بل إن بن جوريون نفسه طالب بحل المنظمة الصهيونية بعد تأسيس الدولة، فقد وصفها بأنها «الإسقالة» التي تفقد وظيفتها بعد الانتهاء من البناء. وأن مهمة يهود العالم هي الهجرة إليها وحسب، وبإمكان الدولة الصهيونية الوصول إليهم مباشرة، دون وساطة المنظمة الصهيونية، وهو موقف لا يختلف كثيرًا عن موقف الكاتب البريطاني، من أصل مجري، آرثر كوستلر.

س: ما هي الأسباب التي أدت إلى ظهور ما بعد الصهيونية؟

ج: ظهور ما بعد الصهيونية في الثمانينيات واكتسابها شيئًا من المركزية له أسباب عديدة، فثمة من يرى أن الصهيونية قد حقَّقت أهدافها على الصعيد القومي إذ أسست دولة قومية عادية طبيعية، سكانها طبيعيون، ولكن ثمة من يرى أن المستوطنين الصهاينة يشعرون أن ثمن الحروب المتكررة مرتفِع للغاية، وأنهم الذين يدفعون الثمن. فالمستوطن الصهيوني هو الذي يواجه في الوقت الحالي كارثة جماعية؛ لهذا كله بدءوا يبحثون عن بدائل للنموذج الصهيوني. وعلى عكس الخوف من وقوع الكارثة الذي يمارسه سكان

المستوطن الصهيوني، يشعر يهود الشتات بالطمأنينة، فالخوف لم يعد يَطالُهم وهم يعيشون حياتهم بشكل طبيعي، إن لم يكن أفضل من أقرانهم الإسرائيليين. ويرى بني موريس أن دولة إسرائيل دخلت، في الأعوام الأخيرة، حِقبة ما بعد إيديولوجية؛ أي «ما بعد صهيونية»، بدأت فيها المصالح والقيم الخاصة والفردية تطغي على قيم الجماعة بكاملها. ومجتمع الريادة الصهيونية - في نهاية الأمر - هو مجتمع مؤجل فيه الاستهلاك، فكثير ممن استوطنوا في فلسطين فعلوا ذلك ليرفعوا مستواهم المعيشي.

وقد قام دعاة ما بعد الصهيونية بمراجعة المقولات الصهيونية الرئيسية وانتقادها، ومحاولة «نزع القداسة» عن كل أو بعض المقدسات الصهيونية، فوجَّه حملة خطاب ما بعد الصهيونية النقد لبعض الأفكار السائدة مثل «جمع المنفيين» و«بوتقة الصهر» والطبيعة العسكرية للمجتمع الإسرائيلي ونزعته التوسعية وشعار «الأمن فوق كل اعتبار»، بل تناول بعضهم الأيقونة الصهيونية والغربية الكبرى؛ أي مسألة الهولوكوست.

وقد قام المؤرخون الجدد بمراجعة الرواية الصهيونية لحرب ١٩٤٨، أما علماء الاجتماع الانتقاديون فقد قدموا نقدًا جذريًّا للصهيونية، فدرسوا حركات الاحتجاج والفئات المضطهدة في المجتمع الإسرائيلي (الفلسطينيون والسود والسفارد والنساء) بشكلٍ طبق فيه بعضهم منظورًا كولونياليًّا على الدراسات التاريخية الصهيونية.

وقد خرجت حملة خطاب «ما بعد الصهيونية» عن النهج الصهيوني السائد، والذي يقوم على لي عنق التاريخ والواقع من أجل إرساء المزاعم والادعاءات الصهيونية.

س: هل تظن أن موقف المثقفين العرب ليس ناضجًا بما فيه الكفاية؟

ج: ابتداء، يجب ألا ننسي أن الظاهرة الصهيونية مركبة، فمع أنها ظاهرة تاريخية اجتماعية وليست ميتافيزيقية، إلا أنها مع هذا تتسم بشيء من الفرادة. فأنواع الاستعمار التي عرفها العالم العربي هي الاستعمار التقليدي؛ جيوش

الدولة المستعمرة تغزو دولة وتحتلها وتخضعها بالقوة العسكرية (كما هو الحال في مصر وسورية)، واستعمار استيطاني كما هو الحال في الجزائر، أما الصهيونية فهي كانت استعمارًا استيطانيًّا إحلاليًّا لا يريد الاستيلاء على الأرض وتوطين عنصر سكاني وافد وتسخير سكانها الأصليين (كما هو الحال في جنوب إفريقيا)، وإنما هو يريد الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها على أن يحل محلهم العنصر السكاني الوافد، كان لا بد أن يمرَّ بعض الوقت حتى يُمكن للعقل العربي أن يستوعب هذا النمط الجديد من الاستعمار، وحتى يمكنه أن يُعد خطة المقاومة، خاصة أن هذا الاستعمار جاء مدعومًا بالعالم الغربي وباعتذاريات مصقولة؛ فالصهيونية تدَّعي أنها ليست استعمارًا ولا احتلالًا وإنما هي عودة اليهود بعد آلاف السنين إلى أرض أجدادهم؛ أرض الميعاد، وأن الصهيونية هي القومية اليهودية وأنها حركة تحرير الشعب اليهودي. ولكن مع هذا يمكنني القول إن ما تسميه «غياب النضج» مرتبط بالفكر العربي كله، فهذا الفكر منذ ما يسمى بـ «عصر النهضة» تم استلابه إلى حدٍّ ما لصالح المقولات التحليلية الغربية؛ إذ إن المشروع النهضوي العربي قد حدَّد هدفه بأنه «اللحاق بالغرب»، فإذا كان هذا هو الهدف فعلى هذا المرء أن يهرول نحو الغرب وأن يقلل من إبداعه قدر الإمكان، حتى يمكنه أن يزيد من مقدرته على النقل بكفاءة وأمانة. إذ إن الإبداع هنا، سيتدخَّل بينه وبين ما يود نقله، والمترجم الأمين لا يُبدع إلا بمقدار التزامه بالنصِّ الأصلي، ولذا كانت الأدبيات العربية بخصوص الصهيونية مُخترقة تمامًا بالمقولات التحليلية الغربية الصهيونية/ المعادية للسامية. ولكن مع هذا يجب الإشارة إلى أن الخطاب التحليلي العربي بخصوص هذا الموضوع قد حقَّق قفزات في الأعوام العشرين الأخيرة، فثَمة أسماء لامعة كثيرة في مصر وخارجها لها إسهامات حقيقية. كما يُلاحظ أن ثمة مراكز بحوث عربية على مستوى عالٍ للغاية سواء من ناحية الإبداع أو التوثيق، كما يُضاف إلى هذا كله ظهور الكفاءات البحثية الفلسطينية التي تعيش في الأرض المحتلة.

(٣)
الدولة الصهيونية

س: حينما تتحدث عن الدولة الصهيونية دائمًا ما تنفي أنها دولة يهودية، وتؤكد على وضعها في إطار الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، أليس كذلك؟

ج: نعم ولذلك أنا لا أذهب إلى التوراة والتلمود لتحليل الظواهر الاستيطانية، وإنما أذهب لتاريخ الاستيطان الغربي وتاريخ الجيوب الاستيطانية.

س: ما وجه الشبه بين الدولة الصهيونية والاستيطان الغربي؟

ج: لنبدأ بتجربة الإنسان الأبيض الاستيطانية الإحلالية الإبادية في أمريكا الشمالية؛ فالأمريكيون الأوائل كانوا مستوطنين ينظرون إلى أنفسهم باعتبار أنهم عبرانيون، «يصعدون» إلى أرض كنعان -أو «صهيون» - للاستيلاء عليها والاستيطان فيها. أما السكان الأصليون فهم كنعانيون أو عماليق، مصيرهم الإبادة. وأمريكا الشمالية بالنسبة إليهم كانت أرضًا بلا شعبٍ، تنتظر ساكنيها الحقيقيين؛ أي الإنسان الأبيض! وفلسطين هي الأخرى، بالنسبة إلى الصهاينة، أرضٌ بلا شعب، مكانٌ بلا زمانٍ، فهي صيغة إبادية تنكر وجود الفلسطينيين وتاريخهم. إن الرائد الأمريكي (الكاوبوي) لا يختلف كثيرًا عن الرائد الصهيوني (الحالوتس)؛ كلاهما دارويني، لا يؤمن بأي قِيمٍ سوى قيمة السرعة والقوة والبقاء للأصلح. فالجيب الاستيطاني الأمريكي لا يختلف في جوهره عن الجيب الاستيطاني الصهيوني.ومع هذا، لابد أن أتدارك لأقولَ: إنه على حين نجح الإنسان الأبيض في إبادة معظم السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، تكمُن مشكلة الإسرائيليين الأساسية في أنهم لم يستطيعوا أن يبيدوا سكان أرض كنعان عن بَكْرةِ أبيهم. بل إن الفلسطينيين يتكاثرون كمًّا وكيفًا، فأعدادهم تزيد،

ونسبة التعليم بينهم آخذة هي الأخرى في التزايد كما أسلفنا، ونحن نعرف أن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التي لم تُبِدِ السكان الأصليين (مثل ممالك الفرنجة التي يقال لها الممالك الصليبية وجنوب إفريقيا) كان مآلها إلى الزوال، أما تلك التي نجحت في عملية الإبادة (مثل الولايات المتحدة الأمريكية) فهي وحدها التي كُتب لها البقاء والاستمرار. وإسرائيل تنتمي إلى نمط ممالك الفرنجة وجنوب إفريقيا فقد أخفقت في إبادة السكان الأصليين.

س: أنت إذن ترى أن التشابه أكبر بين إسرائيل وجنوب إفريقيا؟

ج: التشابه بين الجيبين الاستيطانيين في إسرائيل وجنوب إفريقيا عميق للغاية، وكما نعلم يأخذ الاستعمار الاستيطاني شكل هجرة جماعية منظمة لكتلة سكانية من العالم الغربي لأرض خارج أوربا. وتتم هذه الهجرة تحت الإشراف الكامل لدولة غربية لها مشروع استعماري (تسمى «الدولة الأم») أو بدعمٍ مالي وعسكري منها. ويوجد نوعان من الاستعمار الاستيطاني:

١- الاستعمار الاستيطاني الذي يهدف لاستغلال كل من الأرض ومن عليها من البشر، وهذا هو الاستعمار الاستيطاني المبني على التفرقة اللونية (التي يقال لها الأبارتهايد). وجنوب إفريقيا من أفضل الأمثلة على ذلك النوع من الاستعمار.

٢- الاستعمار الاستيطاني الذي يهدف إلى استغلال الأرض من دون سكانها، وهذا هو النوع الإحلالي حين يحل العنصر السكاني الوافد محل العنصر السكاني الأصلي الذي يكون مصيره الطرد أو الإبادة، والولايات المتحدة في سنوات الاستيطان الأولى هي أكثر الأمثلة تبلورًا على هذا النوع من الاستعمار، والدولة الصهيونية مثل آخر (وإن كانت الإبادة هي الآلية الأساسية في حالة الولايات المتحدة، في حين نجد أن الطرد هو الآلية الأساسية في حالة الدولة الصهيونية). وكما تحوَّلت الولايات المتحدة من النظام الاستيطاني الإحلالي إلى النظام المبني على الأبارتهايد، (بعد اختطاف ملايين الأفارقة وتسخيرهم عمالة شبه مجانية وعزلهم في مساكن خاصة بهم)

تحولت الدولة الصهيونية هي الأخرى بعد عام ١٩٦٧ من النظام الإحلالي إلى النظام المبني على الأبارتهايد.

س: هذا بخصوص الأصول التاريخية والبنية العامة، هل ثمة نقط تشابه أكثر تحديدًا؟

ج: نعم كلتا الدولتين بدأ جيبًا استيطانيًّا يخدم المصالح الغربية على عدة مستويات (قاعدة استراتيجية وعسكرية- استيعاب الفائض البشري - عمالة رخيصة - مصدر للمواد الخام) نظير الدعم والحماية الغربيين. وليس من قبيل الصدفة أن الشخصيات الأساسية وراء إصدار وعد بلفور هي نفسها الشخصيات التي كانت وراء إصدار إعلان اتحاد جنوب إفريقيا وهم: آرثر بلفور ولويد جورج واللورد ملنر وإيان سمطس.

كانت الدولة الإمبريالية الأم عادة ما تُعطي إحدى الشركات حق استغلال رقعة من الأرض ثم تتحوَّل هذه الشركة نفسها إلى حكومة المستوطن. وقد قامت المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية بهذا الدور في حالة المشروع الصهيوني، وتستمر العلاقة بين الدولة الأم والجيب الاستيطاني حتى بعد إعلان «استقلال» الدولة، إذ إن الدولة الاستيطانية ترى نفسها جزءًا لا يتجزأ من التشكيل الحضاري الغربي.

س: هل ثمة نقاط تشابه بين خطاب الجيبين الاستيطانيين، ولا سيما أن الجيب الاستيطاني في جنوب إفريقيا يدَّعي المسيحية، بينما يدَّعي الجيب الاستيطاني في فلسطين اليهودية؟

ج: الغريب في الموضوع أنه على هذا الاختلاف في الادعاءات فإن الخطاب الاستعماري الاستيطاني في معظم الجيوب الاستيطانية، إن لم يكن كلها، خطاب توراتي، فالمستوطنون البيض سواء في الولايات المتحدة أم جنوب إفريقيا أو إسرائيل كانوا يدَّعون أنهم «عبرانيون» أو «شعب مختار» أو «جماعة يسرائيل». واعتذاريات المستوطنين عادة اعتذاريات توراتية؛ فالأرض التي يستولون عليها هي صهيون؛ أرض وعَد الإله بها أعضاء هذا

الشعب دون غيرهم. والسكان الأصليون إن هم إلا «كنعانيون» أو «عماليق»، وجودهم عرضي في هذه الأرض (أو غير موجودين أساسًا)؛ ولذا فمصيرهم الإبادة أو الطرد في أسوأ تقدير، أو أن يتحولوا إلى عِمالة رخيصة، في أحسنه.

وعادة ما يرى أعضاء الجيوب الاستيطانية أنفسهم على أنهم موجودون في وطنهم وأرض ميعادهم (إفريقيا أو العالم العربي)، ولكنهم مع هذا يدَّعون أنهم ليسوا منه، فهم جزء من التاريخ الأوربي (وإن كان الصهاينة أيضًا يرون أنفسهم جزءًا من التاريخ اليهودي).

س: ما هو موقف المستوطنين من التاريخ؟

ج: يمكن القول بأن الكتل الاستيطانية عادة كتل معادية للتاريخ، فقد جاء المستوطنون من أوربا لأنها لَفِظَتهُم، فهم عادة ما يُنكرون التاريخ الغربي أو يتنكَّرون له. وهم يدعون أنهم جاءوا إلى أرض عذراء (صهيون الجديدة)، أرض لا تاريخ لها - حسب تصورهم - يمكنهم أن يبدءوا فيها من نقطة الصفر، وإنكار تاريخ البلد الجديد مسألة أساسية من الناحية المعرفية والنفسية؛ لأن المستوطنين لو اعترفوا بوجود تاريخ لسكانه الأصليين لفقدوا شرعية وجودهم.

وعادة ما يتبنَّى الجيب الاستيطاني رؤية قومية عضوية؛ إذ يرى المستوطنون أن ثمة وحدة عضوية تضمهم كلهم وتربطهم بأرضهم، هذا على مستوى الإدراك والرؤية، أما على مستوى البنية الفعلية فالأمر جِدّ مختلف، ففي جنوب إفريقيا - على سبيل المثال- نجد أن المستوطنين هناك قد انقسموا إلى شيع وجماعات، ولكن الانقسام بين العنصر الهولندي والعنصر البريطاني يظل أهم الانقسامات. وفي إسرائيل نجِدُ أيضًا انقسامات حادة بين أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة التي هاجرت إلى إسرائيل، ولكن مع هذا يظل الانقسام الأساسي هو الانقسام بين السفارد والإشكناز.

س: مِن وصفك هذا، يمكن القول إن موقف المستوطنين عادة ما يكون موقفًا عنصريًّا؟

ج: الخطاب الاستيطاني عادة خطاب عنصري يؤكد التفاوت بين الكتلة

الوافدة (التي ينسب إليها التفوق العرقي والحضاري)، والسكان الأصليين (الذين يُنسب إليهم التخلُّف العرقي والحضاري). ويترجم هذا نفسه إلى نظرية في الحقوق؛ فحقوق الكتلة الاستيطانية حقوق مطلقة، أما السكان الأصليون فلا حقوقَ لهم، وإن كان ثمة حقوقٌ فهي عرضية (كنعانية) تَجُبُّها حقوق المستوطنين (العبرانيين!).

انطلاقًا من هذا كله، يتحدد مفهوم المواطنة في البلدين؛ فالمواطن ليس من يعيش في الجيب الاستيطاني وإنما هو صاحب الحقوق المطلقة؛ أي اليهودي في الدولة الصهيونية، والأبيض في جنوب إفريقيا، ويتضح هذا في قانون العودة الإسرائيلي الذي يمنح حق العودة لليهود وحسب، كما يتضح في قوانين الهجرة في جنوب إفريقيا التي تمنع هجرة غير البيض. هذا يعني أن التمييز العنصري في الجيوب الاستيطانية لا يشكل انحرافًا عن القانون أو خرقًا له (كما هو الحال الآن في الولايات المتحدة)، وإنما هو من صميم القانون نفسه. فمقولة «يهودي» و«أبيض» هي مقولات قانونية تمنح صاحبها حقوقًا قانونية وسياسية ومزايا اقتصادية تُنكرها على مَن هو غير يهودي في إسرائيل، ومن هو غير أبيض في جنوب إفريقيا.

ويلاحظ على المستوى الثقافي ظهور نظامين قوميين: القومية الأولى قومية أصحاب الأرض الأصليين سواء الفلسطينيين أو الأفارقة في كلتا الدولتين، أما القومية الثانية فهي قومية مصطنعة، وهي قومية المستوطنين الذين لا تتوافر لهم في مجموعهم من البداية غالبية خصائص القومية الواحدة، ومع هذا يحتفل بالقومية الاصطناعية الواحدة وتصبح رموزها هي الرموز السائدة في الدول الاستيطانية، وفي مجال التعليم، لا تُتاح لأبناء السكان الأصليين فرص تعليمية متميزة، خشية أن يحققوا حراكًا اجتماعيًّا وثقافيًّا وتظهر بينهم نخبة متعلِّمة تقود كفاحهم الوطني.

س: هذا بخصوص الرؤية العامة وبنية القوانين، فكيف يتم ترجمتها على أرض الواقع؟

ج: تترجم نظرية الحقوق (والتفاوت) نفسها إلى بنية سياسية واجتماعية

وثقافية. فعلى المستوى السياسي ينشأ نظامان سياسيان؛ واحد ديمقراطي حديث مقصور على المستوطنين، والآخر شمولي يحكم علاقة الجماعة الاستيطانية بأصحاب الأرض الأصليين. وفي حين يسمح لأعضاء الكتلة الوافدة بالتنظيم السياسي والمهني، يحرم هذا على السكان الأصليين، أما في المجال الاقتصادي فنجد أن المستوطنين يحاولون الاستيلاء على الأرض إما عن طريق الاستيلاء المباشر، أو عن طريق شرائها، أو عن طريق إصدار قوانين تسهل عملية الاستيلاء. وهذه عملية مستمرة لا تتوقف إذ إن الجيب الاستيطاني بسبب إحساسه بالعزلة، وبسبب خوفه من المشكلة الديموجرافية يسمح لمزيد من المهاجرين بالاستيطان، الأمر الذي يتطلب المزيد من الأرض، فيزداد الصراع، وقد قام المستوطنون البيض في جنوب إفريقيا بالتوسع على حساب السكان الأصليين البوشمان والهوتنتوت والبانتو، تمامًا مثلما قام المستوطنون الصهاينة بالتوسع على حساب الفلسطينيين.

ويتقاضى العمال من السكان الأصليين أجورًا أقل كثيرًا من التي يتقاضاها العمال الاستيطانيون. كما أن معظم العمال من السكان الأصليين عليهم الانتقال من أماكن إقامتهم إلى أماكن عملهم، وهو ما يعني جهدًا إضافيًّا شاقًّا يتجشمه العامل دون مقابل. كما يقوم النظام الاستيطاني بإعاقة تطور اقتصاد محلي للسكان الأصليين أو أي شكل من أشكال التراكم الرأسمالي.

س: هل ثمة تشابه في المشاكل بين الجيبين الاستيطانيين؟

ج: تواجه الجيوب الاستيطانية مشكلة ديموجرافية دائمة؛ إذ إن السكان الأصليين يأخذون في التكاثر، على حين تتوقف أو تتناقص هجرة العنصر الأبيض أو اليهودي عامة من الخارج؛ ولذا تُعَد الهجرة قضية أمنية، وكي يفرض الجيب الاستيطاني رؤيته ويحاول ترجمتها إلى بنية اجتماعية وسياسية عليه أن يلجأ إلى قَدْر كبير من العنف الفكري والإرهاب الفعلي والقمع المستمر بهدف إبادة السكان أو طردهم أو استرقاقهم. وآليات الإرهاب تبدأ من المذابح المباشرة (دير ياسين وشاربفيل)، والطرد الجماعي والعقاب

الجماعي ووضع السكان في معازل جماعية (البانتوستان في جنوب إفريقيا - تقسيم الضفة الغربية وتضييق الحصار على المناطق في فلسطين المحتلة)، وفرض شبكة أمنية ضخمة وشبكة مواصلات ومجموعة من القوانين (مثل ضرورة استصدار تصريح من السلطات) بهدف تقييد حرية انتقال السكان الأصليين من مكانٍ إلى آخر وتقليل الاحتكاك بين السكان الأصليين والمستوطنين. س: **هل تنجح المؤسسة العسكرية في الجيوب الاستيطانية في قمع السكان الأصليين؟**

ج: قد تنجح بعض الوقت وفي بعض المراحل، ولكن مع كل عمليات القمع يظهر ما يمكن تسميته «شرعية الوجود»؛ أي إحساس المستوطنين الوافدين أن السكان الأصليين لا يزالون هناك يطالبون بحقوقهم ويحاربون من أجلها، وتأكيد هذا الوجود يعني في واقع الأمر غياب/ اختفاء المستوطنين؛ ولذا يُصر المستوطنون على أن وجودهم مهدَّد دائمًا. ولذا فهدف الأمن القومي في النظم الاستيطانية هو البقاء (وأهم مقومات البقاء القوة العسكرية وتدفق المادة البشرية بشكل دائم).

وهذا التوافق والإدراك المتبادل لوحدة المصير أدى إلى خلق درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل بين الدولة الصهيونية ودولة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا في عدة مجالات؛ ففي المجال التجاري كانت العلاقات بين الجيبين الاستيطانيين من القوة لدرجة نجد أن جنوب إفريقيا - قبل زوال النظام العنصري - كانت شريكة إسرائيل الأولى في التجارة، ولم يكن التعاون العسكري بين الدولتين أقل قوة، فقد أرسلت الدولة الصهيونية متطوعين إسرائيليين ليحاربوا جنبًا إلى جنبٍ مع قوات جنوب إفريقيا في حربها قوَى التحرر الوطني، وشاركت جنوب إفريقيا بدورها في إمداد إسرائيل بالسلاح في حرب إسرائيل العرب، ويعد التعاون في مجال صناعة الأسلحة من أهم أشكال التعاون، وكانت الدولتان تحاولان تنسيق جهودهما لتحقيق الاستقلال في مجال إنتاج المعدات العسكرية وفي مجال السلاح النووي.

ومع بداية التسعينيات تمت تصفية الجيوب الاستيطانية كلها في أنحاء العالم. ولم يتبقَّ غير إسرائيل وجنوب إفريقيا: الأولى تقبع على بوابة إفريقيا (تفصل بينها وبين آسيا)، والثانية تقبع في أطرافها. فكأنهما كانا يشكِّلان ما يشبه الكماشة التي تطبق على إفريقيا، وبزوال الجيب الاستيطاني في جنوب إفريقيا، لم يبق سوى إسرائيل، الحفرية الأخيرة في نظام قضَى وانتهَى.

س: وماذا عن علاقة الجيب الاستيطاني بالدولة الأم؟

ج: لا تتسم العلاقة بين الوطن الأم والدولة الاستيطانية بالمودةِ دائمًا، فعلى ادعاء الرابطة الحضارية إلا أن العلاقة مع الوطن الأم هي علاقة نفعية؛ فالدولة الاستيطانية دولة وظيفية يستند وجودها إلى وظيفتها، فإن فقدت وظيفتها أو أصبحت تكاليف دعمها أعلى من عائدها فقدت وجودها (كما حدث مع الجيوب الاستيطانية كلها ومنها جنوب إفريقيا). وعادة ما يحدث الصدام بين الوطن الأم والجيب الاستيطاني بسبب اختلاف رقعة المصالح؛ فالوطن الأم له مصالح عالمية إمبريالية عريضة، أما الجيب الاستيطاني فمصالحه محلية ضيقة وأحيانًا يأخذُ التوتُّر شكل مواجهة مسلحة (حرب بريطانية مع البوير - المواجهة العسكرية بين حكومة الانتداب البريطاني وبعض المنظمات العسكرية الصهيونية - المواجهة العسكرية بين الحكومة الفرنسية والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر)، أو مواجهة سياسية (موقف الدول الغربية من نظام الأبارتهايد - التوتر بين الولايات المتحدة وإسرائيل إبان حرب ١٩٥٦).

س: مع كل ما تفضلت به يبقى اصطلاح «الدولة اليهودية» متداولًا في الخطابين السياسيين العربي والغربي، فما قولك؟

ج: افتراض أن الدولة الصهيونية دولة يهودية يجعلنا لا ندرك طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية، وأنها دولة وظيفية، تابعة للولايات المتحدة، وإصرار الخطاب الصهيوني على تسمية إسرائيل دولة يهودية يجعل الصراع دينيًّا بين اليهود والمسلمين، وبذلك يدعم أسطورة التراث الديني

اليهودي المسيحي المشترك، فيصبح الغرب كله طرفًا في الصراع ضد العالم الإسلامي، وإذا كانت إسرائيل دولة يهودية تمثِّل كل يهود العالم، وكان اليهود شعبًا يعود إلى أرض الأجداد، فإن المقاومة دون شك تصبح إرهابًا؛ ولذا علينا ألا نسقط في فخِّ المصطلح الصهيوني المعبَّأ بالتحيزات الصهيونية.

س: أي مجتمع يستند إلى شكل من أشكال الإجماع القومي يمثل مرجعيته النهائية، فما هو الإجماع الصهيوني؟

ج: أتفق معكِ تمامًا فيما تقولين، وفي تصوري يمكن تلخيص بنود الإجماع الصهيوني فيما يلي:

١- اليهود شعب واحد، طليعته هم المستوطنون.

٢- فلسطين هي آرتس يسرائيل واليهود لهم حقوق مطلقة فيها.

٣- وجود الفلسطينيين في وطنهم أمر عَرَضي زائل؛ ولذا لا بد من التخلُّص منهم إما بالطرق السلمية (الترانسفير) أو الإرهابية (الإبادة).

٤- الدولة الصهيونية دولة يهودية؛ ولذا فحق العودة للفلسطينيين أمر مرفوض تمامًا.

٥- لا يمكن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل.

٦- القدس هي العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية.

٧- الدولة الصهيونية تمتد من البحر (البحر الأبيض المتوسط) إلى النهر (نهر الأردن). وفي بعض الشعارات القديمة تَرِد أحيانًا صيغة «من النيل إلى الفرات».

٨- يذهب الإجماع الصهيوني إلى أنه دون الدَّعم الغربي ولا سيما الأمريكي للمستوطن الصهيوني لن يقدَّر له البقاء والاستمرار، وأن الدولة الصهيونية دولة وظيفية وظيفتها الدفاع عن المصالح الغربية.

س: أَلَا تدل بنود الإجماع على أنها دولة يهودية؟

ج: بنود الإجماع هي ما يزعمون وليست بالضرورة تعبيرًا عن الواقع، بل إنني أذهب إلى أن بنود الإجماع قد تساقطت الواحد تلو الآخر، ولنبدأ بأكثرها جوهرية ووضوحًا وهو تصور «أن فلسطين أرض بلا شعب وإن

وجد مثل هذا الشعب فوجوده عرضي زائل». وأنه يمكن التخلص منه أو محاصرته ووضعه تحت سيطرة الهيمنة الصهيونية. هذا البند من الإجماع قد تساقط؛ فالأرض الفلسطينية عامرة بسكانها من الفلسطينيين وهم شعب مقاوم صامد يتطلع إلى العيش بكرامة، والذين طردوا من أرضهم لا يزالون يقفون على الأبواب يقرعونها، والموجودون في الداخل يتكاثرون. وإدراك الإسرائيليين لذلك يدمر إحساسهم بشرعية الوجود الصهيوني ويعمق هاجس الأمن فيهم.

س: تكرر دائمًا أن حجر الزاوية في الإيديولوجية الصهيونية هو مفهوم «الوحدة اليهودية» الذي يتبدَّى في مفهوم «الشعب اليهودي»، ألَا يزال هذا هو أول بنود الإجماع الصهيوني؟

ج: كان التصور الصهيوني أن اليهود شعب واحد وأنه حين تؤسس الدولة سيهرع يهود العالم إلى وطنهم القومي وستقوم الدولة بتجميع المنفيين، ولكن ما حدَث شيء مغاير تمامًا، فبعد مرور ما يقرب من مائة عام على الاستيطان الصهيوني وستين عامًا على تأسيس الدولة، لا تزال الدولة الصهيونية دولة أقلية يهودية؛ فيهود العالم لم يهاجروا إليها ولم تنجح في تجميع المنفيين، إذ يبدو أن المنفيين في حالة سعادة غامرة بمنفاهم، ومن هاجر منهم اكتشف أن اليهود ليسوا شعبًا واحدًا. وقد أخبروهم أن الدولة ستقوم بصَهْرهم في آتون الصهر الصهيوني، فاكتشفوا فشل هذا الآتون المزعوم، فقد عادت السياسة الإثنية بكل ضراوة، وظهرت أحزاب ذات طابع إثني مثل «نساس» و«إسرائيل عالياه». وظهرت جماعات لا تريد الانصهار في المجتمع مثل الجماعة الروسيا التي أصبح لها مدارسها ومحطاتها التلفازية، وهي تحاول أن تحافظ على ثقافتها الروسية وعلى علاقاتها بالوطن الأم، كما ظهرت جماعات لا يريد التجمع الصهيوني صهرها، حتى تظل عمالة رخيصة تقوم بما يسمى العمل الأسود؛ أي الأعمال الدنيا مثل الخدمة في المنازل وبيع الجرائد. ومما يفاقم المشكلة أنه ظهر أن الولايات المتحدة تشكل نقطة جذب

بالنسبة إلى المهاجرين اليهود من أوربا، فلا يهاجر من أمريكا سوى حمولة طائرتي جامبو كل عام، وهم عادة من المُسنِّين الذين لا يكفيهم معاشهم في الولايات المُتحدة فينتقلون إلى إسرائيل، وهم في هذا لا يختلفون عن بعض الأمريكيين العرب، ممن يُهاجرون إلى الولايات المتحدة ويعملون فيها ثم حينما يصلون إلى سن التقاعد يعودون إلى أوطانهم الأصلية؛ لأن معاشاتهم التي يتقاضونها لا تحقق لهم مستوى معيشي جيد هناك، في حين يمكن للمعاش نفسه أن يحقق لهم مستوى معيشي مرتفع في بلادهم الأصلية. ومما يزيد من تقويض مفهوم الشعب اليهودي الواحد ظاهرة النزوح؛ إذ يلاحظ أن أعداد النازحين آخذة في التزايد في الآونة الأخيرة، وقد بلغ عددهم ما يزيد على ٧٠٠ ألف (أو أكثر حسب الإحصاءات غير الرسمية). ومعظمهم يستقر في الولايات المتحدة، أرض الميعاد المادية العلمانية، حتى إنهم يتحدثون عن «الدياسبورا الإسرائيلية» وهذا مفهوم متناقض، فالدياسبورا تعني الشتات، والشتات هو أن يضطر اليهودي إلى ترك أرض الميعاد أي فلسطين الوطن القومي المزعوم، ومركز يهود العالم، ثم يضطر إلى الاستقرار في وطن آخر، فبأي معنًى يمكن أن نتحدث عن مستوطن إسرائيلي ترك إسرائيل بكامل إرادته واستقر في الولايات المُتحدة، بأنه شتات، دياسبورا؟

س: يعتبر الاستيطان واحدًا من أهم بنود الإجماع الصهيوني فهل تساقط هذا البند؟

ج: الاستيطان هو جوهر الصهيونية، عمودها الفقري وهو أهم بنود الإجماع الصهيوني، وكما قالت إحدى الصحف الإسرائيلية إن حركة الاستيطان توجد في قلب الصهيونية ولا يوجد صهيونية من دون استيطان. وقد ردَّد بن جوريون الفكرة نفسها، بعد إعلان الدولة، فقد قال: إن اليهودي الذي لا يستوطن في إسرائيل ليس صهيونيًّا وإنما صديق لصهيون فحسب، وكان الصهاينة يُطلقون على المستوطن اليهودي كلمة «حالوتس»؛ أي رائد؛ لأن تصورهم أن هذا المستوطن كان يأتي إلى أرض بِكْر عذراء فيستولي

عليها ويطهرها من سكانها ثم يحرثها ويزرعها ويحرسها بنفسه، ولذا فهو يمسك بالبندقية بيد والمحراث باليد الأخرى. وكان المفروض أن يعيش هذا المستوطن حياة متقشفة ويدين بالولاء للإيديولوجية الصهيونية التوسعية، وكان يُعد طليعة الشعب اليهودي والقوة العسكرية الإسرائيلية...إلخ. وبعض جوانب هذه الصورة كان حقيقيًّا حتى عام ١٩٦٧، ولكنها تغيرت بشكل جذري بعد ذلك التاريخ. وما لم يدركه كثيرون في الوقت الحاضر أن نوعية المستوطن الصهيوني في غزة والضفة الغربية تختلف تمامًا عن نوعية المستوطنين في الماضي؛ فالمستوطن الجديد شخص مرفه يبحث عن راحته ولذته ومنفعته، وقد ترك وطنه للبحث عن المتعة المادية والحراك الاجتماعي، وقد سميتُ هذا النوع من الاستيطان عام ١٩٨٤ «الاستيطان مكيف الهواء». وقد فوجئت بالمعلِّق العسكري الإسرائيلي البارز زئيف شيف (هآرتس ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٦) يطلق عليه اصطلاح «الأمن ديلوكس» أو «الأمن الفاخر»؛ فالمستوطنون الصهاينة الجُدد في الضفة والقطاع لا يريدون أن يحملوا البندقية في يدٍ والمحراث في الأخرى «فهم يطالبون الجيش الإسرائيلي وأجهزة الأمن الأخرى أن يضمنوا لهم نوعًا من العيش الممتاز في المناطق المحتلة، وأن تكون حياتهم مكفولة أمنيًّا، وطبيعة الأمن بالمواصفات التي يطلبونها ليست موجودة في أي مكان آخر في إسرائيل، وإسرائيل بأكملها لا تتمتع بمثل هذا «الأمن الفاخر» (هآرتس ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٦). وقد بينت هآرتس (٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧) أن توطين مستوطن صهيوني في النقب يكلف الدولة ٨٢٠ دولارًا، في حين تبلغ تكلفة توطينه في مستوطنة في الضفة الغربية ٢١٠٠ دولار، وهذه التكلفة المباشرة لا تغطي التكاليف غير المباشرة وغير المنظورة من لزوم الاستيطان الفاخر.

ومع تصاعد المقاومة عادة ما تعيد قطاعات كثيرة من العدو الصهيوني حساباتها بخصوص الاستيطان في الضفة الغربية وغزة، ففي انتفاضة ١٩٨٧ انطلق السخط على الاستيطان المكيف الهواء من عقاله،

فوصف رابين المستوطنين بأنهم يشكلون عبئًا على المؤسسة العسكرية، وقال أحدهم: إن الاستيطان هو «الصنبور الذي لا يُغلق». وكتب يوسي سريد مقالًا وصف فيه المستوطنات بأنها ثقوب في الرأس «وأنها عبء». أما المهمة الدفاعية القتالية - وهي مهمة المستوطنات في المحل الأول في الإيديولوجية الصهيونية الكلاسيكية - فلا وجود لها، ومساهمة مستوطنات الضفة في الدفاع عن أمن إسرائيل «يشبه ما تفعله الجدة الخائفة»؛ أي البكاء والصياح. وما يسمى أبراج الحراسة في مستوطنات جوش إيمونيم «هي برج طائر مهتز تستطيع إصبع صغيرة أن تطيح به». ووجود (٥٠-٦٠) ألف يهودي (عدد المستوطنين الصهاينة آنذاك) بين مليون ونصف المليون فلسطيني في الضفة والقطاع سيثير مشاكل عويصة للجيش، ولا سيما في حالة الحرب، كما حدث بالنسبة إلى مستوطنات الجولان في السبعينيات! إن هؤلاء المستوطنين ليسوا مصدر نفع للجيش الذي يضطلع بكلٍّ أو معظم الوظائف التي كان يضطلع بها المستوطنون قبل عام ١٩٤٨. إن المستوطنين الصهاينة في فلسطين التي احتلت قبل عام ١٩٦٧ يرون أن سبب الصراع هو المستوطنات في الضفة الغربية؛ ولذا يرون ضرورة فكِّها والانسحاب إلى حدود ١٩٦٧. وقد جاء في جريدة (هآرتس ١٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٢) أن من يريد أن يعيش في دولة ديمقراطية يهودية عليه أن يُطالب بالانسحاب من الأراضي المحتلة (بكثافتها السكانية العربية)، فهذا أمر حتمي. ولذا فمسألة أن الدولة لا بدَّ أن تمتد من البحر إلى النهر مرفوضة عندهم لأنهم يرون أن هذه الرؤية تكلفهم كثيرًا من الناحية العسكرية، كما أنه لا توجد كثافة سكانية يهودية يمكنها أن تملأ المستوطنات الجديدة، ومن ثم فضم الضفة الغربية سيفاقِم من المشكلة الديموجرافية ويهدد الطابع اليهودي للدولة. وظهر ما يسمى «الصهيونية الديموجرافية أو السكانية» التي تطالب بالتخلي عن غزة والضفة الغربية والانسحاب إلى حدود ١٩٦٧، ويعتقدون أن مثل هذا الانسحاب، بل تقسيم القدس من شأنه أن يمكن الفلسطينيين من إنشاء

دولتهم ولا سيما إخماد المقاومة والنأي بها بعيدًا عن تل أبيب. وهذا الرأي يعكس تطلعهم الدائم للتمتع بالحياة الدنيا كحالِ أي مواطن غربي، ولا سيما وأن معظمهم من العلمانيين الإشكناز، مقارنة بمستوطني الضفة الغربية المحتلة ذوي التوجه الصهيوني الديني. ويوجد في مقابل الصهيونية السكانية صهيونية الأراضي التي تطالب بالاحتفاظ بكل الأراضي التي تم احتلالها بعد عام ١٩٦٧، وأنه يمكن إخضاع العرب!

ومع توقيع اتفاقية أوسلو تراجع السخط على الاستيطان واستقرت الأمور، واستمرت المؤسسة الصهيونية في التهام الأرض وفي تشييد المستوطنات، وصَمَتت معظم الأصوات المعارضة، إلى أن اندلعت انتفاضة الأقصى والاستقلال؛ فعاد الهجوم على المستوطنات مرة أخرى من قبل المستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧. فبدأت الصحف الإسرائيلية تتحدث عن الاستيطان باعتباره «ورمًا»، و«السرطان الذي يأكل جسد المجتمع الإسرائيلي» و«مصيدة الموت»، و«مصنعًا للإرهاب».

وترى حركة «السلام الآن» أن الدفاع عن المستوطنات والطرق المؤدية إليها يفرض عبئًا أمنيًّا على إسرائيل. فالجزر الاستيطانية تُطيل الحدود إلى نحو ألفي ميل؛ أي عشرة أضعاف الخط الأخضر، وتنشر إسرائيل حوالي ١١ فرقة - أكثر من ٢٧ ألف جندي - في الضفة الغربية وغزة بالقياس إلى ٨ فرق على الحدود الشمالية. فالسلام والأمن لستة ملايين إسرائيلي وثلاثة ملايين فلسطيني هما الآن رهينة لأمن ٣٠٠ ألف مستوطن إسرائيلي في الضفة الغربية وغزة.

س: يتحدث الصهاينة دائمًا عن أن لهم حقوقًا تاريخية في فلسطين حيث كانت دولتهم، فكيف ترد على هذا الزعم؟

ج: أولًا: الحقوق السياسية لا تستند إلى الحقوق التاريخية، ولا سيما إذا كان التاريخ قديمًا موغلًا في القِدَم، فالوجود التاريخي لليهود في فلسطين هو جزء من تاريخ متحفي ميت طويت صفحته مع وصول الأشوريين

ثم البابليين ثم اليونانيين فالرومان فالبيزنطيين (الروم) وأخيرًا الفتح الإسلامي. والتاريخ الإسلامي وحده هو التاريخ الحي الممتد إلى الحاضر؛ فهو تاريخ الجماعة البشرية التي تعيش في فلسطين في الوقت الحاضر، أما التاريخ اليهودي أو اليوناني فهما تاريخان ليس لهما امتداد في الوقت الحاضر، ومن ثم تحولا إلى تواريخ متحفية يدرسها المؤرخون بعناية بالغة. وعلى أي حال قام كثير من المؤرخين الإسرائيليين الجُدد بإثبات أن كثيرًا من الأساطير التوراتية التي تستند إليها نظرية الحقوق التاريخية ليس لها أي سندٍ في الواقع؛ فدولة داود وسليمان على سبيل المثال، لا يُعرف لها اسم مما يدعو إلى الشك في وجودها أساسًا، ولعلها كانت اتحادًا بين بعض القبائل ليس إلا.

س: يتحدث الصهاينة كذلك عن أن ثمة ارتباط عاطفي بين اليهود وإرتس يسرائيل (أي فلسطين)؟

ج: الارتباط العاطفي بين اليهود ووطنهم المزعوم لا يترتب عليه أي حقوق، وقد أثبتت الأيام أن هذا الارتباط غير حقيقي أيضًا، بدليل أن غالبية اليهود في العالم يرفضون العودة. كما أنه إذا كان الارتباط العاطفي ذا طابع ديني، فيوجد ما يسمى السياحة الدينية؛ أي إن اليهودي الذي يودُّ التعبير عن عاطفته الدينية يمكنه أن يزور أماكنه المقدسة، ويعود أدراجه، تمامًا كما يفعل ملايين المسلمين الذين يؤدون شعائر الحج.

س: يتحدث اليهود دائمًا عن إعادة بناء الهيكل، وأنه سيقام مكان المسجد الأقصى، فما هي حقيقة هذا الأمر؟

ج: أولًا: مسألة هدم الصهاينة للمسجد الأقصى شيء مُستبعد تمامًا لخطورة الإقدام على مثل هذه الخطوة، أما إذا أردنا أن نتعرَّف على طبيعة تفكيرهم في إعادة بناء الهيكل المزعوم، فإن الفِرَق اليهودية مختلفة حول هذا الأمر. فهم ينقسمون إلى صهاينة وغير صهاينة؛ أما غير الصهاينة فيعارضون العودة أصلًا، وكذا إعادة بناء الهيكل؛ ولذا حذف الإصلاحيون منهم الأدعية الخاصة بإعادة بناء الهيكل ويستعملون كلمة (Temple)؛ أي المعبد

منذ سنة ١٨١٨ للإشارة إلى المعابد اليهودية، وهم يعدون أن المعبد أينما وجد يحِلُّ محل الهيكل، وأن الهيكل لن يتم استرجاعه أبدًا. أما اليهود الأرثوذكس فيفضلون استخدام كلمة«سيناجوج»، وهي كلمة يونانية تُشير للمعبد اليهودي وهؤلاء احتفظوا بالأدعية الخاصة بالعودة. أما الصهاينة فينقسمون أيضًا إلى قسمين حيال هذه المسألة: صهاينة لا دينيين وصهاينة دينيين. ويرى الصهاينة الدينيون المتطرفون أن إعادة بناء الهيكل مسألة ذات أهمية مركزية بالنسبة إليهم؛ ولهذا يؤكدون عليها، وهي بالنسبة إليهم مسألة عقائدية، والواقع أن كثيرًا من المنظمات الإرهابية الصهيونية الجديدة قد جعلت إعادة بناء الهيكل وهدم الآثار الإسلامية الموجودة في هذا الموقع من أهم أهدافها. أما القسم الثاني منهم فلا يكترثون كثيرًا بالعِبادة ولا بإعادة بناء الهيكل، وهي بالنسبة إليهم مسألة هوس ديني يُهدد المستوطن الصهيوني بالخطر من دون عائد ملموس، ومن ثم نجد أن هذه المسألة لا تحظَى بشعبية داخل إسرائيل.

وقد أشار تيدي كوليك، عمدة القدس إلى المهووسين الذين قاموا بوضع حجر أساس بناء الهيكل وبيَّن أنهم يسيرون في خطى شبتاي تسفي (المسيح الدجال) الذي ألهب حماس معظم اليهود في القرن السابع عشر ووعدهم بالعودة إلى فلسطين، وعين بعض أتباعه حكامًا للأرض، ثم انتهت الحركة بالفشل، الأمر الذي رجّ اليهودية من أساسها، ولكن على هذا الانقسام بشأن إعادة بناء الهيكل إلا أننا نلاحظ أن بعض الأطروحات التي صُنفت في الماضي باعتبارها دينية ومتطرفة صارت مقبولة، بل وأصبحت جزءًا من الخطاب السياسي الصهيوني أو من برامج الأحزاب المعتدلة؛ فالاعتدال والتطرف الصهيونيان يتحددان من خلال التوسع الصهيوني والقوة الذاتية الصهيونية، وكما قال بن جوريون: إن خير مفسّر للتوراة هو الجيش الإسرائيلي، ولذا فليس من المُستبعد أن يؤيد جميع الصهاينة «الأقلية المتدينة والأغلبية الملحدة» بعد قليل إعادة بناء الهيكل، باعتباره أمرًا أساسيًّا للعقيدة الصهيونية لا تكتمل من دونه.

س: إذن ما يجمع المجتمع الصهيوني المصالح، وليس المسوغات الدينية كما يزعمون؟

ج: أكرر دائمًا أن الديباجات الدينية يستخدمها الصهاينة للتجنيد، ولا تمس جوهر الرؤية الصهيونية ذاتها، وهي رؤية استعمارية استيطانية إحلالية علمانية، تدور في إطار مفاهيم مادية مثل المنفعة واللذة، وقد اتضح هذا في ظهور ما أُسميه «صهيونية المرتزقة»؛ بمعنى أن الدوافع الإيديولوجية المثالية السابقة التي كانت توضع في الواجهة قد تساقطت وأصبح من الواضح أن المستوطنين يبحثون عن حياة مترفة ولا سيما مع هجرة اليهود السوفييت بأعداد كبيرة إلى فلسطين المحتلة.

س: هذه النظرة لا تنطلق من المقولات الصهيونية باعتبارها حركة قومية تقوم على عودة اليهود إلى «أرضهم» بحسب ما يزعمون؟

ج: أعتقد أنه جرى تقويض تلك المقولات الصهيونية، واستخدامها الآن يعود لقدرتها التعبوية التجنيدية عند البعض، إذ إن كل مجتمع يحتاج إلى مرجعية نهائية. والملاحظ أنه يتم توظيف تلك المقولات من قبلهم بشكل انتقائي؛ إذ تستخدم أمام المستثمرين الأمريكيين وبعض الأثرياء من اليهود الأمريكيين لغايات «نفعية»، لكنها تغيب حين تكون الدعوة إلى الاستيطان في الضفة الغربية إذ يتم التأكيد على الفوائد المادية الجَمَّة. ومع ذلك فإن أي إنسان مهما بلغ من الصلافة والبشاعة يحتاج دومًا إلى مسوِّغ يصبغ أفعاله بصبغة إنسانية؛ فالاستعمار الغربي كان يتحدث عن عبء الرجل الأبيض ونشر الرسالة الحضارية، والصهاينة بدورهم يتحدثون عن أرض الأجداد.

س: هل نستطيع القول إن النخبة الحاكمةَ في إسرائيل لا تزال تعتنق مثل هذه النظرة في حين أن بقية اليهود، أو كما تحرص على تسميتهم «الجماعات اليهودية»، لا يكترثون بها أو لم يعودوا متقبِّلين لها؟

ج: المسألة أكثر تركيبًا، فتساقط الإجماع الصهيوني آخذ بالامتداد بعمق في المجتمع الإسرائيلي على المستويين النخبوي والجماهيري، فحينما دعا

شارون يهود فرنسا للهجرة إلى فلسطين المحتلة؛ لأن «لا مستقبل لهم هناك»، كان يتحرك في إطار الإجماع القديم القائل بأن اليهود شعب واحد، إلا أن يهود فرنسا استنكروا ذلك فما كان منه إلا التراجع. أعتقد أن النخبة شأنها شأن الجماهير الإسرائيلية مُدركة لتساقط كثير من عناصر الإجماع الصهيوني، وهذا الأمر يتجسد راهنًا في شخص شارون الذي يعرف بأبي الاستيطان وبالعمود الفقري للرؤية الصهيونية بصفته تلميذ مناحيم بيجن (رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق) ومع ذلك نجده اليوم يتحدث عن الدولة الفلسطينية والانسحاب من غزة.

س: ما علاقة الإيديولوجية الصهيونية إذن بالمستوطنين الصهاينة؟

ج: الصهيونية باعتبارها إيديولوجية لم تعُد قادرة على أن تكون الإطار النظري والمعرفي والمرجعية النهائية للإسرائيليين وتعاملهم مع واقعهم، وقد ظهرت دراسات عديدة تُبيِّن أن الإسرائيليين ينظرون بكثير من الاستخفاف للإيديولوجية الصهيونية، ولا سيما بعد تصفية الصهيونية العمالية التي أسست التجمع الصهيوني. حينما يعقد مؤتمر صهيوني في القدس المحتلة فإن أخباره تنشر أحيانًا بجوار صفحة الوفيات. في إحدى المرات تغيب عن حفل الافتتاح الوزير، ممثل الحكومة الإسرائيلية في المؤتمر الصهيوني؛ لأنه فضل أن يُشاهد «مبارة كرة القدم»، ولذا تساءلت إحدى الصحف الإسرائيلية: «هل انفض المولد الصهيوني»؟ وقد قرأت في عدة مراجع أن كلمة «صهيونية» في التجمع الصهيوني أصبحت تعني «كلامًا أجوف»، وأن عبارة [«أعطِه صهيونية «give him zionism تعني تقريبًا كلمة «هجص» في العامية المصرية. وهم عادة ما يستخدمون هذه العبارة حينما يأتي الأمريكيون اليهود ويود الصهاينة الحصول منهم على تبرعات، فإنهم يعطونهم صهيونية!

إن تساقط الصهيونية وتآكل بنود الإجماع الصهيوني يتبدَّى في ظهور المؤرخين الجدد وعلماء الاجتماع النقديين في إسرائيل وعلماء الآثار الجدد، وهؤلاء يتحدون الرواية الصهيونية لتاريخ الاستيطان ويبينون مدى زيفها،

بل بعضهم مثل إيلان بابيه وصل إلى حدٍّ رفض الصهيونية تمامًا. وقد ظهرت مرة في برنامج تليفزيوني عن هذا الموضوع، مع عالم آثار إسرائيلي يسمى زئيف هرتزوج، أنا من القاهرة وهو من تل أبيب، ويذهب هذا المؤرخ إلى أن الرواية التوراتية عن تاريخ فلسطين وعن الدولة العبرانية ليس لها أي سندٍ تاريخي، ومن ثَم فكل الديباجات والادعاءات الصهيونية هي مجرد أساطير وأكاذيب؛ أي إن بنود الإجماع الصهيوني لا تستند إلى أي واقع، مما يُسقط عن الدولة الصهيونية شرعيتها اليهودية التي تزعمها لنفسها. وهنا سأله مقدم البرنامج، لماذا أنتم هنا إذن؟ فقال: «نحن هنا لأننا هنا!» أي إنه اعترف بسقوط بنود الإجماع كلها، وكل ما في الأمر أن ثمة أمر واقع جديد على الجميع تقبله، فنقطة الانطلاق هنا ليست بنود الإجماع (اليهود شعب واحد- الوجود الفلسطيني وجود عرضي، إلى آخر هذه الترُّهات) وإنما واقع قائم علينا التعامل - معه بما له وما عليه.

س: ماذا تبقى من الإجماع الصهيوني؟

ج: أعتقد أن ما تبقى هو إدراك النخبة الحاكمة وقطاعات كبيرة من المستوطنين الصهاينة أن إسرائيل دولة وظيفية تستمد مقومات بقائها وأمنها واستمرارها من خلال الدعم الأمريكي، وأن عليها في مقابل ذلك أن تقدِّم لها الخدمات العسكرية والاستخبارية التي يطلُبها هذا الراعي الإمبريالي. وقد نجحت المؤسسة الصهيونية الحاكمة أن تجعل من نفسها جزءًا مما يسمى «الحرب ضد الإرهاب»، ومن ثم تُثبت للولايات المتحدة والعالم الغربي أنها لا تزال قاعدة عسكرية مفيدة!

س: من الملاحظ أنك كثيرًا ما تستخدم عبارة «تجمع صهيوني» بدلًا من عبارة «مجتمع إسرائيلي»، فلماذا؟

ج: كلمة «مجتمع» تنطبق علي جماعة بشرية لها خصائص محددة من قبيل أن يتوفر لها قدر من التجانس ووحدة الرؤية والاستقرار، وهذه كلها صفات لا تنطبق على التجمع الصهيوني؛ فهو يتضمن عشرات الأقليات

الدينية والإثنية. وهذه الدولة الصهيونية ليست دولة لمواطنيها» وإنما هي دولة لكل يهود العالم. وهذه الدولة التي تدَّعي أنها دولة يهودية قد أخفقت تمامًا في تعريف من هو اليهودي وهكذا، وإذا انتقلنا إلى مجال الرؤية فسنجد أن ثمة انقسامًا حادًّا داخل هذا التجمع؛ فالمتدينون يرون أن الهدف من وجود الدولة هو إقامة مجتمع يهودي في أرض إسرائيل كلها مهما كان ثمن ذلك، أما العلمانيون فهم يرون الاكتفاء بأراضي فلسطين التي احتلت عام ١٩٤٨ حتى يُمكنهم الاستمرار في التمتُّع بالحياة الدنيا! ثمة حالة من عدم التماسك وعدم التجانس وعدم التحدُّد تدعو كثيرًا من الباحثين إلى الإشارة إلى «التجمع الصهيوني» بدلًا من «المجتمع الصهيوني».

والفشل الإيديولوجي وتآكل الإيديولوجية يولِّد ما يُسمى «أزمة المعنى». وعادة ما تؤدي أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق التام في عنصر مادي (شرب المخدرات- الإباحية- الاستهلاك) يبحث الإنسان من خلاله عن قدرٍ من اليقين. لكن ما يحدث هو العكس، إذ إن تصاعد الاستهلاك وإغراق الحواس فيه يزيد أزمة المعنى بدلًا من تهدئتها.

ومما عمق من هذا الاتجاه أن المجتمعات العلمانية تمرُّ بمرحلتين: مرحلة تقشفية تراكمية (صلبة)، وأخرى استهلاكية فردوسية (سائلة). وتنتمي المجتمعات الاستيطانية إلى النمط نفسه، بل إن تحقق النمط في حالتها يتسم بقدر أعلى من الحدة والتطرُّف؛ فالمجتمعات الاستيطانية تبدأ هي الأخرى بمرحلة تقشفية حادة تتطلب التنظيم الصارم وضبط النفس وإنكارها، بل والتضحية بها في القتال المستمر (ضد الطبيعة المعادية والسكان المعادين)، وهي مرحلة تتسم بالأشكال الاقتصادية الجماعية والملكية الجماعية أو شبه الجماعية للأشياء، وتضخم القطاع العسكري وتغلغله في القطاعات الأخرى كلها. وهذه المرحلة هي المرحلة التقشفية التراكمية التي يتم فيها الاستيلاء على الأرض، وكذلك طرد السكان الأصليين وإبادتهم ومراكمة

رأس المال. ولكن هذا كله يتم -منذ البداية- باسم الهدف النهائي والقيمة المرجعية النهائية والمطلق العلماني الأوحد؛ أي تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما يتم من إرجاء لإشباع الغرائز إنما يتم باسم الاستهلاك الأجل. وإذا كانت مرحلة التقشف حادة في تقشفها، فالمرحلة الاستهلاكية في المجتمعات الاستيطانية لا تقل عنها حِدّة. ويعود هذا إلى أن المستوطن إنسان ترك وطنه واقتُلِع من جذوره ليحققَ حراكًا اجتماعيًّا ومزيدًا من الاستهلاك، وانتقل إلى مجتمع استيطاني يظن أنه الفردوس الأرضي الموعود. والمهاجر المستوطن يرفض تقاليد وطنه أو يتركها وراءه أو يجمدها، وهو يقوم عادة بعملية الاستيطان في غياب أي مؤسسات دينية، وإن وجدت فهو عادة يسيطر عليها ويوظفها لتقوم بعملية تسويغ عمليات الإبادة والطرد التي يقوم بها. وهو -إلى جانب هذا كله- لا يتبنى التقاليد الدينية والثقافية والاجتماعية للسكان المحليين، وإنما يقوم بتحطيمها؛ ولذا فإنه يصبح كيانًا عاريًا تمامًا أمام المادة (والتجربة الاستيطانية الغربية هي بهذا المعنى تجربة علمانية مكثفة)، ويعني هذا كله، في نهاية الأمر، أن قيم المنفعة واللذة تكون في مثل هذه المجتمعات في حالة ترقُّب وانتظار لتتحقق وتكتَسِحَ المطلقات كافة في طريقها مع تزايد معدلات العلمنة. والمستوطن الصهيوني لا يشكِّل استثناء من القاعدة؛ فقد بدأ بمرحلة ريادة مسلحة تقشفية وانتهى إلى مرحلة استهلاكية فردوسية، ولكن عملية الانتقال إلى المرحلة الثانية تمَّت بسرعة أكثر من المتوقع؛ لأن المستوطنين الصهاينة كانوا منذ البداية مموَّلين من الخارج من قِبَل اللورد روتشيلد، ثم زاد الدعم والتمويل بعد عام ١٩١٧ من قبل المنظمة الصهيونية العالمية، ولكن مرحلة الريادة المسلحة لم تكن تقشفية بالقدر الكافي ولم تكن تراكمية على الإطلاق، وكانت تحوي داخلها قدرًا عاليًا من اللذة الآنية والسعار الاستهلاكي والرغبة الجامحة في تحقيق الذات، وبعد إنشاء الدولة، زاد الدعم من الخارج بدرجة لم يشهدها التاريخ الإنساني من قبل، وهو ما أدى إلى زيادة حدة التوقعات الاستهلاكية، وإلى

إضعاف المقدرة على التقشف وعلى إرجاء المُتعة؛ ولذا، حينما حققت إسرائيل انتصارًا في عام ١٩٦٧، أي بعد نحو ٢٠ عامًا فحسب من تأسيس الدولة، تفجرت الرغبات الاستهلاكية وزاد النزوع نحو اللذة وارتفعت التوقعات وانخفضت المقدرة على التحمل، إذ شعر المستوطنون الصهاينة أن المرحلة التقشفية قد انتهت، وأن الوقت قد حان لدخول مرحلة الاستهلاك والسلع المستوردة. هذا يعني أن ارتفاع معدلات العلمنة في المجتمع أدى إلى اكتساح القيم، والمطلقات كافة، ومعها المطلق الصهيوني نفسه، وسائر آليات ضبط النفس التي تتم في إطاره، وذلك قبل أن يَضْرِب المجتمع بجذوره وقبل أن يؤسس بنيته التحتية؛ ولذا ضعفت مقدرة المستوطنين على تحمل المشاق، ومع تفجر الانتفاضة تصاعدت حدة أزمة المجتمع الصهيوني.

لهذا كله تغيرت الأنماط الإدراكية في المجتمع فتراجع نموذج الكيبوتسنيك (عضو الكيبوتس) وظهر نموذج روش قطان؛ أي المواطن ذو الرأس الصغير والمَعِدة الكبيرة.

س: وما علاقة هذا بتآكل الإيديولوجية الصهيونية؟

ج: ثمة برنامج إصلاحي صهيوني خاص بتصورهم للشخصية اليهودية، فقد ورث الصهاينة مجموعة من المقولات العنصرية من تراث معاداة السامية في الغرب بخصوص اليهود، فهم يذهبون إلى القول إن يهود المنفى شخصيات مريضة شاذة غير سوية. وهذا الشذوذ، من وجهة نظرهم، له مظهران أساسيين؛ أحدهما اقتصادي والآخر سياسي. أما المظهر الاقتصادي فيتضح في عدم إنتاجية يهود العالم واشتغالهم بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة مثل التهريب والأعمال المالية والعقارات وتجارة الرقيق الأبيض، أما المظهر السياسي، فيتلخص فيما يُطلَق عليه «إشكالية العجز» بسبب افتقاد السلطة أو السيادة. فالصهاينة يرون أنه بعد تحطيم الهيكل الثاني عام ٧٠ ميلادية، أصبح اليهود جماعات مشتتة تشتغل بالتجارة والربا وتوجد خارج نطاق مؤسسات صُنع القرار دون أن

تساهم في صياغته، وتفتقِرُ إلى أي سيادة سياسية مستقلة، الأمر الذي كان يعني - من وجهة نظر الصهاينة - توقُّف مسار التاريخ اليهودي.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (أي التجمع الصهيوني) جزءًا من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية. والتطبيع هنا يعني الشفاء من عقلية الاستجداء الاقتصادي من الغير أو الأغيار ومن الاعتماد السياسي عليهم، كما يعني عدم الانغماس في أعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة والتحول إلى شعب يهودي مُنتِج بمعنى الكلمة يسيطر على مراحل العملية الإنتاجية كلها، ومن ثَم على مصيره الاقتصادي والسياسي. حينما يتم إنجاز هذا تصبح غالبية المستوطنين من العمال والفلاحين، أما المهنيون والعاملون في القطاعين التجاري والمالي، فإنهم يصبحون قِلّة على قِمة الهرم، شأنهم في هذا شأن أي مجتمع آخر، وهذا ما يُطلق عليه اصطلاحًا «العمل العبري»، و«غزو الأرض والعمل والحراسة والإنتاج؛ أي أن يستولي الصهيوني على الأرض ويعمل فيها بيده ويسيطر على مراحل الإنتاج كافة، وهو إن فعل هذا يكون قد أنجز الثورة الصهيونية الحقة، فاستولى على الأرض وزرعها، وعلى الهيكل الاقتصادي وعمل فيه، وعلى الهيكل السياسي وتحكَّم فيه، وتحوَّل هو نفسه من شخصية هامشية إلى شخصية منتجة؛ أي إنه يكون قد تم تطبيعه تمامًا. ومن هنا، يكون الاستيطان الإحلالي (الاستيلاء علي الأرض وطَرد سكانها والعمل فيها) ليس فعلًا خارجيًّا يحمل مدلولًا محدودًا، وإنما هو فعل شامل ذو أبعاد سياسية وقومية، وفي نهاية الأمر نفسية، وهو أيضًا يحل مشكلة المعنى بالنسبة إلى الصهاينة ويعقلن وجودهم في فلسطين التي تلفظهم ويقاتلهم أهلها.

هذه هي الرؤية والحلم، فماذا حدَث بعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا على تأسيس الدولة الصهيونية؟ يمكن القول بأنها أبعد ما تكون عن قصة النجاح الموعود. أما على مستوى السيادة السياسية، فالمستوطن الصهيوني

يضطر دائمًا نتيجة وضعه للاعتماد على قوة خارجية تضمن له البقاء والاستمرار من خلال الدَّعم العسكري والسياسي المُستمرين، وهو ما يفرغ مفهوم السيادة من مضمونه تمامًا.

والدعم الاقتصادي للدولة الصهيونية يحل مشاكلها الاقتصادية، ولكنه تذكير يومي للمواطن الإسرائيلي بأن الصهيونية لم تنجح في تطبيع اليهود وفي شفائهم من أمراض المنفى. فالمستوطن الصهيوني أصبح شخصية استهلاكية، ولم يتحوَّل إلى شخصية مُنتجة يعمل بيديه ويتواجد في مُختلف المراحل الإنتاجية.

وقد ساهمت الانتفاضة المجيدة في فضح العدو أمام نفسه؛ إذ ثبت أن العِمالة العربية المنتجة لا تزال قائمة على أرض فلسطين بعد عام ١٩٤٨، ولم يحاول المجتمع الصهيوني أن يحل مشكلة العمالة من الداخل، أو حتى بالتوجُّه إلى الضمير اليهودي العالمي، وإنما حاول حلها عن طريق استيراد العمالة، وكأنَّ الحديث عن زيادة الإنتاجية والعمل العبري قد تبخر تمامًا حتى على مستوى الديباجات اللفظية، ويوجد الآن في إسرائيل ما يزيد على ربع مليون عامل أجنبي غير يهودي بدءوا في الاندماج في المجتمع الإسرائيلي، ويسببون كثيرًا من المشكلات الاجتماعية.

وتعبِّر أزمة الإنتاجية عن نفسها في تفشِّي المضاربات في صفوف الإسرائيليين. وقد ظهر أن المصارف الأساسية في إسرائيل، وكذلك قطاع كبير من المواطنين العاديين، متورطون في عمليات مضاربة تضمن لهم أرباحًا ثابتة بضمان الحكومة دون بذل أي جهد ودون مخاطرة كبيرة، وهذه هي عقلية الوسيط الطفيلي، وقد كُشف النقاب عن أن بعض الكيبوتسات متورطة هي الأخرى في أعمال السمسرة والمضاربات. وقد تزايدت معدلات الجريمة في إسرائيل بشكل مذهلٍ. ويُلاحَظ انتشار المخدرات والأمراض النفسية والبغاء.

كما أدرك المستوطنون الصهاينة أن الأحلام الصهيونية الخاصة باليهودي

الذي كان يعمل في المنفى (أي خارج فلسطين) في أعمال هامشية غير مُنتجة طفيلية وإمكانية تحويله إلى شخصية عاملة منتجة، هذه الأحلام قد تبخَّرت، وتلخص النكات التي يطلقها الإسرائيليون أنفسهم عمق أزمة الصهيونية إذ يقولون: إن المجتمع الصهيوني بدلًا من أن يكون مجتمعًا منتجًا أصبح مجتمع الـ ٣ «V» أي الفولفو والفيديو والفيلا؛ أي إن أحلامهم استهلاكية طفيلية، ويعبِّر أحد الصهاينة عن واقع المواطنين الإسرائيليين بقوله: إنهم يعملون مثل شعوب أمريكا اللاتينية «أي لا يعملون»، ويعيشون مثل شعوب أمريكا الشمالية «أي يستمتعون بالرفاهية»، ويدفعون الضرائب مثل الإيطاليين «أي يتهربون منها»، ويقودون سياراتهم مثل المصريين «أي كالمجانين».

س: هل ثمة عناصر أخرى تصعد من حِدَّة الاستهلاك؟

ج: نعم المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين، وهذا يعني أن ثمةَ جماعات بشرية جديدة تفد دائمًا على المجتمع وتُصعِّد من سُعاره الاستهلاكي، كما حدث مع وصول المهاجرين السوفييت، فهم لم يأتوا حاملين رايات الإيديولوجية الصهيونية، وإنما كانت رءوسهم مليئة بالأحلام الاستهلاكية.

ومما يساعد على تفشي النزعة الاستهلاكية ظاهرة الأمركة؛ والأمركة هي أسلوب حياة جوهره اتخاذ موقف برجماتي ينصرف عن الكليات والمبادئ ليؤكد على التفاصيل وحل المشاكل المباشرة، ويعتمد العنف آلية أساسية من آليات حل الصراع، ويؤكد على الفرد بالدرجة الأولى وتأكيد ضرورة الإشباع الفوري.

وعلاقة إسرائيل بالولايات المتحدة علاقة خاصة وعميقة؛ فكلاهما مجتمع استيطاني مبني على محو تاريخ الآخر وإبادته وطرده، وكلاهما يستند إلى أسطورة الاستيطان الغربية (صهيون الجديدة). وإلى جانب هذه العلاقة الحضارية شِبه الدينية، توجد العلاقة السياسية العملية وهي أن الولايات المتحدة هي الراعي الإمبريالي للدولة الصهيونية الوظيفية التي تدعمه وتموله وتضمن بقاءه واستمراره، وهي تضم أكبر تجمع يهودي في العالم (يفوق في

حجمه التجمع الصهيوني نفسه). وهي بغير شكٍّ علاقة تخلق تبادلًا اختياريًا وتربة خصبة للأمركة. هذا بطبيعة الحال إلى جانب الاتجاه العام في كل مجتمعات العالم نحو الأمركة مع تصاعد معدلات العلمنة وتفشي النسبية الأخلاقية. والأمركة تعني تآكل الجذور وتساقط الحدود الأمر الذي يُصعِّد السُّعار الاستهلاكي.

والأمركة مرتبطة تمام الارتباط بالعولمة التي لها الأثر نفسه؛ في التجمع الصهيوني، فالإنسان الذي يفقد جذوره الإثنية والدينية يميلُ بشكل أكبرَ نحو الاستهلاك؛ لأن استهلاك السلع يصبح السبيل إلى تحقيق الفردوس الأرضي. وفي إطار العولمة تصبح السلع العالمية (أي الأمريكية) هي رمز هذه الجنة الجديدة، وهذه الظواهر موجودة في المجتمعات كلها ولكن أثرها السلبي أعمق في التجمع الصهيوني؛ لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعي إلى إيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفِقَري. ويرتبط بهذا كله الاتجاه نحو الخصخصة؛ فالخصخصة تعني أن نقطة البدء هي الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردي يسبق المشروع القومي، ومثل هذا الموقف يزيد بغير شكٍّ حدة السعار الاستهلاكي. وللخصخصة أعمق الأثر في التجمع الصهيوني باعتباره تجمعًا استيطانيًا لا بد أن ينظم نفسه تنظيمًا جماعيًا ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام مقاومة أصحاب الأرض.

س: هل ترك تصاعد النزعات الاستهلاكية والتوجه نحو اللذة أثرًا على الأمن القومي الإسرائيلي؟

ج: للإجابة عن هذا السؤال دعيني في البداية أُشير إلى أن الوجود الصهيوني يستند إلى العنف والإرهاب؛ إذ إنه يهدف إلى التخلُّص من أصحاب الأرض وإحلال آخرين محلهم، وهي عملية لا يمكن أن تتم إلا بقوة السلاح. كما أن الوجود الصهيوني كيان غرس في المنطقة بسبب دوره القتالي ضد المنطقة العربية. وعلى مستوى من المستويات، يمكن القول بأن المشروع الصهيوني كان يهدف إلى نقل كل الفائض البشري اليهودي

إلى فلسطين وتحويلهم إلى مادة قتالية تَخدُم المصالح الغربية. وهذا هو أحد أهداف الجيوب الاستيطانية التي أسسها العالم الغربي في آسيا وإفريقيا؛ ولذا، فإن وجود كل جيب استيطاني يستند إلى قوة عسكرية ضخمة لتطرد السكان الأصليين أو لتقمعهم، ولتنفذ المخطط العسكري الغربي وتحقق الحد الأدنى من الطمأنينة لجماهير المغتصبين من المستوطنين.

وكانت العسكرية الصهيونية قد نجحت في أن ترسخ في وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها في وجه هجَمات جيرانها العرب، الأمر الذي أعطى الحروب الصهيونية للعرب حتى عام ١٩٦٧ عقلانيتها ومشروعيتها؛ ولذا، كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلي بنجاح شديد، عن طريق التوجُّه إلى حِسّهم الأخلاقي والقومي والديني ورغبتهم في البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة.

بل إن الإيديولوجية الصهيونية التي تجعل اليهود شعبًا مختارًا بالمعنى الحلولي (الديني والعلماني) وتخلع القداسة على ممتلكات الدولة كلها، ولا سيما حدودها، خلعت القداسة على الجيش حتى إنه وصف بأنه القداسة بعينها، وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه خير مفسر للتوراة؛ فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل. ومن ثم اكتسبت الخدمة العسكرية قداسة خاصة، إلى جانب هذا كانت الخدمة العسكرية السبيل لدخول النخبة الحاكمة. ففي المجتمع الاستيطاني، لا بد أن يدفع الفرد ضريبة الدم ليصبح جديرًا بالحكم وصنع القرار. ولذا قيل، عن صدق، إن كل شعب له جيش إلا في إسرائيل فهو جيش له شعب. ومما دعَّم هذه الادعاءات كلها انتصارات إسرائيل المتتالية الحاسمة التي ضَمِنت للمستوطنين البقاء وتدفق المعونات من الخارج، وبينت أن نظرية الأمن الإسرائيلية تحقق الأمن بالفعل.

س: متى تغير هذا الوضع؟ ولماذا؟

ج: بدأ إيمان المستوطنين الصهاينة بنظرية الأمن الإسرائيلية ومشروعيتها في الاهتزاز بعد عام ١٩٦٧ بسبب حرب الاستنزاف التي أحسَّ الإسرائيليون

خلالها أن عمليات النصر السريعة ليست أمرًا متيسرًا وسهلًا. ثم جاءت حرب ١٩٧٣ حين اكتسحت القوات العربية المصرية والسورية خط بارليف والتحصينات العسكرية وألحقت خسائر بالعدو الصهيوني، ثم كانت حرب لبنان («المستنقع اللبناني»، في المصطلح الإسرائيلي) التي انتهت بهزيمة ساحقة، وبفشل ملحوظ في تحقيق الهدف الذي كانت تطمح إليه الحملة (القضاء بشكل نهائي على المقاومة الفلسطينية واللبنانية). ثم شهدت هذه المدة عمليات فدائية مستمرة لم تتوقف ألبتة.

بينت كل هذه العمليات للمستوطنين الصهاينة أن ذاكرة العرب حية، وأن ذراع الدولة الصهيونية الاستيطانية العسكرية القوية لا يمكن أن تضعهم في برج حصين، ولا أن تقدم لهم الحماية طول الوقت. ثم جاءت انتفاضة الحجارة لتبيِّن مدَى عجز العدو عن القيام بالعمليات الجراحية والضربات الإجهاضية التي تسكت الآلام مرة واحدة. وتَبِعها انتفاضة الأقصى، ثم الهزيمة المدوية في الحرب مع حزب الله عام ٢٠٠٦.

هذا الوضع وَلَّد لدى الإسرائيليين إحساسًا عميقًا بما يسمى «عقم الانتصارات» لأن الحروب المستمرة (التي كان من المفروض في كل واحدة منها أن تنهي كل الحروب) لم تأتِ لا بالسلام ولا بالنصر. وقد تبين الإسرائيليون أنهم وصلوا إلى ما يمكن تسميته «نقطة الذِّروة»، أي إنهم وصلوا لأعلى نقاط استخدام العنف والقوة دون جدوى.

س: ما العناصر التي أثَّرت على الشباب الإسرائيلي بالسَّلب تجاه نظرية الأمن القومي الإسرائيلي؟

ج: أدرك كثير من الشباب الإسرائيلي أن الدولة الصهيونية ليست في حالة دفاع عن النفس كما يقولون، وإنما هي دولة عدوانية. ففي حرب لبنان على سبيل المثال، أعلنت المؤسسة العسكرية أن الهدف من عملية «سلام الجليل» هو هدف دفاعي حتمي؛ لوقف ما يسمونه الهجمات الفدائية وتطهير مساحة ٦٧ كيلو مترًا مربعًا من لبنان. ثم ظهر أن الهدف الحقيقي

كان هو فرض حكومة وظيفية عميلة في لبنان تحت حماية إسرائيل؛ أي إنها لم تكن حرب خيار فرضت على المستوطنين، وإنما حرب دخلوها بملء إرادتهم. وقد أدى هذا إلى تداعي الإجماع القومي الإسرائيلي. كما أن استمرار الاحتلال في الضفة الغربية لما يزيد على عشرين عامًا كان من الصعب الدفاع عنه باعتباره دفاعًا عن النفس.

ومع تراجع احتمالات الحرب بين العرب والمستوطنين الصهاينة (بعد توقيع شتَّى معاهدات السلام) أصبح الحديث عن العمليات العسكرية الإسرائيلية باعتبارها دفاعًا عن النفس أمرًا مستحيلًا. ولا شك في أن زيادة معدلات العلمنة والعولمة والسعار الاستهلاكي لا تساعد كثيرًا على تصعيد روح القتال. كما أن جو الخصخصة العام السائد في إسرائيل يزيد تمركز الفرد حول نفسه ويجعله يضع نفسه قبل المجتمع.

س: كيف تبدَّى هذا الإدراك في سلوك الشباب الإسرائيلي؟

ج: يتبدَّى هذا الإدراك في انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية، بل الفرار منها، وقد صرح وزير الدفاع (السابق) إسحاق مردخاي بأن انخفاضًا حادًّا طرأ على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية في صفوف الشباب الإسرائيلي، ويتحدث الإسرائيليون بقلقٍ عن طبقة من الشبان تُدعي «جيل إم. تي. في. «نسبة إلى قناة تقوم ببث (الفيديو كليبات) الغنائية الراقصة الصاخبة بشكل متواصل في إسرائيل، وأعضاء هذا الجيل لا يبدون اكتراثًا بالأوضاع العامة للدولة، ويميلون إلى الدَّعة والراحة. وهذا على كل تعبير عن التوجه الاستهلاكي العام في المجتمعات الصناعية التي يقال عنها «متقدمة»، وكما يقول مردخاي: «يعتقد البعض أننا وصلنا مرحلة الراحة، والبعض الآخر يرى أننا يجب ألا نُساهم بكلِّ جهودنا في الدفاع عن إسرائيل».

ومما يجدر ذكره أن أعضاء النخبة الجديدة (معظم الإسرائيليين في سن الشباب فمتوسط العمر هو ٢٦,٦، وهي بذلك لا تختلف كثيرًا عن الدول

العربية) وُلِدوا بعد إنشاء الدولة ونشئوا بعد عام ١٩٦٧؛ أي بعد أن دخلت الدولة الصهيونية المرحلة الفردوسية الاستهلاكية التي لم يعد مواطنوها مهتمين فيها بالتراكم. ولذا، شهدت القوات العسكرية الإسرائيلية، لأول مرة في تاريخها، ظواهر احتجاجية مختلفة، جديدة عليها كل الجدة، مثل زيادة نزوح أبناء الكيبوتسات، العمود الفقري للمؤسسة العسكرية واحتياطيها الحقيقي. وقد زادت كذلك نسبة النازحين من الضباط والخبراء العسكريين والمهندسين والعاملين في الصناعات الحربية (ولا سيما بعد توقُّف العمل في مشروع الطائرة لافي).

وكذلك، زادت نسبة تعاطي المخدرات وانتشار الجرائم الجنسية بين أفراد القوات الإسرائيلية والشباب (يقال: إن ثلث الشباب في إسرائيل يتعاطون المخدرات)، وضعف مستوى الأداء بشكل ملحوظ حتى إنه ورد في أحد تقارير البنتاجون أن ١٠٪ من جملة الخسائر في أثناء حرب لبنان كان مصدرها الإسرائيليون أنفسهم، وتُعد هذه نسبة عالية جدًّا.

ويمكن هنا أن نورد هذه الواقعة مثالًا لما يحدُث للشباب في إسرائيل. يمثِّل إسرائيل في مهرجان اليوروفيزيون مغنية تُسمى «دانا إنترناشيونال» ودانا هذه ليست امرأة أصلًا، ولكنها كانت في الأصل رجلًا شاذًّا من أصل يَمَني يسمَّى بارون كوهين ثم أجرى عملية جراحية في لندن تحول بعدها إلى امرأة، وهو/ هي شخصية تحظى بشعبية كبيرة غير عادية. وتحول امرأة إلى رجل (والعكس) مسألة تحدُث الآن في مجتمعات كثيرة، ولكن حين يتحول الفعل الفردي إلى رمز قومي هنا يجب أن نَدْرسَ المسألة باعتبارها قضية اجتماعية وليس سلوكًا فرديًّا.

وفي مُدة قريبة كان التطوع في صفوف قوات النخبة (وحدة المظليين) يُعد من الأعمال المرموقة. وقد اضطرت هذه القوات في السابق إلى الاعتذار لعدد من الراغبين بالتطوع لوجود ما يكفيها من العناصر. غير أن الوضع الآن تغير كما يبدو؛ فكثيرون يستخدمون حيلًا دنيئة للتخلُّص من الخدمة

العسكرية مثل زعم مرورهم بأحوال نفسية مضطربة. بلغ عدد الهاربين من الخدمة العسكرية ١٣ ألفًا، كما أن ١٨٪ من الشباب الذين بلغوا سن التجنيد يستبعدون من الخدمة بسبب أمراض عضوية ونفسية، و١٥٪ يستبعدون لأسباب متنوعة، ويبلغ عدد المعفين لأسباب دينية ما يزيد على ٦٪.

وفي أحد استطلاعات الرأي صرَّح ثلث الشباب الإسرائيلي أنهم إن أُتيحت لهم فرصة تحاشي الخدمة العسكرية الإجبارية (التي تستغرق ثلاث سنوات) لفعلوا ذلك. وقد لوحظ تصاعد معدلات الهروب من الشريط المحتل في لبنان. ويعتمد الجيش الإسرائيلي على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالي ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة شهر حتى سن الخمسين لإعادة تدريبهم (ولذا كان يقال: إن الشعب الإسرائيلي هو جيش في إجازة لمدة أحد عشر شهرًا). وقد لوحظ أن حوالي الثلث يتغيبون، وفي أثناء الصدام الذي وقع بين الجيش الإسرائيلي وسكان نابلس في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦ استدعَت إحدى فِرَق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠، فلم يحضُر سوى ٦٠، ولم يبقَ منهم سوى ثلاثين. وقد رفَض أحدهم الذهاب إلى الضفة الغربية (عدد المجندين الذين يرغبون في الخدمة في الأحداث القتالية يتراجع ليصل إلى ٥٪ من عدد المجندين). والأهم من هذا كله أن ثمة قبولًا اجتماعيًّا لهذا الموقف، وهو أمر جديد كل الجدة في التجمع الصهيوني الذي كانت الخدمة العسكرية فيه (حتى نهاية الستينيات) تُعد الشرف الأكبر الذي يمكن أن يحصل عليه المواطن/ المستوطن.

ولكن من المفارقات أن أعضاء هذا الجيل ولدوا فيما يسمى «أرض إسرائيل» ولذا فهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن الاحتلال بالقوة «مسألة طبيعية»، وأن الضفة الغربية ليست أوكيوبايد occupied «أرضًا محتلة»، وإنما أرض قومية توراتية ومن ثم هي أرض «متنازع عليها» disputed ديسبيوتيد (كما يقول المصطلح الأمريكي)، وعلى اليهود الاحتفاظ بها ولا يحقُّ لهم

التنازل عنها أو التفاوض بشأنها. والعرب هنا هم «عرب يهودا والسامرة»، ومن ثم «خرق حقوقهم»، لا يشكِّل مشكلة أخلاقية بالنسبة إليهم.

س: فلنتحدث الآن عن إسرائيل، وعن الإباحية فيها؟

ج: إسرائيل مجتمع منقسم؛ فهناك نحو ٢٠٪ من المتدينين المتزمتين، وهناك ٨٠٪ من العلمانيين. ويقال: إن معدلات الإباحية في إسرائيل من أعلى المعدلات في العالم، فعندما أشاهد التلفاز الإسرائيلي ألاحظ وجود انفتاح غير عادي إلى درجة أن أمنون روبنشتاين مع أنه غير متدين إلا أنه في كتابه عن الصهيونية وصف المجتمع الإسرائيلي بأنه أكثر المجتمعات إباحية على وجه الأرض، وثمة شارع مشهور في تل أبيب اسمه شارع ديزنجوف تعود شهرته إلى أن فيه كل أنواع الإباحية والمخدرات، وروبنشتاين قد أشار في كتابه إلى ما سماه: «زبالة ديزنجوف» وهو تعبير ينم عن مدى اشمئزازه، ولقد ازداد البغاء في إسرائيل مع هجرة النساء الروسيات اللاتي يُمارسنَ الجنس وكأنه مجرد نشاط عضلي له عائد اقتصادي (تسمى الآن البَغِي في الخطاب الغربي «عاملة جنس» بالإنجليزية («sex worker») وتحسب المسألة من منظور الجدوى الاقتصادية. وقد صدم بعض الإسرائيليين حين اكتشفوا أن كثيرًا من البغايا الروسيات يعملن بموافقة الزوج والأولاد.

س: في مثل هذا المجتمع المفتوح، مَن هو زبون البغاء؟ ولماذا؟

ج: أولاد اليهود الشرقيون، وأيضًا اليهود المتدينون. ويأتي ذلك من شدة الكبت؛ فيجب ألا ننسى أن عملية القمع في مثل هذا المجتمع تكون مرهقة جدًّا، فكل ما حول الإنسان إباحي ومنفتح، فتكون عملية الضبط الاجتماعي شديدة الصعوبة بالنسبة إلى الجهات الدينية، بالإضافة لوجود ما يسمي «الكينكي سكس» أو الممارسات الجنسية الشاذة جدًّا التي لا يمكن أن أتحدَّث عنها، لكنها باختصار تتطلب أجهزة لا تقوم بها إلا بَغِي. كما يلجأ إلى البغايا أيضًا مَن يرغب في المتعة الزائدة، مثل الذي يشعر أن ممارسة الجنس مع زوجته لم تعُدْ تحقِّق له معدلات المتعة العالية التي يتوقعها، ويوجد في إسرائيل

أيضًا البغاء للشواذ جنسيًّا، وهناك مجلات إباحية كثيرة، وهناك المحلات الخاصة بالأدوات الجنسية، وفي وقت من الأوقات أرادوا أن يفتحوا بعض هذه المحلات بجوار حائط المبكى واحتج اليهود المتدينون. بصورة عامة، ثمة مؤشرات كثيرة في المجتمع الإسرائيلي عن تصاعد معدّلات توقُّع اللذة ومحاولات تحقيقها.

س: ما تأثير هذا على الشباب المصري، ولا سيما أن إسرائيل قد تحوّلت في ذهن بعض الشباب إلى مجتمع المتعة من خلال الاحتكاك مع إسرائيليات في جنوب سيناء؟

ج: من المؤكد أن بعض الشباب الذي افتقد المعنى في المجتمع المصري، وفقد الأمل في المستقبل من الممكن أن تحقِّق له هذه المسألة أشياء لا نُحقِّقها نحن له، هذا أمر طبيعي وإن كان غير مقبول إطلاقًا. لكن علينا أن نتوقع مثل هذه الأمور مع زيادة الإحساس بعدم الانتماء وزيادة الحس البراجماتي.

س: هل تعتقد أن إسرائيل تقصد تصدير الجنس والمخدرات إلى مصر لتدمير الشباب ولتقويض المجتمع؟

ج: من الممكن؛ فأي مجتمع معادٍ لنا لا بد أن يحاول أن يقوِّضنا من الداخل، وحقًّا يمكن توظيف الجنس في هذا الاتجاه، ولكن لا يمكن لإسرائيل أن تنجز مُخطَّطها من دون وجود التربة الخصبة.

حينما كنت في الولايات المتحدة في الستينيات كنت مشتركًا في مجلة عربية يصدرها حزب المابام، فكنت أجد تركيزًا غير عادي على الجنس، لكن هذا لا يختلف كثيرًا عما نفعله نحن الآن، فأنا كلّما فتحت التلفاز أجد أن هناك عشرات الفضائيات التي تقدم (فيديو كليبات) لا يمكن تصنيفها إلا بأنها إباحية، كما تجد مذيعات نصف عاريات ولا تجد شيئًا عن طه حسين أو العقاد أو عبد الوهاب البياتي ولا حتى أي إشارة إليهم. فكثير من الفضائيات العربية تقوم بعملية التقويض من الداخل.

ويجب ألا نضع كل همومنا على شماعة الإسرائيليين. لكن علينا أن نتنبَّه

لما تقوم به إسرائيل الأخرى أي بعض الفضائيات العربية.

علينا أن نتنبَّه لأنفسنا، فعندما تعرض بعض الفضائيات ما تعرضه من (فيديو كليبات)؛ الأغنية فيها هامشية، والتركيز على مناظر تثير الشهوة. إذن في أي شيء سنحتاج إسرائيل لكي تحقِّق التفسخ، فإسرائيل الداخل أهم بكثير من إسرائيل الخارج، إسرائيل التي في صدورنا هي التي توسوس مثل الوسواس الخناس، وهذا هو الأهم.

س: يشير كثيرون إلى دولة إسرائيل باعتبارها دولة ديمقراطية حديثة، وأن التطبيع سيساعد على نشر الديمقراطية في العالم العربي وسيساهم في تحديثه. فما قولك؟

ج: مثل هذا الادعاء كذبة كبرى. ولفضح هذه الكذبة لا بد من أن نفرِّق بين الرؤية الديمقراطية أو المثل الأعلى الديمقراطي والإجراءات الديمقراطية. الرؤية الديمقراطية تذهب إلى أن الناس سواسية، ولهم الحقوق نفسها من بينها حق تقرير المصير، وتوجد الديمقراطية بوصفها إجراءات تطبق على مجموعة من الناس ومقصورة عليهم دون غيرهم. وما يسمى بالديمقراطية الإسرائيلية هو في واقع الأمر مجموعة من الإجراءات مثل الفصل بين السلطات وسيادة القانون وحَسْم الخلافات من خلال العملية الانتخابية... إلخ. ولكن هذه الإجراءات كلها لا علاقة لها بالمَثَل الأعلى؛ لأن ما يسمى بالديمقراطية في الدولة الصهيونية يطبق على المستوطنين الصهاينة وحدهم ويستبعد العرب، بل تقوم هذه الدولة بسلبهم أرضهم لتقيم المستوطنات عليها، وتزج بهم في السجون دون محاكمة، وتضع الحواجز في الطرقات، وتشن الغارات عليهم، وتُنكر عليهم حقَّ العودة. ولذا يجب أن تسمى الديمقراطية الإسرائيلية ديمقراطية المستوطنين أو الديمقراطية العنصرية، وهي في هذا لا تختلف كثيرًا عن الديمقراطية التي يمارسها أعضاء عصابات المافيا؛ فهم يقومون بأعمالهم الإجرامية كلها ولكن عند توزيع الغنائم يلجئون إلى إجراءات ديمقراطية صارمة ومن يخالفها

مصيره الموت.

ويمكننا القول إن الإجراءات الديمقراطية هي آلية من آليات الاستيطان الصهيوني؛ فهي تعطي صورة إيجابية ليهود العالم، الأمر الذي يشجعهم على الهجرة إليها، كما أن التجمُّع الصهيوني تجمع غير متجانس ولا بد أن توجد قنوات شرعية علنية يُعبِّر جميع الفرقاء من خلالها عن أفكارهم المتصارعة (وهو صراع دائم بخصوص الغنائم والامتيازات) حتى يمكن تسويتها ولو مؤقتًا. ويلاحظ أن هذه الدولة الديمقراطية ليس لها دستور، وغياب الدستور يعني أن هذه الدولة ترفض أن تحدد حدودها حتى يمكنها التوسع وتوطين المهاجرين في الأراضي التي تستولي عليها.

س: وماذا عن التحديث؟

ج: من ناحية التحديث، من المعروف أن الاستعمار الذي يهدف إلى تحويل العالم إلى مادة استعمالية لتوظيفها لحساب الإنسان الأبيض كان هو العائق الأكبر لتحديث البلدان التي استعمرها. حينما فككت فرنسا الجيب الاستيطاني في الجزائر كان هناك من الأطباء والمهندسين المحليين ما لا يتجاوز عدد أصابع اليد! ولم يكن هناك بطبيعة الحال أي مؤسسات حديثة، والاستعمار الصهيوني لا يختلف عن هذا النمط، بل هو أكثر شراسة. فقد بدأ أولًا بنزع ملكية الفلسطينيين للأرض ثم قام بتحطيم مجتمعهم والأشكال الإنتاجية التي يستندون إليها، ثم أخذ في استغلالهم بعد عام ١٩٦٧ باعتبارهم عمالة رخيصة متنقِّلة؛ أي إنه يستغلهم دون استيعابهم ودون الدخول معهم في علاقة اقتصادية متكاملة، وصحيح أن الدولة الصهيونية دولة حديثة، ولكنها لا تُساهم في عملية التحديث، وهي دولة صناعية توقف التصنيع في الضفة الغربية، ودولة متقدمة تقف ضد التقدم، لا ترى نفسها داخل إطار من التكامل الاقتصادي مع الفلسطينيين، بل تحاول قصارى جهدها أن تظل دولة يهودية خالصة؛ أي دولة منعزلة عن التشكيل الحضاري المحيط بها والتي غرست في وسطه، وهذا هو الهدف من غرسها

في المنطقة. إن الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني لم يجهض محاولات التحديث بين الفلسطينيين فحسب، بل إنه يُحاول أن يُسلبهم محاولة البقاء ذاته عن طريق سلْب أرضهم وطردهم منها.

س: تؤكد استطلاعات الرأي التي تجرى في إسرائيل أن أغلب الإسرائيليين يَعتقدون بوجود صراع داخلي مُتعدد المحاور، وأن هذا الصراع أخطر على إسرائيل من الصراع مع الدول العربية، فما هو تقييمكم لحجم واتجاه تأثير الصراعات الداخلية في إسرائيل على مُستقبلها من الناحيتين: السياسية والاستراتيجية؟

ج: بالفعل ثمة تناقضات داخلية كثيرة وعميقة في إسرائيل أعتقد أنها وصلت إلى مستوى الأزمة، وهي أزمة بنيوية، بمعنى أنها ليست مجرد مسألة عرضية، وإنما هي من صميم الظاهرة التي نَدرُسها وأن الأزمة كامنة في بنيتها، ونحن نرى أن هذه الأزمة البنيوية ليست نابعة من واقع أعضاء الجماعات اليهودية ولا من تواريخهم ولا مواريثهم الحضارية المختلفة، كما أنها لم تنبع من الشرق العربي وإنما من الإيديولوجية الصهيونية؛ فهذه الإيديولوجية مجموعة من الديباجات والادعاءات لا علاقة لها بالواقع، فثمة مسافة شاسعة تفصل بين القول أو المثل الأعلى الصهيوني والواقع العربي واليهودي المُعاش، ولعلَّ هذا يفسِّر الإسهال المصطلحي الذي يَسِم الفكر الصهيوني.

س: ما هي أهمّ معالم هذه الأزمة؟

ج: أهم معالم هذه الأزمة على الإطلاق هو التناقض الديني العلماني، وهو تناقُض متعدِّد الأوجه؛ فهناك أولًا الصراع بين العلمانيين المُلحدين والمُتدينين، وفي داخل المعسكر الديني ذاته ثمة تناقض بين الأرثوذكس من ناحية وبين الإصلاحيين والمحافظين من ناحية أخرى، وثمة تناقض بين الأرثوذكس الإشكناز وبين الأرثوذكس السفارد. وقد أعلنت الدولة الصهيونية أنها دولة يهودية، ولكنها لا تضم سوى نحو ربع مليون أو ربما نصف مليون متدين، وثمة عدد لا بأس به يرى ضرورةَ التمسك بالشعائر

اليهودية من منظور إثني وليس ديني، في مقابل ذلك يوجد الغالبية الساحقة من العلمانيين الماديين الملحدين الذين يضيقون ذرعًا بالشعائر. ثم يلي ذلك التناقض بين الهويات اليهودية المختلفة أهمها بطبيعة الحال الهوية الإشكنازية في مقابل الهوية السفاردية، وثمة هويات أخرى هامشية مثل الفلاشا ويهود بني إسرائيل من الهند. وداخل كل معسكر يوجد تقسيمات فرعية كثيرة؛ فالإشكناز يضمون يهود شرق أوربا وبعض يهود غربها، أما السفارد فيضمون اليهود المغاربة واليهود العراقيين وبعض اليهود السفارد من أوربا. إلى جانب ذلك يوجد تناقض ثالث بين الأجيال المختلفة؛ فهناك الجيل القديم الذي كان يمثله بن جوريون والآخرون، وهناك مناحيم بيجن، وهناك جيل متوسط يمثِّله بيريز ونيتنياهو وباراك، ثم أخيرًا هناك الجيل الجديد. ونلاحظ أنه مع تتالي الأجيال تتصاعد معدلات العلمنة والتوجُّه نحو اللذة.

س: هل يمكن تصور أن المؤسسة الحاكمة كي تحسم هذا الانقسام الخطير ستطلق يدَ المؤسسة الدينية بحيث تطبق كل التحريمات والشعائر الدينية الكثيرة والمركبة على مجمل الحياة العامة في إسرائيل؟

ج: من الصعب على أي دارس للمجتمع الإسرائيلي أن يتخيَّل مثل هذا السيناريو متحققًا؛ لأن غالبية الإسرائيليين ليسوا من العلمانيين وحسب وإنما من مُتطرِّفي العلمانية، وإسرائيل تعتبر من أكثر البلاد إباحية في العالم كما شهد امنون روبنشتاين في كتابه (الصهيونية من هرتزل إلى اليوم). إن المجتمع الصهيوني لا يختلف كثيرًا عن بعض المجتمعات الغربية وربما يكون أكثر إباحية أو انفتاحًا. فهل يمكن للأرثوذكس أن يفرضوا الشعائر الدينية على مثل هذا المجتمع؟ إن هذا يكاد يكون في حُكم المُستحيل، فالعلمانيون الذين يشكِّلون من ٦٠ إلى ٧٠٪ لن يقبلوا بهذا؛ لأنهم لم يتركوا بلادهم كي يعيشوا داخل ما يتصورونه «جيتو ديني» جديدًا.

س: لكن ثمة ٢٢ عضوًا في الكنيست من اليهود الأرثوذكس؟

ج. العملية السياسية غير العملية الاجتماعية. يمكن أن تتخذ قرارات

بمنع الرذيلة في المجتمع، ويمكن اتخاذ قرارٍ صارم بتطبيق الشريعة اليهودية في كل مناحي الحياة وإقامة شعائر الدين، ولكن هل يمكن تحقيق ذلك فعلًا في إطار أن غالبية المستوطنين الصهاينة من العلمانيين الملاحدة الباحثين عن اللذة؟ وهل يمكن تخيُّل تحويل عطلة نهاية الأسبوع إلى يوم مقدَّس في لندن مثلًا؟ هذا لا يمكن تخيله لا في لندن ولا في تل أبيب. إن هذه أزمة حقيقية يواجهها الكيان الصهيوني، وقد تبدَّت في إشكالية الهوية اليهودية؛ فالدولة الصهيونية تدَّعي أنها دولة يهودية ولكنها مع هذا أخفقت في تعريف «مَن هو اليهودي؟»، وهو سؤال يمثِّل أساس شرعيتها!

س: هل ثمة تبديات أخرى لهذه الأزمة؟

ج: الجيب الاستيطاني الصهيوني في حاجة ماسَّة إلى المادة الاستيطانية، لكن يهود العالم آخذون في الإحجام عن الهجرة، كما أن أعدادهم آخذة في التناقص نتيجة الزواج المختلط والإحجام عن الزواج والإنجاب والانصهار في المجتمعات الغربية، كما أن يهود العالم الغربي لا يهاجرون إلى إسرائيل فهم مُستريحون في أوطانهم (وغالبيتهم الساحقة في الولايات المتحدة)، يضاف إلى هذا أن القطاع الوحيد الأخذ في التزايد في الدولة الصهيونية هو قطاع اليهود المتدينون، مما يُثير قلق المستوطنين العلمانيين. لكن ما يزيد من قلقهم بشكل أكبر هو تزايد الفلسطينيين.

س: ذكرت أن الصراع الإثني داخل إسرائيل ولا سيما بين الإشكناز والسفارد هو تبدٍّ لمشكلة الهوية ولتساقط مقولة الشعب اليهودي. ولكن يلاحظ أنه مع هذا الاختلاف بين الفريقين فقد التقوا في دولة واحدة، ومع كل ما يُقال عن معاناة السفارد، فإننا نرى قطاعًا كبيرًا منهم ينضمون إلى الأحزاب اليمينية المتطرفة، وهم الأكثر رفضًا للفلسطينيين وللحقوق العربية، كمتخصصٍ، هل هذا صحيح، وإن كان، فكيف تفسره؟!

ج: هو صحيح وخاطئ في الوقت نفسه، صحيح باعتباره واقعة حقيقية، ولكن يوجد من الدلائل ما يُشير إلى إمكانية مختلفة، ولنتأمل من

حكم إسرائيل معظم الوقت؟ نجد أنها أرستقراطية إشكنازية عمالية، لا تكترث بقضايا الفقراء والضعفاء وهم غالبًا يهود الشرق. هؤلاء الإشكناز لا يحترمون تراث السفارد الحضاري، ولا يهتمون بقضاياهم وهمومهم، بينما فتح حزب الليكود المتطرف أبوابه لهم، إن حزب الليكود حزب شعبوي إلى حدٍّ ما، لديه سياسات اجتماعية ويهتم إلى حدٍّ ما بالشرقيين. واليهود العرب يوجد موقعهم في الوسط، وعادة مثل هذه الفئة تخشى على مواقعها الطبقية، وهي قريبة من قاعدة الهرم الطبقي ولكنها تخشى الاندماج فيهم. بالإضافة إلى أن العرب لم يطرحوا على اليهود الشرقيين تصورًا بديلًا للحل الصهيوني، والمؤسسة الإشكنازية الحاكمة تُخيفهم دائمًا من أنه إذا رحل الإشكناز فسيكون عليهم مواجهة العرب بمفردهم.

س: تؤكد دائمًا على أن الصهيونية ظاهرة غربية، وأن اليهود الشرقيين لم يكونوا جزءًا من المنظومة الصهيونية الفكرية والتنظيمية، فهل يمكن اعتبار اليهود الشرقيين في إسرائيل مدخلًا لتذويب إسرائيل واستيعابها في المحيط الحضاري العربي - الإسلامي الذي هاجروا منه، ولا سيما أنهم يقتربون من نصف سكانها، وهم مع عرب ٤٨ يشكلون أغلبية كبيرة؟

ج: هذه مقولة تستحق الدراسة وتتطلب معرفة دقيقة بالداخل الإسرائيلي، ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن العرب أهملوا اليهود الشرقيين عبر خمسة عقود ماضية، واكتفوا بمقولات اختزالية تختزل يهود العالم كلهم ووصفهم بأنهم يهود والسلام، بدلًا من أن ندقِّق ونعرف الفرق بين الواحد والآخر وبين كل طائفة يهودية وأخرى وبين فرقة يهودية وثانية. هذا الميراث من الاختزال جعل اليهود الشرقيين يرتمون في أحضان المؤسسة الإشكنازية ولا سيما أن هذه المؤسسة - مرة أخرى - بسبب الإجراءات الديمقراطية اضطرت إلى أن تعطي اليهود السفارد جزءًا من الكعكة. نعم، يجب دراسة ظاهرة اليهود الشرقيين فقد يكون من الممكن اعتبارهم مدخلًا لتذويب إسرائيل واستيعابها في المحيط الحضاري العربي الإسلامي.

س: في إطار رؤيتكم الشاملة للدولة الصهيونية كيف تُفسِّرون التباينات التي تطرأ على الموقف الإسرائيلي بين ما يُسمَّى اليسار واليمين؟

ج: الخطاب الصهيوني في الأصل خطاب إبادي لا يختلف عن الخطاب الاستيطاني الغربي الذي قام عليه المجتمع الأمريكي والتجارب الأخرى في أستراليا وغيرها، ولكن ترسخ فكرة القانون الدولي وحضور الإعلام القوي جعل إنجاز مهمة الإبادة أمرًا صعبًا بالنسبة إلى الفلسطينيين، وكما أن تماسكهم الحضاري وزيادتهم السكانية جعل حل الإبادة، بل والترانسفير مسألة صعبة وتقترب من المستحيلة، ومن ثَم ظهر ما أُسميه المسألة الفلسطينية في الفكر الصهيوني، وهي مسألة لا يوجد لها حل في الأجندة الصهيونية سوى الإبادة أو الترانسفير، وقد تفاقمت الأزمة الديموجرافية السكانية في المستوطن الصهيوني؛ فالمصادر البشرية للهجرة الصهيونية تقريبًا نضبت تمامًا والملايين الذين أشاع الصهاينة أنهم سوف يهاجرون من الاتحاد السوفييتي إلى إسرائيل لم يزد عددهم عن مليون رفضت أعداد كبيرة منهم أن تستوطن في الضفة الغربية، واتضح أن أكثر من نصفهم من غير اليهود، وبعد ثلاثين عامًا من الاستيطان اليهودي فيها (قبل توقيع اتفاقية أوسلو) كان عدد المستوطنين الصهاينة على أرض الضفة لا يزيد على ١٢٠-١٤٠ ألفًا، وهو رقم يقل عن الزيادة السنوية للفلسطينيين الذين يسكنون الضفة في عام واحد.

في داخل هذا الإطار، بدأت تظهر تصورات صهيونية أخرى مختلفة، وأحد أهم هذه التصورات هو تحويل الدولة الصهيونية الإحلالية إلى دولة الأبارتهايد (العزل العنصري) فلا تعود مسألة الإبادة أو الطرد ضرورية أو حتمية. فدولة الأبارتهايد دولة تستولي على الأرض وعلى خيراتها وتحول من عليها من سكان أصليين إلى عمالة رخيصة، على أن يوضعوا في معازل جماعية تسمَّى في حالة جنوب إفريقيا بانتوستان.

وفي حالة الوضع الفلسطيني في الأراضي المحتلة، التصور الصهيوني هو إقامة «سلطة محلية» أو «دولة فلسطينية «منزوعة السيادة، وضمن سياسة

العزل ثمةَ شبكة الطرقات الالتفافية التي تهدف إلى عزل جغرافي ومادي للفلسطينيين داخل مجموعة من الكانتونات المتفرقة، وإلى إحكام قبضة الدولة الصهيونية عليهم. وأيضًا تأمين التواصل بين المستوطنات، ومن ثم تمكين سيطرة الاحتلال. وبذلك يمكن لإسرائيل أن تخرج من عزلتها؛ لأن إنشاء دولة فلسطين في تصورهم، سيحلُّ المشكلة وسيريح ضمير النُّخَب العربية التي تودُّ أن تطبِّع علاقتها مع إسرائيل وتقوي تحالفها مع الولايات المتحدة. وإنه إن حدَث ذلك فسيمكن لإسرائيل أن تقود العالم العربي اقتصاديًّا.

لكن ثمة عناصر داخل المؤسسة الصهيونية ترى أن مثل هذا الحل خطير؛ إذ إنه قد يؤدي بالعنصر البشري الفلسطيني إلى أن يطوِّر مؤسساته القومية بشكل تكتسب فيه قدرًا كبيرًا من الاستقلال والدينامية، مما يشكِّل نواة لدولة فلسطينية حقيقية تشكِّل بدورها قاعدة لتحرير كل أراضي فلسطين، ولا سيما وأنهم يُشيرون إلى استحالة تغلغل إسرائيل داخل الدول العربية بسبب الرفض العربي الجماهيري للدولة الصهيونية. كما أن بعض الصهاينة يرون أن العالم العربي يخوض مرحلة تاريخية تتسِمُ بعدم الاستقرار، وأن عدم الاستقرار هذا حتمي، ومن ثَم يجدُرُ بإسرائيل أن تعزل نفسها لتحتفظ بتوازنها. ومن ثَم يمكنها الدخول في علاقة مع بعض النظم العربية في محاولة لدعمها وتزويدها بالخبرة القمعية التي تجيدها إسرائيل، وبتطوير نظامها الأمني.

ويبدو أن الدولة الصهيونية نجحت في بيع هذه السياسة للولايات المتحدة؛ فالولايات المتحدة بمزاجها وبطموحاتها الإمبريالية قبَّلت هذا السيناريو، مما يعني بأن إسرائيل تتحول إلى جيتو نووِي غاية في القوة، تمسك بقبضة حديدية على الشعب الفلسطيني، وتحول المستوطنات إلى قواعد استيطانية عسكرية قوية تقوم، مرة أخرى، بدور حارس المصالح الأمريكية، ويظهر الجنرال الإسرائيلي مرة أخرى بدلًا من القومسيونجي الإسرائيلي الذي كان يطرحه بيزيس. وفكرة بيزيس تتسِق مع النظام العالمي الجديد كما طرَحه بوش الأب: العالم سوق واحدة ويجب أن تفتح الحدود ونتاجر سويًّا ويتحول

الصراع إلى صراع اقتصادي؛ أي يتحول الصراع العسكري إلى تنافس اقتصادي في مجال من التعاون والتنافس الذي تحكمه الآليات العادية، أما الرؤية الجديدة فتتفق مع السياسة الإمبريالية الأمريكية؛ ولذا نجد أنه بعد ١١ أيلول/ سبتمبر وحديث الولايات المتحدة عن ضرورة الإصلاح الديمقراطي في العالم، كان لا بد من عملية تجميل السياسة الإمبريالية الأمريكية التي تبدت فيما يسمى «خارطة الطريق»، وبمقتضاها تحول شارون إلى رجل سلام، وانسحب من طرف واحد وقال: إنه سينفذ خارطة الطريق، وفي الوقت ذاته بدأ في بناء السور العازل وهمس لبعض المتحدثين باسمه أنه لن ينفذ خارطة الطريق. ولكن جاءت الحرب السادسة وخلطت كل الأوراق.

س: هل التعايش السلمي بين الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني أو العربي أمر مُستبعَد؟

ج: للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن تسأل عن مضمون كلمة «شعبين»، ولنبدأ بالشعب الإسرائيلي: هل يضم المستوطنين في إسرائيل فقط أم أنه يضم يهود العالم كلهم؟ فاستخدام كلمة «الشعبين» هنا ليست دقيقة تمامًا؛ لأنني أعتقد أنه لو أن الدولة الصهيونية أعلنت أنها دولة لمواطنيها وحسب، وأنَّها ليست لها علاقة بيهود العالم، وأنه لا يحُقّ لأي من يهود العالم الهجرة إليها والاستيطان فيها؛ أي إن أعلنت الدولة الصهيونية إلغاء قانون العودة وترحيبها بعودة الفلسطينيين حسب قرارات هيئة الأمم، في هذه الحالة، يمكننا أن نتحدَّث عن «شعبين» وعن إمكانية التعايش بينهما، أما الآن فنحن نتحدَّث عن جسد هلامي غير طبيعي غير محدد المعالم. نحن لا نتحدَّث عن شعبين وإنما عن شعب طرَد من أرضه وعن جماعة من المستوطنين يقول أعضاؤها إنهم في الشرق الأوسط ولكنهم ليسوا منهم (عبارة أبا إيبان) وأنهم جزء من الشعب اليهودي المنتشر في كل أنحاء العالم.

س: ما رأيك فيما يسمى محادثات السلام؟

ج: لا توجد أجندة واضحة أو غامضة لهذه المحادثات، وما هو الهدف

منها؟ وما هو الإطار الذي تدور فيه؟ هل ما يسمى «الشرعية الدولية» هو الإطار، أم موازين القوى؟ وإذا كانت «الشرعية الدولية» هل تقبل إسرائيل بقرارات هيئة الأمم؟ وماذا عن قضايا الحل النهائي؟ أعتقد أن ثمة مشكلة أساسية وهي أن الحد الأدنى الصهيوني لا يتفِق ألبتة مع الحدِّ الأدنى الفلسطيني، على سبيل المثال، مسألة الانسحاب لحدود ٦٧، وإزالة المستوطنات في الضفة الغربية، وتقسيم القُدس وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، هل إسرائيل على استعداد أن تلتزم بذلك؟ هم يُصرِّحون بأنهم لن يفعلوا ذلك، فلم التفاوض إذن؟ هم يُصرُّون أن يعترف بهم الفلسطينيون ولكن كما قال خالد مشعل، إن اعترفنا بهم، علام سنتفاوض إذن؟

س: هل ترى أن قيام دولة فلسطينية إلى جانب قيام دولة إسرائيلية يمكن أن يضمن تسوية أو حلًّا شاملًا للقضية؟

ج: وجود دولتين سيؤدي حتمًا إلى مزيد من الصراع، أنا أرى أنه طالما هناك دولة تدَّعي اليهودية، وتستند في شرعيتها إلى كونها يهودية، فهذا نوع من العنصرية؛ لأنها من ثم لا تنتمي للمحيط، بل تؤدي وظيفة تخدُم الاستعمار الغربي، وستظل منبوذة كما ستظل سببًا من أسباب الصراع في المنطقة. الحل الوحيد هو قيام دولة المواطنة، دولة متعددة الأديان والإثنيات تمامًا مثلما حدث مع جنوب إفريقيا.

س: ما رأيك في قوى السلام داخل إسرائيل؟

ج. كثير من الإسرائيليين عندهم إحساس بالورطة التاريخية التي وجدوا أنفسهم فيها ويبحثون عن مخرج، وجماعات السلام الآن تطرح حل الانسحاب من الضفة الغربية. وأعتقد أن كثيرين من المستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة قبل عام ٦٧ يشاركونهم الرأي؛ إذ يتصورون أن المستوطنين في الضفة الغربية هم السبب في كل هذا الصدام. وبطبيعة الحال أنا أختلف معهم، فسبب الانتفاضة هو الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بكل عنصريته، ولا يمكن تسوية الصراع إلا بفك الإطار الصهيوني العنصري، وتشكيل دولة جديدة متعددة

الأديان والأثنيات، هذا لا يعني رفض قوى السلام هذه والمجاهرة بالعداء لها، بل يجب أن نقوم بدور تربوي وحوار نقدي معهم. فخريطتهم الإدراكِيَّة ابتعدت بعض الشيء عن الخريطة الإدراكية الصهيونية التقليدية.

س: وما رأيك في المثقفين العرب من دعاة السلام مع إسرائيل؟

ج: معظم هؤلاء ينطلقون من مفهوم السلام الإسرائيلي الذي ينبع بدوره من محاولة الصهاينة إنكار التاريخ. فهم يقولون «فلننسَ عقد التاريخ»، نحن غير مُصابين بعُقَد تاريخية أو نفسية، القضية هي أن كتلة بشرية جاءت من العالم الغربي واغتصبت فلسطين وطردت سكانها. هذه ليست عُقدًا نفسية، بل هي واقع يواجهنا يوميًّا، ومن ثم فإننا لسنا في حاجة إلى محللين نفسيين أو حبوب مهدئة، بل نحتاج للأرض واستعادة حقوق الفلسطينيين. إن قوى السلام العربية تسعى لتحقيق التعايش - حسنًا! هل تقبل قُوَى السلام الإسرائيلية إلغاء قانون العودة وعودة الفلسطينيين إلى ديارهم وتُطالب بإلغاء المستوطنات من الضفة الغربية؟ ثمة ثوابت صهيونية تتناقض مع المفهوم العربي للسلام في أضيق حدوده. الحد الأدنى الصهيوني لا يتفِق من قريب أو بعيد مع الحدِّ الأدنى العربي.

س: هل يمكن التعايش مع إسرائيل؟

ج: أنا ليس لديَّ مانع من التعايش بشرط وجود أسس لهذا التعايش، لكن مثل هذه الأسس غير موجودة، ومن ثم فالتعايش مستحيل وغير قائم بسبب إسرائيل وليس العرب، أنا رجل مسالم ومعتدل جدًّا في حياتي الخاصة. وكل ما أطالب به، ليس إبادة اليهود أو إلقاؤهم في البحر، وإنما أطالب بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة التي تحقِّق الحدَّ الأدنى من العدالة. عادة ما يقال: إنه لو طُبقت هذه القرارات فإن إسرائيل ستفقد هويتها اليهودية، هل هذا يعني أن يهودية الدولة الصهيونية مرتبطة باستبعادها للعرب؛ أي بهيكلها القانوني والعسكري العنصري؟ إذا كان الأمر كذلك، يجب إذن أن نُحارب العنصرية مهما كان شكلها أو مسوِّغاتها. عندما رفض العالَم الجيب

الاستيطاني في الجزائر وجنوب إفريقيا فإن المستوطنين أجبروا على فك كياناتهم العنصرية، بعضهم قرَّر الرحيل وبعض آخر قَبِل بالواقع الجديد، وإذا كانت إسرائيل لا يُمكنها الاستمرار إذا وطنت الفلسطينيين في ديارهم وأعادت الأرض لأصحابها، إذن فهي لا تستحقُّ البقاء.

ومن هنا يجب أن نطرح تصورًا جديدًا مبنيًّا ليس على التعايش في إطار الأمر الواقع؛ لأن ذلك يعني السلام المبني على الحرب، وما أُطالب به هو السلام المبني على العدل.

س: حينما تتحدَّث عن نهاية إسرائيل، ماذا تعني على وجه الدِّقة؟

ج : حينما أتحدَّث عن نهاية إسرائيل ففي ذهني ما حدَث في جنوب إفريقيا؛ إذ تم القضاء على النظام العنصري من خلال المقاومة المسلحة ولم يتبع ذلك مذابح جماعية أو إبادة. فقد قاوم الأفارقة وجاهدوا وبعد سنوات من الحوار المسلح بدأت الأقلية البيضاء تدرك أنه لا يوجد حلٌّ أمني عسكري، فاستسلم النظام العنصري ودخل في حوار نقدي مع المقاومة بقيادة مانديلا وانتهى الأمر بتسليمه مقاليدَ الحكم، مع أن النظام العنصري استمر ما يقرب من أربعة قرون، ولم يكن يعتمِد على الخارج (كما هو الحال مع الدولة الصهيونية). وبعد سقوط النظام العنصري ظهر نظام جديد استوعب المستوطنين البيض الذين تحولوا إلى مواطنين في دولة متعددة الأديان والأعراق والإثنيات، وفتح أمام الجميع الفرص دون تفرقة على أساس اللون أو الدين. وفي الانتخابات الأخيرة في جنوب إفريقيا كانت الأحزاب السوداء تحاول الحصول على أصوات المواطنين البيض والعكس، وهذا يعني أنه ظهرت مصالح ورؤى تتجاوز حواجز اللون، بل إن وفد الجنوب الإفريقي الذي ذهب إلى المونديال كان يضم كلًّا من دي كلارك الرئيس السابق للنظام العنصري ومانديلا زعيم المقاومة والرئيس السابق للمجتمع الجديد.

وأتصور أن المتتالية نفسها يمكن أن تتحقَّق في فلسطين المحتلة، فمن خلال تصاعد الحوار المسلح سيصبح الجيب الصهيوني مكلفًا بالنسبة إلى

الدولة الراعية، وسينال الإرهاق من المستوطنين الصهاينة وسيدركون أن الحل الأمني العسكري لا طائلَ من ورائه، وأنهم لا مجال أمامهم إلا أن يتخلوا عن عنصريتهم وعزلتهم الصهيونية وعن يهوديتهم المزعومة (فاليهودية شيء والصهيونية شيء آخر). فتبدأ الأصوات تتعالى داخل الكيان الصهيوني ويبدأ المستوطنون يبحثون عن متتالية جديدة تضمن لهم ولأولادهم البقاء، وتبدأ الدولة الراعية في إعادة حساباتها. ولذا علينا أن نقاوم وأن تستمرَّ المقاومة وأن نُرسل في ذات الوقت برسائل للمستوطنين، ولا سيما اليهود الشرقيين، أن الحل العربي لمسألة الاحتلال والاستيطان الصهيوني ليس الإبادة، كما تزعم القيادة الصهيونية، وإنما فكّ الإطار العنصري وإنشاء مجتمع جديد على أسس إنسانية ديمقراطية. وهذا يعني أن على الدولة الصهيونية، التي تدَّعي أنها ليست دولة لمواطنيها الذين يعيشون داخلها وإنما دولة لكل يهود العالم الذين يعيشون خارجها، عليها أن تغير رؤيتها وتنظر إلى نفسها باعتبارها دولة توجد في الشرق الأوسط وأنها جزء منه، وأنها دولة لمواطنيها وأن تكفَّ عن الحديث عن حقِّ العودة لليهود بعد ثلاثة آلاف عام (والذين لا تود غالبيتهم في العودة)، وتنكر هذا الحق على الفلسطينيين الذين طردوا منها منذ عدة سنوات (ويقفون يقرعون بوابات الكيان الصهيوني)، وأن تكفَّ عن الحديث عن الأزمة الديموجرافية؛ أي الخوف من أن يصبح العرب هم الأغلبية في الكيان الصهيوني، وعن الترانسفير حلًّا لأزمتها الديمواجرافية هذه، وعن التهييج من أجل هجرة اليهود الروس ودفع الرشاوي لهم حتى يتركوا أوطانهم ويستوطنوا فيها، وأن تتوقف عن تهويد الهنود الحمر في بيرو ثم تنقلهم إلى المستوطنات في الضفة الغربية وعن بناء السور العنصري، وعن الحديث عن أن القدس هي عاصمة إسرائيل الأزلية. هذه الرؤية الجديدة يجب أن تترجم نفسها إلى خطوات إجرائية محددة، إذ يجب أن تعلن هذه الدولة أنها دولة لكل مواطنيها فحسب، وليس لما يسمى بالشعب اليهودي، وانطلاقًا من هذا تلغي قانون العودة العنصري والقوانين العنصرية الأخرى،

مثل دستور الصندوق القومي اليهودي الذي يَدْعم الجيب الاستيطاني ويعمِّق من عنصريته، والذي تحرم قوانينه على غير اليهود أن يمتلكوا أرضًا ملك الشعب اليهودي أو العمل فيها؛ أي إنها تمنع العرب من مواطني الدولة الصهيونية أن يمتلكوا أرضًا تمتلكها الوكالة اليهودية (نحو ٩٠٪ من أراضي فلسطين المحتلة). ومثل هذه القوانين العنصرية تجعل من مقولة يهودي مقولة قانونية؛ أي إن العنصرية الصهيونية جزء من البناء القانوني للدولة الصهيونية، وهذه هي إحدى سمات الجيوب الاستيطانية الإحلالية، إن التمييز العنصري ليس مجرد فعل يقوم به العنصريون المتعصبون، وإنما هو جزء من البناء القانوني يُعاقب كل من يتجاوزه أو يَخْرقه، وعلى هذه الدولة أن تتوجَّه إلى قضايا الحل النهائي فتفك المستوطنات في الضفة الغربية وتقبل بحق العودة للفلسطينيين وترجع الأرض التي سُلبت من أصحابها لهم. هذه هي الطريقة الوحيدة لتحرير فلسطين وأيضًا تحرير المستوطنين الإسرائيليين؛ لأن المنظومة العنصرية تفرض عليهم سجنًا من نوع ما. إذا أنجز ذلك فإنه يعني سقوط النظام العنصري وقيام مجتمع جديد مبني على العدل، أعتقد أنه يمكن حينذاك أن نعلن أننا على استعداد للعيش في سلام معهم وسيكون سلامًا دائمًا وعادلًا؛ دائمًا لأنه عادل؛ لأن ما ينجز الآن هو سلام مبني على موازين القوى، مما يعني أنه مجرد هُدنة أو تهدئة يلتقط فيها كل طرف أنفاسه ليحارب مرة أخرى لتعديل موازين القوى لصالحه.

ويجب أن نُطمئن المستوطنين الصهاينة أن ما يطلبه العرب هو إعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي؛ أي القضاء على استيطانية والدولة الصهيونية وعنصريتها وليس القيام بمجازر أو مذابح، وأن من يودُّ منهم فسيصبح مواطنًا في المجتمع الجديد (متعدد الديانات والأعراق والإثنيات)، وأن المستوطنين الصهاينة الذين ولدوا على أرض فلسطين مع أن آباءهم قد جاءوا محتلين ومغتصبين، فليس لهم وطن آخر، ويجب أن نتعامل معهم من هذا المنطلق، واستيعابهم ليس مشكلة على الإطلاق، فالعالم العربي يتميز بوجود

أعداد كبيرة من الأقليات الدينية والإثنية، وقد تعايشنا كلنا في هذه المنطقة بحد أدنى من الاحتكاك والتوتر. كما أن الدولة الصهيونية تستوعب آلاف المهاجرين، مما يعني أنه بوسع الدولة الجديدة أن تكون قادرة على استيعاب كل الفلسطينيين الراغبين في العودة وكل الإسرائيليين الراغبين في البقاء.

وقد يكون من المفيد الإشارة في هذا السياق، إلى أن الشيخ رشيد رضا دخل في مفاوضات مع الجانب الصهيوني في مطلع القرن المُنصَرِم، فأشار إلى أنه مدرك تمامًا لأهمية رءوس الأموال والخبرات التي سيأتي بها المهاجرون اليهود، وقال: إن العرب يمكن أن يرحبوا بها وبهم، على شرط أنه حين تستقل فلسطين وتصبح دولة ذات سيادة أن تكون الدولة الجديدة دولة ديمقراطية، دولة لكل مواطنيها، لكل مواطن صوت (وهذا هو الحل الجنوب الإفريقي)، ولكن حاييم وايزمان، أول رئيس للدولة الصهيونية، والذي كان طرفًا في هذه المفاوضات، عاد إلى منزله وكتب في مذكراته أن هذا هو سلام المقابر، وهو بالفعل سلام المقابر لأي تصور عنصري للدولة الجديدة، فالنهج الديمقراطي الذي يضمن المساواة بين الجميع يؤدي إلى إسقاط الإطار الصهيوني العنصري وإسقاط الإصرار على أن تكون الدولة الجديدة دولة يهودية خالصة، دولة لكل يهود العالم.

س: من قراءتك المجتمع الإسرائيلي من الداخل، هل ترى أصواتًا إسرائيلية يمكنها تبني صيغة مثل صيغة جنوب إفريقيا؟

ج: اليسار الصهيوني لم يصل بعد إلى هذه القناعة، أعتقد أن السبب هو أن الدول العربية لا تساند الانتفاضة بما فيه الكفاية، ولو تم ذلك فإن الرسالة سوف تصلهم كما حدث في جنوب إفريقيا. العالم الغربي ظل يساند جنوب إفريقيا حتى السبعينيات ومع تصاعد المقاومة تخلَّى عن النظام العنصري وبدأ في مقاطعته. وأتصور أن الدول العربية يمكن أن تقوم بشيء مماثل.

س: في كتاباتك عن الصهيونية تميز بين الشرعية السياسية وشرعية الوجود؟

ج: كل الأنظمة السياسية في العالم تواجه إشكالية الشرعية السياسية؛ فالنظم

العربية، على سبيل المثال، تواجه إشكالية الانتقال من نظم شمولية إلى نظم ديمقراطية منفتحة، وهذه إشكالية خاصة بالشرعية السياسية، ولكنها لا تواجِه شرعية الوجود. أما الكيانات الاستيطانية فتواجه مشكلة الشرعية السياسية تجاه المستوطنين الصهاينة، أما تجاه الفلسطينيين فهي تواجه شرعية أخرى وهي شرعية الوجود؛ أي حقّهم ومَقْدرتهم على البقاء في الأرض التي احتلوها. والانتفاضة تطرح هذا وبحدِّة، وهي إحدى إسهامات الانتفاضة الكبرى.

س: هل تعتقد أن إسرائيل ستنهار من الداخل؟

ج: إسرائيل تحمل في داخلها عوامل انهيارها، ومن هذه العوامل عدم التجانس بين الجماعات التي تستجلب من شتَّى بقاع الأرض للاستيطان بفلسطين وتصاعد معدلات العلمنة داخل الكيان الصهيوني، وتآكل الإيديولوجية الصهيونية، ونضوب مصادر الهجرة اليهودية. بالإضافة لليأس الإسرائيلي نتيجة اندلاع الانتفاضة الأولى والثانية. ولكن يجب أن نتذكر أن مقومات بقاء الجيب الاستيطاني لا تكمُن في داخله وإنما من خارجه متمثلة في الدعم الأمريكي والضعف العربي، ولعل أكبر دليل على الغياب العربي هو هذا التآكل المستمر للتجمع الصهيوني الذي لم يؤد إلى انهيار، لا يمكن أن يحدُث الانهيار إلا من خلال مقاومة عربية واضحة، التناقض والأزمة لا يؤديان في حدٍّ ذاتهما إلى انهيار، وثمة دول عبر التاريخ عاشت في أزمة مئات السنين، ولم تنهر إلا من خلال عناصر خارجية. إن المقاومة العربية وحدها هي القادرة على أن تُنهي هذا الكيان. ولكن طالما أن العرب يقفون في حالة انهزام داخلي شديد، فسيستمر التجمع الصهيوني وتستمر تناقضاته وأزمته. إن النخب الحاكمة العربية، تقف مهزومة ولا تفعل شيئًا سوى تضخيم العدو وشيطنته (حتى تسوِّغ هزيمتها). مع أن انهياره لن يتأتىَ إلا من خلال المقاومة الفلسطينية والدعم العربي والإسلامي لها. والانهيار هنا لا يعني إبادة المستوطنين وإنما هو فك الإطار العنصري وإعادة صياغة المجتمع على أساس العدل والديمقراطية، كما حدث في جنوب إفريقيا.

س: تحدثت عن نهاية إسرائيل، هل يوجد إطار زمني في ذهنك؟

ج: أنا لم أحدد لحظة زمنية، فقط أُشير إلى أن نهاية إسرائيل مسألة حتمية، ولا أستند في هذا إلا إلى حقائق تاريخية؛ فأنا أقول دائمًا: إن المعرفة الإنسانية هي معرفة تاريخية، وإذا أخذنا الجيوب الاستيطانية الحالية فسنجد أنها تنقسم إلى قسمين؛ قسمٌ نجح في إبادة السكان الأصليين، وقسمٌ آخر لم ينجح، القسم الذي نجح مثل الولايات المتحدة وأستراليا هو الذي كتب له الاستمرار، أما القسم الثاني وهو الجيوب الاستيطانية التي أخفقت في إبادة السكان الأصليين مثل الممالك الصليبية والجزائر وجنوب إفريقيا فقد كان مآلها إلى الزوال، وحينما ننظر إلى إسرائيل نجد أنها تنتمي إلى القسم الثاني، وأحب أن أسأل: هل توجد أي شواهد أو مبررات لأن تجعل من إسرائيل استثناء للقاعدة؟

س: تقول إن التجمع الصهيوني يشعُر بحجم الأزمة التي يعيشها، هل هذا الشعور وصل إلى حدِّ الحديث عن نهاية إسرائيل؟

ج: يمكن أن أذكر عشرات المقالات التي تتحدث في هذا الموضوع، وفي الأدب الإسرائيلي نفسه قصص تتحدث عن نهاية إسرائيل، كما أن هناك أغانٍ تتحدث عن نهاية إسرائيل. وثمة أغنية تتحدث عن شابٍّ يستقل حافلة ويرى اسم الدولة مكتوبًا على الأسمنت، وتبدأ الطيور ترحل فيود أن يرحل معها؛ لأنه يخاف السقوط، الأغنية لا تتحدث عن نهاية إسرائيل مباشرة، ولكن هذه هي وظيفة المجاز.

وثمة قصة عن شابٍّ صهيوني، مهمته حراسة الغابة، والغابة هي رمز الدولة، ثم يظهر قروي فلسطيني أبكم، ويظهر أن هذه الغابة كان مكانها قرية فلسطينية، وأن الرجل فقد مقدرته على النطق بسبب المذابح الصهيونية، فتنشأ بينهما علاقة حب وكره في الوقت نفسه، ويبدو أن الإحساس بالذنب العميق يتطور، وتنتهي القصة بأن يحرق الرجل الأبكم الغابة، ويساعده الحارس في ذلك، ويشعر بالراحة بعد احتراق الغابة. إن الخطاب التحليلي العربي تم تسييسه، ومن ثم أخفق في رؤية الكثير من المعاني الخفية والتيارات التي لا يعبر عنها سياسيًّا لكنها تشغل الوجدان الإسرائيلي.

لقد أدرك بعض الصهاينة منذ البداية أن المشروع الصهيوني مشروع مستحيل، فتخلَّى بعضهم عنه، مع أن عددًا من هؤلاء يعتبرون من كبار المفكرين والمؤسسين أو ما يسمى بالآباء الصهاينة، مع ذلك فقد تنكروا للصهيونية، مثل نيثان بيرنباوم الروسي الذي صكَّ مصطلح صهيونية بالمعنى السياسي، ولكنه بعد سنة أو اثنتين بدأ يُدرك أن فلسطين ليست «أرضًا بلا شعب» وأن الصهيونية تتعارض مع اليهودية، وأن الصهيونية هي مشروع لتخليص أوربا من اليهود، لهذا تحول نيثان بيرنباوم وأصبح من أعدى أعداء الصهيونية.

كذلك آرثر روبين، الذي كان مسئولًا عن الاستيطان في فلسطين في الثلاثينيات، هو الآخر أدرك أيضًا استحالة المشروع الصهيوني، ووجد أن هذا المشروع لا يمكن تنفيذه إلا بخنق القِيَم الأخلاقية. الشيء نفسه بالنسبة إلى يهودا ماجنيس أول رئيس للجامعة العبرية، اكتشف أيضًا الكارثة الأخلاقية والإنسانية التي سيؤدي إليها تنفيذ المشروع الصهيوني على أرض الواقع، فحاول قَدْر استطاعته أن يدعو للتعاون مع العرب، وعدم إعلان الدولة اليهودية أو الصهيونية إلا بعد إشراك العرب في هذه العملية، وقد طرح هذا الاقتراح حينما كان مديرًا للجامعة العِبرية، لكن مجلس الجامعة قام تقريبًا بتهميشه تمامًا. واستمرَّت هذه الحلقة بعد إعلان الدولة، فيوري أفنيري الذي حمل السلاح ضد العرب عام ٤٨ وحاربهم، أدرَكَ مبكرًا في عام ١٩٥٠ استحالة المشروع الصهيوني دون مذابح وقتل وتشريد وقام بتأليف كتاب اسمه (إسرائيل من دون صهيونية) أي إنه يمكن لليهود أن يتعايشوا إذا تخلّو عن الصهيونية؛ أي إذا تخلو عن الإطار العنصري وتنبأ بأنه إذا لم يفعل الصهاينة ذلك فستكون نهاية إسرائيل.

والحلقة مستمرة، فأحد المثقفين الإسرائيليين لخَّص الموقف الإسرائيلي بقوله: إن إسرائيل ستركض من نصر إلى نصرٍ حتى تصل إلى نهايتها المحتومة، فهو يرى أنهم سينتصرون وينتصرون، ثم ماذا؟ الشعب الفلسطيني سُرِقت أرضه وطُرد منها ولكنه يطالب بحقه الإنساني الطبيعي، ولا يمكن أن تستقر

الأحوال إلا من خلال عودة الفلسطينيين لأرضهم وأن ينالوا حقوقهم، ولكن إن حدث ذلك فهذا يعني نهاية الدولة العنصرية الصهيونية.

س: هل ساهمت الانتفاضة في تعميق هذا الإحساس بقُرب نهاية إسرائيل؟

ج: نعم، بالمناسبة المصطلح ليس من عندي، حين نشبت الانتفاضة الأولى حذَّر إسرائيل هاريل المتحدِّث باسم المستوطنين في الضفة الغربية من أنه إذا حدث تقهقر ما من جانب إسرائيل (أي شكل من أشكال الانسحاب والتنازل)، فهو لن يتوقف عند الخط الأخضر (حدود ١٩٤٨) إذ سيكون هناك انسحاب روحي يمكن أن يتهدَّد وجود الدولة ذاتها (الجيروساليم بوست ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٨). وهو تحذيرٌ قد يكون فيه قَدْر من المبالغة، ولكنه يحتوي أيضًا على قدر كبير من الحقيقة؛ ففي الحروب القومية (كما يقول إسرائيل هاريل نفسه)، تلعب الروح المعنوية (أو الجهادية) الدور الأساسي، وروح الإسرائيليين المعنوية في حالة تراجع، فهل ستصدق؟

ومع انتفاضة الأقصى ازداد الأمر حِدة، انْظُري على سبيل المثال، إلى يديعوت أحرونوت (بتاريخ ٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢) التي ظهر فيها مقال بعنوان (يشترون شُققًا في الخارج تحسُّبًا «لليوم الأسود»، واليوم الأسود هو اليوم الذي لا يحب الإسرائيليون أن يفكروا فيه. والموضوع نفسه يظهر في مقال ياعيل باز ميلماد (معاريف ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١) الذي يبدأ بالعبارة التالية: «أحاول دائمًا أن أبعد عني هذه الفكرة المزعجة، ولكنها تطل في كل مرة وتظهر من جديد: هل يمكن أن تكون نهاية الدولة كنهاية الحركة الكيبوتسية؟» من نقطة الزمن الحالية ما زالت هذه الفكرة مدحوضة، ولكن ثمة كثير جدًّا من أوجه الشبه بين المجريات التي مرت على الكيبوتسات قبل أن تحتضر أو تموت، وبين ما يجري في الآونة الأخيرة مع الدولة، بل إن المستوطنين أنفسهم أصبحوا يستخدمون العبارة نفسها، فرئيس مجلس السامرة الإقليمي أخبر شارون (في مشادة لفظية معه): «نحن سنحارب بكل قوتنا، وسننزل الشوارع، إن هذا الطريق الدبلوماسي هو نهاية

المستوطنات، إنه نهاية إسرائيل» (هآرتس ١٧ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٢). وقد لخَّص جدعون عيست الموقف في عبارة درامية (يديعوت أحرونوت ٢٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢) «ثمة ما يمكن البكاء عليه: إسرائيل».

بل إن مجلة نيوزويك (٢ نيسان/ إبريل ٢٠٠٢) صدرت وقد حمل غلافها صورة نجمة إسرائيل، وفي داخلها السؤال التالي: «مستقبل إسرائيل: كيف سيتسني لها البقاء؟». وقد زادت المجلة الأمور إيضاحًا حين قالت: «هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأي هوية؟» ثم اقتبست المجلة قول الكاتب الإسرائيلي عاموس أيلون: «إنني في حالة يأس لأنني أخشى أن يكون الأمر قد فات، وقد قلت لكم فقط نصف ما أخشاه، ولا يختلف رأى الأمريكيين (أوثق حلفاء إسرائيل) عن ذلك. فقد أعرب ١٨٪ عن رأيهم أن إسرائيل ستختفي من الوجود، وقال ٢٣٪ إنها لو استمرت في البقاء فلن تكون دولة يهودية، وهذه نسبة عالية للغاية (٤١٪)، ولا سيما وأن أحدًا لم يكن يجرؤ حتى على طرح السؤال قبل ذلك بشهور!

وفي مقال بعنوان (ليلة سعيدة أيها اليأس... والكآبة تكتنف إسرائيل) كتبه إتيان هابر (يديعوت أحرونوت ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١) يشير إلى أن الجيش الأمريكي كان مسلحًا بأحدث المُعدّات العسكرية، ومع هذا يتذكر الجميع «صورة المروحيات الأمريكية تحوم فوق مقر السفارة في سايجون محاولة إنقاذ الأمريكيين و(عملائهم] المحليين في ظل حالة من الهلع والخوف حتى الموت» وكل لبيب بالإشارة يفهم. ثم يستمر الكاتب نفسه في تفصيل الموقف: «إن جيش الحُفاة في فيتنام الشمالية قد هزم الأمريكيين المسلحين بأحدث الوسائل القتالية.... ويكمن السر في أن الروح هي التي دفعت المقاتلين وقادتهم إلى الانتصار.. الروح تعني المعنويات والتصميم والوعي بعدالة النهج والإحساس بعدم وجود خيار آخر... وهو ما تفتقده إسرائيل التي يكتنفها اليأس. وفي الحرب السادسة الأخيرة في ٢٠٠٦ صدرت عدة مقالات عن نهاية إسرائيل.

س: هل هاجس النهاية هذا الذي يطارد الوجدان الإسرائيلي يجد صدًى له في الإعلام العربي؟

ج: الإجابة مع الأسف بالنفي؛ فبعض الإعلاميين قد أدمن الهزيمة. الإعلام العربي لا يركز إلا على «انتصارات» العدو الصهيوني وينزعها من سياقها، ولا يذكر إلا النَّذْر اليَسِيرَ عن أزمته وإحساسه بالإحباط والهزيمة وعن عجزه في التصدي للانتفاضة، وحينما يرى مؤشرات الهزيمة فإنه يهمّشها ويتعامل معها باعتبارها غير ذات موضوع؛ لاعتقاده أن إسرائيل قوة عسكرية لا تُهزم، مع أن منحنى الانتصارات الإسرائيلي آخذ في التراجع ومنحنى الهزائم في الصعود. وفي الحروب غير المتوازية أي التي بين جيش نظامي وحركة تحرير لا يوجد منتصر ومنهزم بالشكل التقليدي، وإنما كما قال السيد حسن نصر الله: «من سيصرخ أولًا». أمريكا لم تنتصر في فيتنام ولم تنهزم، ولكنها أُرهقت، وهذا ما يحدُث لها في العراق وأفغانستان، وهذا ما يحدث للمؤسسة العسكرية الصهيونية في فلسطين المحتلة، ولعل الانسحاب من جانب واحد هو تعبير عن هذا لأن المؤسسة العسكرية أخبرت شارون بأنها لا تستطيع أن تدافع عن المستوطنات في كل من غزة والضفة الغربية، وأنها كي تضمن حماية مستوطنات الضفة الغربية لا بُد أن تكثف وجودها العسكري هناك.

س: الانسحاب من غزة مثل الوجود المكثَّف للمؤسسة العسكرية في الضفة كلاهما قد لا يحقق أمنًا؟

ج: بالفعل لا يحقق أمنًا؛ لأن الإبداع الفلسطيني يتزايد، فالصواريخ مداها يتزايد. من كان يتصور أن هذا الشعب الفقير الذي يقوم العالم بتجويعه، قادر من بعض المعادن البسيطة على أن يطوِّر صاروخ «قسّام١» و«قسّام٢» وقسام٣» و«القدس١» و«القدس٢» والبقية تأتي، أنا أعتقد أن هذا كله قد ألقى في روع الإسرائيليين أنه لا مَخرج، ومن هنا يأتي حديثهم المتكرِّر عن نهاية إسرائيل، وأعتقد أن الحرب السادسة قد عمَّقته. ولعل ما ذهب إليه فان كريفيلد المفكر الاستراتيجي الإسرائيلي، وهو مفكّر له

أهميته على مستوى العالم يدعَم هذا الموقف، فقد أجرى أحدهم حوارًا معه بعنوان: (عوامل تفكك إسرائيل)، ذكر فيه أنه لا يمكن بأي حال التصدي للانتفاضة وإخمادها، ما فعله فان كريفيلد أنه قام برصد حركات المقاومة في العالم، وتوصل إلى أنه لا يوجد حكومة أو مؤسسة عسكرية واحدة نجحت في قمع أي حركة مقاومة في العالم. ثم أشار إلى الجزائر وفيتنام وقائمة أخرى كاملة لحركات المقاومة في مراحل تاريخية متباينة، وتوصل إلى أنه لم يحدث أن فشلت حركة مقاومة. أضيف إلى ذلك أننا -كما أسلفت- لا نعرف «جيبًا استيطانيًّا» واحدًا كُتب له البقاء إلا عن طريق إبادة السكان الأصليين. أمريكا الشمالية بقيت واستمرت، شأنها شأن أستراليا، أما الجيب الاستيطاني في الجزائر فقد تم تفكيكه، لماذا؟ لأنه لم يقضِ على السكان الأصليين فقاموا بتنظيم أنفسهم وألحقوا الهزيمة بالمستوطنين.

س: نعود إلى ما تسميه عقلية الهزيمة في الإعلام العربي؟

ج: الإعلام العربي يركز على مدى «قوة» الجيب الاستيطاني الصهيوني وبطشه وقدراته العسكرية التي لا تعرف حدودًا، وأهمل تمامًا الثمن الفادح الذي يدفعه الإسرائيليون، وهو فادح بأي مقياس. هل انسحب شارون من غزة وهدَم المستوطنات الاستعمارية الصهيونية فيها لأنه رأى النور فجأة؟ أم لأن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية أخبرته أنها عاجزة عن الدفاع عن المستوطنين في كل من الضفة والقطاع؟ إن الإعلام العربي يشغل نفسه بشكل مرضِي بحصر انتصارات الدولة الصهيونية، ويخفق إلى حدٍّ كبير في رصد عوامل التآكل التي تتفاعل داخله، وتدهور الحالة النفسية للمستوطن الإسرائيلي من جراء المقاومة الفلسطينية الباسلة. والمحصلة النهائية لهذا الموقف هي أن المقاومة الفلسطينية تبدو كما لو كانت معركة خاسرة لا فائدةَ تُرجى من ورائها. هذا على عكس الصحافة الإسرائيلية التي ترصد أثر الانتفاضة على المجتمع الصهيوني بطريقة تُبين أن الانتفاضة ليست فعلًا عبثيًّا، وما ورد في صحيفة يديعوت أحرونوت (١٣ يناير/ كانون الثاني

٢٠٠٣) لا يختلف كثيرًا عمّا جاء في صحيفة معاريف، إذ قالت: إن الجمهور الإسرائيلي يُعاني مشاعرَ توتر منهكة ازدادت بنسبة كبيرة خلال العام الأخير، فبينما قال ١٤ بالمائة من المستوطنين الصهاينة في عام ١٩٩٨: إنهم يعانون من التوتر، ارتفعت هذه النسبة في عام ٢٠٠٠ إلى ١٥ بالمائة، ووصلت عام ٢٠٠٢ إلى ٢٠ بالمائة؛ أي إن واحدًا من كل خمسة إسرائيليين يعاني من التوتر.

ومن المؤشرات الأخرى تزايد معدّلات السُّعار الجنسي في إسرائيل. فالجنس، شأنه شأن الخمر والطعام والتدخين، يُعد من الآليات التي يُحاول المرء من خلالها التغلب على قلقه وعلى غياب المعنى في حياته. وقد بيّن استطلاع للرأي نشرته صحيفة جيروساليم بوست (٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١) أن المستوطنين الصهاينة هم من أنشط الناس لجهة النشاط الجنسي (لا يفوقهم في ذلك سوى الأمريكيين). وقد صرح ٢٣ بالمائة ممن شملهم الاستطلاع أن الجنس هو هوايتهم المفضلة التي يزجون من خلالها أوقات فراغهم.

وجانب آخر من جوانب الظاهرة يكشفه موقف موشيه يعلون، رئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي. فقد كان يمتدح دائمًا قدرة الشعب الإسرائيلي على الثبات في الصراع الدائر مع الفلسطينيين، واعتاد الظهور في أوساط إسرائيلية مختلفة ليدحض نظرية «خيوط العنكبوت» المنسوبة للسيد حسن نصر الله، أمين عام حزب الله، ومؤداها أن إسرائيل تبدو من الخارج دولة عظمى من الناحية العسكرية، ولكن من يَلْمسها يُدرك أنها تتفكك مثل خيوط العنكبوت، وكان يعلون يردِّد دائمًا أنَّ الفلسطينيين تبنوا هذه النظرية بعد انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، وأن المقاومة الفلسطينية المسلحة ترتكز إلى حدٍّ كبير على هذه النظرية، التي ثبت خطؤها، في نظره؛ لأن المجتمع الإسرائيلي برهن على ثباته وتماسكه.

ولكن مع تصاعد معدلات القلقِ، اضطر يعلون، في تصريحات نقلتها صحيفة يديعوت أحرونوت في موقعها على الإنترنت (١١ فبراير/ شباط ٢٠٠٣)، إلى الاعتراف بأن قُدرة المجتمع الإسرائيلي على الثبات محدودة للغاية، وأن هذه المحدودية تجتذِب النار (أي تشجع المقاومة)، بل وأقرَّ

بصواب نظرية «خيوط العنكبوت». وقد عبَّر يعلون عن رأيه هذا في اجتماع مغلق أمام شخصيات من العاملين في مجال التربية والتعليم في القدس، ووصفت الصحيفة هذه التصريحات بأنها «شاذة»، وبأنها وقعت على مسامع الحاضرين «وقع الصاعقة»، وهو الأمر الذي دفع يعلون فيما بعد إلى نفي تصريحاته مدعيًا أنها أسيء فَهمها، ومن ثم حذفت تمامًا من موقع الصحيفة.

ومما يستلفت النظر أن معظم الصحف العربية تجاهلت الخبر تمامًا، في حين نشرته بعض الصحف الأخرى على استحياء في زاوية مهملة، وكأنه خبر عابر لا أهمية له، وكأنه ليس تقييمًا حقيقيًّا لمعنويات الكُتلة البشرية الاستيطانية التي احتلت أرض فلسطين، صادر عن أحد أعمدة المؤسسة العسكرية الصهيونية، وكأنه ليس مؤشرًا قويًّا على عُمق الأثر الذي تحدثه الانتفاضة الفلسطينية على التجمع الصهيوني.

س: لماذا يفعل الإعلام العربي ذلك؟

ج: هذا سؤال مهمٌّ، من الواضح أن السبب ليس الجهل أو عدم توافر المعلومات، هذا احتمال ضعيف للغاية؛ فالمعلومات متوفرة بشكل يزيد عن الحاجة، فشبكة الإنترنت توجد عليها يوميًّا عشرات المقالات المترجمة عن العبرية، وكما يمكن قراءة عدد من الصحف الإسرائيلية باللغتين العربية والإنجليزية؛ ولذا لا بد من استبعاد هذا الاحتمال. بقي بعد ذلك الاحتمال الآخر، أن بعض الأوساط الحاكمة التي تسلَّلت الهزيمة إلى وجدانها، والتي ترى أنه لا سبيل لإلحاق الهزيمة بالعدو، ترى أنه في مصلحتها أن تقدِّم الانتفاضة وكأنها عملية عبثية لا تؤدي إلى شيء، وأنه من المُستحسن إنهاء هذا الوضع من خلال ما يُسمى عملية السلام، التي لن تؤدي إلى شيء في تصوري، لو نشر الإعلام العربي أخبارًا عن الثمن الذي تدفعه إسرائيل بسبب المقاومة، فإن دعوة الداعين للتطبيع وهرولتهم نحو العدو ستظهر على حقيقتها، باعتبارها دعوة للاستسلام. ولكن كثيرًا من الإعلاميين العرب أدمنوا الهزيمة، ولذا لم يعودوا قادرين على رصد هزائم العدو!

س: هل استفادت النُّخب الحاكمة في العالم العربي من مراكز البحوث العربية ومن أعمال المثقفين العرب في صراعها مع الجانب الإسرائيلي؟

ج: مع الأسفِ ثَمَّة انفصال بين النخب الحاكمة العربية والعقل العربي، وهذا يعود لعدَّة أسباب من بينها تصور أعضاء هذه النخب أن الدولة الحديثة لا تختلف في جوهرها عن الدولة القديمة، فهي بسيطة مثلها وإدارتها ليست مسألة صعبة أو مركبة، ومن ثم لا يوجد أي حاجة لمؤسسات بحثية استشارية، ويتصور الحاكم أنه يعرف كل شيء، وهو في الواقع يجهل كثيرًا من الأمور. وثمة سبب آخر هو الخوف من الولايات المتحدة الذي يشوه رؤيتهم للواقع، فيعجزون عن الفهم وعن التنبؤ والحركة! فعلى سبيل المثال، حينما أتحدَّث مع أحد أعضاء النخب العربية عن نهاية إسرائيل ينظرون إليَّ كما لو كنتُ مجنونًا؛ ولذلك قرَّرت أن أصدرَ كتابًا عن «نهاية إسرائيل»، عبارة عن مقالات نشرت في الصحف الإسرائيلية، تتحدث عن هذا الموضوع، إن الإنسان الإسرائيلي يشعر أنه في ورطة حقيقية؛ فالغرب أوْهَمه أنه سيأتي إلى فلسطين وهي أرض بلا شعبٍ. وأُقيمت الدولة الصهيونية بدعم غربي عام ١٩٤٨، وحتى عام ١٩٦٧ كان الجيش الإسرائيلي يواجه الجيوش العربية النظامية فيهزمها. لكن بعد ١٩٦٧ بدأ المنحني يهتز، فمع الانتصارات التي حقَّقها الجيش الإسرائيلي في عدة حروب، إلا أنه لم يحقق ما كان يبغيه؛ أي تطبيع وجوده في المنطقة، حتى يتمكَّن من أن يبدأ في قيادتها وتسخيرها لحساب الغرب، فلا يزال الجسد العربي يقاوم؛ ولذا بعد حرب ١٩٦٧ بعدة أسابيع بدأت على الفور حرب الاستنزاف، وتلتها حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، ثم الانسحاب من لبنان، ثم من جنوب لبنان، ثم بدأت المشكلة الكبرى وهي مواجهة الكتلة البشرية الفلسطينية، وبدأ الكيان الصهيوني يشتبك مع الجماهير الفلسطينية على أرض كان يتصور أنها بلا شعبٍ، فبدأت الانتفاضة الأولى والتي لم يجد لها حلًّا، وحاول الالتفاف حولها من خلال اتفاقية أوسلو، ثم جاءت الانتفاضة الثانية، وأخيرًا، الحرب السادسة مع حزب الله حين حاول العدو الصهيوني

تلقين لبنان والعرب درسًا، وانتهى به الأمر أن تكبَّد خسائر كثيرة ووصلت صواريخ حزب الله إلى العُمق الإسرائيلي، وفشل الجيش الإسرائيلي في تحقيق أي من الأهداف التي وضعها لنفسه. إن منحني الانتصارات الإسرائيلية توقف عام ١٩٦٧ وبدأ منحنى الهزيمة؛ ولذلك اقترحت في إحدى دراساتي أن تسمى «الانتصارات» العسكرية الصهيونية «انتشارات» أي إنها تحركات في المكان لا تنجز شيئًا في الزمان.

س: ثمة مَن يرى أن الموقف العربي من إسرائيل ينقسم إلى قسمين؛ فما يسمى بالموقف القومي العلماني من جهة، والموقف الإسلامي من جهة ثانية، فما قولك؟

ج: هذا تقسيم عام للقانون؛ فداخل كل من ثمة القسمين هناك تصورات واتجاهات مختلفة وأحيانًا متناقضة، فمثلًا، داخل الاتجاه القومي العلماني تجدين بعض الفصائل تُطالب بقبول الأمر الواقع، ومن ثم ضرورة التعامل مع إسرائيل باعتبارها دولة قوية وناجحة اقتصاديًّا، وباعتبار أننا هُزمنا أمام هذه القوة، فمن الأجدى لنا أن نعترف بها ونتعلَّم منها بدلَ أن نرفضها ونقاومها، ومثل هؤلاء، هم عادة، مثقفون ينسلخون تدريجيًّا عن التيار القومي العلماني ويدخلون في منظومة دولية أُممية، ومن هنا ينادون بالشرق أوسطية، ويتبنون كثيرًا من مصطلحات ما يسمى بـ «النظام العالمي الجديد». يوجد بالمقابل الفريق العلماني القومي الرافض، ويرى أنه لا يمكن تحقيق المشروع القومي العربي العلماني مع وجود إسرائيل، ويعتقد، مِن ثَم، بحتميةِ الصراع وضرورة الاستمرار في المقاومة، أما بالنسبة إلى التيار الإسلامي فهو في مجموعه رافض لإسرائيل، وإن كانت بدأت تظهر أصوات ناشزة، بين بعض الشخصيات الدينية ممن يصدرون الفتاوى حسب الطلب، لكن هؤلاء قِلة، ولا يمكن اعتبارهم اتجاهًا، هم بضع شخصيات قليلة، فقدت مِصْداقيتها أمام الجماهير.

س: تقصد بعض رموز الإسلام الرسمي؟

ج: نعم، ويبقى أن التيار الإسلامي ينقسم بدوره إلى تيارات عدة أهمها

التيار الشعبوي ويرى أن الحرب ضد إسرائيل هي جزء من حربنا ضد اليهود، وهي حرب بدأت منذ بداية الخليقة، كالحرب بين الخير والشر... إلخ. وهؤلاء ليس عندهم مشروع واضح غير: «لا بد من استمرار الحرب». ومثل هذا الخطاب قد يكون فعالًا من الناحية التعبوية، لكنه أيضًا خطر للغاية؛ لأنه يفتقد إلى الاتجاه والإحساس بالواقع ويفتقد المقدرة على الكرِّ والفرِّ، كما يفتقد المقدرة على التعامل مع ظاهرة «الآخر» في خصوصيته؛ ولذا نجده في كثير من الأحيان يتحول إلى خطاب عنصري معادٍ لليهود بشكل مطلق (وهذا بطبيعة الحال يتنافى مع تعاليم الإسلام).

إلى جانب هذا هناك الخطاب الإسلامي المركب، وهذا يرى أن المواجهة مع إسرائيل هي جزء من المواجهة الحضارية مع الغرب وليست مواجهة مع اليهود؛ لأن ما يحكم علاقتنا باليهود -كما هو الحال بالنسبة إلى علاقتنا بأعضاء الأقليات الأخرى كلها- هي المفاهيم الإسلامية المختلفة حول العدالة والتسامح وإعطاء الآخر حقوقه، وأننا لا نقاتل الآخر إلا إذا اعتدى علينا، فإن جنح للسِّلم (كأن يقبل حق العودة ويُلغي قوانينه العنصرية ويفك المستوطنات وينسحب إلى حدود ١٩٦٧) يجب علينا ساعتها أن نتوكَّل على الله ونجنح نحن أيضًا للسِّلم، أما أن نتصور أن الحرب مع المستوطنين الصهاينة حرب مستمرة حتى قيام الساعة، فهي دعوة للحرب بلا هدفٍ ولا ضوابط ولا حدود، وهي بالمناسبة دعوة مستترة للاستسلام؛ لأنه ما جدوى الحرب التي ستستمر حتى يوم القيامة؟

س: بين الدعم الأمريكي لإسرائيل والضعف العربي المستمر كيف ترَى مستقبل الانتفاضة؟

ج: لا أرى أن الضعف العربي سيستمر، على العكس أرى أن ثمة نبضًا قويًّا نحو التغيير، وإن شاء الله الأوضاع ستتغير للأفضل. فمطالب الإصلاح والتحول الديمقراطي منتشرة في كل أنحاء العالم العربي، أنا لستُ متشائمًا بخصوص التغيير ولكن كل أملي أن يتم التغيير بطريقة هادئة ومتحضرة،

حتى لا تنزف أي دماء، فنحن في غنًى عن ذلك. وأعتقد أن ثمة نخبًا جديدة في العالم العربي تدرك مدى ما تشكله إسرائيل من تهديد للعرب، وطبيعة المحاولة الأمريكية للهيمنة على المنطقة العربية عن طريق تقسيمها وتقسيم ما هو مُقسَّم وتجزيء ما هو مُجزأ.

س: ثمة دعوة أمريكية صريحة لإقامة دولة فلسطينية؟

ج: الحديث عن الدولة الفلسطينية دون تحديد مضمون هذه الدولة أصبح شيئًا لا معنى له. مشروع الدولة مطروح منذ مدة طويلة، ولكن هذه الدولة في المنظور الإسرائيلي هي دولة «مخصية» ليس لها حقوق وليس لها سيادة أو سياسة خارجية، ليس لها سيطرة على الأرض وليس لها جيش، بمعنى أنها دولة سيكون لها نشيد وطني ورئيس وعلم وفرقة مطافئ وإسعاف، لكنها بلا أظافر أو أنياب ولا أي مقدرةٍ للدفاع عن نفسها وعن سيادتها. ومثل هذه الدولة شكل من أشكال البانتوستان، ومن ثم لا بد أن يكون الحديث عن دولة لها مضمون؛ فالقضية ليست قضية دولة، وإنما هي قضية استعادة الشعب الفلسطيني لحقوقه كاملة كما استعادت الشعوب المستعمرة الأخرى حقوقها.

س: لأول مرة يتحدّث مسئول أمريكي كبير عن ضرورة قيام الدولة الفلسطينية بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، ألَا ترى أن هذا الاعتراف يعد تغييرًا إيجابيًّا لمصلحة الدولة الفلسطينية ولا سيما مع ما أعقبه من تأييد دولي؟

ج: إذا استعرضنا الموقف الدولي بصورة عامة بعيدًا عن الولايات المتحدة الأمريكية، فسوف نجد أن المجتمع الدولي قرَّر سنة ١٩٤٧ قيام دولة عربية مستقلة في فلسطين إلى جوار الدولة الصهيونية التي قامت لاحقًا على نحو ٨٠٪ من أرض فلسطين سنة ١٩٤٨ بموافقة الأمم المتحدة في قرار التقسيم. ولم ينفذ الشِّق الخاص بقيام دولة فلسطين. ثم أصدرت الأمم المتحدة عدة قرارات أكَّدت فيها حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة على أرض فلسطين، ولم تجد هذه القرارات قط طريقها للتنفيذ. وحتى منظمة التحرير التي سلكت طريق الدبلوماسية منذ خطاب عرفات في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤ لم تستطع

أن تغير موقف إسرائيل من الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني. المقاومة وحدها، والانتفاضة بما مَثَّلته من مأزق وكابوس متعدِّد الأبعاد لإسرائيل، وبما أحدثته من عزلة لها في العالم ومن إحراج للولايات المتحدة، فقط الانتفاضة هي التي دفعت إسرائيل إلى التسليم بوجود شيء اسمه الشعب الفلسطيني، والذي قالت عنه جولدا مائير يومًا إنها لم تسمع بوجوده. الإسرائيليون أصبحوا الآن يناقشون مسألة الدولة الفلسطينية في العلن؛ ففي الماضي لم يصدر عن أي من الأحزاب الإسرائيلية الكبيرة أي اعتراف بحق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته، اللهم إلا بعض الأحزاب اليسارية الصغيرة التي لا وزن لها، والتي أيدت فكرة الدولة الفلسطينية بطريقة مواربة.

س: أنتم من الرافضين لاتفاقية كامب ديفيد، ومن أكثر رافضي التطبيع مع إسرائيل. كيف -في رأيكم- يكون التعامل مع دولة إسرائيل وقد أصبحت أمرًا واقعًا؟

ج: أرفض التطبيع؛ لأن التطبيع يجب أن يكون مع دولة طبيعية، وإسرائيل ليست دولة طبيعية، إسرائيل ليست دولة لمواطنيها، وإنما دولة لما يسمى بالشعب اليهودي فتعطي هذه الدولة الحق لأي يهودي موجود في أي مكان في العالم أن يهاجر وأن يأخذ الجنسية الإسرائيلية، أما الفلسطيني الذي لا يزال يحمل مِفتاح بيته فهو محرومٌ من حقه هذا، هذه مسألة تتسم بالشذوذ البنيوي دون شك، إلى جانب هذا، هي دولة لا تعيش على مكوناتها ومقوماتها فحسب وإنما تستند إلى الدعم الأمريكي الذي لا حدود عليه، وكيف أُطبع مع دولة غير طبيعية؟

س: كلامك يا دكتور يطرح إشكالية؛ فأنت تقول: إن المنطقة ترفض الكيان الصهيوني لكن ما يجري على أرض الواقع مقلوب، فالأنظمة العربية هي التي تتهافت على التسوية والتطبيع والتصالح. وإسرائيل هي التي ترفض وتلجأ إلى الحل العسكري وتُعرقل ما يسمى «عملية السلام» فما رأيكم؟!

ج: إسرائيل مدركة للمشكلات التي تواجهها سواء في ظروف

الحرب أو في ظروف السِّلم، ولذلك فهي تريد دائمًا سيادة حالة اللاسلم واللاحرب، فحالة السِّلم ستكتسحُها وحتى التطبيع العربي قد لا يكون في صالحها على المدى البعيد، وكذلك فإن استمرار حالة الحرب يجهدها ويعطل قدرتها على التنمية والتوسع، وهي لا تحتمل الحروب النظامية أكثر من أسبوع أو أسبوعين؛ لأنها تسبب لها إجهادًا شديدًا. ولذلك فإن منهج إسرائيل يذكِّرنا بالسياسة الأمريكية التي تمارس ضد خصومها، وهي سياسة تسميها واشنطن «عدم توازن يمكن التحكم فيه controlled imbalance «ولذلك فإن «إسرائيل» تريد استمرار الوضع بين حالة حرب على ألا تكون حربًا ساخنة وشاملة ومتواصلة وحالة تسمى بـ «السلام» لكنها لا تعني السلام حقًّا؛ إن حالة السلام الكامل تعني الذوبان في المنطقة أو على الأقل تآكل النسيج الاجتماعي الصهيوني، واستمرار حالة الحرب لا بد أن يقوض إسرائيل في النهاية، وتلاحظون أن إسرائيل لا تملك إلا جيشًا نظاميًّا صغيرًا وأنها تعتمد في بناء جيشها على قوات الاحتياط، وذلك يعني أن استمرار الحرب سيؤدي لإيقاف عجلة العمل والحياة.

س: اسمح لي يا دكتورا، من عام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٩٧ ساد في الثقافة العربية تعبير «الحالة النفسية» بيننا وبين اليهود، أن ثمة حاجزًا نفسيًّا، هل ما بيننا وبين اليهود حاجز نفسي، أم المسألة أعمق من هذا؟

ج: ابتداء لا يوجد أي مشكلة أو معركة بيني وبين اليهود، فالمعركة بيننا وبين الصهاينة، وقد كنت في الولايات المتحدة في أثناء توقيع معاهدة كامب ديفيد وحدثت هيستيريا إعلامية وقيل للجميع إنه تم اختراق الحاجز النفسي. أنا إنسان عقلاني، فقلت لنفسي ثمة احتمال أن المسألة كلها مجرد حاجز نفسي، وأن كل ما أومن به لم يكن نتيجة دراسة للواقع، وإنما نتيجة عُقَد نفسية. فنمت لمدة أسبوع ولكنني في أثناء نومي تذكَّرت مخيمات اللاجئين والمذابح التي دبرها الصهاينة والهجوم على البلاد العربية، فسألت نفسي مرة أخرى، هل يمكن أن تكون هذه الأحداث كلها نتيجة الحاجز النفسي، أم أنها جزء

من بنية استيطانية إحلالية عنصرية؟ حينئذ أدركت أن المسألة لا يمكن أن تكون نتيجة عقد نفسية، وأن ما بيننا وبين الصهاينة ليس مجرد حاجز نفسي فاستيقظت من نومي واستمررت في الحوار النقدي مع العدو الصهيوني.

س: هل التوسعية الصهيونية أمر عرضي يمكن أن يوقف بضغط من الولايات المتحدة، أم سمة جوهرية بنيوية؟

ج: أنا أذهب إلى أن التوسعية سمة جوهرية بنيوية؛ لأن الصهيونية نبتت في تربة إمبريالية غربية ترى أن العالم إن هو إلا مادة يغزوها الإنسان ويوظفها لصالحه. وعملية الغزو هذه عملية تستمر إلى ما لا نهاية، ذلك أن أهم مؤشر على التقدم هو الاستهلاك. وقد تعلم الإنسان الغربي أن التقدم لا نهائي، وأن المادة التي سيقوم بغزوها ثم استهلاكها هي الأخرى لا متناهية، وقد طرحت الصهيونية نفسها على أنها ستُقيم دولة الشعب اليهودي بأسره، وهو ما يعني أن عملية نقل السكان التي تنطوي عليها الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة يمكن أن تستمر إلى أن يتم نقل يهود العالم كلهم، كما يعني الشره المستمر للأراضي. وحدود هذه الأرض لم تُحدَّد ولم يتم الاتفاق بشأنها، كما أنها هي المصدر الأساسي لتدفُّق فائض القيمة على الكيان الاستيطاني (وبخاصة قبل عام ١٩٤٨)، وهي القاعدة التي سيؤسس عليها الجيب الاستيطاني، وكلما اتسعت هذه القاعدة ازداد تدفُّق فائض القيمة وازداد الجيب الصهيوني قوة.

س: ولذا هم يتحدثون عن التوسع من النيل إلى الفرات؟

ج: هذه عبارة خلافية، مضمونها مختلط مثل كثير من المصطلحات الصهيونية! وقد وردت العبارة في التوراة لتحديد حدود آرتس يسرائيل، لكن هناك عدة خرائط توراتية لآرتس يسرائيل، وقد ذاعت عبارة «من النيل إلى الفرات «بسبب توسعية المشروع الصهيوني. ويقال: إن هذه العبارة مكتوبة على الكنيست، وإن كانت الحكومة الإسرائيلية تنفي ذلك. ولكن هذا لا يهم ألبتة، فقد حدّد هرتزل منطقة الدولة اليهودية على أنها تمتد من نهر مصر إلى الفرات. وقد ردد الحاخام فيشمان (عضو الوكالة اليهودية)

هذا الشعار في ٩ تموز/ يوليه ١٩٤٧، في أثناء شهادته أمام لجنة التحقيق الخاصة التابعة للأمم المتحدة، فقال: «الأرض الموعودة تمتد من نهر النيل حتى الفرات، وتشمل أجزاء من سورية ولبنان». وهذا يوضح أن شعار «من النيل إلى الفرات» ليس مجرد فِرية عربية وليس نتاج العقلية التآمرية، وإنما هو جزء من التصور الصهيوني. ومع هذا، ينبغي على الدارس ألَّا يأخذ صيغة «من الفرات إلى النيل» هذه بجدية تامة، فهي لا تعدو أن تكون أحد الأحلام الصهيونية.

ومع ذلك، فعليه ألَّا يهمل أوهام العدو عن نفسه كليًّا؛ فهي تعطينا مؤشرات عن نيته وعن تصوره لحدود حركته. وعلى كلٍّ، فإن ما يهمنا في السياق الحالي ليس الحدود الجغرافية أو التاريخية الوهمية للدولة الصهيونية، وإنما الذهنية الصهيونية التوسعية نفسها. وقد يكون من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار الكلمات التي سجَّلها هرتزل في يومياته حين قال: «كلما زاد عدد المهاجرين اتسعت رقعة الأرض»؛ أي إنه لم يُعرِّف حدود الأرض، بشكل قاطع، وإنما آثر أن يحتفظ بحدود مطاطية تتغير بتغير القوة الذاتية الصهيونية، التي عرفها هو بتزايد عدد المهاجرين. ورؤية هرتزل هي الرؤية التي تبناها الصهاينة بعد ذلك.

وقد قال ديفيد بن جوريون في المقدمة التي كتَبها لتتصدر الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل عام ١٩٥٢: «إن دولة إسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل». وهو ما يؤكد أن التوسع الصهيوني في طليعة الأهداف التي تجاهر بها إسرائيل، حيث كانت حدود «الوضع الراهن»، بعد التوقيع على اتفاقيات الهدنة، تبقى في نظر بن جوريون أشبه بالحدود الانتقالية أو المؤقتة، ما دامت حدود الدولة لم تأت مطابقة لحدود الأمة المنشودة. فالخريطة التي رسمتها الصهيونية لمملكتها الموعودة ما زالت أوسع بكثير من المساحات التي تم احتلالها والاستيلاء عليها بقوة السلاح، وينتقد بن جوريون افتراض وجود حدود تاريخية وطبيعية ثابتة للدولة؛ فالحدود تتغير

وَفْق تغير الظروف والمراحل الزمنية المختلفة؛ ولذا لا بد من إعادة النظر في مصطلح «حدود طبيعية»، فهو يرى أن الظروف الطبيعية قد تجبر الدولة على إعادة النظر مرة أخرى في تعيين حدودها الطبيعية واستبدال حدود جديدة بها كلما دعت الضرورة. ومما يجدر ذكره أن الصهيونية عرفت تيارات مختلفة، ولكن قيادة المشروع الصهيوني تدور في إطار نوع من الإجماع الصهيوني الذي لا يختلف بشأن مبدأ التوسع نفسه وإنما بشأن وسيلته وشكله. ويبدو أن القيادة الصهيونية، منطلقة من تصورات سياسية شبيهة، آثرت عدم إعلان دستور للدولة الصهيونية حتى يترك المجال مفتوحًا أمام التوسع اللانهائي؛ ذلك لأن الدستور (الرسمي) يتطلب رسمًا دقيقًا للحدود.

س: ولكن، ما هي حدود نجاح الصهاينة في تحقيق مخططهم؟

ج :يقدم عضو الكنيست السابق الصحفي أوري أفنيري تفسيرًا ذكيًّا لمفهوم التوسعية الصهيونية فيقول: إن قيام الدولة العبرانية في الماضي والدولة الصهيونية في الحاضر، لم يكن يستند إلى قوتها الذاتية وإنما إلى ضعف الشعوب القاطنة في فلسطين (الكنعانيين في الماضي، والعرب في الحاضر). ثم يذكر أفنيري أن ما يدفع الصهاينة ويقرر حركتهم ليس الدافع العقائدي (الأخذ في الضمور)، أو شعارات مثل «من النيل إلى الفرات»، وإنما موازين القوى فحسب، ومِن ثم، فإن العقيدة الصهيونية ليست سوى مسوغ يتلو «خلق الحقائق الجديدة». وبناء على ذلك يتنبأ بأن التوسع الصهيوني لن يتوقف ما دام هناك فراغ بسبب الغياب العربي، ويتنبأ بأن هذا التوسع سيستمر حتى يتخطَّى حدود إسرائيل الكبرى نفسها إذا سنحت الفرصة؛ أي إن القوة الذاتية الصهيونية (لا الأوهام العقائدية) هي التي تحدد مدى التوسعية الصهيونية.

وأفنيري مُحق تمامًا فيما يقول، فبعد أن ضمت إسرائيل مناطق واسعة من الأراضي العربية عام ١٩٦٧، أصر بن جوريون على ضرورة أن تحتفظ إسرائيل بالأراضي التي ضمتها، ولكن بعد هزيمة ١٩٧٣ قال: إن حدود إسرائيل تمتد حتى نهير مصر «the brook of Egypt»، وأضاف أن هذا النهير يوجد في العريش،

فالشراهة الصهيونية تتسع وتضيق حسب القوة الذاتية العسكرية الصهيونية! وثمة خَلل أساسي في التوسعية الصهيونية، فالقاعدة السكانية لا يمكن أن تتسع بالقَدر نفسه الذي تتسع بها قاعدتها الجغرافية إن صح التعبير؛ ولذا فإن ضم الأراضي يعني أيضًا ضم عناصر عربية غير يهودية آخذة في التكاثر ولا سيما أن الدولة الصهيونية قد أخفقت في خلق الكثافة السكانية اليهودية التي يتم التوسع باسمها، وهو ما يخلق مشكلة سكانية للكيان الصهيوني ويشكل خطرًا على الطابع اليهودي للدولة الصهيونية؛ أي إن الاستعمار الصهيوني يفقد إحلاليته ويتحول إلى استعمار مبني على التفرقة العرقية (الأبارتهايد). ومعنى ذلك أنه ظهر تناقض عميق بين طابع الدولة الصهيونية الإحلالي وبين طابعها التوسعي.

وهذا أسقط الشرعية عن الشعب اليهودي وعن كل أُطروحات الشعب اليهودي بخصوص أرض الميعاد والأرض اليهودية، وهذا نتيجة عجز إسرائيل أمام المقاومة. وهذه الحقيقة نقلتها المؤسسات العسكرية لشارون وهي أنه لا يمكن الاستمرار في الحرب ضد الفلسطينيين في كل من غزة والضفة الغربية، خاصة في ظل وجود مشكلة ديموجرافية، ولا سيما لو استمرت غزة تحت الاحتلال وبها ملايين الفلسطينيين الذين يتكاثرون لا يمكن قمعهم ولا يمكن أن يصبحوا جزءًا من الدولة الصهيونية، وبناء على ذلك نصحوا شارون بضرورة الانسحاب من غزة.

س: مشروع «إسرائيل الكبرى» كما قلت كان أحد بنود الإجماع الصهيوني ولكنه ما زال يتردد على ألسنة العديد من القادة والـمـفـكـريـن الصهاينة. وحين قاد شارون الغزو الإسرائيلي ضد لبنان وقَف على إحدى الجبال قُرب بيروت وقال: لقد أصبحت حقول نفط الكويت أمامنا ولا تفصلنا عنها إلا صحراء خالية. فما هو مدى جدية مشروع «إسرائيل» الكبرى؟

ج: توجد حقًّا عبارات كثيرة وردت في هذا الاتجاه في الأدبيات والتصريحات الصهيونية، لكن يجب أن نعرف أن الصهاينة يتسمون بغباء تاريخي عميق، والدليل الأهم على هذا الغباء التاريخي هو قبولهم أن يؤسِّسوا

المشروع الصهيوني في فلسطين في قلب ووسط الأمة العربية والعالم الإسلامي بكل ما يعنيه ذلك من فتح بوابات صراع لا تنتهي، وأعتقد أن كثيرين من الصهاينة توصلوا إلى إدراك هذه الحقيقة بعد ٥٠ عامًا من الحرب المستمرة والتي تتزايد اتساعًا وعنفًا باستمرار. كانوا يتصورون أن بوسعهم دفع العرب إلى الصحراء وتحويل لبنان إلى عدة دويلات صغيرة: سُنية وشيعية ومارونية ثم الاستيلاء على دمشق... إلخ. لقد سقط الصهاينة صرْعَى التهويل الأسطوري، وهذا أمر متوقع؛ لأن أساس الحركة الصهيونية يقوم على تصور خاطئ وعلى قاعدة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». ولا أعتقد أنه يوجد أي صهيوني يتحدَّث عن حكاية النيل والفرات هذه، وإن كان لا يزال بعضهم يتحدث عن أرض الميعاد من النهر إلى البحر. وحينما ندرس مسيرة الصراع العربي - الصهيوني نرى أن «القوات الإسرائيلية» انسحبت من سيناء مع أنها، حسب التصور الديني اليهودي، مفعمة بالقداسة، وفي الوقت ذاته لا تزال إسرائيل مُتمسكة بمرتفعات بالجولان السورية مع أنها لم يرد لها ذكر في التراث الديني اليهودي. وهذا يعني أن القوة الذاتية -كما ذكرت- هي التي تقرّر التوسع أو الانكماش الصهيوني. وها هي القوات الإسرائيلية تنسحب من غزة. إن حلم «إسرائيل الكبرى» انتهى منذ عهد بعيد.

س: إذن فالحديث عن إمبراطورية إسرائيلية هو حديث فارغ من المعنى؟

ج: لا يمكن لإسرائيل أن تُمارس أكثر من الدور المحدد لها، وهو أنها قاعدة الاستعمار الغربي في المنطقة، ومن ثم فالاستعمار الغربي لن يسمح لها بالقيام بأكثر من هذا الدور، ولن تسمح أمريكا وأوربا لإسرائيل بالسيطرة على منابع النفط العربي أو على حركة التجارة والاقتصاد في المنطقة، فهما بطبيعة الحال أولي بذلك. يجب ألا ننسى أن تطوير الأسلحة الحديثة مسألة مكلِّفة إلى أقصى درجة، ولا تقدر عليها دولة صغيرة مثل الدولة الصهيونية. كما أنها ليست عندها الكثافة السكانية اللازمة لإنشاء إمبراطورية من النيل إلى الفرات، حين تطلق مثل هذه الشعارات فالهدف منها هو توليد الرعب في

أنفسنا، ليكسبوا الحرب من دون دخول المعركة، هي من قبيل الحرب النفسية. ويلاحظ أن إسرائيل حتى عام ١٩٦٧ كانت دولة استيطانية إحلالية، ثم توسعت وأصبحت دولة استيطانية من طابع الأبارتهايد (الفرقة اللونية)، وهي تحاول الآن العودة للنمط الإحلالي وهي تفعل ذلك بسبب تصاعد المقاومة.

س: ما هو التصور الصهيوني في الوقت الحاضر لمسألة التوسع؟

ج. أشرت في (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية) إلى أن المطروح راهنًا هو إسرائيل العظمى اقتصاديًّا بعد ما كان سائدًا مقولة إسرائيل الكبرى جغرافيًّا. والنظام العالمي الجديد يحاول تحقيق ذلك من خلال طرح مشروع الشرق الأوسط الكبير. إن ما يحدث راهنًا في العراق من محاولات اقتلاعها من عروبتها يرمي إلى تحويل المنطقة إلى دويلات متناثرة حتى يتسنَّى لإسرائيل قيادتها باعتبارها القوة الاقتصادية الكبرى. ولعل هذه النزعة تتضح بجلاء في تصريحات أدلى بها شمعون بيريز، حينما كان رئيس حزب العمل، بعد إبرام اتفاق أوسلو بقوله «إن العرب قد جربوا قيادة مصر لهم عبر أربعين عامًا الماضية، فليجربوا الآن قيادة إسرائيل. في توسيعها والاستيلاء على مزيد من الأراضي».

وهم يتصورون أن هذا يمكن تحقيقه من خلال النظام العالمي الجديد والعولمة وما يسمى الشرق الأوسط الجديد أو الكبير أو ما شابه من تسميات، ولكن ثمة مشاكل بالنسبة إلى الاقتصاد الإسرائيلي؛ فهو اقتصاد يعتمد إلى حدٍّ كبير على الدعم الأمريكي وعلى حماية الدولة، فهو في جوهره اقتصاد استيطاني لا يخضع لمعايير الجدوى الاقتصادية، وإنما لمعايير الجدوى الإيديولوجية. فتشييد المستوطنات في الضفة الغربية والطرق الجانبية والجدار الحاجز كلها جزء من اقتصاد عسكري يتطلب تدخل الدولة وإنفاقها وليس السوق الحر. إن المجتمع الإسرائيلي يعيش مثل المجتمعات الرأسمالية المتطورة وحسب أنماطها الاستهلاكية، ولكنه لم يعشْ في حالة سلام وثبات واستقرار مثلها، فهو يتعرَّض دائمًا لهزات مستمرة وفي حالة حرب دائمة، ويواجه مشكلة الوجود ذاتها؛ أي إنه يعيش مرحلة الإيديولوجيات بعكس المجتمعات الغربية.

(٤)
الدولة الوظيفية

س: في حديثك عن الموسوعة ذكرت أن مفهوم «الجماعة الوظيفية» مفهوم محوري ونموذج تحليلي أساسي، فما هي معالم وسمات هذا النموذج في تصورك؟

ج: الجماعة الوظيفية هي جماعة يستوردها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله ويوكل إليها وظيفة محددة. لا يمكن لأعضاء مجتمع الأغلبية القيام بها إما لأنها مشينة أو متميزة أو تتطلب تدريبًا معينًا غير متوفر لأعضاء الأغلبية، أو لأن الوظيفة ذات طابع أمني. ويتوارث أعضاء الجماعة الوظيفية الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبر الأجيال ويحتكرونها، بل يتوحدون بها، وفي نهاية الأمر يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم منها، وهي عملية يساعد عليها مجتمع الأغلبية؛ لأنه يُعرِّف عضو الجماعة الوظيفية من خلال وظيفته وحسب (لا من خلال إنسانيته الكاملة) وبذلك يصبح عضو الجماعة الوظيفية إنسانًا ذا بُعد واحد، يمكن اختزال إنسانيته في هذا البُعد وهو وظيفته.

س: وكيف تتم إدارة العلاقة بين المجتمع والجماعة الوظيفية؟

ج: يدخل المجتمع المضيف في علاقة تعاقدية نفعية حيادية مع أعضاء الجماعة الوظيفية، وهي علاقة يحوسل كل طرف فيها الطرف الآخر، وينظر إليه باعتباره وسيلة لا غاية؛ مجرد مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها؛ ولذا فهو يدخل معها في علاقة تعاقدية لا يشوبها أي تراحم، ثم يتم عزل أعضاء الجماعة الوظيفية (عن طريق الزي أو المسكن أو اللغة أو العقيدة أو الانتماء الإثني) حتى يصبح العنصر الوظيفي غريبًا متميزًا ويظل بلا قاعدة جماهيرية أو أساس للقوة، وفي حالة خوف دائم من الجماهير، لا يطمح في المشاركة في السلطة (وهذه ميزة كبيرة من منظور النخبة الحاكمة التي عادة ما

تستورد أو تجند أعضاء الجماعة الوظيفية)؛ ولذا، يتعمق ولاء أعضاء الجماعة الوظيفية للنخبة الحاكمة التي استوردته والتي تستخدمه أداة وتضمن بقاءه واستمراره، وغالبًا ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفيًّا بوطن أصلي (صهيون- الصين- القبيلة- العائلة)، ويصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشوبة، فينفصلون عن الزمان والمكان اللذين يعيشون فيهما، ويتطور لديهم إحساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي أو الشعب العضوي المنبوذ (pariah Volk، وهي هوية تكون في معظم الأحيان وهمية، فهم لا يعرفون معجمًا حضاريًّا سوى معجم المجتمع المضيف (الانفصال عن الزمان والمكان والإحساس بالهوية الوهمية).

ويتبنى طرفا العلاقة (أعضاء الجماعة الوظيفية والمجتمع المضيف) معاييرَ مزدوجة، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الآخر، باعتبار أن الآخر في هذه العلاقة يقع دائمًا خارج نطاق المحرمات والمطلقات الأخلاقية، ويحاول كل طرف أن يحقق منفعته ولذته مستخدمًا الآخر (ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية).

س: هل تتعامل مع الجماعات اليهودية باعتبارهم جماعات وظيفية؟

ج: نعم، وإن كان لا بد أن نشير إلى أن هذه الظاهرة مرتبطة أساسًا بالتشكيل الحضاري الغربي؛ فالعالم الغربي ينظر إلى اليهود لا باعتبارهم أقليات مختلفة، فيهم ما في البشر العاديين من الخير والشر، بل باعتبارهم كيانًا جماعيًّا واحدًا يسمى «اليهود» أو الشعب اليهودي، وهو شعب مختار ومقدس. ولكنه في الوقت ذاته جماعات من التجار أو المرابين والأفراد الذين يمكن توظيفهم طبقًا لاحتياجات الطبقة الحاكمة، أي إنهم باختصار جماعة وظيفية.

ولهذه الازدواجية تاريخ طويل، فالمفهوم الكاثوليكي لليهود يصنفهم باعتبارهم شعبًا شاهدًا، يقف في تدنيه وضعته «شاهدا» على عظمة الكنيسة، وهو ما يقتضي أن يحظَى اليهود بحماية الكنيسة الكاثوليكية، حتى إن الكنيسة كانت تحرم عمليات التنصير الإجباري. وفي الوقت نفسه، فإن بقاءهم في

ذلك الوضع المتدني الوضيع، هو دليل حي على انتصار الكنيسة الكاثوليكية.

وتتجلى الازدواجية نفسها في العقيدة الألفية الاسترجاعية البروتستانتية التي ترى أن عودة اليهود إلى أرض الميعاد هي شرط أساسي لعودة المسيح مرة أخرى إلى الأرض وتأسيس مملكته التي ستدوم ألف عام، ويتحقق من خلالها الخلاص النهائي. ولكن عودة اليهود هذه كان ينظر إليها أيضًا باعتبارها وسيلة لإبادة أغلبيتهم ثم تنصير من تبقى منهم، ومن ثم يصبح الخلاص النهائي هو ذاته التخلص النهائي من اليهود؛ كما طبعت هذه الازدواجية بطابعها المواقف العلمانية الغربية الحديثة من اليهود. فخلال القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، كان ينظر إلى اليهود في أوربا باعتبارهم شعبًا متفردًا موهوبًا يجيد الأعمال الشاقة، وشعبًا عضويًّا له هوية متفردة ويرتبط ارتباطًا عضويًّا بأرض الميعاد. ولكن هذه المقولة نفسها كانت تعني أنهم غير متجذرين في المجتمع الأوربي ولا ينتمون إليه تمامًا، وما دام الأمر كذلك فمن الضروري نقلهم إلى فلسطين لخدمة المصالح الغربية. إن الغرب ينظر إلى اليهود باعتبارهم أداة ووسيلة وليس غاية، ومن ثم من اليسير توظيفهم.

س: إلى أي مدى انطبقت سمات الجماعة الوظيفية على وضع اليهود في المجتمع الغربي؟

ج: نعم، في تصوري لا يمكن فهم وضع اليهود في الحضارة الغربية والتطورات اللاحقة إلا من خلال مفهوم الجماعة الوظيفية، وإدراك أن علاقة الجماعات اليهودية بالمجتمع الغربي تتسم بأنها علاقة نفعية تعاقدية لا تتسم بالتراحم، فقد نظر العالم الغربي إلى أعضاء الجماعات اليهودية منذ البداية باعتبارهم وظيفة تؤدَّى ودَوْرًا يُلْعَب وعُنصرًا موضوعيًّا مجردًا ومحايدًا، مجرد مادة بشرية، فكانوا يستجلبون ليؤدوا وظائف شتى من أهمها الوظائف المرتبطة بالأعمال المالية مثل التجارة والربا. ثم ضرب المجتمع الغربي عليهم العزلة، ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعي، فكان أعضاء الجماعات اليهودية يعيشون في جيتو خاص بهم على هامش المجتمع يرتدون أزياء خاصة

مقصورة عليهم ويؤمنون بعقيدة مختلفة عن عقيدة مجتمع الأغلبية، بل وكانوا -في حالة يهود البديشية- يتحدثون لغة مختلفة عن لغة المجتمع المضيف.

وقد أدى هذا إلى تزايد ابتعاد أعضاء الجماعات اليهودية عن جماهير المجتمع المضيف؛ أي إن أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية لم يكونوا مشاركين في السلطة (فهم مجرد أداة) يعيشون في عزلة عن الشعب (في مسام المجتمع لا في صميمه)، وهم موضع كرهه وسخطه.

لكل هذا، كان أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية يشعرون بالانتماء إلى وطن أصلي (صهيون) سيعودون إليه في آخر الأيام، وقد ترجم هذا نفسه إلى العقيدة المشيحانية (أي عودة المسيح المخلص اليهودي الذي سيقود شعبه إلى صهيون في آخر الأيام). هذه العقيدة أضعفت أواصر ارتباط أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية بالمكان والزمان اللذين يعيشون داخلهما (أوطانهم وتاريخها) باسم وطنهم الافتراضي الأصلي الذي نفوا منه، وهو أيضًا المكان الذي سيعودون إليه في المستقبل.

ويقابل الإحساس العميق بالغربة والعزلة والعجز والانفصال عن المكان تعمق إحساس عضو الجماعة الوظيفية اليهودية بهويته، فهي إحدى آليات العزل غير الواعية. ومع هذا، فإن الهوية هنا حالة عقلية إذ إن هوية عضو الجماعة الوظيفية اليهودية تتشكل داخل حدود المجتمع الذي يعيش فيه لا خارجه، ومن خلال تفاعله اليومي المتعين مع الخطاب الحضاري لا رغمًا عنه، وقد أدَّى كل هذا إلى ازدواجية المعايير، بمعنى أن عضو الجماعة الوظيفية اليهودية كان يتعامل مع أعضاء جماعته بمعايير أخلاقية، ومن منظور التراحم، أما مجتمع الأغلبية فيتعامل معها من منظور المنفعة المادية والتعاقد وحسب.

س: لكن لم تحول اليهود وحدهم إلى جماعة وظيفية، هل يوجد شيء ما في الكيان اليهودي جعلهم يتجهون هذه الوجهة؟

ج: هذا تفسير عنصري لا علاقة له بالواقع التاريخي، فهناك العشرات من الجماعات الوظيفية الأخرى من غير اليهود. الكوهارسين واللومبارد

وفرسان المعبد وهي جماعات مسيحية، أدت دور الجماعات الوظيفية المالية في العصور الوسطى في الغرب، المماليك في مصر، على سبيل المثال، جماعة وظيفية تستورد من خارج الوطن ثم يدرب أعضاؤها على الحرب وتصبح جماعة عسكرية شبه مستقلة وظيفتها الأساسية الوحيدة هي الحرب. الإنكشارية في الدولة العثمانية يؤدون الوظيفة نفسها ويقومون بالدور نفسه. الصينيون في جنوب شرق آسيا هم أيضًا جماعات وظيفية تقوم بالتجارة وأعمال الربا.

س: تذهب إلى أن الجماعة الوظيفية محط كره الجماهير، فهل هذا له علاقة بظاهرة العداء لليهود؟

ج: نعم معظم الجماعات اليهودية كانت تشكل جماعات وظيفية قتالية وتجارية في المجتمعات القديمة، وكذلك في المجتمع الغربي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر. وكما أسلفت كانت الجماعات الوظيفية تتكون دائمًا من عناصر بشرية غريبة عن المجتمع حتى يمكنها أن تضطلع بوظائف كريهة أو مشبوهة أو متميزة تتطلب الموضوعية والحياد وعدم الانتماء، وعادة ما يحقق أعضاء الجماعة الوظيفية ثروات ضخمة تجعلهم موضع حقدٍ من أعضاء الأغلبية.

ولكن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة، على غربتهم وتميزهم، كانوا يجدون أنفسهم في قلب الصراعات المختلفة في المجتمع، ولا سيما الصراعات الناشبة بين أعضاء النخبة الحاكمة وبين الطبقات الأخرى للمجتمع، خصوصًا الطبقات الشعبية، إذ إن قطاعات من النخبة الحاكمة كانت تستخدم أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة لضرب بعض طبقات المجتمع لاستغلالها أو كبح جماحها، فأعضاء الجماعة هم سوط في يد الحاكم، أو هكذا كان يراهم المحكومون، ولكنهم أيضًا كبش الفداء الذي يتم التخلُّص منه عند الحاجة أمام الهجمات الشعبية؛ فالأداة ليست غاية في ذاتها.

ولأضرب مثلًا بالصينيين في إندونسيا والهنود في جنوب إفريقيا، ويهود اليديشية في أوكرانيا حينما كانت تابعة لبولندا. فالنخبة الحاكمة كانت هولندية مسيحية في إندونيسيا، إنجليزية مسيحية في جنوب إفريقيا، بولندية كاثوليكية

في بولندا. وكانت الجماهير إندونيسية (جاوية) مسلمة أو وثنية في إندونيسيا، سوداء وثنية في جنوب إفريقية، وأوكرانيا أرثوذكسية في أوكرانيا، أما الجماعة الوظيفية الوسيطة التجارية، فكانت صينية كونفوشية في إندونيسيا، هندية (هندوكية أو مسيحية أو مسلمة) في جنوب إفريقيا، يهودية في أوكرانيا. كما كانت تفصل الجماعة الوظيفية الوسيطة عن النخبة وعن الجماهير عدة سمات أخرى (لغوية وثقافية). وحينما يصل التدرج إلى هذه الدرجة من التبلور، وحينما تدعم الاختلافات الدينية والثقافية والعِرْقية الاختلافات الطبقية، تصبح التربة مهيأة لانفجارات اجتماعية هائلة ذات أبعاد عرقية.

ومع أن الهجمات على الجماعات اليهودية (الوظيفية) في الغرب تُعَد هجمات عنصرية، لكن يجب ألَّا نهمل الجانب الشعبي فيها وأنها تمثل جزءًا من تمرد الجماهير على عملية الاستغلال، وإن كان تمردًا قصير النظر، كما هو الحال عادة مع الهبَّات الشعبوية، ولم تكن هذه الثورات ثمرة إدراك عميق لآليات الاستغلال؛ ولذا اقتصرت على تحطيم الأداة الواضحة أمامهم والمباحة لهم. ويقابل الهجمات الشعبوية ضد أعضاء الجماعات اليهودية الانفجارات المشيحانية بينهم، فهي انفجارات تعبِّر عن ضيق قطاعات أعضاء الجماعات اليهودية بوضعهم الاقتصادي والوظيفي والنفسي.

س: ما علاقة هذا كله بالصهيونية؟

ج. المسألة اليهودية في جوهرها هي مشكلة الجماعة الوظيفية التي أصبحت بلا وظيفة. وقد حدث ذلك مع ظهور الدولة القومية المركزية والرأسمالية المحلية والنظام المصرفي الدولي، الأمر الذي جعل التجار والمرابين اليهود لا وظيفةَ لهم. وأعضاء الجماعة الوظيفية التي لا وظيفة لها تشكل عبئًا حقيقيًا على المجتمع؛ ولذا يحاول المجتمع التخلص منهم إما بإبادتهم، كما فعل محمد على مع المماليك، وكما فعل هتلر مع معظم ما تصور أنهم عناصر تشكل عبئًا على المجتمع الألماني، مثل الغجر واليهود، وكلاهما كانا من الجماعات الوظيفية. كما توجد طرق أخرى أكثر إنسانية وتحضرًا

للتخلص من أعضاء الجماعات الوظيفية مثل دمجها في المجتمع عن طريق إتاحة فرص جديدة أمامها أو طردها ونقلها لمكان آخر. والصهيونية تدور في الإطار نفسه؛ فالحل الصهيوني يفترض أن الجماعات اليهودية عنصر حركي عضوي مستقل بذاته غير متجذِّر في الحضارة الغربية، يستحق البقاء داخلها إن كان نافعًا يؤدي الوظيفة الموكلة إليه، فإن انتهى هذا النفع وجب التخلص منه (عن طريق نقله خارجها)، والواقع أن عملية النقل تحل المشكلة لأنها تتضمن خلق وظيفة جديدة له. وقد أدرك الفكر الصهيوني بين اليهود (بشكل جنيني) وضع الجماعات اليهودية باعتبارها جماعة وظيفية، فأشار هرتزل وبنسكر إلى اليهود بوصفهم أشباحًا وطفيليين، ووصفهم نوردو (وهتلر من بعده) بأنهم مثل البكتيريا، وكل هذه الصور المجازية هي محاولة لوصف هذا الكيان الذي يوجد في المجتمع دون أن يكون منه، يتحرك فيه دون أن يضرب فيه جذورًا، وهو كيان هام وأساسي لإتمام كثير من العمليات دون أن يكون جزءًا من الجسم الاجتماعي نفسه، وحديث هرتزل عن اليهود باعتبارهم «أقلية أزلية»، لا يخرج عن هذا النطاق.

وقد قررت أوربا حل المسألة اليهودية من خلال الإطار الإدراكي الوحيد المتاح لها وهو الإطار الإمبريالي؛ أي حل مشاكل أوربا الاقتصادية والاجتماعية كلها عن طريق تصديرها إلى الشرق بشكل يدفع الشرق فيه فواتير التقدم الغربي، ومن ثَم تقرر تصدير أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية التي لا وظيفة لها («الفائض البشري» كما كان يشار إليهم) إلى الشرقِ. ولكن ما حدث في حالة اليهود هو إعادة إنتاج لنمط الجماعة الوظيفية، لإنشاء دول يهودية وظيفية تضطلع بدور القتال دفاعًا عن المصالح الغربية نظير أن يضمن الغرب بقاءها واستمرارها ونجاحها، هذه الدولة هي الدولة الصهيونية؛ ولذا استخدمت النموذج (الجماعة الوظيفية والدولة الوظيفية) في تحليل تاريخ الجماعات اليهودية، ووضعها، وانتماءاتها الثقافية، كما درست الدولة الصهيونية باعتبارها دولة وظيفية، استيطانية، إحلالية.

س: أفهم مما قلت أن وظيفة الدولة الصهيونية أصبحت هي جوهر الإجماع الصهيوني، فهل لك أن تشرح لنا مفهوم الدولة الوظيفية، وأهم وظائفها؟

ج. الجماعة الوظيفية - كما أسلفنا- هي جماعة يوكل إليها المجتمع وظيفة محددة ويعرفها في ضوء هذه الوظيفة ويدخل معها في علاقة تعاقدية، بمعنى أنها تؤدي وظيفة ما نظير أجر محدد، فثمة تبادل للنفع؛ ولذا فالعلاقة علاقة تعاقدية. فإن لم تعُد الجماعة الوظيفية نافعة فإنها تفقد وظيفتها ولا بد من التخلُّص منها لأنها تصبح عبئًا على المجتمع، وهذا ما حدث للجماعات الوظيفية اليهودية في الغرب إذ أصبحت عبئًا على المجتمعات الغربية فقرر الغرب أن يتخلص منها من خلال إعادة إنتاجها على هيئة دولة وظيفية لها سمات الجماعات الوظيفية نفسها، تقريبًا، فعلاقتها مع العالم الغربي علاقة تعاقدية؛ فهو الذي قام بنقل بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين ليؤسسوا دولة صهيونية سموها يهودية، وهو من ضمن بقاءها واستمرارها، وقدم لها الدعم السياسي والمالي والإعلامي على أن تقوم هذه الدولة على خدمة مصالحه.

وعلى هذه الدولة الوظيفية أن تقوم ببعض الأعمال المشينة والوظائف المشبوهة التي لا يمكن للدول الغربية الليبرالية الديمقراطية أن تقوم بها حفاظًا على صورتها الإعلامية، فيوكل المهمة إلى الدولة الصهيونية. ومن هذه الوظائف -على سبيل المثال لا الحصر - تزويد دول أمريكا اللاتينية الفاشية بالسلاح، والتعاون مع النظام العنصري في جنوب إفريقيا في كثير من المجالات بما في ذلك السلاح النووي، والقيام ببعض أعمال المخابرات والتجسس، والسماح للولايات المتحدة بإنشاء إذاعة موجهة فيها للاتحاد السوفييتي (سابقًا)، كما تقوم الدولة الصهيونية بتوفير الجو الملائم والتسهيلات اللازمة للترفيه عن الجنود الأمريكيين. ويبدو أن الدولة الصهيونية الآن أصبحت مصدرًا لكثير من المرتزقة في العالم، كما يبدو أنها بدأت في تصدير البغايا لبلدان غربية مثل هولندا (أمستردام) وألمانيا (فرانكفورت).

ولكن أهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق هي الوظيفة القتالية

(لا التجارية أو المالية)، فعائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد استراتيجي والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال: القتال في نظير المال. وفيما عدا ذلك، فإنها ديباجات اعتذارية وتفاصيل فرعية.

س: هل تم استخدام مصطلح الدولة الوظيفية من قبل؟

ج: حسب معلوماتي لا أعتقد، ولكن المفهوم كان كامنًا في كثير من التصريحات فعلى سبيل المثال، صرح ماكس نوردو في خطاب له في لندن (في ١٦ حزيران/ يونيو ١٩٢٠) بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بلدًا تحت وصاية بريطانية العظمي، وأن اليهود سيقفون حراسًا على طول الطريق الذي تحف به المخاطر ويمتد عبر الشرقين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند، وكان حاييم وايزمان كثير الإلحاح في تأكيد الأهمية الاستراتيجية (لا الاقتصادية) للجيب الاستيطاني الصهيوني الذي سيشكل، حسب رأيه «بلجيكة آسيوية»، أي خط دفاع أول لإنجلترا ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس. وقد عرض ناحوم جولدمان القضية بشكل دقيق للغاية ١٩٤٧ في خطاب له ألقاه في مونتريال بكندة وقال فيه: «إن الدولة الصهيونية سوف تؤسس في فلسطين، لا لاعتبارات دينية أو اقتصادية، بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق بين أوربا وإفريقية، ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية والمركز العسكري الاستراتيجي للسيطرة على العالم». معنى هذا أن الدولة الصهيونية لن تنتج سلعًا بعينها ولن تقدم فرصًا للاستثمار أو سوقًا لتصريف السلع أو مصدرًا للمواد الخام والمحاصيل الزراعية، وإنما سيتم تأسيسها لأنها ستقدم شيئًا مختلفًا ومغايرًا وثمينًا؛ دورًا استراتيجية يؤمن سيطرة الغرب على العالم، وهو دور سيكون له مردود اقتصادي دون شك، ولكن غير مباشر.

وفي الستينيات لاحظت المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية «ماتزبن»؛ أي البوصلة، في تحليل لها عن وضع إسرائيل، أن الدور الذي تضطلع به الدولة الصهيونية لم يطرأ عليه أي تغيير، فهي لا تزال تشكل قاعدة لقوة عسكرية يمكن الاعتماد عليها، قوة موجهة ضد العرب لخدمة المصالح الإمبريالية الاستراتيجية.

وقد بين ب. سبير (في عل هامشهار بتاريخ ٢٩ نيسان/ إبريل ١٩٨٦) أن إسرائيل قد جعلت من جيشها الذراع المستقبلية المحتملة للولايات المتحدة؛ فهي خدمة حربية كامنة جاهزة على أُهبة الاستعداد لتأدية الخدمات في أي وقت.

س: ألهذا استخدمت تعبير الدولة المملوكية لوصف الدولة؟

ج: المماليك كانوا جماعة وظيفية، كان يستوردها سلاطين مصر وتوكل إليهم وظيفة قتالية، فلم يكن لهم عائد اقتصادي، وإنما هم خدم السلطان في كبح الجماهير وفي الدفاع عن الحدود، فقد كانوا قوة الأمن الداخلية والخارجية. ولا يتوقع أحد من هذه القوات عائدًا اقتصاديًا. والفارق طبعًا بين المماليك والصهاينة، أن المماليك لم يغتصبوا الأرض ولم يطردوا سكانها. هم استغلوا السكان لصالح السلاطين في بداية الأمر، ثم لصالح طبقتهم، ولكنهم اندمجوا في الإطار الحضاري للمجتمع، كما أنهم دافعوا عنه وصدوا هجمات الصليبيين والمغول.

س: بحساب المكسب والخسارة، هل عائد إسرائيل الدولة الوظيفية يتناسب وحجم الدعم المقدَّم لها من الغرب؟

ج: الدولة الوظيفية الصهيونية لا تقوم -مثل الجماعة الوظيفية اليهودية- بتحصيل الضرائب مباشرة، ولكنها مع هذا تحقق ريعًا عاليًا للدولة الراعية؛ لأنها تقوم بضرب النظم القومية العربية التي تحاول رفع سعر المواد الخام أو التحكم في بيعها، أو التي تختط طريقًا تنمويًا مستقلًا، أو تتبنى سياسة داخلية وخارجية تهدِّد المصالح الغربية بالخطر. أما الضريبة التي يدفعها أعضاء الدولة الوظيفية الصهيونية؛ فهي حالة الحرب الدائمة التي يعيشونها بسبب الدور الذي يضطلعون به.

س: هل أدرك الصهاينة ما تسميه وظيفية الدولة الصهيونية؟

ج: هم لم يدركوه وحسب، وإنما دافعوا عنه وروجوا له، لقد أدرك الصهاينة وظيفية الدولة كما أدركوا أنه كلما زاد ما يحققونه من ربح لراعيهم من خلال أداءهم لمهام وظيفتهم زادت فرص استمرار الدعم وفرص البقاء،

ومن هنا كان تأكيدهم المستمر وإلحاحهم الدائم على الجدوى الاقتصادية التي يؤديها التجمع الصهيوني وعلى مقدار النفع الذي سيعود على الراعي والممول الإمبريالي. وقد كتب وايزمان لتشرشل قائلًا: «إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تبديدًا للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي نعطيه لك بسعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخره. وأفاض وايزمان في شرح وجهة نظره، مبينًا أن الاستعمار البريطاني، بتأييده للمنظمة الصهيونية، قد وضع ثقته في مجموعة مُستعدة أن تتحمل قدرًا كبيرًا من المسئولية المادية عن الاستعمار. وإذا تبين أن تكاليف الحامية البريطانية ستكون مرتفعة، عندئذ يمكن تنظيم والمستعمرين اليهود وتسليحهم. ثم يتساءل وايزمان بشيء من الخطابية وبكثير من التوتر: «هل نمت أي عملية استعمارية أخرى تحت ظروف مواتية أكثر من هذه: أن تجد الحكومة البريطانية أمامها منظمة لها دخل كبير وعلى استعداد لأن تضطلع بجزء من مسئولياتها التي تكلفها كثيرًا؟».

س: هل استمر هذا الإدراك حتى وقتنا الحاضر؟

ج: نعم، وفي تصريحات يعقوب ميريدور نجده يركز على مدى رخص المشروع الصهيوني وانخفاض ثمنه. ففي حديث إذاعي ذكر أن إسرائيل تحل محل عشرة من حاملات الطائرات، ثم قدم الوزير الإسرائيلي كشف حساب بسيط جاء فيه أن تكلفة بناء الحاملات العشرة هذه تبلغ ٥٠ بليون دولار. ثم أضاف الوزير، وهو الخبير بالأمور الاقتصادية، أنه لو دفعت الولايات المتحدة فائدة قدرها ١٠٪ على تكاليف تشييد هذه الحاملات (وقد كان الوزير متسامحًا مع الولايات المتحدة إذ إنه لم يذكر تكلفة الجنود الذين ستحملهم حاملات الطائرات، أو الحرج السياسي الذي سيسببه وجود مثل هذه القوات)، لو دفعت الولايات المتحدة مثل هذه الفائدة لبلغت خمسة بلايين دولار. وحيث إن المعونة الأمريكية لا تصل بأي حال إلى هذا القدر، فقد اختتم ميريدور حديثه بملحوظة فكاهية ولكنها في الوقت ذاته بالغة الدلالة، إذ قال: «أين إذن بقية المبلغ؟».

هذا هو المفهوم الغربي لإسرائيل، فالمدافعون عنها في الولايات المتحدة لا يلجئون أبدًا إلى الحديث عن المعالم الاقتصادية الثانوية أو المغانم الاقتصادية التافهة، وإنما يشيرون دائمًا إلى الحليف الذي يمكن التعويل عليه، وإلى المغانم الاستراتيجية الأساسية الشاملة الهائلة. وقد عبرت مجلة الإيكونومست (في ٢٠ تموز/ يولية ١٩٨٥) عن موقف هؤلاء بقولها: إذا كان من الممكن لأمريكا أن تدفع ٣٠ بليون دولار كل عام ضمن تكاليف حلف الأطلنطي (لتحقيق أهداف استراتيجية)، فإن من المؤكد أن إسرائيل، وهي المخفر الأمامي والقاعدة المحتملة، تستحق مبلغًا تافهًا نحو ٤ بلايين دولار (ولكن ثمة طريقة أخرى للحساب تصل بالمبلغ إلى عشرة بلايين!).

س: هل حققت الدولة الوظيفية وظيفتها؟

ج: الدولة الوظيفية دولة مغروسة في المنطقة للهيمنة عليها ولكن المقاومة الفلسطينية والمقاومة الشعبية العربية أوقفت تمددها وزحفها. وأدرك الجميع -بما في ذلك قطاعات كبيرة في العالم الغربي- أن هذه الدولة تقف ضد التحديث وضد التنمية في العالم العربي، وأن وظيفتها هي أن تفتت المنطقة وتوقف التاريخ العربي، كما ثبت أنه لا يمكن التصالح مع هذه الدولة الوظيفية فهي لا تنتمي إلى المنطقة، علاوة على إصرارها على القوانين العنصرية التي تزيد من عزلتها. وهي لا يمكن أن تكون مثلًا يُحتذى لسبب بسيط أنها مدعومة اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا من الولايات المتحدة؛ ولذا أعتقد أن دور المقاومة العربية -وهو ما تقوم به- هو جعل الدولة الوظيفية مكلِّفة، ومن ثم بدلًا من أن تكون كنزًا استراتيجيًّا ستصبح عبئًا استراتيجيًّا.

س: أنت هنا تعود وتؤكد أن أصل الصراع هو صراع مع الإمبريالية وقوى الاستعمار العالمي التي تمد الكيان الصهيوني بمقومات البقاء؛ ولذا يجب أولًا أن يقتنعوا بأن المشروع غير مربح ولا يحمي مصالحهم، بل إن وجوده يتناقض مع هذه المصالح؟

ج. أتفق معك فيما تقولين، فهم يتصورون في الغرب أن «إسرائيل»

استثمار استراتيجي جيد ولذا علينا إقناعهم بأن هذا الاستثمار الاستراتيجي رديء وتكلفته عالية، وهذا بالضبط ما حدث في حالة الجزائر، فقد جاء ديجول إلى السلطة وهو يحمل راية حماية المستوطنين الفرنسيين وانتهى به الأمر أن صفي الجيب الاستيطاني في الجزائر. الدول الكبرى تقيس الأمور كلها بمقياس المصلحة الاستراتيجية، والمشكلة أن العرب لم يتحاوروا مع أمريكا حتى الآن من هذا المنظور، فمن المفارقات اللافتة للنظر أن معدل دعم الولايات المتحدة الأمريكية للدولة الصهيونية كان يتزايد باستمرار خلال الأعوام الأربعين الماضية، لكن ذلك ترافق مع تزايد حجم التجارة مع العالم العربي كما تزايدت الاستثمارات الأمريكية في المنطقة، وتزايدت رءوس الأموال العربية المودعة في البنوك الأمريكية، وانتهى الأمر بخضوع معظم الحكومات العربية للهيمنة الأمريكية. وكان من المفروض أن يؤدي تزايد الدعم الأمريكي للدولة الصهيونية إلى تراجع العلاقات الاقتصادية والسياسية مع الولايات المتحدة الأمريكية، وأن تشعر الولايات المتحدة الأمريكية بخسارة حقيقية في مصالحها تتناسب مع تزايد دعمها لإسرائيل، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل حدث عكس ذلك مما أغرى واشنطن بالتمادي في دعم إسرائيل، طالما أن ذلك لا ينعكس سلبًا على مصالحها في المنطقة، بل يؤدي إلى تزايد هيمنتها عليها وتعزيز مصالحها فيها.

س: بعض الأنظمة العربية تسوغ نمو علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية بسعيها لتكون أكثر فائدة لأمريكا من إسرائيل، وبديلًا من الكيان الصهيوني في حماية المصالح الأمريكية على أمل أن يساهم ذلك في تراجع مكانة إسرائيل لديها وتراجع دعمها الهائل لها، ما رأيكم في هذه المسوغات؟

ج: من طبيعة الدول الوظيفية التي تؤسس لخدمة مصالح إمبريالية محددة أن تكون صغيرة لكي يسهل التحكم فيها ورشوتها، أما بالنسبة إلى بلد مثل مصر، على سبيل المثال، فالأمر جد مختلف. فإن تم رشوتها وإعطاؤها معونات كافية لتقف على قدميها فإنها حينئذ ستشعر بمكانتها

وبأهمية دورها، وتبدأ تفكر مرة أخرى في التنمية المستقلة وفي توحيد المنطقة وقيادتها، مما يشكل خطورة على المصالح الغربية كما حددتها النخب الحاكمة فيه. كذلك هناك نخب ثقافية في مصر تدرك طبيعة المشروع الإمبريالي الأمريكي، وجماعات من الرأسماليين الوطنيين الذين يدركون حجم التهديد الأمريكي والصهيوني لوجودهم واستثماراتهم. هذه النخب، إن وقفت مصر على قدميها، ستتكاتف وستتصدى لمحاولات الهيمنة الأمريكية، التي تهدف إلى الإبقاء على حالة التجزئة في العالم العربي، وإلى تقسيم ما هو مقسَّم؛ ولذا فإن السياسة الأمريكية مع مصر تقوم على قاعدة ألا تسقط مصر تمامًا، وفي الوقت ذاته ألا تقف على قدميها وأن تظل جاثية على ركبتيها.

وما أشرت إليه في سؤالك كان استراتيجية الرئيس السادات، رحمه الله، وهو أن تكون مصر الدولة الوظيفية للولايات المتحدة في المنطقة بدلًا من إسرائيل، وتقود من ثم المنطقة كلها لصالح أمريكا. لكن ما لم يُدركه الرئيس السادات أن هذه القضية نوقشت في بداية القرن العشرين وتوصلوا إلى أن هذا السيناريو غير قابل للتطبيق؛ لأن الدول الوظيفية لا بد أن تكون دولة صغيرة ومنعزلة عن محيطها حتى يمكنها أن تقوم بوظيفتها فتضرب الدول والحركات التي تتصدى للهيمنة الأمريكية، وتضمن تدفُّق البضائع ورءوس الأموال الأمريكية إلى المنطقة وتدفق البترول منها. ومن ثم لا بد أن تكون هذه الدولة «يهودية»؛ فيهوديتها ستشكل أساس عزلتها وأساس رؤيتها العنصرية التي ستجعلها في حالة صراع بنيوي دائم مع جيرانها، أما لو كانت هذه الدولة دولة عربية لدخلت في المجال العربي ولتحددت توجهاتها من خلال الحركيات العامة للتاريخ العربي الحديث، إن الدولة الصهيونية في عزلتها وفي وظيفيتها تذكرني بطبقة المماليك، فقد كان المماليك يشكلون طبقة عسكرية مرتزقة وكانوا يتحدثون باللغة الشركسية، وكانت وظيفتهم هي الدفاع عن السلطان إلى أن استولوا هم أنفسهم على الحكم. ولا يمكن تفسير استمرار وجودهم في العالم العربي مئات السنين مع محافظتهم على

اللغة الشركسية إلا برغبتهم في استمرار عزلتهم عن الجماهير، فعزلتهم هذه تجعلهم قادرين على ضرب الجماهير دون إحساس بالذنب. وأعتقد أن إسرائيل تتحدث العبرية لهذا السبب، فهي شبيهة بالشركسية بالنسبة إلى المماليك. وهي تقوم بدور الدولة الوظيفية المرتزقة لصالح السلطان الأمريكي. نخلص من كل ما سبق أن المراهنات الرسمية العربية التي أشرت إليها في سؤالك خاطئة وأن القضية ليست في أن تحل دولة محل دولة أخرى، وإنما في حيثيات تاريخية ومواصفات محددة لهذا الدور الوظيفي.

س: أمريكا تتحدث الآن عن استقرار المنطقة والديمقراطية وبداية عصر جديد، فماذا سيكون دور إسرائيل؟

ج: بداية، أمريكا لا ترى أن الاستقرار في العالم العربي يخدم مصالحها. ومصطلح «عدم الاستقرار المحكوم controlled imbalance يلخص السياسة الأمريكية في المنطقة، وقد ظهر مؤخرًا مصطلح «الفوضى البناءة» constructive chaos فهذا الوضع هو الأفضل بالنسبة إليها، وإسرائيل هي وسيلتها لعدم الاستقرار. ومع تزايد رغبة أمريكا في القضاء على أي قوى محلية ذات نزعات استقلالية ومنعها من أن تحرز نفوذًا حقيقيًّا تزداد حاجتها إلى إسرائيل، وكذلك مع تزايد خوفها من منافسة قوى دولية أخرى لها على السيطرة على المنطقة العربية تزداد حاجتها إلى إسرائيل. ومنذ القرن التاسع عشر، ذهب الغرب إلى أن عليه إبقاء آسيا وإفريقيا، بما في ذلك المنطقة العربية، بطبيعة الحال، مصدرًا للمواد الخام الرخيصة ومجالًا خصبًا للاستثمارات وسوقًا للسلع وقاعدة استراتيجية له. وهذه العوامل مجتمعة تجعله مهتمًّا بالسيطرة على المنطقة. وتتأسس هذه الرؤية على مقولات تشبه المقولات الصهيونية فهو دائم الحديث عن ملء الفراغ في هذه المنطقة الحساسة من العالم وكأن المنطقة أرض بلا شعب، وقد قام بتقسيم المنطقة في اتفاقية سايكس بيكو بعد الحرب العالمية الأولى، وهو الآن يود تفتيتها ليقسِّم ما هو مقسَّم ويجزِّئ ما هو مجزَّأ؛ لأن الحفاظ على وضع التجزئة والتمزق

وظهور دويلات لا يربطها رابط يخدم مصلحة الغرب كما يدركها هو. وبدءًا من ضرب محمد علي الذي أوشك أن يملأ الفراغ، إلى إنشاء الكيان الصهيوني يرى الغرب ضرورة دعم مشروع استيطاني يخدم مصالحه.

س: هل من علاقة ما بين ما يحدث في العراق الآن وبين الكيان الصهيوني؟

ج: هناك عناصر مشتركة كثيرة. إن عوامل استمرار ونجاح إسرائيل ووجودها دولة وظيفية يستند إلى الدعم الأمريكي تمامًا مثل الحكومة العميلة في العراق؛ فكلاهما جيب وظيفي كما أن استمرارهما يستند إلى الضعف العربي بشكل مباشر، البقعة المضيئة في عالمنا العربي اليوم هي الانتفاضة، وأنا دائمًا أُشير إلى الشعب الفلسطيني بكلمة «النبيل»؛ لأنه فعلًا يُدافع عن شرف الأمة، وهو الوحيد المستمر في ظل عدم اكتراث الحكومات العربية، وقد انضم إليه الشعب العراقي بمقاومته النبيلة. وقد قامت الولايات المتحدة بغزو العراق لفرض هيمنتها، ولكن مقاومة الشعبين الفلسطيني والعراقي ستقوض من هذه الهيمنة من خلال جعل الجيبين الوظيفيين مكلفين، ويجب أن تضيف أن انسحاب أمريكا من العراق من الضخامة من حيث الأثر لدرجة أنها قد لا تقدر على ذلك؛ لأن نتائجه ستكون مخيفة بالنسبة إليها. كل الحلم الإمبراطوري سوف ينتهي، وسيؤثر هذا على إسرائيل التي عاشت دومًا في داخل إطار الحرب، (الحرب الباردة، الحرب على الإرهاب)، فإذا انكمشت الولايات المتحدة الأمريكية وطورت سياسة خارجية جديدة غير مبنية على التدخل في شئون الآخرين ومحاولة الهيمنة على العالم، فإن إسرائيل سوف تجد نفسها في أزمة حقيقية، فأهم مقومات وجودها ستتلاشى.

س: تحاول دائمًا الوصول إلى النموذج الكامن في خطاب ما من خلال تحليل الصور المجازية، فهل ثمة صور مجازية في الخطاب الصهيوني والغربي تكشف وظيفية الدولة الصهيونية واعتمادها على الغرب؟

ج: لعل أول الصور المجازية التي كشفت هذا الجانب في المشروع الصهيوني هو تصريح هرتزل بأن الصهاينة سيقيمون في آسيا جزءًا من

حائط لحماية أوربا، يكون عبارة عن حصن منيع للحضارة (الغربية) في وجه الهمجية.ومن الصور المجازية المتواترة الأخرى، صورة إسرائيل باعتبارها كلب حراسة. فقد وصف البروفسور يشعياهو ليبوفيتس في حديث له في صحيفة لوموند بتاريخ ٨ آذار/ مارس ١٩٧٤ إسرائيل بأنها «عميل للولايات المتحدة» ووصف الإسرائيليين بأنهم «كلاب حراسة للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا على القيام بهذه المهمة»، وقد طور الصحفي الإسرائيلي عاموس كينان هذه الاستعارة المثيرة من عالم الحيوان وجعلها أكثر حدة وإثارة إذ وصف إسرائيل بأنها «كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس»، وهي كلب حراسة قوي لكنه يحتاج إلى حماية.

س: ولكن هذه الصورة المجازية شائعة وعامة ولا تتسم بأي خصوصية، كما أنها لا تلائم العصر الحديث؟

ج. أتفق معكِ، وثمة صورة مجازية أخرى كثيرًا ما تستخدم في وصف وظيفية إسرائيل تتفق مع روح العصر في أواخر القرن العشرين، وهي صورة الدولة الصهيونية باعتبارها حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة، في موقع استراتيجي فريد قريب من الاتحاد السوفييتي، وقريب من أوربا الشرقية، وقريب من حقول النفط، ولا شك أن صورة «الحاملة» أكثر دقة ودلالة من سابقاتها؛ لأنها لا تتحدث عن دور الدولة الصهيونية أو وظيفتها بشكل عام، وإنما تعرف -وبدقة بالغة- طبيعتها الاستراتيجية دولة عميلة توجد في منطقة حدودية قريبة من الاتحاد السوفييتي (سابقًا) وأوربا الشرقية وحقول النفط، وليس لها عائد اقتصادي مباشر. وتؤكد الصورة حركية هذه الدولة النافعة الثمينة وإمكانية نقل جنودها من مكان حدودي إلى مكان حدودي آخر، ولكنها أي الصورة، تظهر في الوقت ذاته أيضًا أنه يمكن الاستغناء عنها، فالأجزاء الآلية الحركية ليست عضوية ولا ثابتة. كما تنفي الصورة عن إسرائيل أي دور اقتصادي مباشر. ولعل الاتفاق الاستراتيجي

الذي تم توقيعه بين الولايات المتحدة وإسرائيل عام ١٩٨٤ هو تحقق لهذا الإدراك لطبيعة دور دولة إسرائيل وعلاقتها بالعالم الغربي.

س: هل وظيفية إسرائيل تفسر مقدرتها المذهلة على أن تتكيَّف مع المتغيرات الدولية؟

ج: نعم، النخبة الحاكمة في الغرب ترى أن الدولة الصهيونية ليست نهاية في حد ذاتها، بل وسيلة، مجرد أداة، ومن ثم لا بد أن تظل نافعة لراعيها الإمبريالي؛ ولذا حينما بدأ الصهاينة يشعرون أن تيار القومية العربية أخذ في الانحسار، ولم يعد هناك ضرورة للحرب ضدها، وبدأت الحركات الإسلامية تؤدي دورًا ملحوظًا في الحياة السياسية وفي المقاومة، كان الصهاينة أول من نبّه إلى «الخطر الإسلامي»، وحدد الهدف بأنه ليس ضرب القومية العربية والاحتفاظ بوضع التجزئة، وإنما ضرب الحركات الإسلامية باعتبارها العدو الحقيقي لأمريكا وروسيا والنخب العلمانية أو شبه الإسلامية الحاكمة في العالم العربي، وقد صدق حدس الصهاينة؛ فالعنصر الأساسي المقاوم في العالم الآن هو الحركات الإسلامية، كما هو واضح في جنوب لبنان وفي فلسطين المحتلة وفي أرجاء العالم العربي والإسلامي، فكثير من المثقفين الماركسيين والقوميين العلمانيين تحول عن المقاومة وأصبح من دعاة العولمة والخصخصة والانفتاح والتطبيع، وتأجيج الصراع بين العالم الغربي والعالم الإسلامي في صالح الدولة الصهيونية الوظيفية؛ لأنها بذلك تظل أداة نافعة، صالحة للاستعمال.

س: تحدثتم عن النموذج التعاقدي بين إسرائيل والغرب، وعن تبعية الدولة الصهيونية للغرب، وهذا النموذج يواجهه تناقضٌ واضحٌ وهو تمتع الدولة الوظيفية الصهيونية بقدر كبير من الاستقلال النسبي، فكيف تفسِّر هذا التناقض؟

ج: ما تتحدثين عنه يبدو لأول وَهْلة وكأنه تناقض، ولكن التناقض سيختفي تمامًا إذا تذكرنا أن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لا يشكل جزءًا عضويًا لا يتجزأ من الاستعمار الغربي، وإنما هو مجرد آلة في يد الغرب، آلة لا شكَّ كفء ونافعة، ولكنها في نهاية الأمر آلة، مجرد وسيلة وليست غاية.

ومن الملاحظ أن الدول والجيوب الاستيطانية كلها تعتمد على إحدى الدول الغربية، في المراحل الأولى من تطورها، ويحدِّد مدى هذا الاعتماد ومدته والشكل الذي يأخذه مجموعة من الظروف التاريخية والسياسية، فبعض الجيوب الاستيطانية تظل منفتحة تمامًا على الوطن الأم، وتحتفظ بروابط قوية، بل عضوية معه، وتستمد إحساسها بهويتها منه، ولذا فإن كل ما يُقرره الوطن الأم يصبح بمنزلة القانون الذي يجب أن ينفذ. ومن ناحية أخرى، توجد بعض الجيوب الاستيطانية التي تحصل على درجة من الحكم الذاتي والاستقلال النسبي عن الدولة التي ترعاها، ويستولي المستوطنون، إن آجلًا أو عاجلًا على السلطة، ويقيمون دولة خاصة بهم، مقصورة عليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى دولة جنوب إفريقيا، المخطط الصهيوني يهدف إلى أن تكون الدولة الصهيونية الوظيفية من النمط المستقل، وقد قام الصهاينة بطرد الفلسطينيين فعلًا، وأنشئوا دولتهم الصهيونية. ولكن هذه الدولة وجدت أنها لا يمكنها البقاء أو الاستمرار إلا عن طريق الاعتماد المذل على الولايات المتحدة. وذلك بسبب الرفض العربي والمقاومة الفلسطينية النبيلة.

س: لكن الجيب الصهيوني لا يشبه أي نوع من أنواع الاستيطان المألوفة، فهو يعتمد على قوة غربية عظمى اعتمادًا كاملًا، وفي الوقت نفسه يتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال. فكيف تفسِّر هذا الوضع الشاذ؟

ج: هذا الوضع الشاذ يمكن إرجاعه إلى عدة عوامل خاصة بالصهيونية وحدها، فالمستوطنون الصهاينة لم ينشئوا في دولة أوربية واحدة، يدينون لها وحدها بالولاء، وتقوم هي بدورها بحمايتهم أو إيوائهم في حالة تصفية الجيب الاستيطاني. فالصهاينة -على عكس سكان المستوطنات الاستعمارية الأخرى- ليس لهم وطن أمّ، وإنما لهم زوجة أب فحسب، مستعدة للتعاون معهم ولكن في حدود؛ فالعلاقة بين المستوطنين الصهاينة والدولة الغربية التي ترعاهم تستند إلى المصلحة المشتركة، فهي علاقة تعاقدية نفعية وليست نتاج روابط حضارية عميقة أو عضوية؛ ولذا فالجيب الصهيوني لا يتمتع

بالحماية الدائمة من جانب دولة واحدة، وإنما يتمتع بالحماية المؤقتة من جانب عدد من الدول، الواحدة تلو الأخرى؛ ولذلك حقق الجيب الصهيوني قدرًا كبيرًا من الاستقلال يفوق كثيرًا درجة الاستقلال الذي تتمتع به الجيوب الاستيطانية الأخرى، ولكنه استقلال مَعيب، استقلال الباحث عن مأوًى، وعلى أي حال انتهي هذا الوضع حين وضع الجيب الصهيوني نفسه تحت رعاية الولايات المتحدة، التي دعمته بشكل يفوق الوصف، واستخدمت كل ما لها من نفوذ سياسي وقوة عسكرية واقتصادية في دعمه، وقد تصادف وجود أكبر تجمع يهودي في العالم في الولايات المتحدة، ومِن ثَم أصبحت الولايات المتحدة هي الدعامة الأساسية للدولة الصهيونية. **س: من خلال قراءتك لتواريخ الجماعات اليهودية، كيف تسنَّى لليهود دائمًا أن يجدوا من يمد يدَ العون لهم ويدعمهم اقتصاديًّا وعسكريًّا وسياسيًّا، مع ما هو معروف عنهم من ميل للعزلة والغربة داخل أي مجتمع يعيشون فيه؟**

ج. لا يوجد ميل طبيعي عند اليهود نحو العزلة كما يدعي البعض، فهم يتم عزلهم تحت ظروف معينة، ويتم دمجهم تحت ظروف أخرى. وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية تم عزلهم لحماية نسيج المجتمع. كما أن العزلة ضرورية حتى يمكن لعضو الجماعة الوظيفية أن يقوم بدوره. العزلة هي سبب ونتيجة في الوقت نفسه لوضع أعضاء الجماعات اليهودية، إذ إن الدخول في علاقة إنسانية مع أعضاء المجتمع تجعل قيام عضو الجماعة الوظيفية بوظيفته -بكل ما تتطلبه من حيادٍ- أمرًا عسيرًا إن لم يكن مستحيلًا. فالإنسان في المجتمعات التقليدية لا يستغل إلا الغريب المباح، أما القريب فمن الصعب استغلاله؛ ولذا فقد حرصت الطبقات الحاكمة دائمًا على أن تكون العناصر الوظيفية عناصر مستوردة من الخارج؛ أي من خارج المجتمع، ضعيفة الانتماء له، هويتها مرتبطة بالوطن الأصلي الذي جاءوا منه، وبأرض الميعاد التي سيعودون إليها، أو بالجماعة الوظيفية التي ينتمون إليها، فهي الوطن الوحيد الذي يعرفونه والكيان الذي يدينون له ولراعيه بالولاء. وتميز الجماعة الوظيفية

يفرض عليها عزلة لا يمكنها الفكاك منها، إذ تصبح هي نفسها (أي العزلة) مصدر هويتها وكينونتها وأساس وظيفتها وسر كفاءتها وضمان استمرارها وبقائها، في هذا الإطار يمكننا فهم عزلة الدولة الوظيفية الصهيونية، فقد تم نقل العنصر البشري اليهودي إلى فلسطين لتوظيفه داخل الدولة الوظيفية الصهيونية، وكان لا بد من عزله عن محيطه حتى يمكنه القيام بوظيفته القتالية. ومن هنا إصرار الدولة الراعية التي قامت بمساعدة المستوطنين الصهاينة، وكذلك الزعماء الصهاينة، على ما يسمى الهوية اليهودية للدولة الصهيونية، فهذه الهوية هي ضمان عزلتها، وعزلتها هي ضمان ولائها للغرب وشراستها تجاه العرب. وقد تم إنجاز ذلك أساسًا من خلال الفكرة المحورية في الحضارة الغربية، فكرة اليهود باعتبارهم شعبًا عضويًا منبوذًا؛ أي شعب متماسك عضويًّا، لا ينتمي إلى أوربا، فوطنه هو فلسطين، ومن ثم هو منبوذ في الغرب. فالمستوطنون الصهاينة هم يهود يوطنون في فلسطين حيث سيؤسسون دولة هي حصن للهوية اليهودية ضد الاندماج في الأغيار، ولكنهم، في الوقت نفسه، حصن للحضارة الغربية ضد الشرق. وقد تحولت الدولة الصهيونية بالفعل إلى دولة تحاول الحفاظ على هويتها اليهودية أي عزلتها الكاملة.

س: لكن ألَا ترى أن فكرة «السوق الشرق أوسطية» تشير إلى رغبة من المستوطنين الإسرائيليين في الخروج من أسر الغربة والعزلة؟

ج: بالعكس هي تأكيد للغربة والعزلة؛ فالجماعات اليهودية الوظيفية المالية لم تكن جزءًا من البناء الاجتماعي؛ ولذا فإنها لم تساهم في بناء الرأسمالية الرشيدة، إذ ظلت برأسماليتها رأسمالية منبوذة تمامًا مثل الجماعات الوظيفية. وهذا أيضًا هو البناء الاقتصادي للدولة الصهيونية، فهي غير مرتبطة بالاقتصاد القومي الجديد الذي يظهر في الشرق العربي لارتباطها بالاقتصاد الغربي الذي تدور في إطاره، كما أنها تعتمد اعتمادًا اقتصاديًّا كاملًا على المعونات التي تتلقاها من العالم الغربي، ومن هنا تأتي محاولة إنشاء السوق الشرق أوسطية بديلًا من السوق العربية المشتركة.

ولا تنسَ أن النظام العالمي الجديد يحاول أن يحقق الأهداف الاستعمارية القديمة نفسها عن طريق الإغواء بدلًا من البطش، بعد هزائمه العسكرية المتكررة في فيتنام وفلسطين وأفغانستان والعراق؛ ولذا يتفاوض الغرب في الماضي مع ممثلي العالم الثالث كان واضعًا مدفعه الرشاش على المائدة، أما الآن فهو يتفاوض معهم بمعسول الكلام ولكنه يشير من طرف خفي إلى المدفع الرشاش الموجود تحت المائدة، وإن كان يلاحظ أنه مع وصول بوش وجماعة المحافظين الجدد أصحاب التفكير الإمبريالي، عاد المدفع الرشاش إلى المائدة مرة أخرى. وهذا هو الوضع في إسرائيل؛ إسرائيل تتحدَّث عن السلام والسوق الشرق أوسطية لكنها تسرب بعناية شديدة الأنباء عن قوتها النووية وقوتها العسكرية، وتتحدث عن اللاءات الكثيرة مثل استحالة فك المستوطنات، وأن القدس عاصمة إسرائيل الأبدية وهكذا. ولعل وصول شارون ثم خليفته أولمرت إلى سدة الحكم هو تعبير عن هذه الظاهرة.

س: هناك من يذهب إلى أن العولمة ظاهرة يُحركها اليهود؟

ج: العولمة في تصوري ليست ظاهرة يهودية ولكنها ظاهرة علمانية غربية. فالإمبريالية ظاهرة عالمية بمعنى أن العالم ساحتها، وهي تقوم باقتسام العالم ونهبه وتحطيم البنى الاجتماعية والاقتصادية لشعوب العالم، ولا يمكن لأي مجموعة بشرية محددة مهما كانت قوتها أن تحرِّك مثل هذه الظاهرة البنيوية الكاسحة، وقد بدأت هذه العملية منذ القرن السادس عشر وتصاعدت حدتها في القرن التاسع عشر، حتى إنه قبل الحرب العالمية الأولى كان العالم كله قد تم تقسميه ولم يكن اليهود لاعبين أساسيين أو فرعيين في السياسية الإمبريالية، وآليات تحول النظام العالمي القديم إلى النظام العالمي الجديد هي آليات نابعة من النظام نفسه، ولا يمكن أن نتحدث عن اليهود باعتبارهم مسئولين عن ذلك، فالمسألة أكبر منهم بكثير وأكثر شراسة وخطرًا، ومحاولة جعل اليهود مسئولين عن ذلك فيها تضخيم لليهود وتقليل من شأن المنظومة الإمبريالية الغربية التي اجتاحت العالم بشكليها القديم والجديد. أما مسألة سيطرة اليهود

على الإعلام والأموال فهذه مسألة تحتاج إلى الدراسة، وما قمت به وغيري من دراسة علمية تبين أن حجم الرأسمال اليهودي ليس بهذه الضخامة، وأن سيطرتهم على الإعلام هي أسطورة سيطرت على العقل العربي، لا بد من كشفها حتى يمكن أن ندرك حجم الخطر المحدق بنا وطبيعته.

س: **آلا يمكن للعولمة أن تقلل من أهمية وظيفية الدولة الصهيونية؛ فالنظام العالمي الجديد يقوم على فتح الحدود، بالإضافة إلى تعاون النُّخب العربية الحاكمة ورأس المال العربي، ومن ثَمَّ قد لا يحتاج إلى دولة مثل إسرائيل لتكون العصا التي يستخدمها؟**

ج. هذا احتمال واردٌ، فالدولة الصهيونية تُصِر على ما تسميه هويتها أو طابعها اليهودي، ومن ثَم على عزلتها باعتبارها دولة يهودية، وهذه اليهودية هي أساس وظيفيَّتها كما أسلفنا. فالجماعة الوظيفية، لا بد أن تظل في حالة عُزلة حتى يمكنها أداء وظيفتها. ولكن يجدُر بنا أن نلاحظ أن الدولة الصهيونية ليس لها هوية يهودية محددة، وإنما لها عدة هويات متداخلة مستمدة من المجتمعات التي كان يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية قبل استقرارهم في فلسطين، كما أن الدولة اليهودية خاضعة لعملية «أمركة» واسعة وعلى جميع المستويات، ولذا لن يكون من الصعب عليها أن تخفض من لونها اليهودي قليلًا، حتى تستطيع أن تؤدي دورًا أكثر نشاطًا ونفعًا في إطار السلام والانفتاح الذي فرضه النظام العالمي الجديد على المِنطَقة. وقد حدَث شيء من هذا القبيل في جنوب إفريقيا، وعلى كل اليهودية هي مجرد ديباجات، لا تمس الجوهر الوظيفي، وقد حذَّرت مرة من أن السّمسار الصهيوني (بيزيس) قد يحل محل الجنرال الصهيوني (شارون). ولكن يبدو أن ظهور النخبة الحاكمة الجديدة في الولايات المتحدة والحرب ضد الإرهاب وغزو أفغانستان والعراق أعاد لإسرائيل دورها الوظيفي النافع مرة أخرى. ويجب ألَّا ننسى أن من الثابت الآن أن إسرائيل ساهمت بشكل ملحوظ في دفع الولايات المتحدة لغزو العراق.

الباب الثاني

- اليهود واليهودية
- الهولوكوست
- المؤامرة والنفوذ اليهودي

(١)
اليهود واليهودية

س: ما هو المنهج الذي استخدمته في دراسة اليهود واليهودية؟ وبم تنصح الباحثين في هذا المجال؟

ج. أعتقد أنه بداية يجب أن يَثِقَ الباحث في نفسه، وأن يُدرك أنه قادر على رؤية الظواهر اليهودية والصهيونية بطريقة قد تكون مغايرة لما تلقَّاه مِن المراجع والإعلام، ثم يبدأ بعد ذلك بحثه. وعليه أن يبتعد عن المقولات التحليلية ذات الأصل التوراتي؛ فالتاريخ الذي يَرِد فيه تاريخ إيديولوجي، كتبه أناس لهم توجهات سياسية ودينية معينة. ويجب أن ننظر إلى القصص التاريخي الذي ورد في التوراة على أنه جزء من تاريخ مقدَّس لا علاقة بالتاريخ الزمني؛ لأننا لو أخذنا هذا التاريخ واعتبرناه تاريخًا زمنيًّا فإننا سنخلط بين المستويات كافة وسنفقد مقدرتنا التحليلية. كما يجب أن نبتعد عن استخدام مصطلح «اليهود» على وجه العموم؛ لأننا بذلك نحولهم إلى كِيان واحد متماسك (شعب يهودي)، وهذا هو جوهر الصهيونية. كما ينبغي أن نؤكد دائمًا البعد الزمني والإنساني للظواهر اليهودية ونبتعد عن الصيغ اللفظية والإدراكية الجاهزة كأن نقول: إن اليهود مُحبين للمال وأن فلانًا جبان أو بخيل لأنه يهودي؛ لأن مثل هذه الصيغ تفصلنا تمامًا عن الواقع وتجعلنا غير قادرين على التصدي له.

س: وهل من أبعاد جديدة اكتشفتها باتباعك هذا المنهج في دراسة اليهود واليهودية؟

ج: نعم أشير إلى اليهودية باعتبارها تركيبًا مكونًا من طبقات مختلفة مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، ولكنها غير ملتحمة ولا متفاعلة، ولا تخضع

إلى أي معيارية مركزية، أي إنني رفضت نموذج الوحدة العضوية الذي يرى اليهودية باعتبارها كلًّا عضويًّا متجانسًا، ويرى أن اليهود على الشاكلة نفسها. ولتفسير هذا الموضع أذهب إلى أن المركز (الديني أو المدني) في اليهودية اختفى منذ أمَدٍ طويل، وأن أصول الدين اليهودي لم يتم تعريفها بدقة منذ البداية، الأمر الذي سمح بتطور الأطراف على نحو مستقل تمامًا عن المركز، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل شرعية عما يسمى التيار الأساسي في اليهودية، وأصبحت الهرطقة أحيانًا هي التفسير المعياري. وحتى قبل أن يختفي المركز، كان النَّسق الديني اليهودي يحوي تناقضات عميقة كثيرة، وعددًا كبيرًا من المفاهيم الدينية لم يستقر؛ ولذا عندما تم تعريف أصول الدين اليهودي في مرحلة متأخرة (على يد موسى بن ميمون تحت تأثير الحضارة الإسلامية) كان أمرًا عديم الجدوى؛ لأن اللامعيارية كانت قد أصبحت جزءًا أساسيًّا من اليهودية. وذلك كله سمح بظهور ما أسميه «الخاصية الجيولوجية التراكمية» لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توخِّي الدقة). وعلى اختلاف الطبقات الجيولوجية بعضها عن البعض، فإن كل هذه العقائد سميت «يهودية» وسمي أصحاب كل هذه الهويات «يهودًا». وهو أمر كان يمكن تجاهله ولكن مع ظهور الدولة الصهيونية وبداية المواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات تفجرت كثير من المشكلات. وظهرت مشكلة: مَن هو اليهودي؟.

س: انطلاقًا من هذا النموذج كيف تصنف اليهود في الوقت الحاضر؟

ج: انطلاقًا من النموذج الجيولوجي التراكمي يمكننا تقسيم يهود العالم من الناحية الدينية في الوقت الحاضر إلى قسمين أساسيين:

١- يهود إثنيون، وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث الديني، وهم يرون أن يهوديتهم تكمُن في إثنيتهم؛ أي في أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافي، ويمكن القول بأن أكثر من نصف يهود أمريكا يهود بهذا المعنى، أما في الاتحاد السوفييتي (سابقًا)، فإن عددهم يزيد على

ذلك كثيرًا. ويُشار إلى هذا الفريق بأنهم اليهود الملحدون أو العلمانيون.

٢- يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، وهؤلاء ينقسمون إلى عِدة أقسام: أ. اليهودية الأرثوذكسية: هي وارثة اليهودية الحاخامية أو المعيارية أو التلمودية. ولذا، فهم يرون ضرورة أن يلتزم اليهودي بتنفيذ الوصايا والنواهي (المتسفوت)، وضرورة إقامة الشعائر كافة، بما في ذلك شعيرة السبت والطعام الشرعي.

ب. اليهودية الإصلاحية: وهي تحاول أن تعبِّر عن العصر الحديث، فتحكم العقل في كل شيء، وتحاول أن تفصل المكون الديني عن المكون العِرقي أو القومي في العقيدة اليهودية.

ج. اليهودية المحافظة: هي مجموعة من التيارات الفكرية تَصْدُر عن الإيمان بأن العقيدة اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودي الثابتة (لا روح العصر المتغيرة)، وبأن هذه العقيدة تطورت عبر التاريخ وأخذت أشكالًا مختلفة، وبأنها من ثَم قادرة على التكيف مع اللحظة التاريخية، ولا تؤمن اليهودية الإصلاحية ولا المحافظة بأن الكتاب المُقدَّس من الإله، وإنما هو مجموعة من الأقوال الحكيمة والأساطير الشعبية التي «ألهم» الخالق بعض الأنبياء بها لكنه لم «يوح» إليهم بها، ومن ثَم، فمن حق المخلوق أن يتصرف بحسب ما يُمليه العقل أو العصر عليه، فيغير ويبدل في الشعائر، بل يسقطها تمامًا في بعض الأحيان. ولذا، فإن الإصلاحيين والمحافظين لا يلتزمون الوصايا أو الأوامر والنواهي (المتسوف بالعبرية)، ولا يقيمون شعائر السبت أو الطعام الشرعي إلا على نحو جزئي، من قبيل الحفاظ على الفلكلور، وقد أباحت كل من اليهودية الإصلاحية والمحافظة الشذوذ الجنسي بين الذكور والإناث، بل يُرسَّم الآن الشُّذَّاذ والمساحقات أحبارًا. والأغلبية الساحقة من يهود العالم الغربي إثنية أو محافظة وإصلاحية، ولا يشكل الأرثوذكس سوى أقلية لا تزيد على ٥٪ (ولكنهم مع هذا يتحكمون في المؤسسة الدينية في إسرائيل).

س: هل طبقت هذا النموذج على تاريخ العقيدة اليهودية؟

ج: نعم، فقد ركَّزت على الصراع القائم بين التوحيد والحلولية منذ البداية (منذ العهد القديم)، وكيف أن هذا الصراع قد تصاعد وصُفِّي بالتدريج لصالح الحلولية؛ ولذا بينت دور ما يسمى بالشريعة الشفوية (تفسيرات الحاخامات والتلمود) وكيف حلت محل الشريعة المكتوبة، وأشرت إلى الدور المتزايد الذي أدته القبالاه اللوريانية (أي الصوفية اليهودية الحلولية على طريقة إسحاق لوريا) في تقويض دعائم التلمود حتى حلَّت كتب القبالاه محله، (مما أعطى مركزية لنموذج الحلولية الذي كنت قد طبقته على الفكر الصهيوني في كتابي نهاية التاريخ). كما بينت التنوعات الكثيرة في اليهودية عبر التاريخ التي تجعل من الصعب على الباحث أن يتحدث عن «يهودية معيارية». فميزت بين العبادة القربانية (اليسرائيلية) القديمة التي تدور حول الهيكل وطبقة الكهنة، واليهودية الحاخامية التي نشأت بعد سقوط الهيكل، ويهودية عصر ما بعد الاستنارة (القرن الثامن عشر) حين حاول بعضهم إصلاح اليهودية فقاموا بعلمنتِها (واستيلاء الصهيونية على اليهودية جزء من هذه العملية). ثم أخيرًا، أدَّى هذا كله إلى ظهور اليهودية الإلحادية ويهودية عصر ما بعد الحداثة ولاهوت موت الإله، والانتصار النهائي للحلولية والوثنية والحواس الخمس.

س: أشرت إلى أنك صغت نماذج رئيسية ثلاثة؛ «الحلولية» و«العلمانية» و«الجماعات الوظيفية» كيف طبَّقتها على دراستك لليهودية؟

ج: نعم، بينت أن ثمة ثالوثًا حلوليًّا هو الإله والإنسان والطبيعة، هذا يترجم نفسه في العقيدة اليهودية إلى الأرض اليهودية (الطبيعة) والشعب اليهودي (الإنسان)، أما العنصر الثالث فأشرت إليه بأنه المبدأ الواحد، الذي له مسميات كثيرة فهو تارة يسمى «الإله»، اليهودي، وتارة ثانية «روح الشعب» أو «العرق اليهودي»، وتارة ثالثة التوراة باعتبارها التعبير عن «روح الشعب»، ولكن هذا المبدأ الواحد، على إطلاقه، غير مفارق للأرض

والشعب، بل متحد بهما عضويًّا فهو إله يهودي مقصور على اليهود نظرًا لاتحاده بهم. وقد تصاعدت درجة الحلول والاتحاد من مرحلة إلى أخرى ومن مذهب إلى آخر.

س: هل يمكن القول إن الحلولية اليهودية هي الإطار الذي يتحرك فيه الصهاينة العلمانيون والدينيون والأرثوذكس؟

ج: نعم، فقد نجم عن حلول الإله في الشعب والأرض أن أصبح الشعب مقدسًا وأصبحت الأرض هي الأخرى مقدسة، وقد أفرز هذا الموقف الصهيونية التي تجعل الشعب اليهودي له حقوق مطلقة في أرض فلسطين، ومع أن الصهاينة لا يُفصحون عن البِنية الكامنة لفكرهم، وربما هم غير مدركين لها أحيانًا، ولكنها البنية التحتية التي تخلع القداسة على الشعب وعلى الأرض وتربطهما برباط عضوي أزلي. وقداسة الشعب والأرض هي الأساس الذي يجتمع عليه الفريقان العلماني والديني، قد يختلفان في تسمية مصدر القداسة، ولكنهما لا يختلفان ألبتة في أن القداسة هناك، ترسو في الشعب والأرض، وتُسمِّيه مصدر القداسة في المنظومات الحلولية، وأصبح التاريخ الإنساني يكتسب مغزاة، من وجود اليهود فيه ونَفْيهم وعودتهم، كما أن الإله يتدخل فيه لصالح شعبه المختار، وينتهي التاريخ بعودة الماشيح (المسيح المخلِّص اليهودي) ليحكم العالم من صهيون.

ومصدر القداسة ليس أمرًا مهمًّا؛ فالقداسة يمكن أن يكون مصدرها الإله (حلولية مع وجود إله)، ويمكن أن يكون مصدرها الشعب نفسه (حلولية من دون إله). وهذا أمر مفهوم في إطار الحلولية إذ إن الحلول يجعل المادة المقدسة أكثر أهمية من مصدر القداسة، ويمكن للعلمانيين والدينيين أن يقولوا: «أرض إسرائيل لشعب إسرائيل حسب توراة إسرائيل»، والتوراة هنا كتاب مقدَّس بالنسبة إلى المتدينين، وهي كتاب فلكلور (مقدس أيضًا) يعبِّر عن روح الشعب وإرادته لغيرهم.

ويتحرك الحاخام كوك (الأب الروحي والفكري لجماعة جوش

إيمونيم)، في الإطار نفسه، فيقول: إن روح الإله وروح يسرائيل شيء واحد. أي إن الشعب في قداسة الرب، وهذا لا يختلف كثيرًا عن قول فلاديمير جابوتنسكي: إن الشعب اليهودي هو ربه. أو قول موشيه ديان: إن الأرض هي ربه. وصياغة كوك الدينية وصياغة جابوتنسكي وديان الإلحادية متشابهتان تمامًا في بِنْيتهما، فكلتاهما تنتهي إلى شعب مقدَّس له حقوق مطلقة في أرضه المقدسة، فهو شعب حل الإله فيه وفي أرضه، حسب صياغة كوك، وهو شعب/ إله وأرض/ إله في صياغة الملحدين، والفارق بين الصياغتين أمرٌ شَكْلي.

س: وماذا عن أثر العلمانية على العقائد اليهودية؟

ج: تركت العلمانية أثرًا عميقًا على اليهودية، وفتنتها تمامًا، فأصبح غالبية أعضاء الجماعات اليهودية يهودًا علمانيين أو يهودًا مُلحدين، لا علاقة لهم بالدين اليهودي، كما ظهرت مذاهب يهودية مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة والتجديدية علاقتها بالعقيدة اليهودية واهية للغاية، مما اضطر أحد الحاخامات للقول: إن هناك يهوديتين لا يهودية واحدة.

س: هل توجد شخصية يهودية متميزة؟

ج: يشكِّل استخدام مصطلحات مثل «شخصية يهودية» و«هوية يهودية» في تصوري تبنيًا غير واعٍ للنماذج التفسيرية الاختزالية الصهيونية والمعادية لليهود، التي تفترض وجود طبيعة يهودية ثابتة وعبقرية يهودية وجريمة يهودية ووجود سمات أساسية للشخصية اليهودية. فهي من منظور المعادين لليهود شخصية متآمرة عدوانية استغلالية ومنحلة، وهي كذلك شخصية تجارية بطبعها، أما الصهاينة فينسبون إلى هذه الشخصية اليهودية المستقلة سمات إيجابية، فاليهودي يتسِم بالإبداع والمقدرة على الانسلاخ عن مجتمع الأغيار، وعن عزل نفسه عن الآخرين ليحتفظ بهويته، وهو يدافع بشراسة عن نفسه ضد العنف لكنه لا يرتكب العنف أبدًا ضد الآخرين، وهكذا. ومن السمات الأخرى التي تنسب إلى الشخصية اليهودية حبها للنكتة ومقدرتها

النقدية أو حسّها النقدي، ويؤسس الصهاينة نظريتهم في القومية اليهودية والشعب اليهودي انطلاقًا من تأكيد وجود هذه الشخصية اليهودية.

وإذا اختبرنا النموذج الكامن وراء مقولات مثل «الشخصية» أو «الهوية اليهودية الثابتة الواحدة» فسنكتشف مدى قصورها. فأعضاء الجماعات اليهودية ليسوا تجارًا بطبعهم؛ إذ عمل العبرانيون بالزراعة في فلسطين، كما كان منهم الجنود المرتزقة في الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية، ومعظمهم الآن من المهنيين في الغرب. وهم ليسوا متآمرين بطبعهم، بل سقط منهم ضحايا للتآمر، لكن هذا لا يمنع وجود متآمرين وتجار بينهم، وهم ليسوا مُنحلِّين في كل زمان ومكان، فقد كانت هناك أزمنة وأمكنة تَمسَّك فيها أعضاء الجماعات اليهودية بأهداب الفضيلة ولم تُعرف بينهم ظواهر مثل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين.

وهناك خلل يتمثل في الحديث عن اليهود بشكل مجرد، فمن يود أن ينسب العبقرية إلى الهوية أو الشخصية اليهودية سيجد قرائن على ذلك في مكان وزمان معينين، ومن يود أن ينسب إليهم التآمرية سيجد أيضًا قرائن على ذلك في مكان وزمان آخرين، ثم يتم تعميم الجزء على الكل، وهذا ما يقوم به الصهاينة عن وَعْي أو عن غيرِ وعي حينما يتحدثون عن الشخصية اليهودية أو عن الهوية اليهودية.

س: ما هو الجديد الذي أتيت به في موسوعتك فيما يختص باليهود واليهودية؟

ج. كما رفضت مفهوم اليهودية، بِنية عَقَديَّة متكاملة، فإنني أرفض شائعة أخرى مثل «الهوية اليهودية والشخصية اليهودية»، والحديث في إطار مثل هذه المفاهيم هو حديث صهيوني/ عنصري (معادٍ لليهود) في الوقت نفسه؛ إذ إنه يسقط عنصر الزمان والتاريخ، ومن ثم ينزع عن اليهود إنسانيتهم ويحولهم إلى عباقرة فريدة أو شياطين رجيمة، وقد قمت بتفكيك هذه المفاهيم وبيَّنت من خلال كثير من المؤشرات والإحصاءات

التي تحرص المراجع الصهيونية على إخفائها أو تهميشها أو تفسيرها داخل النموذج الصهيوني، أن اليهود في أنحاء العالم ليسوا كتلة مُتماسكة وأنهم في حالة صراع وأن لهم مصالح متضاربة، وأنهم جزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التي يعيشون في كنَفها، يتفاعلون معها تأثيرًا وتأثرًا، شأنهم في هذا شأن أعضاء الأغلبيات والأقليات. فمجتمع الأغلبية يقوم بتشكيل رؤيتهم وتحديد سلوكهم، بل وصياغة لغتهم وفنونهم وتراثهم نفسه. هذه هي مرحلة التفكيك، ثم انتقلنا بعدها إلى مرحلة التأسيس وطرحنا بدلًا من نموذج ومصطلح «اليهود» المطلق العام، الجماعات اليهودية «التي تستمد كل جماعة منهم خطابها الحضاري من المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه، ولذا فيهود الولايات المتحدة أمريكيون يهود، وليسوا يهودًا والسلام، ويهود مصر مصريون يهود، وهكذا.

وإذا كان الحديث عن «العبقرية اليهودية» فيه شطَطٌ، فالحديث عن «الجريمة اليهودية» لا يقل عنه شططًا؛ فكلا المفهومين يكتفي بالنظر لليهود من الداخل، ويعزلهم عن محيطهم الحضاري، ويرى أن «يهودية» عضو الجماعة اليهودية هي المسئولة عن سلوكه، عبقريًّا كان أم إجراميًّا. وهنا يحق لنا أن نسأل إن كانت يهودية اليهودي هي المسئولة عن «عبقريته »، فلم لم يظهر كافكا أو أينشتاين بين يهود الفلاشاه؟ وإذا كانت يهودية اليهودي مسئولة عن «إجرامه» فلِمَ لَمْ يظهر تنظيم مافيا يهودي في اليمن (كما حدث في الولايات المتحدة في الثلاثينيات)؟. إن دراسة المؤسسات والظواهر اليهودية يجب أن تبدأ بدراسة المجتمع الذي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيه (بدلًا من النظر لهم من الداخل وكأنهم كيان سياسي وحضاري مستقل)، إن فعل الباحث ذلك فإنه سيكتشف في أغلب الأحيان أن كثيرًا من الظواهر والمؤسسات «اليهودية» (والتي كان يظن أنها «يهودية خالصة) إن هي إلا صدًى للظواهر السائدة في مجتمع الأغلبية وإعادة إنتاج لمؤسساته، فعبقرية أينشتاين ليست نتاج يهوديته، وإنما هي نتاج التراكم المعرفي والتقدم

العلمي في العالم الغربي الذي ينتمي إليه عالم الرياضيات هذا، تمامًا كما أن تنظيم المافيا اليهودي ليس نتاج الانتماء اليهودي، وإنما هو صدى لظاهرة الجريمة المنظمة التي يعرفها المجتمع الأمريكي.

س: ذكرت في إحدى حواراتك أن الدولة الصهيونية أخفقت في تعريف «من هو اليهودي»، وأن إخفاقها هذا يهز كيانها وبحدَّة. فما هي أبعاد هذه القضية؟ وما هي جذورها؟

ج: ثمة تناقض داخل الشريعة اليهودية ذاتها، فعلى عكس الإسلام والمسيحية، اللذين يعرفان المؤمن تعريفًا عقائديًّا، فإن الشريعة اليهودية تعرف اليهودي تعريفًا عقديًّا وعرقيًّا في الوقت ذاته، فاليهودي هو مَن يؤمن بالعقيدة اليهودية، ومن يولَد لأمٍّ يهودية؛ أي ينتمي للعرق أو الإثنية اليهودية. ومنذ بداية تاريخ اليهودية حدثت انقسامات كثيرة مثل الانقسام بين اليهود السامريين والقرائين من جهة واليهود الحاخاميين من جهة أخرى، وكان يوجد أيضًا من يدخل على قلبه الشك الديني. ومع هذا لم تظهر أي مشكلة لسبب بسيطٍ، وهو أن الغالبية الساحقة من اليهود وُلِدوا لأمٍّ يهودية وكانوا يؤمنون باليهودية الحاخامية. كما كانت الجماعات اليهودية تعيش في عُزلة عن بقية الجماعات، كما هو الحال في معظم المجتمعات التقليدية، وبما أن اليهودي الفرد لم يكن له وجود خارج جماعته، فمهما كانت شكوكه الدينية فقد ظل داخل الجماعة.

ولكن مع نهاية القرن الثامن عشر بدأت الجماعات اليهودية في الاندماج كل في مجتمعها، الأمر الذي أدى إلى تبلور ظواهر جديدة مثل الزواج المُختلَط؛ أي الزواج بين يهودية وغير يهودي، بشكل يمكن أن يولد طفل لأم يهودية وأب مسيحي، كما بدأت أعداد كبيرة تتنصَّر؛ أي إنه كان يمكن أن يوجد مسيحي وُلِد لأبوين يهوديين، كما أن بعض المسيحيين تهود وانضم إلى اليهودية الإصلاحية والمحافظة؛ أي إنه يوجد الآن يهودي يؤمن باليهودية ولكنه لم يولد لأم يهودية. وفي الوقت ذاته دخلت اليهودية الحاخامية أو الأرثوذكسية

أو المعيارية مرحلة الأزمة في نهاية القرن الثامن عشر، إذ اهتزت كثير من ثوابت اليهودية بسبب انفتاح الجيتو على العالم الخارجي، وعلى أي حال هي كانت مهتزة أساسًا بسبب تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي الذي.أدى إلى تراكم طبقات فوق طبقات من التفسيرات وظهور كثير من التحريمات، حتى إنه مع نهاية القرن أصبح عدد التحريمات والطقوس كبيرًا لدرجة لا تصدَّق، وتمتد لتشمل الرداء والطعام والعلاقات الزوجية أي كل مجالات الحياة الخاصة، مما دفع أحد المثقفين إلى القول إن اليهودية قد ضيقت الخناق على اليهودي حتى أصبح أمامه خيارًا واحدًا إما أن يصبح إنسانًا أو يهوديًا.

وحاولت اليهودية تجاوز الأزمة من خلال ما يسمى الإصلاح الديني، ولكن حركة الإصلاح الديني اليهودية (على عكس حركة الإصلاح الديني المسيحي) لم تتحرك في إطار الشرعية اليهودية وشعائرها الأساسية، بل تجاوزت الثوابت والحدود كلها فبدأت أولًا بالتلمود، فأعلنت أن ما جاء فيه غير مُلزِم (مع أن اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية تسمى أيضًا اليهودية التلمودية)، ثم راحت تُثير الشكوك بخصوص التوراة نفسها. وقام دعاة الإصلاح بكتابة أعمال نقدية تشكك في مدَى صِدق التوراة والأنبياء، ثم أسقطوا فكرة الوحي وتحدثوا بدلًا من ذلك عن الإلهام، وكما قال أحدهم ساخرًا: بدلًا من الوصايا العشر المُلزمة ظهرت التوصيات العشر التي يُستحسن الالتزام بها. في إطار هذا تَمَّ تخفيف شعائر السبت، والاحتفاظ ببعض الشعائر الرومانسية مثل إيقاد الشموع، ثم تدهور الأمر فأصبحت اليهودية الإصلاحية والمحافظة والتجديدية تبيح الشّذوذ الجنسي، كما تسمح بوجود حاخامات من النساء وتسمح بالزواج المختلَط بين اليهود وغير اليهود، بل يوجد الآن حاخامات من الشُّذَّاذ جنسيًّا من الجنسين، ومدارس دينية عُليا تخرج هؤلاء الحاخامات الشذاذ ومعابد خاصة بالشُّذاذ، ويأخذ الإيمان الديني في هذه المذاهب شكل الإيمان ببعض الأفكار الغامضة عن الإله وبعض المبادئ الأخلاقية التي تتسم بالعمومية الشديدة، أما الشعائر

الدينية اليومية والأسبوعية والشهرية فقد اختفت ولم يعُد يقيم شعائر السبت سوى ٥ بالمائة من يهود أمريكا، وكثير من يهود أمريكا لا يدخلون المعبد اليهودي إلا مرة أو مرتين كل عام. ومع كل إحصاء يتم إجراؤه بين اليهود تدقّ أجراس الإنذار مُحذرة من أن الزواج المختلط أي زواج اليهودي من غيرِ اليهود يهدِّد باختفاء الجماعة اليهودية خلال عقود قليلة.

ومما يزيد تفاقم الأزمة أن العلمانية اكتسحت يهود العالم (وغالبيتهم توجد في العالم الغربي)، وهو أمر متوقع، وتزايد انصرافهم عن العقيدة اليهودية، بل بدأت هويتهم (أو بقاياها) تختفي من خلال تصاعد معدلات الاندماج والزواج المختلط. وقد شكا أحد الحاخامات في أمريكا اللاتينية من أن اليهود مُنصرفون عن التردد على دور العبادة اليهودية، وأن الفتيات اليهوديات يوم السبت لا يُقمن شعائره، بل يذهبن بدلًا من ذلك إلى الشاطئ مع أصدقائهن من الأغيار، مرتديات (مايوهات) تكشف من جسدهن أكثر مما تغطِّي (سماها الحاخام مازحًا: (مايوهات) ما بعد البيكني post bikini- على وزن ما بعد الحداثة؛ نظرًا لأنها أصغر من أي (مايوهات) شاهدها في حياته). ولذا فيهود العالم ينظرون بكثير من الشك إلى تصاعد مظاهر التدين في إسرائيل.

ومما فاقم المسألة أن كثيرًا من اليهود الذين تركوا العقيدة تمامًا وتبنوا الإلحاد رؤية للكون استمروا مع ذلك في تصنيف أنفسهم يهودًا (وقد سمحت العقيدة اليهودية بذلك؛ لأنها عرفت اليهودي بأنه من ولد لأم يهودية!) وظهر ما يسمى باليهودي الملحد. واليهودي الإثني الذي لا تستند يهوديته إلى العقيدة وإنما إلى انتمائه الثقافي الإثني. كل هذا يشكل خروجًا جوهريًا على اليهودية الأرثوذكسية وهي في تصوري اليهودية الحقيقية (ولذا تسمى أيضًا اليهودية المعيارية normative Judaism)؛ وأتباع اليهودية الأرثوذكسية يرون أن الملاحدة وأتباع المذاهب الدينية الأخرى لا علاقة لهم باليهودية، وكما قال أحد الحاخامات الأرثوذكس لقد أصبح هناك يهوديتان

اليهودية الأرثوذكسية، أما مختلف المذاهب الأخرى فهي اليهودية الثانية.

أنا باعتباري مسلمًا لو جاء إليَّ أحد وقال لي: «أنا لا أنطق بالشهادتين ولكن أحس بأنني مسلم». أقول له: لا يمكن قبول هذا. ويبدو أن اليهود العلمانيين أو الملاحدة فقدوا المقدرة على فهم طبيعة الخطاب الديني، حضرت مرة مؤتمرًا عن حقوق الإنسان في الإسلام وحضرته معنا سيدة من العالم الإسلامي تعيش في الغرب، فطالبتنا بتغيير القرآن ليتلاءم مع العصر، حاولت أن أفهمها أنه في الخطاب العلماني يمكن للمرء أن يُغير أي شيء أو كل شيء، ولكن في الخطاب الديني لا يمكن التغيير، بل يمكننا أن نجتهد ونفسِّر ونوسع الرقعة، ولكننا لا يمكننا تغيير النص، فلم تستطع أن تفهم كلامي. وأذكر أنني التقيت امرأة يهوديةإثنية في لندن فسألتها: إذا كنت لا تؤمنين بالله ولا بشعائر اليهودية، فلماذا تسمين نفسك يهودية؟ فأجابتني: أحب أن أكون جزءًا من تقاليد قديمة. فقلت لها مازحًا: إذا كنت تحبين (الأنتيكة) يمكنك أن تذهبي إلى محل (أنتيكة) وتجمعي أشياء قديمة يهودية. ولكن يبدو أن العقل الغربي أصبح مخفقًا تمامًا في فَهم التجربة الدينية والعقلية الدينية المتمسكة بالثوابت والتي على استعداد للتضحية بنفسها في سبيلها.

أما تصريحات بن جوريون (ورابين وغيرهما) التي تتمسح بالعقيدة اليهودية، فيجب أن ندرك أن بن جوريون يرى أن التوراة ليست أحد كتب اليهود المقدسة بالمعنى الديني وإنما هي كتاب فلكلور الشعب اليهودي (شأنها شأن السيرة الهلالية وألف ليلة وليلة بالنسبة إلى العرب)، ومن ثم فهي ليست ملزمة أخلاقيًّا؛ فهي بمنزلة رباط إثني يربط أعضاء الشعب (الفولك) بعضهم ببعض، وهي تعبير عن «روح الشعب». والتوراة مقدسة في هذا السياق بمقدار ما تعبر عن قداسة الشعب اليهودي، وليس عن أي قداسة متجاوزة لعالم المادة بأي شكل، ومن هذا المنظور صرح بن جوريون بأن خير مفسِّر للتوراة هو الجيش الإسرائيلي! فالمسألة داروينية محضة، مسألة قوة عسكرية شرسة تساند ادعاءات توراتية فلكلورية لا علاقة لها بخالق أو عقيدة.

س: ما الذي فجر قضية الهوية في الدولة الصهيونية؟

ج: مع عدم التجانس بين الجماعات اليهودية سواء من ناحية الانتماء الإثني أو الديني فقد ظلت كل المشاكل هامشية؛ لأن كل يهودي كان يعيش في بلده وليس لديه مشكلة هوية يهودية، فهو في وطنه يعرف أنه يهودي، ويعرِّفه أعضاء الأغلبية أنه يهودي. ولكن ظهرت المشكلة حينما هاجر أعداد من كل الجماعات اليهودية غير المتجانسة، هاجر اليهود الإشكناز والسفارد والجماعات اليهودية الهامشية مثل الفلاشا الذين يؤمنون بعقيدة ليست يهودية تمامًا؛ ففيها عناصر يهودية ومسيحية وإسلامية، حتى إن علم الأنثروبولوجي الغربي صنَّفهم على أنهم مسيحيون دخلت على عقائدهم عناصر يهودية، وبعضهم دخلت على عقائده عناصر إسلامية فكتب عنهم أحد المعلقين الإسرائيليين مقالًا بعنوان «الفلاشا السنيون». هذا خليط غريب هم يصلون في معبد يسمى «مسجد»، ويخلعون النِّعال قبل دخوله، والحاخامات يسمون قساوسة وعندهم رهبان وراهبات، ويتعبدون باللغة الجعيزية وهي لغة العبادة للكنيسة القبطية في إثيوبيا. ثم جاء يهود بني إسرائيل من الهند وهم متأثرون بالعقيدة الهندوكية والحضارة الهندية، ثم جاء اليهود السوفييت وهم خليط هائل غير متجانس، لا علاقة لهم باليهودية فنِصْفهم من غير اليهود، واليهود منهم علاقته باليهودية واهية إلى أقصى حدٍّ، عرفها أحد الحاخامات بأن كل ما يربط اليهودي منهم باليهودية أن له جدًّا يهوديًّا مدفونًا في موسكو. وقد أجري لهم اختبار شكلي للتأكد من يهوديتهم، كأن يُسأل أحدهم: هل تتذكر أيًّا من الشعائر اليهودية؟ فيقول: إنه يتذكر أن أمَّه كانت توقد الشموع يوم السبت؛ فيكون هذا دليلًا على يهوديته الخالصة، وقد هاجر كل هؤلاء في إطار الادعاء الصهيوني (الذي يشكل أهم بنود الإجماع الصهيوني) أن كل أعضاء الجماعات اليهودية شعب واحد، لكنهم استوطنوا فلسطين المحتلة وكل منهم يحمل موروثه الثقافي والديني الذي أتى به من وطنهم الأصلي، وكل واحد منهم يعتقد أنه اليهودي الحقيقي. وحينما اجتمع هؤلاء كلهم

بعدم تجانسهم، اكتشفوا أن اليهود ليسوا شعبًا واحدًا. وقد اشتكى بعضهم قائلًا: كنا يهودًا في بلادنا، ولكننا هنا أمريكيون أو فرنسيون أو مصريون، وقد أخبرتهم الدولة الصهيونية أنها ستقوم بصهرهم في كيان واحدٍ، إلا أنهم اكتشفوا استحالة هذا. وقد ظهرت الإثنيات اليهودية المتعددة، وعادت الأحزاب ذات الأساس الإثني إلى الظهور مثل شاس وإسرائيل بعلياه. وقد استقر الرأي في علم الاجتماع الإسرائيلي أن الإسرائيليين ينقسمون إلى أكثر من أمة، وأن ثمة أمتين أساسيتين: الإشكناز والسفارد.

س: هذا حديث عن الإطار العام للأزمة، لكن ما الذي أشعل الفتيل؟

ج: الذي أشعل الفتيل حسب تعبيرك هو حادثة الأخ دانيال، وهو مواطن بولندي وُلِد لأبوين يهوديين، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية قام النازيون بملاحقته فاختبأ في دير للراهبات الكرمليات، فتنصَّر وتكثلك وترهبن، ثم هاجر إلى إسرائيل في أواخر الخمسينيات وطالب بالجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة ليس بقانون التَّجنُّس؛ لأنه يمكن لأي شخص أن يحصُل على الجنسية الإسرائيلية لأسباب عديدة، ولكن الحصول على الجنسية الإسرائيلية حسب قانون العودة مقصور على اليهود دون سواهم. وقال الأخ دانيال في ادعائه أمام القضاء: إنه إذا كان اليهودي المُلحد الذي لا يؤمن بالله يعتبر يهوديًّا (حسب التعريف العرفي)، فلماذا لا يعتبر هو الراهب الكاثوليكي الذي يؤمن بالله يهوديًّا؟! وطالب باعتماد البعد العرقي لأنه ولد لأبوين يهوديين، ومن ثم كان يرى أن من حقه أن يصبح يهوديًّا أو مواطنًا إسرائيليًّا بمقتضى قانون العودة.

وتحولت الهوية اليهودية إلى ساحة للحرب تلخَّصت في السؤال: مَن هو اليهودي؟ وبدأت تظهر اصطلاحات غريبة مثل «اليهودي غير اليهودي»، بل إنه في إحدى الإحصاءات لعدد اليهود في العالم (والتي يُقال عنها علمية) صُنف بعض اليهود على أنهم «يهودي بشكل ما» «Jewish somehow» وهذا التعريف لا يختلف عن تعريف سارتر لليهودي بأنه من يشعر بذلك في

قرارة نفسه، وأنا دائمًا أضحك وأقول: لو شعر فيل أو جمل في قرارة نفسه أنه يهودي فهل يصبح يهوديًا أم يظل فيلًا أو جملًا؟! والطريف أن سارتر نفسه عرَّف اليهودي في سياق آخر بأنه من يراه الآخرون كذلك؛ أي إنه تأرجح بشكل مضحك بين التعريف الذاتي (المغرق في الذاتية) والتعريف الموضوعي (المغرق في الموضوعية).

ولا تزال قضية الهوية اليهودية مطروحة، ومما زاد من حدتها العناصر الثلاثة التالية:

١- تطالب المؤسسة الأرثوذكسية في إسرائيل بتطبيق معايير محددة في التهوُّد وحسب طقوس معينة، هذه الطقوس لا يأخذ بها الحاخامات الإصلاحيون أو المحافظون أو التجديديون، ومن هنا يرى اليهود الأرثوذكس أن اليهودي الذي يتهوَّد على يدِ حاخام إصلاحي أو محافظ أو تجديدي كل هؤلاء تهويدهم غير مقبول ومرفوض، ومن هنا يطالبون بأن يعاد صياغة قانون العودة بحيث يصبح اليهودي هو مَن وُلِد لأم يهودية أو تهوَّد حسب الشريعة؛ أي. حسب التقاليد والطقوس الأرثوذكسية. كما أنهم يحاولون منع الحاخامات الإصلاحيين من الجلوس في المجالس الدينية.

٢. تسيطر اليهودية الأرثوذكسية على الحياة الدينية وقضايا الأحوال الشخصية وبعض جوانب الحياة العامة في الدولة الصهيونية، في حين يُسيطر اليهود الإصلاحيون والمحافظون على المنظمة الصهيونية وهذا وضع جديد تمامًا.

٣. بدأت اليهودية الإصلاحية والمحافظة تصل إلى إسرائيل وقد تزايد عدد التابعين لها، هذا في الوقت الذي وصل فيه عدد اليهود الإصلاحيين والمحافظين في الولايات المتحدة إلى نحو ٨٥٪ من عدد يهود الولايات المتحدة المتدينين. ويجب أن نذكر أن اليهود الملحدين (وكثير من المتدينين) في الولايات المتحدة يُصرُّون على فصل الدين عن الدولة (مُتبعين في ذلك مجتمعهم منادين بذلك باعتبارهم أعضاء أقلية يرون أن ذلك في مصلحتهم)، أما اليهود الملحدون في إسرائيل فهم لا يكترثون أساسًا بالدين (وهم أعضاء أغلبية)؛

ولذا فهم لا يمانعون في أن يسيطر الأرثوذكس على مناحي الحياة جميعها (ولا سيما أن مثل هذا الاستعراض الديني يزيد من شرعية الدولة وشرعية الاستيلاء على الأراضي). وقد أدى هذا الوضع إلى فقدان الاتزان على مستوى يهود العالم. ففي حين ترى أغلبية الدياسبورا (التي تهيمن على المنظمة الصهيونية) ضرورة فصل الدين عن الدولة، تحاول المؤسسة الأرثوذكسية في إسرائيل أن يلعَب الدين دورًا أساسيًّا في حياة الفرد الخاصة والعامة، بل أن يتحكم الدين في الحياة الخاصة للمواطنين، وأن تقوم هي بتعريف من هو اليهودي ووضع القوانين الخاصة بالعلاقة الدينية بين الفرد والمجتمع.

وقضية الهوية اليهودية لها أهمية خاصة في الكيان الصهيوني؛ لأنه كيان يدَّعي أنه دولة يهودية ويستمد شرعيته من يهوديته، فإن وُضِعت الهوية اليهودية موضع الشك والتساؤل والخلاف؛ فإن هذا يضرب في صميم الشرعية التي تدَّعيها الدولة الصهيونية لنفسها، ولا أعتقد أنه يوجد لها حل في المستقبل المنظور.

س: هل تبدَّت أزمة الهوية هذه على المستوى السياسي؟

ج: نعم، فقد جرى تمرير قانون في الكنيست يُلغي الاعتراف بعقود الزواج التي يُجريها الحاخامات التابعون للتيار الإصلاحي والمحافظ. ومع أن القانون مرَّ في المرحلة الأولى (من أربع مراحل)، فقد غضِب اليهود الإصلاحيون والمحافظون بشدة وأعربوا عن شعورهم بالصدمة وهددوا علانية بقطع المساعدات والتبرعات عن إسرائيل. وقال الحاخام إيهود باندل، رئيس الحركة المحافظة في إسرائيل: إن رفض المتشددين للتسوية بمنزلة إعلان حرب ضد الشعب اليهودي، وأكّد الحاخام يوري ريجيف رئيس الحركة الإصلاحية أن الحاخامية الكبرى قد أغلقت الباب في وجه التسوية.

ثم وقعت مشكلة جديدة، إذ تم انتخاب امرأة، من التيار الديني الإصلاحي، عضوًا في المجلس الديني لمدينة نتانيا، وهو مجلس مؤلف من تركيبة حزبية (لكل حزب ممثِّلون حسب نسبته في الانتخابات البلدية)

وشعبية (ممثلي الشعب) ودينية (مندوبون يعينهم مجلس الرئاسة الروحية الرسمية) وجاء تعيين «الحاخامة» جويس برنر (وهي بروفسير في اللاهوت) عن حزب ميرتس اليساري الصهيوني.

هذا الانتخاب آثار جنون الأرثوذكس (فاليهودية الأرثوذكسية لا تقبل باشتراك النساء في صلاة الجماعة في المعبد ولا بحاخامات إناث) فرفضوه، فتوجهت الحاخامة الجديدة إلى المحكمة العليا واستصدرت أمرًا يجيز التعيين ويؤكد أنه قانوني ويأمر وزير الأديان بالمصادقة عليه. ولكيلا يُعد موقفه إهانة للمحكمة وقرارها، وهو أمر مخالف للقانون، اتفق نتنياهو، مع قيادة شاس، أن يُقيل وزير الأديان (إيلي سويسا من حزب شاس) ويأخذ صلاحياته لِمدة ساعة، يوقِّع خلالها بنفسه على كتاب التعيين، ثم يعيد الوزارة إليه. لكن هذا الحل لم يرض الأرثوذكس ولا حتى الحاخامين الأكبرين، فراحوا يهاجمون نتنياهو وقرروا مقاطعة كل مجلس ديني يضم امرأة أو يضم حاخامًا إصلاحيًا أو محافظًا (يرى الأرثوذكس أن هذين المذهبين يجب ألّا يمثلَا أساسًا في المجالس الدينية).

ولعل تزايد النسبية الأخلاقية في الولايات المتحدة، وهو أمر يترك أثره بشكل واضح على يهود الولايات المتحدة، وانتماءاتهم الدينية وشبه الدينية واللادينية المختلفة سيزيد من تصعيد الصراع بين الأرثوذكس وغيرهم. فعلى سبيل المثال، يمكن للمرء تخيل استجابة الحاخامات الأرثوذكس لقيام بعض النساء من الولايات المتحدة بلبس الطاليت وحمل التوراة ومحاولة الصلاة بجوار حائط المبكى والإصرار على أن يُرسَّمن حاخامات، ويمكن للمرء تخيل موقف المؤسسة الأرثوذكسية من قيام أحد الحاخامات الإصلاحيين بعقد أول قرآن «ديني» بين زوجين، مثليين أمام حائط المبكي في إسرائيل!

س: وما هي إسهاماتك الأخرى في هذا المجال؟

ج. أكدت الحقيقة البديهية أن ثَمة فارقًا بين اليهودية واليهود؛ فاليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة، واليهود هم من يؤمنون (أو يدعون الإيمان) بها، ولا

يوجد مجال لترادف الواحد بالآخر (هل يوجد ترادف بين الإسلام والمسلمين أو المسيحية والمسيحيين؟) عدم الترادف هذا يزداد عمقًا في حالة اليهودية التي عرفت اليهودي بطريقة عقائدية، كما تفعل الأديان كلها (اليهودي هو مَن يؤمن باليهودية) ولكنها عرفته أيضًا بطريقة عرقية، كما تفعل العقائد البيولوجية الحتمية (اليهودي هو مَن يولد لأم يهودية). وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى عدة أقسام أساسية: إشكناز وسفارد ويهود البلاد الإسلامية. ولكن إلى جانب ذلك بينت أن ثمة جماعات يهودية هامشية لا حصرَ لها ولا عدد، فعلى سبيل المثال، لا الحصر السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساسًا بنسختها المختلفة عن تلك المتداولة بين اليهود كافة، ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجيء الماشيح، وأيضًا القَرَّاءون الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلي الإسلامي)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبقَ منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل. وبقايا يهود كايفنج في الصين، يعبدون يهوه، الذي يسمونه تين (السماء) ويتعبدون في مَعبدين يهوديين؛ أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف، وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تمامًا. ويقدِّمون لأسلافهم قرابين من لحم الضأن، أما هم فلا يمانعون في أكل لحم الخنزير. ويمكن أن نُشير إلى يهوديتهم بأنها كونفوشيوسية (تمامًا مثلما نجد أن يهودية بني إسرائيل في الهند يهودية هندوكية)، وثمة عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

س: هل يمكن الحديث عن عناصر قوة في العقل الجمعي اليهودي يشتركون فيها جميعًا؟

ج: هذه رؤية في تصوري عنصرية؛ لأنها تفترض أن ثمة سمات عرقية ثابتة لليهود. عبر التاريخ لم يوجد عباقرة يهود، فأول عبقري يهودي بهذا المعنى ظهر في القرن السابع عشر (سبينوزا) وهو كان أول يهودي ينفصل عن اليهودية

ولا يتبني دينًا آخر، ولذلك ثمة من يرى أنه أول مفكر علماني في التاريخ، فهو ثمرة الحضارة الغربية العلمانية الحديثة، تمامًا مثل فيلون السكندري الذي كان متأثرًا بالفلسفة الهيلينية لدرجة لا يمكن فهم فلسفته إلا في إطار هذه الفلسفة، شأنه في هذا شأن «موسى بن ميمون» نتاج الحضارة الإسلامية.

لقد ظهر التميز اليهودي ابتداء من القرن السابع عشر مع الحداثة الغربية ولا يمكن تفسير عبقرية هؤلاء إلا بوجودهم داخل الحضارة الغربية، بدليل أنه لا يوجد عباقرة ظهروا خارج هذه الحضارة، فلو كانت يهوديتهم هي المكون الأساسي لعبقريتهم لظهر عباقرة يهود في أي زمان أو مكان وهذا لم يحدُث. هل يمكن تفسير إنجازات أينشتاين العلمية من خلال يهوديته أم من خلال تراكم معرفي معين ووجود أجهزة ومعامل علمية متقدمة داخل الحضارة الغربية؟ أينشتاين في هذه الحالة لا يمكن أن نميزه من فاروق الباز، فهل فاروق الباز لو كان معنا هنا كان وصل إلى ما وصل إليه؟ لقد حقّق إنجازاته؛ لأنه توافرت له الأجهزة المطلوبة والاعتمادات المالية اللازمة.

س: أنت ترفض استخدام كلمة «يهود» بشكل عام، وتفضِّل استخدام «جماعات يهودية»، فما هو الموقف الإسلامي من هذا؟

ج: ابتداء من المفاهيم الصهيونية المحورية مفهوم «الاستمرار اليهودي»، ويقصد به أن ثمة استمرارية في الصفات الأساسية (الثقافية والدينية، بل العرقية أحيانًا) التي تَسِم أعضاء الجماعات اليهودية وتفصلهم عن غيرهم من الشعوب والجماعات. وانطلاقًا من هذه الاستمرارية يرى المؤمنون بها أن كلمة «يهودي» تشير إلى يهود العالم في الحاضر والماضي والمستقبل، وأن كلمة «يهودية» تشير إلى نظامهم العقدي، وكأن سمات اليهود الثقافية لم يطرأ عليها أي تغير جوهري، وكذلك موروثهم الديني.

ونحن نرى أن مثل هذا التصور يتنافى تمامًا مع الواقع التاريخي ومع الرؤية الإسلامية، فلا يملك الدارس المتأني إلا أن يلاحظ وجود تنوع هائل بين أعضاء الجماعات اليهودية على المستوى العِرقي؛ فثمة يهود بيض ويهود

سود ويهود صفر، وتختلف أحجام جمجمة الرأس باختلاف انتماء اليهودي، كما يظهر الاختلاف والتباين على المستوى الثقافي/ الإثني، بل إن اليهودية ذاتها ليست عقيدة متكاملة محددة المعالم بشكل معقول فهي، كما أسلفنا، أساسًا تركيبٌ جيولوجي تراكمي يحوي داخله طبقات عقيدية مختلفة ومتناقضة؛ بعضها يقترب من الشرك الصريح وبعضها يصل إلى التوحيد الكامل. كما أن العقيدة اليهودية تبنت معيارين متناقضين، فاليهودي هو من يؤمن باليهودية (معيار ديني) ومن ولد يهوديًا (معيار مادي). ولذا ظهر عدة أنواع من اليهود واليهودية، فظهرت اليهودية الإثنية والعلمانية، كما ظهر اليهودي الإثني واليهودي الملحد.

كل هؤلاء يعتبرون أنفسهم «يهودًا»، وهذا أمر يحدث في كثير من العقائد حين يرفض شخص ما معيارية عقيدة ما ويرفض الاحتكام إليها (مثل الإيمان بالله في الإسلام والمسيحية واليهودية) ومع هذا يستمر في ادعاء الانتماء إليها، ويلاحظ أن المسيحية والإسلام لا يمكن أن يقبلا مثل هذا الشخص في محراب الدين؛ ولذا يمكن الحديث عن «يهودي ملحد»؛ أي يهودي لا يؤمن بالإله، ولكن لا يمكن أن نتحدث عن «مسلم ملحد» أو عن «المسيحي ملحد». لكل هذا لا يمكن اقتراح الاستمرار اليهودي (الثقافي أو البيولوجي) من منظور تاريخي.

كما أنه ثمة تناقض بين تعريف العقيدة اليهودية لليهودي والتعريف الإسلامي له؛ فكلمة «يهود» في الإسلام تعني «أتباع الكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام». ومع أنهم قاموا بتحريفه أو أصروا على اتباع المحرَّف منه إلا أن ثمة مبادئ أساسية وردت فيه لم يتم تحريفها من بينها الإيمان بالله واليوم الآخر. هذا التعريف الإسلامي لو طبق على يهود العالم الحديث لتم استبعاد ما يزيد على ٩٠٪ منهم، أو إذا توخينا الدقة لقلنا لاستبعد ٥٠٪ منهم (الملحدون واللادينيون)، ولتعذر تقبُّل ٤٠٪ (الإصلاحيون والمحافظون والتجديديون) يهودًا، ولربما قُبل الـ ١٠٪ الأرثوذكس (فقط) يهودًا. وبل

هذا أيضًا أمر خلافي بسبب تزايد النزعة الحلولية التي هيمنت على اليهودية الحاخامية. والمسلم لا يمكنه إلا أن يستبعد أولئك الذين لا ينطبق عليهم التعريف الإسلامي لليهودي، حتى لو سموا أنفسهم «يهودًا»، وحتى لو قبلتهم الشريعة اليهودية وعدَّتهم يهودًا.

كما أن افتراض الاستمرار اليهودي، البيولوجي والثقافي، يتناقض مع إحدى القيم الحاكمة الكبرى في الإسلام، ونقصد بها مفهوم الفطرة، فالإنسان -حسب التصور الإسلامي - يولد على الفطرة، وإن كان ثمة صفة وراثية فهي الفطرة الإنسانية والاستعداد لعمل الخير، وهو مفهوم يضع على الفرد عبء المسئولية الخلقية ويطرح إمكانية التوبة الدائمة (من جانب المخلوق)، وإمكانية المغفرة (إن شاء الخالق). ومن ثم فإن فكرة الاستمرار اليهودي تشكِّل سقوطًا في المنطق العنصري العلماني الشامل الذي يرى الإنسان محكومًا بموروثه البيولوجي أو الاقتصادي أو العرقي أو بمجموعة من الحتميات المادية الأخرى، ومن الواضح أن النص القرآني حذَّر من ذلك ففرَّق بين اليهود عمومًا من ناحية، وبين الصالحين والطالحين منهم من ناحية أخرى، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه من خير أو شر، ملتزمًا في ذلك العدالة والصدق.

س: من هو اليهودي إذن من منظور إسلامي؟

ج: ابتداء يجب أن نطرح السؤال التالي: حينما يرد مصطلح «يهودي» أو «بني إسرائيل» هل الإشارة إلى اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، أم إنه ليهود المدينة أيام البعثة المحمدية؟ هل كان يهود المدينة يعرفون التلمود؟ وبأي لغة كانوا يتعبَّدون؟ وما معنى أن بني قريظة وبني النضير كانوا من الكوهانيم (أي الكهنة من نسل هارون)؟ هل هذا يعادل نظام اللاويين؟ هل كان يهود بقية العالم آنذاك يعترفون بأنهم يهود؟ أذهب إلى القول أنه على ارتباط دال «يهودي» بأزمنة وأمكنة محددة، ومع أن دال «يهودية» يشير إلى مجموعة من العقائد إلا أنه بالإمكان القول إن كلمة «يهودي» كما ترد في القرآن لها مجال دلالي عالمي متحرر من الزمان والمكان. واليهودي حسب هذا التعريف

هو الشخص الذي تتوفر فيه مجموعة من السمات (بغض النظر عن انتمائه العقيدي أو الإثني). ويمكن هنا مقارنة استخدام الدال «يهودي»، باستخدام الدال «فرعون، فهو دال يشير إلى شخص بعينه وإلى واقعة تاريخية محددة ومع هذا لم يُقصَر أمر استخدامه على هذا الشخص أو هذه الواقعة. كما لم يربط أي من المفسرين الدال «فرعون» بحكام مصر على وجه العموم، وإن استخدم فهو يشير إلى أي شخص يتسم بعدة سمات من بينها الظلم والاستبداد والبطش وعدم الاستماع إلى النصح، ومن هنا مصطلح مثل «الفرعنة» أو فعل مثل «تفرعن» التي تشير إلى أي شخص يستبد ويظلم الآخرين ويبطش بهم. ويبدو أن دوال مثل «مصري» أو «فرعون» دوال تشير إلى وقائع تاريخية محددة وإلى سمات وأنماط بشرية متكررة تنفصل عن سياقها التاريخي لتصبح ذات مدلول أخلاقي عام يصلح لكل زمان ومكان، والشيء نفسه بالنسبة إلى مصطلح «يهودي» فهو يشير إلى شخص تتوافر فيه مجموعة من السمات التي إن توافرت في شخص ما (ملحدًا كان أم بوذيًا) فإنه يصبح «يهوديًا». ولفظة «يهودي» بهذا المعنى لا تختلف في استعمالها عن لفظة «فرعون».

إن أخذنا بهذا الرأي فيمكن القول إن اليهودي واليهودية باعتبارهم نموذجًا يتسمان بالسمات الأساسية للجماعات والعقائد الحلولية الكمونية ويتضح هذا في عدة جوانب: يرى القرآن أن اليهود يصبغون دينهم بصبغة مادية، ويتضح هذا في مَيْلهم الشديد نحو التجسيد (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهـرة) [البقرة: ٢/ ٥٥]، ويتضح هذا الاتجاه في اتخاذهم العجل إلهًا، والمَيل نحو التجسيد الذي يتحوَّل إلى عبادة للأوثان هو سمة أساسية في العقائد الحلولية. وتتضح الحلولية والنزوع نحو المادية والتجسيد في الفهم اليهودي للنصوص المقدسة فهو فهم يتسم بالظاهرية والحرفية؛ ولذا فقد فهموا دعوة القرآن للإنفاق في سبيل الله باعتباره قرضًا لله، إذ قالوا: (إن الله فقير ونحن أغنياء) [آل عمران: ٣/ ١٨١]

وحينما يصبح الإنسان موضع الحلول في المنظومات الحلولية فإنه يتأله

فينسب إلى نفسه الخلود، وقد وصف القرآن اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة، وبأنهم يكرهون الموت ويخافونه ولا يتمنونه أبدًا. (وهو ما يتناقض مع قولهم بأنهم أولياء الله وأنهم أبناء الله وأحباؤه)، وهم لهذا لا يقاتلون غيرهم إلا في قرًى مُحصنة أو من وراء جُدُرٍ.

تعبِّر المنظومة الحلولية عن نفسها في موقفين متناقضين الأول: زيادة الحدود والطقوس والاهتمام الشديد بالتفاصيل. والثاني: إلغاء الحدود والطقوس تمامًا، ويظهر هذا في الوصف القرآني لليهود إذ يصفهم بالتشدد، فقد قست قلوبهم حتى أصبحت أشد قسوة من الحجارة وهو ما جعلهم يتعنتون مع الأنبياء، فرفضوا أن يؤمنوا بنبي ما لم يأتهم بقربان تأكله النار، وأكثروا من السؤال عن المحرمات بشكل أدى إلى تضييقهم على أنفسهم. فقد أحل الله لهم كل الطعام إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، فتشددوا جدالًا وسؤالًا حتى حرم عليهم كل ذي ظفر ومن الغنم والبقر الشحوم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا، وهو تشريع يؤكِّد إغراقهم في التفاصيل ويبين إلى أي حدٍّ أكثرَ اليهودُ من السؤال والاختلاف حتى حرم الله عليهم بعض ما أحل لهم عقابًا لهم، وفي خروجهم من مصر تشددوا مع موسى - عليه السلام. في مطالبهم فطلبوا منه أن يدعو الله أن يخرج لهم نباتًا مختلفًا؛ لأنهم لا يصبرون على طعام واحد، وتعكس قصة البقرة التي رواها القرآن إلى أي حدٍّ عذَّبوا أنفسهم وضيَّقوا على أنفسهم بالسؤال مرات عديدة عن صفة البقرة، وعندما ذبحوها أطاعوا الله بعد مشقة.

أما الجانب الآخر للحلولية وهو إلغاء الحدود تمامًا فيتضح في أن اليهود يحولون أنفسهم إلى مرجعية ذاتهم، فهم يبحثون عن دين يجعلهم شعبًا مختارًا. وبدلًا من طاعة الإله يطوعونه، ولذا فهم يستخدمون الدين استخدامًا نفعيًا. فلم يؤمن بنوا إسرائيل لرسول ما لم يأت بما تهوى أنفسهم (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرت ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) [البقرة: ٢/ ٨٧] ونقضهم ينبع من عملية توثن الذات هذه، فقد

وصَف القرآن اليهود في غير موضع بنقض العهود؛ فقد نبذوا عهود الله وعهود الأنبياء وعهود الناس، وإن كان الوصف القرآني الدقيق ينسب نبذ العهد إلى فريق وعدم الإيمان إلى الأكثرية لا إلى اليهود كلهم.

وتتضح الحلولية وتحطيم الحدود في أن العقيدة اليهودية، كما يصفها القرآن، ليست لها معيارية ثابتة وإنما تتداخل مع العقائد الأخرى؛ ولذا فاليهود يتأثرون بعقائد وثقافات الأمم التي يعيشون بينها أو يحتكون بها (قالوا ياموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة) [الأعراف: ٧/ ١٣٨]، وهذا ما نعبِّر عنه بعبارة «اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي».

إن وصف القرآن لليهود وللعقيدة اليهودية هو في واقع الأمر وصف لأتباع أي عقيدة حلولية. وقد لاحظ كثير من المفسِّرين تشابه وصف اليهود في القرآن مع بعض سمات الإنسان العلماني الشامل الحديث الذي يتوثَّن ويتألَّه ويصبح هو مرجعية ذاته، ويعيش في عالم الحواس الخمس يرفض تجاوزه. فكأن كلمة «يهودي» هنا تصف الإنسان الحلولي الكموني الذي يتصف بهذه الصفات، يهوديًّا كان أم مسيحيًّا أم مسلمًا أم ملحدًا. ولعل هذا التماثل هو الذي يجعل البعض يتصور أن اليهود مسئولون عن الشرور كافة، وما فاتهم هو أن وصف اليهودية في القرآن هو وصف لعقيدة حلولية، وأن وصف اليهود هو وصف لأتباع عقيدة حلولية، وأن هذا الوصف لا ينطبق على اليهود ممن يدورون في إطار الحلولية فقط، وإنما ينطبق كذلك على كل أتباع العقائد الحلولية المختلفة، سواء كانوا من أتباع عقيدة الشنتو اليابانية، أو الفلسفة النيتشوية الألمانية، أو العلمانية الشاملة.

س: هل هذا هو الموقف السائد في الخطاب الإسلامي؟

ج: مع الأسف، يُهيمن على الخطاب الإسلامي المناهض لإسرائيل قَدْرٌ كبير من الاختزال. وهو يفترض وجود «استمرارية» بين يهود الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا هو جوهر الرؤية الصهيونية. وقد وضع الفكر التآمري الصراع العربي الإسرائيلي في إطار اسكاتولوجي؛ أي رؤية آخر

الأيام، بمعنى أنه خرج بالصراع من دائرة التاريخ والزمان باعتبار أن الصراع مع اليهود مستمر حتى يوم القيامة وآخر الأيام. ولكن إذا كان الأمر كذلك فما معني الانتفاضة؟ وما جدوى المقاومة؟ في إحدى المحاضرات، قام أحد حملة هذا الخطاب وبين لي أن «اليهود هم قتلة الأنبياء». فأخبرته أن المستوطنين الصهاينة لا يقتلون الأنبياء؛ لسبب بسيط وهو أنه لا يوجد أنبياء هذه الأيام، كما أنهم يقومون بقتل كل من يتصدى لهم، دون تمييز بين مسلم ومسيحي. وكنت مرة أجلس مع بعض صُناع القرار في العالم العربي (من ذوي الاتجاهات الإسلامية) وتطرق الحديث إلى «اليهود»، وبدأ بعضهم في عملية السَّب نفسها (التي هي في جوهرها عملية شيطنة للآخر، لتحقيق بعض التوازن النفسي). وتطرق الحديث إلى يهود المدينة وخيبر وتآمرهم...إلخ، وكيف أن التآمر اليهودي نفسه مستمر حتى يومنا هذا، فأشرت إلى رؤيتي للدال «يهودي»، كما أشرت إلى أن التاريخ الإسلامي قد عامل أعضاء الجماعات اليهودية من خلال مفهوم أهل الذمة هذا، وأن تاريخ المسلمين لم يشهد عمليات هجوم أو إبادة أو طرد لليهود، وأن أعدادًا كبيرة من اليهود دخلت الإسلام وحسن إسلامها وانصهرت في صفوف المسلمين (وإلا فبم نفسر أن اليهودية كانت بالأساس ظاهرة شرقية إسلامية، توجد داخل العالم الإسلامي، ثم تحوَّلت بالتدريج إلى ظاهرة مسيحية؟). بل إن عمليات الطرد التي تمَّت في بداية الحكم الإسلامي كانت نتيجة لخرق المواثيق مع المسلمين، وكانت تهدف إلى تأمين قلب الأمة الإسلامية. كما أن عقاب الطرد لجماعة بدوية كان عقابًا مقبولًا لدى الجميع، وكان يعني إعادة التوطين في منطقة أخرى.

وأخيرًا، يؤكد الإسلام على مفهوم الفطرة؛ أي إن الإنسان يولد على الفطرة الإنسانية، بكل ما فيها من خير وشر، وأن أبويه يهوِّدانه أو ينصِّرانه، ومن ثم فمفهوم الهوية باعتباره نتاجًا للوراثة، أمر غير معروف في الإسلام، وحينما يتبناه التآمريون فإنهم يتبعون مفهومًا غير إسلامي، فمن منظور إسلامي، لا يمكن أن يؤخذ يهود هذه الأيام بجريمة يهود الماضي؛ فالخطيئة

مثل الاستقامة لا تورّث؛ ولهذا نجد أن الخطاب القرآني لا يتحدث عن اليهود في عموميتهم وإنما دائما يخص (ومن أهل الكتاب)[آل عمران: ٣/ ٧٥].

وعلى كل، هذه اجتهادات أولية أطرحها تساؤلات على الفقهاء، حتى يفتح باب الاجتهاد مرة أخرى بخصوص هذه القضية، فالفقه الإسلامي نظرًا لاستقرار وضع اليهود (أهل الكتاب داخل المجتمع الإسلامي)، ونظرًا لعدم أهميتهم، ونظرًا لعدم توفر المعرفة الكافية بتطور اليهودية واليهود، لم يتعمق في الموضوع بما فيه الكفاية. والفقهاء كانوا على حقٍّ في ذلك، فكل مجتمع يحاول أن يجيب عن الأسئلة التي تهمه. لكن الوضع اختلف تمامًا الآن، فإشكالية اليهود أصبحت إشكالية مركزية.

س: أَلَا تخرج هذه الرؤية بالصراع من إطاره الديني الثابت وتدخله في إطار الصراع السياسي المتغير؟

ج: من قال إن الجهاد الديني لا يكون إلا ضد اليهود، واليهود وحدهم، واليهود دون سواهم؟! ألم يَعشِ اليهود في مجتمعاتهم الإسلامية مئات السنين دون مذابح أو اضطهاد؟ ألا تتحدث كتب التاريخ الإسلامي (وغيرها) عن عصرهم «الذهبي» في إسبانية الإسلامية؟ ألا نفتخر بذلك، وبأن العدل هو القيمة القطب في الإسلام؟ ألا يجب الجهاد ضد من اغتصب الأرض وطرد الأهل مهما كانت ملته وديانته، يهوديًا كان، أم مسيحيًا، أم ملحدًا، أو حتى مسلمًا؟ أَلَا يجب الجهاد ضد نظام عالمي جديد يريد أن يمسك العالم بقبضة حديدية ويفرض إرادته الغاشمة؟ أليس من الواجب أن نعرف عدونا: نعرف هويته وسماته الخاصة والقوانين المتحكمة في حركته، دون أن نخلد إلى الصيغ العامة التي لا تغني ولا تُسمن من جوع في الصراع اليومي، والتي تريحنا نفسيًا دون أن تحسن أداءنا الجهادي؟ إن الإسلام لم يطلب منا أن نحارب اليهود، وإنما فرض علينا أن نُحارب الظلم، وأن نُقيم العدل في الأرض. ولذا نحن نحارب الصهاينة لا باعتبارهم «يهود» وإنما باعتبارهم محتلين ومغتصبين للأرض، ولو أن من اغتصب الأرض الفلسطينية كان

مسيحيًّا أو بوذيًّا، بل مسلمًا فنحن سنحاربه، وربما بنفس الإصرار والتصميم. فالقضية ليست قضية أنهم يهود، وإنما القضية أنهم من الظالمين الذين احتلوا أرضنا واغتصبوها وطردوا أهلها، ومن ثَمَّ فبدلًا من تجنيد الجماهير وراء مقولات تآمرية (الإسلام بريء منها) لا بد من تجنيدهم وراء قيمة العدل ورفض الظلم. مع ملاحظة أن تجنيد الجماهير وراء الحرب ضد اليهود لأنهم يهود، فإنهم بذلك لن يدركوا العدو الحقيقي وهو الولايات المتحدة. كما أن من يحارب المستوطنين الصهاينة لأنهم يهود يتدرب على التعصب الديني الذي يحدد موقفه على أساس هوية الآخر الدينية، وليس على أساس أفعاله؛ ولذا سيحارب المسيحيين لأنهم ليسوا مسلمين، والشيعة لأنهم ليسوا سنة، وأي مسلم لأنه ليس أصوليًّا، وتضيع الحقيقة. إن التعصب ضد اليهود يرتد إلى نحورنا؛ لأننا سنُعمِّق رؤيتنا بشأن اليهود باتجاه الأقليات الأخرى في مجتمعاتنا ثم ضد الآخر على وجه العموم، فيسود جو من التعصب والإرهاب هل حارب المجاهدون الجزائريون المستوطنين الفرنسيين؛ لأنهم يهود أو مسيحيين؟ لقد حاربوهم لأنهم اغتصبوا أرضهم. وماذا لو ثبت أن المستوطنين الصهاينة ليسوا يهودًا، هل سنكف حينئذ عن مقاومتهم؟

س: «أنسنة» اليهود.. اجتهاد ذكي في الموسوعة يمكن أن يُزيل أوهامًا كثيرة تغلِّف صورة اليهود في العقل العربي. فهل يمكن أن تعرِّف لنا هذه الأنسنة؟

ج: أنسنة اليهود تعني رؤية اليهود باعتبارهم ظاهرة زمنية تاريخية، ومن ثم يمكن التعامل معهم سلمًا أو حربًا. و«شيطنة» اليهود هي عكس «أنسنتهم»، و«الأنسنة» تعني أن أنزعهم من عملية «الشيطنة»، وأنظر لهم بشرًا يمكن قتالهم وإلحاق الهزيمة بهم، كما يمكن الحوار معهم، كما أقول دائمًا: إذا كان اليهود والإسرائيليون بالفعل شياطين فأنا سأكون من أوائل الناس الذين ينادون بعدم الحرب معهم؛ لأنهم إذا كانوا شياطين ومسيطرين على العالم بهذا الشكل، فهل عندنا من المقدرة أن نُحارب الشيطان المسيطر الرجيم؟ لكن لو كانوا بشرًا مثلنا فإنه يمكن الحوار معهم أو قتالهم.

وثمة من يتصور أن «أنسنة» اليهود تعني «تبرئة ساحتهم» والتعاطف معهم (كما يقولون)، وفي هذا خلل ما بعده خَلل؛ أما بخصوص تبرئة ساحتهم فهذا يفترض أن الصراع عبارة عن مرافعات، وأننا نحاكم الصهاينة لا نقاتلهم، وهو أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة. أما التعاطف مع اليهود فهذا ناجم عن سوء فهم لمصطلح «أنسنة»، فقد جاء في الذكر الحكيم (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) [النساء: ٤/ ١٠٤]، ولعل ما قاله مارك توين عن اليهود يلخص موقفي وبدقة بالغة: «Jews are members of the human race، worse than that I can not say of them اليهود بشر، ولا يمكنني أن أقول ما هو أسوأ من ذلك عنهم». فالاستعمار ظاهرة إنسانية، والعنصرية ظاهرة إنسانية، والاستغلال هو الآخر ظاهرة إنسانية، والشر ظاهرة إنسانية، بمعنى أنها كلها ظواهر من صميم وجودنا الإنساني؛ ولذا يمكن رصدها وتفسير معظم جوانبها. والتفسير والفهم يختلفان عن التعاطف والتقبُّل، وهما ضروريان لفهم الواقع وتغييره؛ أي إنهما ضروريان لكل من الاجتهاد والجهاد، فمن دونهما يصبح الاجتهاد شعارات رنانة، ويصبح الجهاد انتحارًا؛ لأنه سيعني أننا نقذف بأنفسنا في نيران عدائية غامضة دون سابق معرفة.

س: كيف تعاملت مع ظاهرة معاداة السامية في إطار هذا الاتجاه نحو أنسنة اليهود؟

ج: حاولت في الموسوعة أن أبين العمليات الفكرية والذهنية الاختزالية التي يتعامل المعادون لليهود من خلالها مع الواقع الإنساني، وكيف يجردون الضحية من خصائصها الإنسانية المركبة والمتعينة بوصفها كيانًا إنسانيًّا، له سلبياته وإيجابياته، حتى تتحول إلى شيء مجرد يجسد سمة أو جوهرًا معينًا. وقد يلجأ العنصري إلى اختلاق الحقائق والأكاذيب، ولكن هذا أمرٌ نادر إذ إن الفكر العنصري، ولا سيما في عصر العلم، يحاول أن يقدم قرائن وحججًا، يستخلصها من الواقع، على صِدق مقولاته من خلال عمليات

فكرية تنحو نحو التجريد والتبسيط والتسطيح والاختزال مثل التركيز على عنصر من الواقع دون غيره، كأن يركز العنصري على سلبيات جماعة يهودية دون إيجابياتها، أو تعميم ما قد يرتكبه بعض أعضاء الجماعات اليهودية من جرائم أو أخطاء على أعضاء الجماعات اليهودية كلهم، أو إسقاط عناصر عدم التجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية لإبراز وحدتهم وتماسكهم. كما أن فصل أعضاء الجماعات اليهودية عن سياقهم الاجتماعي والحضاري وعدم النظر إلى الظواهر اليهودية والصهيونية باعتبارها ظواهر اجتماعية مرتبطة بحركيات اجتماعية لا دخل لأعضاء الجماعات اليهودية بها، يحول سلوك أعضاء الجماعات اليهودية السلبي إلى جوهر ثابت لصيق بالطبيعة اليهودية، كما أنه يجعل من هذا السلوك تعبيرًا عن رغبة يهودية متأصلة داخل النفس اليهودية؛ فالجيتو هو تعبير عن رغبة اليهود المتأصلة في عزل أنفسهم عن الآخرين، أما الربا فهو تعبير عن رغبتهم المتأصلة أيضًا في استغلال الآخرين، وهكذا، دون إدراك أن الجيتو كان في بدايته مكانًا يعيش فيه أعضاء الجماعات اليهودية وأعضاء الأقليات الأخرى، فكل أقلية لها الجيتو الخاص بها، وكان ييسر لأعضاء كل أقلية أن يقوموا بأداء شعائرهم الدينية وممارسة عاداتهم الاجتماعية وتبادل أسرار المهنة (إن كان سكان الجيتو من الحرفيين - النحاسين - الصاغة...إلخ)، كما أن الجيتو كان يعد أسلوبًا في الإدارة ولجمع الضرائب لجأت له الطبقات الحاكمة في المجتمعات التقليدية حيث كانت الجماعة (لا الفرد) مسئولة أمام هذه السلطات. أما الربا فقد كانت آليات المجتمع الغربي في العصر الوسيط تتطلبه، وكانت ثمة أسباب اقتصادية وثقافية ودينية أدت إلى اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بهذه المهنة البغيضة، ومع هذا كانت جماعات أخرى غير يهودية مثل اللومبارد والكوهارسين قد اضطلعت بالوظيفة نفسها، وكانت تُقابل بالكره نفسه الذي يُقابل به أعضاء الجماعات اليهودية، يتجاهل الموقف العنصري هذا كله ويؤكد رغبة اليهود في العزلة واستغلال البشر.

(٢)
الهولوكوست

س: فلنبدأ بالحديث عن الكلمة نفسها، كلمة «هولوكوست» هل هي كلمة عبرية؟

ج: لا، «هولوكوست» كلمة يونانية تشير إلى إحدى الشعائر التي كانت تمارس في الهيكل إبان المرحلة التي أُسميها العبادة القُربانية الإسرائيلية، والتي انتهت بهدم الهيكل عام ٨٠ ميلادية، فاليهودية الأرثوذكسية لم تكن قد ظهرت بعدُ. وكان العبرانيون/ اليهود القُدامى يقدمون القرابين في الهيكل فكان الكهنة يحرقون بعضها، ويأخذون جزءًا يبقونه لأنفسهم ليأكلوه. أما قربان الهولوكوست فكان يحرق حرقًا كاملًا غير منقوصٍ على المذبح، ولا ينال الكهنة منه شيئًا. وقد كان هذا الطقس من أكثر الطقوس قداسة، وعادة ما كان يقدم تكفيرًا عن خطيئة الكبرياء. وقد اعترتني الدهشة حين عرفت كل هذه التفاصيل لهذه التسمية، فهل هذا يعني أن النازيين حرقوا اليهود حرقًا غير منقوصٍ؟

أعتقد أن الهدف من استخدام هذه الكلمة اليونانية، التي دخلت اللغات الأوربية كلها حسب علمي، هو إضفاء مسحة من القداسة على الواقعة التاريخية، ومن ثَم يتم عزلها عن سياقها التاريخي والاجتماعي والإنساني، أما بخصوص العبرية فتستخدم الكلمة أحيانًا، وأحيانًا أخرى تستخدم كلمة «شوا» والتي تعني «المَحْرقة»، وهنا نسأل لِمَ لم تستخدم كلمات مماثلة في اللغات الأوربية مثل extermination؟ أعتقد أن الهدف هو، كما أسلفت إحاطة الظاهرة التاريخية بهالة من القداسة، وأنا أفضل استخدام مصطلح «الإبادة النازية ليهود أوربا».

س: كيف تأتي حدوث هذا التمييز العرقي الإبادي داخل حضارة تتبنى الديمقراطية وحقوق الإنسان كالحضارة الغربية؟

ج: ثمة علاقة بين الحداثة الداروينية (المنفصلة عن القيمة) والنزعة الإبادية في الحضارة الغربية الحديثة. ولعل أول الأسباب أن العلمانية الشاملة، التي تحوِّل العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية، قد أمسكت بتلابيب العالم وبرؤية الإنسان الغربي له، فانحسرت القيم الأخلاقية والدينية وحلَّ محلها الرؤية المادية. ومِن ثَم لم يعُد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني أو أخلاقي أو إنساني (متجاوز للقوانين الطبيعية / المادية)؛ ولذا لم يكُن ثمة مفرٌّ من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامنٍ (حال) فيهم، وليس مفارقًا لهم، ولهذا، طرح الأساس البيولوجي العرقي أساسًا وحيدًا وأكيدًا لتصنيفهم، وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية شبه علمية أخرى وهي الداروينية الاجتماعية، وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق والتي تقسِّم الجنس البشري بأسره إلى أعراق لكل منها سِماته التي يمكن تحديدها علميًّا، ومن ثَم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عُليا: الآريون وبخاصة النورديون، وأعراق دُنيا: الزنوج والعرب واليهود، وتفوق العنصر الآري الأبيض على الشعوب الأخرى كلها يعطيه حقوقًا مطلقة كثيرة تتجاوز أي منظومات قِيَمية وأي حديث عن المساواة.

ثم تزايد الإيمان بأن التراكم المعرفي العلمي والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القِيمة) سيجعل الإنسان قادرًا على التحكُّم في ذاته وفي واقعه تمامًا، وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية)، وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة (المستمدة من عالم الطبيعة/ المادة البسيطة) على الواقع الاجتماعي والإنساني، فيتخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجيًّا)، ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف

عن الإنسان كما تعرفه). ومن هنا ظهر الاهتمام بعلوم جديدة مثل تحسين النسل والهندسة الوراثية التي صبت في النظرية المعرفية.

وقد صاحب ذلك كله؛ تزايد معدلات النسبية المعرفية، فعالم الطبيعة / المادة هو عالم حركي لا ثبات فيه ولا حدود، لدرجة أصبح الإنسان يشك في وجود أي حقيقة يقينية، أو في أي معايير أخلاقية، كما تزايد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة، والتجريب عن العقل، بشكل أصبح التجريب، المنفصل عن أي غائيات إنسانية أو أخلاقية، هدفًا في حد ذاته. وترجم هذا نفسه إلى ما يسمى العلم المُحايد، المتجرد تمامًا من القيمة.

س: هل ثمة عناصر أخرى تشكل هذه التربة الخصبة للنزعة الإبادية؟

ج: أعتقد أن من أهم العناصر تزايد معدلات التجريد في المجتمع؛ أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيز على الصفات العامة فيه، والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية، بشكل يتحول فيه الأفراد إلى كمٍّ يمكن قياسه. أدى هذا الاتجاه إلى تحول الواقع إلى كمٍّ لا خصوصية ولا قداسة له، وإلى وحدات كمية متراصة ليست بالضرورة مترابطة. وقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئًا بعيدًا للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر. ولنضرب مثلًا من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة: تُقسّم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة؛ كل وظيفة تُشكِّل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب؛ ولأنها مجرد حلقة، فهي محايدة تمامًا ولا معنى لها؛ إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر. ومن ثم، تظل النهاية الأخلاقية (حرق البشر وإبادتهم) بعيدة للغاية، والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أي أعباء أخلاقية، ومن ثم تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس، ولا يتحمل أي شخص مسئولية إبادة البشر؛ إذ إن مسئولية العامل أو الموظف مسئولية فنية تكنوقراطية وليست مسئولية أخلاقية.

ومن المظاهر الأخرى للتجريد في المجتمع الحديث ممارسة العنف عن طريق مؤسسات متخصصة تقوم بتحقيق أهدافها بشكل مؤسسي رشيد (أي مقنن) ومنظم لا دخل فيه للعواطف. وعادة ما تتم عمليات التعذيب وغيرها من أعمال العنف بعيدًا عن الناس في أطراف المدينة، داخل مكاتب أنيقة تم تقسيمها بعناية فائقة، وعادة ما يتم التعذيب بأساليب علمية فلا يترك أثرًا على جسد الضحايا، وإن تم قتلهم فعادة ما يمكن التخلص من جثثهم بطريقة نظيفة عالية الكفاءة.وتظهر عمليتا التجريد والترشيد في استجابة البشر للعنف والإبادة؛ إذ تحل الحسابات الرشيدة محل الاستجابة التلقائية والعواطف، فيمكن للإنسان أن يكبت أي أحاسيس بالشفقة أو الانفعال الغريزي داخله أو الإحساس التلقائي المباشر ويحل محل ذلك كله قدر عالٍ من الانضباط والتخطيط.

س: هذا التحول تم على مستوى القيم والرؤية، هل حدث تحوُّل على مستوى هيكل المجتمع ومؤسساته؟

ج: لعل أهم تطور هو تعاظم قوة الدولة المركزية وهيمنتها وتحويلها ذاتها إلى مطلقٍ، ومن ثم أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية (ظالمة كانت أم مظلومة) مسألةً لا تقبل النقاش ولا تخضع لأي معيارية، والانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق هو الخيانة العظمي وعقوبتها الإعدام.

وقد طورت الدولة المركزية مؤسسات بيروقراطية قوية كانت ترى أنها تعبِّر عن مصلحة الدولة (التي تعبِّر عن إرادة الشعب)، جعلت جُل همها أن تنفذ المطلوب منها تنفيذه بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة، دون أخذ أي اعتبارات خُلقية في الاعتبار. وقد تولت هذه المؤسسات كثيرًا من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد، مما يعني تزايد ضمور الحس الخلقي وانكماش ما يسمى «رقعة» الحياة الخاصة.

س: ولكن كيف يُذعن البشر لمثل هذه الرؤية، كيف يمكن لإنسان أن يساهم في إبادة الآخرين؟

ج: الأمر بالفعل يحتاج إلى تفسير. أعتقد أن الحضارة الغربية الحديثة نجحت في القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لِمطلقٍ خُلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ (ومن ثم فهي شخصية تعيش في ثنائيات وتعددية)، وأحلت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة، التي لا ولاء عندها لأي ثوابت أو مطلقات والتي تحرَّرت من أي قيم أو غائية. هذه الشخصية يمكن أن تُترجم نفسها إما إلى شخصية السوبرمان، الدارويني الإمبريالي الذي يوظِّف العالم (الطبيعة والإنسان) لصالحه، وإما إلى شخصية السبمان (دون الإنسان subman)، شخصية نمطية تعاقدية برجماتية ذات بُعد واحد، تستبطن النماذج السائدة في المجتمع والتي تروِّجها الأجهزة الأمنية للمجتمع وضمن ذلك الإعلام، وهي شخصية نسبية هزيلة مهتزة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها؛ ولذا يتحدد توجهها حسب ما يصدر لها من أوامر تأتي لها من عَلٍ، ويتحدد ولاؤها استنادًا إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مدنيًّا وقوميًّا وعلميًّا وموضوعيًّا (من خلال الجهات المسئولة واللجان المتخصصة والسوبرمن)، ومن ثم يمكنها أن تُطيع الأوامر الخارجية وتنفذ التعليمات بدقة متناهية. وهي شخصية ذات عقل أداتي لا تفكر في الغايات، وإنما في الوسائل والإجراءات وحسب، وفي أحسن السُّبل لإنجاز ما أوكل إليها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقي أو هدفها الإنساني.

وحينما ظهرت هذه الشخصية، أصبح من الممكن أن تُقرر الدولة وأعضاء النخبة إبادة عناصر غير نافعة في المجتمع (الفائض البشري)، أو في وطن آخر، أو قارة بأسرها تشكل مجالًا حيويًّا للدولة صاحبة القرار. ولم يعُد هذا جريمة؛ إذ لا توجد قوانين مطلقة خارجة عن الدولة، أو هي «جريمة قانونية مشروعة»، إن صحَّ القول، تكتسب مشروعيتها من أن الدولة توافق عليها وتباركها، بل

تشجع عليها وتضرب على يدِ كلِّ مَن يعارضها أو يحجم عن اقترافها.

وهناك على كل المؤسسات المتخصصة في تنفيذ الجريمة، وهي مؤسسات بيروقراطية منفصلة عن القيمة، تتجاوز الخير والشر، ولا تسأل عن السبب، وإنما عن الوسيلة (أي إنها ملتزمة بالترشيد الإجرائي وأخلاقيات الصيرورة)، والعاملون في مثل هذه المؤسسات لا يتخذون قرارَ قتل الأطفال، على سبيل المثال، بأنفسهم، ولا ينفذون جريمة القتل بأيديهم. فاللجان المتخصصة التي تضم السوبر من تجتمع على أعلى مستوى وتناقش المسألة بطريقة علمية وبيروقراطية وفي لغة محايدة، وتتخذ القرارات في ضوء ما تراه هي الصالح العام. ثم يصدر الأمر في نهاية الأمر، لا بالقتل أو التصفية الجسدية، وإنما بالقيام بعمليات «التطهير العرقي» أو «الحل النهائي» أو خدمة «مصلحة الدولة العُليا». ثم يُقسَّم القرار إلى مئات التفاصيل التي يقوم بها آلاف الموظفين التنفيذيين من الجنود والعمال والفلاحين والمهنيين الذين لن يشعُروا بهذا الطفل الذي سيقتل في غابات فيتنام، أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، أو في معسكرات الاعتقال النازية. وحتى إذا شعَر الإنسان في أعماقه بلا أخلاقية القرار، فسوف يكون قد تعلَّم من الآليات ما يجعله قادرًا على إسكات حسِّه الخُلقي. فالإنسان الحديث أصبح بوسعه - بحسه العملي- ومن خلال الحسابات الرشيدة والتسويغ العلمي الموضوعي المحايد الصارم والنسبية الكاملة التي تجعل الأمور متساوية، تسويغ أي شيء وقبول أي وضع، وبذا يمكنه التضحية بالجزء في سبيل الكل، والأقلية في سبيل الأغلبية، والمرضى في سبيل الأصحاء، والعجزة في سبيل الشباب. ومع سيطرة حب البقاء، باعتبار أن البقاء قيمة مطلقة، فإن الجميع يمكن أن يتعاونوا مع الدولة من قبيل تقليل الخسائر (إذ لا توجد قِيم مطلقة أو مرجعية متجاوزة يمكن للفرد أن يؤمن بها ويموت من أجلها ويحاكم البشر والأمم كافة من منظورها)، ثم تتكفل المؤسسات الإعلامية للدولة بتصفية كل ما تبقَّى من أحاسيس إنسانية أو أخلاقية «متخلِّفة «تشكل ثنائية لا تريد أن تختفي.

س: هل كنت قادرًا على طرح هذه الرؤية حين كنت في «الولايات المتحدة»؟

ج: نعم، كنت أخبر مستمعيَّ من اليهود وغير اليهود أن المنطق النسبي الذي ينكر القيم الأخلاقية والإنسانية المشتركة والتاريخ ولا يُعلي إلا من شأن الصيرورة والإجراءات المنفصلة عن القيمة، يؤدي بالضرورة إلى معسكرات الاعتقال وإلى أفران الغاز. فالدولة النازية قد طرحت رؤية أسطورية للتاريخ الألماني والإنسان الألماني شبيهة من بعض النواحي بالأسطورة الصهيونية. ولكن لا يحق لنا أن نتساءل عن مدى صدق هذه الأسطورة أو كذبها؛ ولا عن مدى تكلفتها الإنسانية، فأخلاق الصيرورة البراجماتية لا تحكم على شيء خارج صيرورته أو حدوده، وإنما تنطلق من الأمر الواقع. وانطلاقًا من هذا الأمر الواقع المتجرد من كل الأوهام أو الأعباء الأخلاقية بدأت النازية في تشييد دولتها القوية، وأفران الغاز.

ومن المعروف أن أفران الغاز هذه لم تُشيَّد في بداية الأمر من أجل اليهود، وإنما من أجل العجزة وضعاف العقول وغيرهم من الناس عديمي الجدوى وعديمي الفائدة، الذين كان يطلق عليهم اصطلاح «أفواه تأكل ولا تنتج» «useless eaters». ولا يمكن الاعتراض، من منظور مادي إجرائي، على أفران الغاز فهي لن تقضي على شيء نافع من منظور مادي، وإنما ستقضي على شيء لا نفع من ورائه بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة؛ أي دراسات الجدوى العلمية المادية المحايدة المنفصلة عن القيمة (Value free). ثم استخدمت أفران الغاز بعد ذلك للقضاء على الجنود الألمان الذين كانوا يسقطون جرحى في المعارك؛ لأن عملية تمريضهم وإطعامهم كانت تمثل عبئًا على الاقتصاد الوطني.

ثم طبق هذا المنطق العلمي المادي بعد ذلك على اليهود باعتبارهم أقلية عديمة الفائدة؛ فيهود شرق أوربا، الذين تدفقوا على ألمانية، كانوا يمثلون بالفعل عبئًا على الاقتصاد الوطني الألماني، فأعداد كبيرة منهم كانت لا تمتلك المهارات التي يتطلبها الاقتصاد الألماني، كما كان بينهم نسبة كبيرة من

المشتغلين بالمهن الهامشية مثل الدعارة وتهريب المخدرات. ولكن هذا كله لا يَهُم، فمربط الفرس هو رؤية ذهبت إلى أن اليهود لا يَصْلحون أن يكونوا جزءًا من المشروع النازي لإعادة بناء ألمانيا. وقد ساند موقفهم هذا ودعمه مجموعة من البحوث العلمية التي أنجزها مجموعة كبيرة من العلماء النازيين «العباقرة». وقد حاول النظام النازي جاهدًا، في بداية الأمر، التخلص من يهود شرق أوربا (خاصة بولندا) بإرسالهم إلى بلادهم بولندا في قطارات مكدسة بهم، لكنها أوصدت أبوابها دونهم، مثلما فعلت الولايات المتحدة من قبل ومن بعد.

بعد دراسة الجدوى وبعد محاولة التخلص منهم بالوسائل العادية أصبح من الضروري اتخاذ إجراءات أخرى ضد اليهود وغيرهم من العناصر التي لا تتسم بالكفاءة مثل الغجر وأبطال المقاومة في فرنسا. (لم يكن اليهود هم الضحية الوحيدة أو الرئيسية للكفاءة النازية، ولكنني كنت أركِّز عليهم وحدهم؛ لأن جمهوري في الولايات المتحدة هناك كان يتصور ذلك، ولم أكن أريد الدخول في مناقشة جانبية). كانت معسكرات الاعتقال النازية قمة (أو هوة) من قمم انتصار الكفاءة والإجراءات المنفصلين عن القيمة، فالمعسكرات كانت تقع على مقربة من بعض المدن وليس داخلها، ربما لتحاشي تعطيل المرور وحتييتم نقل المعتقلين بسهولة ويُسرٍ. ولعل العناصر الأمنية أدت هي الأخرى دورها. وحينما كان يصل المعتقلون هناك كانت الإجراءات في غاية الدقة والرشد؛ إذ كان يقسم اليهود إلى أطفال وعجائز ونساء وغير قادرين على العمل، ثم رجال ونساء قادرين على العمل، وكان كل معتقل يُعطَى رقمًا حتى يسهل تصنيفه والاستفادة منه على أكمل وجهٍ. وكان المعتقلون يقفون صفوفًا في الصباح حتى تتم عملية فرزهم لتقرير الصالح من الطالح والنافع من عديم الجدوى، بل كان يفرض عليهم القيام ببعض التمرينات الرياضية حتى يحتفظوا بمستوى عالٍ من اللياقة البدنية.

وكان مدير المعسكر يحاول أن يعظم الربح بالوسائل الممكنة كلها مثل

أعمال السخرة بالنسبة إلى القادرين على العمل. أما العناصر عديمة الفائدة، فكان يتم تصفيتها، ولكن ما تبقى منها؛ أي الجسد الإنساني، فإنه كان يتم توظيفه بطرق مختلفة: حشو الأسنان الذهبي يُرسل إلى الخزانة الألمانية ليساعد على ازدهار الاقتصاد الوطني، أما الشعر البشري فيصنع منه فرش أحذية من أجود الأصناف، ويقال: إن الشحم البشري كان يستخدم في صناعة بعض أنواع الصابون. وإن كان من الباحثين من يُنكر ذلك.

إن الحضارة النازية هي الحضارة العلمانية الشاملة الوحيدة بحق؛ لأنها نزعت القداسة عن كل شيء، وحكمت على الواقع بمقاييس مادية متحررة عن القيمة، ولم يستثن أحد من المَقْصَلة العلمية الإجرائية الباردة: لا العجائز ولا الأطفال ولا حتى الجنود الجرحى. ويا لها من حيادية علمية تستحق الإعجاب والتقدير، تمامًا مثل إعجاب الغرب بالدولة الصهيونية التي تستند صيرورتها إلى مقصلة علمية كفء صنعت في الولايات المتحدة!

س: هذه الرؤية الفكرية المجردة التي تقوم بتفكيك الإنسان وتحويله إلى مادة استعمالية، كيف تحوّلت من فِكر إلى حادثة تاريخية؟

ج: تحققت هذه الرؤية المادية أول ما تحققت بشكل جزئي وتدريجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشِقَّيها الاستيطاني والإمبريالي. فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة، وحوَّل الإنسان الغربي نفسه إلى سوبرمان له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام؛ طبيعية أو بشرية. فاعتُبرت شعوب آسيا وإفريقيا (الصفراء والسوداء) مجرد كائنات دون البشر (سبمن sub-men)، مادة بشرية توظَّف في خدمته، كما اعتبر العالم مجرد مادة طبيعية توظف في خدمة دول أوربا وشعوبها البيضاء المتقدمة، واعتبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدِّر له مشاكله، بل لم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وإفريقيا وشعوب العالم الغربي، فالجميع

مادة بشرية، نافعة أو غير نافعة، ضرورية أو فائضة، فكان العمال يُنظر إليهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة، ومصدرًا لفائض القيمة، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة، وصُنف المجرمون (وفي مرحلة أخرى، المعوقون والمسنون) مادة بشرية غير نافعة. وهذه المادة يجب أن «تعالج»، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد «الحلول» الأخرى، إن استلزم الأمر).

ولنركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم، ولا سيما في أمريكا الشمالية، وهي تجربة كانت تفترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كئودًا في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي. وقد قبلت الجماهير الأوربية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد؛ لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج.

وتعد العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية)؛ عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية، هي أولى الإيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة، فكان هؤلاء المتطهرون يُشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة أو الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب». وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين»، وللسكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في أرجاء العالم كلها متجاهلين تمامًا القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء).

وكان هذا كله يعني في واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر، أو الحرب الجرثومية (كأن تترك أغطية مصابة بالجدري كي يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تمامًا)، وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تُعطي مكافأة مالية لكل

من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله. واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا، بل تصاعدت بعد عام ١٨٣٠ حين أصدر الرئيس جاكسون قانون ترحيل الهنود، والذي تم بمقتضاه تجميع خمسين ألفًا من هنود الشيروكي من جورجيا وترحيلهم (ترانسفير) في أثناء فصل الشتاء سيرًا على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصص لهم في أوكلاهوما، وقد مات أغلبهم في الطريق. وهذا شكل من أشكال الإبادة عن طريق التهجير (ترانسفير)، فهو شكلًا ترانسفير من مكانٍ إلى آخر، ولكنه فِعلًا ترانسفير من هذا العالم إلى العالم الآخر. ووصلت العملية الإبادية إلى قمتها في معركة (ونديد ني Wounded Knee الركبة الجريحة) عام ١٨٩٠. وكانت الثمرة النهائية لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبقَ سوى نصف مليون من مجموع السكان الأصليين الذي كان يقدر بنحو ٦,٥ مليون عام ١٥٠٠ لدى وصول الإنسان الأبيض؛ أي إنه تمت إبادة ستة مليون مواطن أصلي (وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه الأيام)، إذا لم نحسب نسبة التزايد الطبيعي. (يقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادته منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين). وقد تكرَّر النمط نفسه في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين ٢مليون عند استيطان الإنسان الأبيض للقارة في عام ١٧٨٨ لم يبقَ منهم سوى ٣٠٠ ألف. ولا تزال عملية إبادة السكان الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى (وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة).

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة. وقد تمَّ نقل عشرة ملايين تقريبًا، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حَتْفَهم؛ إما من خلال أسباب طبيعية بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية، وإما من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض.

س: هل ترى أن النازية تنتمي لهذا النمط؟

ج: الإمكانية الإبادية الكامنة التي تحققت بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية، تحققت بشكل نماذجي كامل في الإبادة النازية أو في اللحظة النازية النماذجية في الحضارة الغربية؛ أي اللحظة التي تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور فاضح، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت الجميع، وضمنهم المدافعون عن النموذج في صوره الأقل تبلورًا والأكثر اعتدالًا). لقد أدرك النازيون تمام الإدراك أن نظامهم النازي وممارساته الإبادية هما ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي الحديث، وقد بين كاتبوا سيرة حياة هتلر أن أولى تجارب الإنسان الغربي الاستعمارية الاستيطانية؛ أي تجربته في أمريكا الشمالية، كانت تجربة مثالية أوحت له بكثير من أفكاره التي وضعها موضع التنفيذ فيما بعد. وكما يقولُ المؤرخ جون تولاند: إن هتلر، في أحاديثه الخاصة مع أعضاء الحلقة المقربة إليه، كثيرًا ما كان يعبِّر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر. فقد قاموا بمحاولة ترويضهم عن طريق الأَسْر، أما هؤلاء الذين رفضوا الرضوخ فكان يتم إبادتهم من خلال «التجويع أو القتال غير المتكافئ». ويقول يواقيم فست: إن حروب هتلر القارية المستمرة كانت محاكاة للنموذج الاستعماري الغربي في أمريكا الشمالية. وقد صرح هتلر في إحدى خطبه بأنه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكا الوسطى والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقًا من أي سندٍ قانوني وإنما من الإحساس الداخلي المطلق بالتفوق. فاستيطان الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية، كما أكد هتلر، لم يكن له أي سند ديمقراطي أو دولي، وإنما كان ينبع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض؛ ولذا في مجال تسويغه للحرب الشرسة التي شنَّها على شرق أوربا قال هتلر: «إن ثمة واجبًا واحدًا: أن نؤلمن (أي نجعلهم ألمان) هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان

الأصليين باعتبارهم هنودًا حمرًا». وأكد هتلر أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوربا لا تختلف كثيرًا عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية في مواجهة الهنود الحمر، ومن هنا كان هتلر يُشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها أرضًا عذراء و«صحراء مهجورة «(«أرض بلا شعب» في المصطلح الصهيوني). ومن أهم عمليات الإبادة ما تم على يد البلجيكيين في الكونغو. في رواية خيالية كتبها عالم اللغة البريطاني اليهودي جورج ستاينر يقول هتلر دفاعا عن نفسه: «أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء، بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك، كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك في الغابات - إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعًا أو مِن مرض الزهيري حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيبوا عليَّ يا سادة. أم يجب عليَّ أن أُذكركم؟ عشرون مليونًا. هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد في المهد صبيًّا؟ في لعبة الأرقام السود لست أسوأ اللاعبين. ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفًا وعددًا.

وقد بيّن ألفريد روزنبرج، في أثناء محاكمته في نورمبرج، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الإمبريالي، فأشار مثلًا إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كتشنر، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، وأن رؤيته العرقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية؛ فالنازية -كما أكد روزنبرج لمحاكميه- جزء من الحضارة الغربية.

س: أنت إذن تذهب إلى أن الإبادة نمط متكرر، يضرب بجذوره في الحضارة الغربية الحديثة، وأنها لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكرية للعالم الغربي الحديث. هل استمرت هذه الرؤية ولم تخضع للمراجعة بعد ما قام به النازيون؟

ج: نعم، انظري على سبيل المثال، إلى سلوك الحلفاء، أعداء النازيين

الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب! إرنست همنجواي، الكاتب الأمريكي، كان يطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على العنصر الألماني. وفي عام ١٩٤٠ قال تشرشل: إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها. وقد عبَّر كاتب يسمي كليفتون فاديمان عن هذا الموقف الإبادي بشكل متبلور، ولم يكن فاديمان هذا شخصية ثانوية في المؤسسة الثقافية الأمريكية فقد كان محرّر مجلة النيويوركر (وهي من أهم المجلات الأمريكية) ورئيس إحدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبان الحرب بغرض الحرب النفسية، وقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان (تشبه في كثير من الوجوه الحملة التي شنها الغرب ضد العرب في الستينيات والتي يشنها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر) وجعل الهدف منها إضرام الكراهية لا ضد القيادة النازية وحسب، وإنما ضد الألمان كلهم... فالطريقة الوحيدة لأن يفهم الألمان ما نقول هو قتلهم... فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة... وإنما هو التعبير النهائي عن أعمق غرائز الشعب الألماني، فهتلر هو تجسُّد لقُوى أكبر منه، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها ٢٠٠٠ عام ، ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيرًا عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر (الإسلامي) الأخضر ومن قبله الخطر الأصفر.

وقد اشترك بعض الزعماء والكُتاب اليهود في هذه الحملة، فصرح فلاديمير جابوتنسكي عام ١٩٣٤ بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانية، «فالشعب الألماني بأسره يشكل تهديدًا لنا». ولكن يمكن القول بأن كتاب الكاتب الأمريكي اليهودي تيودور كاوفمان بعنوان: «لا بد من إبادة ألمانيا» هو من أهم الكُتب المحرضة على الإبادة، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية وبينت أبعاد المؤامرة الإبادية ضد الألمان، وهو ما شكل تسويغًا لفكرة الإبادة النازية نفسها، وقد ورد في هذا الكتاب أن الألمان كلهم، مهما كان توجههم السياسي (ولو كانوا معادين للنازية، أو شيوعيين، أو حتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة؛ ولذا لا بد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب

ليقوموا بتعقيمهم حتى يتسنَّى إبادة الجنس الألماني تمامًا خلال ستين عاما!

وكان ثمة حديث متواتر عن ضرورة «هدم ألمانيا»، وعن «تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية (بالإنجليزية: باستـوراليـزيشن pastoralization)؛ أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد علي وكما حدث في العراق فيما بعد). ونجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة، وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل، كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب، فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد، فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS وهي اختصار عبارة «ديس آرميد إنيمي فورسيز disarmed enemy forces» أي قوات معادية تم نزع سلاحها، بدلًا من تصنيفهم «أسرى حرب»، وإعادة التصنيف هذه كانت تعني في واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب، وبالفعل قضى ٧٩٣,٢٣٩ جنديًّا ألمانيًّا نَحْبَهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥، كما قضى ١٦٧ ألفًا نَحْبَهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجة للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء في دراسة لجيمس باك James Bacque)، وفي الوقت ذاته كان يوجد ١٣,٥ مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم. (هل هذا يختلف كثيرًا عما يحدث في فلسطين؟).

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية، بل كانت هناك إبادة ثقافية، فقد قام الحلفاء بما سمي «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» (بالإنجليزية: دي نازيفيكيشن denazification) للقضاء على النازيين في الحياة العامة، فأقيمت ٥٤٥ محكمةً دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفًا. وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي

معظم الذكور الألمان البالغين)، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف، أجريت لهم محاكمات عاجلة، وأدين تسعمائة وثلاثون ألفًا منهم، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ١٩٦,٢٨٢ حكمًا بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي، وأصدر البريطانيون ٢٢,٢٩٦ حكمًا والفرنسيون ١٧,٣٥٣ حكمًا، والروس ثمانية عشر ألف حكم. وبحلول عام ١٩٤٥، كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألماني من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية، وزُج بعدد أكبر من هؤلاء في السجن، (ألم يحدث شيء مثل هذا في العراق؟)

وتظهر النزعة الإبادية نفسها في استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتحطيم مدن اليابان، الواحدة تلوَ الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ. فخلال عشرة أيام في آذار/ مارس ١٩٤٥، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلغ عددها ١١,٦٠٠، تم خلالها إغراق ٣٢ ميلًا مربعًا من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل، وهو ما أدى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسبَّبت في مقتل ١٥٠,٠٠٠ شخص، أما الغارات الجوية على طوكيو يوم ٢٥ أيار/ مايو ١٩٤٥، فتسببت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى إن ملاحي الطائرات المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام. وأدت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل.

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان «يخشى» ألَّا يجد أي هدف سليم يمكن أن يلقي عليه بقنابله ويدمره، ومع أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدءوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار في تطويرها وهو ما يعادل ٢٦ بليون دولار بحسابات

اليوم). كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين؛ ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة، ولا سيما أن الدُّب الروسي كان قد بدأ في التضخم. ومن ثم، كان لا بد من إلقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير. وكان الجنرال جروفز «محظوظًا» (كما تقول بعض الدراسات) إذ وجد ضالَّته المنشودة في هيروشيما التي كان يقطنها ٢٨٠ ألف نسمة، ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تحول المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ إنها ستركز الحرارة. وبالفعل قتل فور وقوع الانفجار ٧٠ ألف مدني، ومات ١٣٠ ألفًا آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع. وكأن هيروشيما لم تكن كافية، فأُلقيت قنبلة أخرى على ناجازاكي، أدت هي الأخرى إلى مقتل ٧٠ ألفا آخرين، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقوا مَصْرعهم فيما بعد. فما بين ألمانيا واليابان ثم إبادة وإصابة حوالي مليوني شخص معظمهم من المدنيين.

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفييتية الإسلامية). وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا، أما الآن فهو لا يكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة، ومصيره بهذا لا يختلف كثيرًا عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية، وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور. وكانت الإبادة تأخذ أشكالًا مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة. وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليونًا مات منهم ١٢ مليونًا على الأقل في معسكرات الجولاج، هذا حسب التقديرات المحافظة، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون: إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليونًا! وبعد حوالي نصف قرن استمرت عمليات الإبادة والتطهير العرقي في البوسنة والهرسك والشيشان،

ولا تزال الدولة الصهيونية تحاصر الشعب الفلسطيني وتجوِّعه وتذبحه، في حين تُراقب الدول الغربية هذه الجريمة بحياد يبعث على الغثيان.

س: إذا كانت إبادة الآخر آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية، فكيف تفسر احتفاظ الإبادة النازية لليهود بمركزية خاصة؟

ج. هذه المركزية، فيما أعتقد، تعود إلى حداثة الإبادة النازية ومنهجيتها، الأمر الذي جعلها تُقِضُّ مضجَع الإنسان الغربي؛ فمشروعه الحضاري يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقرية حضارته تكمن في الترشيد المتزايد. كما أن الإبادة الاستعمارية كانت تتم دائمًا «هناك»، بعيدًا عن أوربا، في آسيا وإفريقيا، أما الإبادة النازية فتمت «هنا» على أرض الحضارة الغربية، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العاديين، كما أن العناصر التي أُبيدت لم تكن داكنة اللون أو صفراء، وإنما «مثلنا تمامًا»، وأخيرًا، يشغل اليهود مكانة خاصة في الوجدان الغربي الديني والحضاري؛ فاليهودي يقف دائمًا على الهامش، موضع تقديس وكره عميقين، وحينما صرعته الإبادة النازية تنبَّه الإنسان الغربي إلى الإمكانية الكامنة، التي تقف فاغرة فاهَا، في قلب حضارته الحديثة.

س: ما هي التضمينات التي يجب أن يحتويها الخطاب العربي بخصوص الهولوكوست؟

ج: ابتداء يجب أن تؤكد أننا لسنا طرفًا في قضية الهولوكوست، فهذا حدَث ثم في العالم الغربي، وعلى الحضارة الغربية أن تدفَع الثمن وحدها وليس نحن، هذه نقطة الانطلاق. كما يجب أن نضيف أننا وجدنا أنفسنا طرفًا في الحوار بسبب توظيف الهولوكوست محاولة تسويغ الاحتلال الصهيوني وحماية مغتصبي الأراضي الفلسطينية، فقد ادعوا أن أفواجًا بشرية يهودية فرت من ألمانيا النازية هربًا من الهولوكوست، وأنه بعد الحرب كان يوجد عديد من اليهود ليس لهم مأوًى آخر، وأن فلسطين كانت هي المأوى

الوحيد، وأنها أعطيت لليهود وضحايا المحرقة النازية تعويضًا لهم عمّا حدث في ألمانيا. وهذه كلها أكاذيب وتلفيقات؛ فالمشروع الصهيوني لاحتلال فلسطين وطرد سكانها وتوطين كتلة بشرية غربية فيها هو مشروع استعماري غربي، ظهرت ملامحه الفكرية في أواخر القرن السادس عشر، وتبلور تمامًا في منتصف القرن التاسع عشر في إنجلترا على يدِ لورد شافتسبري وسير لورانس أوليفانت، وهما وثيقي الصلة بالدوائر الاستعمارية، وكلاهما غير يهودي، بل كاره لليهود. وقد تحولت هذه الأفكار الصهيونية إلى أجندة سياسية حين قرَّر الغرب تقسيم الدولة العثمانية والتخلص من الفائض البشري اليهودي عن طريق تصديره خارج أوربا. وقد عقد المؤتمر الصهيوني الأول في ١٨٧٩، ثم صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ الذي وضع حجر الأساس للمشروع الصهيوني، ثم وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني عام ١٩٢٣ وأسست الوكالة اليهودية؛ وهي الذراع التنفيذي للحركة الصهيونية. هذه الظواهر والقرارات السياسية اتخذت كلها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قبل ظهور النازية بعشرات السنين، وقبل أن يكون هناك أي حديث عن إبادة أو مذابح.

لقد وجد العرب أنفسهم طرفًا في الحوار بخصوص الهولوكوست نظرًا لأنَّ الغرب أقحم الجريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يسوِّغَ غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي، زاعمًا أنه فعل ذلك تعويضًا لليهود عما لَحِق بهم من أذًى داخل التشكيل الحضاري الغربي، وهذه أكذوبة واضحة، فلو كان الدافع وراء المشروع الصهيوني هو بالفعل الإحساس بالذنب، لاستقطع العالم الغربي قطعة من ألمانيا وأسسوا لليهود دولة فيها، كما اقترح الملك آل سعود على الرئيس روزفلت، أو لأرسلَ قوات دولية لتتأكد من أن يهود أوربا سيحصلون على حقوقهم الدينية والمدنية. فالتكفير عن جريمة ما لا يتم عن طريق ارتكاب جريمة أخرى؛ أي احتلال فلسطين وطرد شعبها، ولا يمكن محو أثر معسكرات الاعتقال والمجازر

النازية عن طريق مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، والمستوطنات الاستعمارية في الضفة الغربية، والمجازر في دير ياسين وكفر قاسم وجنين، وعن طريق دعم الكيان الصهيوني العنصري من خلال التعويضات!

س: حاولت الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصوِّر المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين على أنه كان دعمًا مباشرًا أو غير مباشر للإبادة النازية؛ لأنها سعت للحيلولة دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين؟

ج: مثل هذه الحجة هي الأخرى لا أساس لها من الصحة؛ فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى، وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها، تحت رعاية العالم الغربي، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية، فالغرب نفسه أوْصَد أبوابه دون المهاجرين اليهود، الفارِّين من الاضطهاد النازي.

كما تحاول الدعاية الصهيونية أن تبيِّن أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفًا مع النظام النازي. وهذه أُكذوبة أخرى، فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فمعظم بلدان العالم العربي على أي حال كانت واقعة تحت شكل من أشكال الهيمنة الغربية).

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغيِّر شيئًا من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية؛ الدينية والإنسانية، فالإبادة النازية لا تشكل جزءًا من التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين وهذه المحاولات الإعلامية، التي تلوي عُنق الحقيقة، تُبين في نهاية الأمر مدى اتساق الغرب مع نفسه، الذي يُكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي. إن الموقف العربي الحقيقي من الهولوكوست ينطلق من الإيمان بالقيم الأخلاقية الإسلامية التي لا تسمح بقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وقد جاء في الذِّكْر الحكيم: (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) [المائدة: ٥/٣٢].

س: ما هو موقف النازيين من العرب والمسلمين؟

ج: النظرية النازية العرقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصافِّ اليهود، الساسة العرب (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين؛ فعلوا ذلك لا كُرهًا في اليهود أو حبًّا في النازيين، وإنما تعبيرًا عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني، وعلى كل، هؤلاء المتعاطفون مع النازية كانوا يعرفون أقل من القليل عن النازية ونظرياتها العِرْقية.

وفي هذا السياق ثمة معلومة أقل ما توصف به أنها رهيبة، فقد لاحظت في أثناء دراستي للظاهرة النازية تكرار كلمة «مسلم»، فتعقَّبت الأمر إلى أن اكتشفت أنهم كانوا يشيرون إلى أي يهودي يتقرَّر حرقه في أفران الغاز بأنه «ميزلمان Muselmann «أي «مسلم» بالألمانية. وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في (الموسوعة اليهودية - Encyclopedia Judaica) (جزء ١ ص ٥٣٧-٥٣٨) عنوانه «مسلم»: «ميزلمان»؛ أي مسلم بالألمانية، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدم للإشارة إلى المساجين الذين كانوا على حافة الموت؛ أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي.

هذه هي المعلومة، ولا بد من تفسيرها ووضعها داخل إطار ونمط. ويمكن القول إن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر بالنسبة إلى الغرب هو المسلم. والتجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي للآخر، والنازيون في هذا لا يختلفون كثيرًا عن الغزاة الإسبان للعالم الجديد الذين كانوا يبيدون سكانه الأصليين وكانوا يسمونهم «الترك»، أي «المسلمين»، وهم أيضًا لا يختلفون عن المستوطنين البيض الأنجلوساكسونيين الذي كانوا يسمون أنفسهم عَبْرانيين وعليهم إبادة الهنود الحمر باعتبارهم كنعانيين! إن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تمَّ توسيعه لتشير «إلى الآخر» على وجه العموم.

ويطرح السؤال نفسه: لِمَ اختفت هذه المعلومة من الخطاب الغربي بخصوص

الهولوكوست؟ هل ذِكْرها سيبين طبيعة العنصرية الغربية ضد الإسلام وسيعوق عملية توظيف الهولوكوست في دعم إسرائيل والاستعمار الاستيطاني الصهيوني؟ أعتقد أنه من واجب الإعلام العربي والإسلامي نشر هذه المعلومة وتفسيرها على أوسع نطاق حتى يُدرك العالم مدى عنصرية العالم الغربي.

س: كيف تُقيِّم الخطاب العربي الذي ينكر الهولوكوست، كما هو الحال في الغالب؟

ج: لقد قام الغرب «بأيقنة الهولوكوست» والأيقنة هي تجريد الظاهرة الإنسانية من طبيعتها التاريخية والزمنية وتحويلها إلى شيء فريد، لا يمكن فهمه أو تفسيره من خارجه، فهو مرجعية ذاته. وبهذه الطريقة يتم التحول من الزمني والتاريخي والإنساني إلى اللازمني والكوني وغير الإنساني، وتصبح الظاهرة الإنسانية محل تأليه غير قابل للنقاش. فالأيقونة صورة نتعبد أمامها ولا نتساءل عنها، ونحن نتورط في الأيقنة المضادة؛ أي الكُفر المضاد بها من دون ثبت تاريخي، فإنكار الهولوكوست دون دراسة تاريخية ليس أمرًا إنسانيًّا أو علميًّا، يجب أن تكون استراتيجيتنا هي أنسنة الهولوكوست أي استرجاع البُعد التاريخي والإنساني للظواهر الإنسانية والتاريخية، بما في ذلك الهولوكوست.

إن إنكار الإبادة هو رد فعل بدائي وبسيط، لقد قدَّم الصهاينة الهولوكوست باعتبارها حادثة فريدة غير زمنية مطلقة، وقد فعلوا ذلك بأن نزعوها من سياقها التاريخي لننظر إليها من الداخل فقط، حتى يمكنهم توظيفها؛ ولذا فالطريقة العلمية الإنسانية الوحيدة أن ننظر إلى هذه الظاهرة من الداخل ومن الخارج في وقت واحد، وذلك عن طريق وضعها في السياق الفكري والتاريخي للحضارة الغربية الحديثة.

س: ما تدعو إليه هو النظر لظاهرة الإبادة من الخارج (بعد دراستها من الداخل)؟

ج: نعم؛ فهذا يعمِّق من رؤيتنا لها ويُعطيها بُعدًا تاريخيًّا وحضاريًّا يتجاوز الأحداث المباشرة، ويحررها من التفاصيل والمناسبة المباشرة، كما يجعلنا نراها

داخل نمط عام (نموذج) تتحول فيه من الإبادة النازية لليهود؛ أي جريمة ارتكبها النازيون، والنازيون وحدهم، ضد اليهود، واليهود وحدهم، إلى الإبادة النازية بحسبانها تبديًا لنمط عام في الحضارة الغربية الحديثة.

ولكن بعد أن توضع الإبادة النازية ليهود أوربا في سياقها الحضاري الغربي العريض، لا بد من وضعها في سياقٍ أقل عمومية وهو السياق الألماني (تدهور الاقتصاد الألماني - الاتجاهات العامة للثقافة الألمانية آنذاك)، وتأكيد أن الإبادة لم تَطَل اليهود وحدهم، وإنما طالت العجزة والأطفال والمعوقين والشيوعيين والغجر وأعضاء النخبة السياسية والثقافية البولندية وأسرى الحرب، بل أحيانًا الجرحي الألمان؛ أي إنها جزء من موقف نازي عام، ليس موجهًا ضد اليهود، واليهود وحدهم، وإنما كان موجهًا ضد الآخر (أيّ آخر) قد يقف في طريق النازيين. وهذا يُسقط احتكار الصهاينة للإبادة.

بل يمكن أن يزداد الأمر خصوصية ونضع الإبادة النازية ليهود أوربا في سياق ألماني يهودي: رفض اليهود الاندماجيين للنازية وترحيب الصهاينة بها -التعاون بين الصهاينة والنازيين- الصهيونية في علاقتها النظرية والفعلية مع النازية! وسنكتشف كثيرًا من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة مثل «معاهدة الهعفراه» بين النازيين والصهاينة التي أنقذت الجيب الصهيوني من الهلاك، إذ إنه كان يعاني من توقف الهجرة الاستيطانية ومن تدفق رءوس الأموال، الأمر الذي تكفَّل به النازيون (نظير أن يقوم الصهاينة بكسر طوق المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية)؛ ولهذا قال أحد المعلقين: إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أي منظرها)، فإن هتلر هو لِينينهَا (أي مَن حوّل النظرية إلى واقع سياسي).

إن محاولة النظر إلى إشكالية الإبادة من الداخل والخارج، والمزج بين الخاص والعام، تغير الرؤية وتضع قضية الإبادة على مستوي تحليلي جديد تمامًا، يولِّد أسئلة مختلفة عن تلك التي يطرحها الصهاينة، والتي تُحدِّد الأجندة البحثية والأجوبة التي يُمكن التوصل إليها. فقضية ستة الملايين، وهل هو رقم صحيح أم لا، تصبح قضية ثانوية، إذ إن ثمة نمطًا إباديًّا غربيًّا

عامًّا موجهًا ضد الآخر، والإبادة النازية ليهود أوربا ولغيرهم تنتمي إلى هذا النمط، وإذا كان عدد من تَمّ إبادته هو ستة ملايين أو أربعة أو مليون واحد فسيصبح أمرًا أكاديميًّا لا يُغير من الحكم على مرجعية النازية. يجب أن نُدرك أنه لم تتم إبادة اليهود وحدهم، وإنما تمّت إبادة الغجر وأعداد كبيرة من البولنديين، وقد فقد الاتحاد السوفييتي ما يقرب من ٢٠ مليونًا. نحن نتحدث عن عشرات الملايين الذين أُبيدوا مما يبين وحشية التشكيل الحضاري الألماني النازي الذي هو جزء من التشكيل الحضاري الغربي الحديث.

س: ولكن لماذا يتحدثون في الغرب عن الألمان فقط، وعن الهولوكوست وحدها، ويهملون كل ما قامت به الحضارة الغربية من مذابح وفظائع؟

ج: الغرب يفعل ذلك ليتسنَّى له أن يوظِّف الهولوكوست على عدة مستويات؛ أولًا: إسباغ نوع من الشرعية على الدولة الصهيونية، فمع أن المشروع الصهيوني، كما أسلفنا، لا علاقة له بالهولوكوست، إلا أن الكيان الصهيوني كيان عنصري محتل للأرض، يرفض الأعراف الدولية والإنسانية والأخلاقية كلها، ولا يلتزم بها على الإطلاق، كيان مُدجَّج بالسلاح، عنده أكثر من مائتي رأس نووي (وذلك حسب إحصائيات الثمانينيات)، لكن من خلال الحديث عن اليهود باعتبارهم ضحية وعن إسرائيل باعتبارها دولة يهودية يحاولون تسويغ هذه الأمور كلها والتغطية عليها، لقد ظهر مصطلح جديد في السياسة الدولية يسمونه Victomology أي إن دور الضحية يكسب صاحبه كثيرًا من التعاطف، بل الشرعية أيضًا، ولذلك ينكرون هذا الدور على الفلسطينيين مع أن الفلسطينيين يعذَّبون يوميًّا على مرأى ومسمع من العالم.

السبب الثاني: ينبُع من الأول وهو تسويغ المعونات السخية التي تُصَب في خزينة الدولة الصهيونية، ولا سيما أن الشعوب الغربية سواء في الولايات المتحدة أو في أوربا ترى آلاف الملايين من الدولارات التي تدفعها ألمانيا وسويسرة والولايات المتحدة تُصب في خزينة إسرائيل، في الوقت الذي تقوم فيه بعض هذه الحكومات بتخفيض الاعتمادات الخاصة

بالخدمات الاجتماعية، والرعاية الصحية. هذه الشعوب قد تبدأ في التململ والاحتجاج؛ ولذا تستخدم النخب الحاكمة الهولوكوست لإطلاق سحابة من الدخان الأخلاقي والإنساني لتسوغ الاحتلال الصهيوني.

السبب الثالث: وأعتقد أنه هو السبب الأعمق، أنّ النموذج الحضاري الغربي الحديث، نموذج دارويني منفصل عن القيمة؛ ولذا فهو إبادي كما أسلفنا، ولكن كل عمليات الإبادة التي قامت بها الحضارة الغربية كانت خارج حدود أوربا، وضد السود أو الحمر أو الصفر في إفريقيا وآسيا والأمريكتين، حيث كانت أوربا تُلقي بفائضها البشري. أما الهولوكوست فقد وقعت في أوربا على يد الإنسان الأبيض ضد أقلية بيضاء، فظهرت الفضيحة واضحة جلية وكان لا بد من تخبئتها. إن الغرب باتهامه الألمان، والألمان وحدهم، ينجح في الهروب من مواجهة نفسه وحضارته الحديثة الإبادية، لقد تم التلاعب بالمستوى التعميمي والتخصيصي، فبدلًا من إدراك الجرم باعتباره جرمًا غربيًا تمامًا ضد الآخر، تم تخصيصه فأصبح جرمًا ألمانيًّا نازيًّا وحسب، العالم الغربي بريء منه، وبدلًا من رؤية الضحية باعتباره الآخر بشكل عام، أصبحت الضحية هي اليهود واليهود وحدهم، وبدلًا من دراستها والحكم عليها من الخارج بوصفها نمطًا، أصبح لا يمكن فهمها إلا من الداخل لأنها حادثة فريدة ومن ثم تتحول الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصي على الفهم الإنساني، وإلى سرٍّ من الأسرار يتحدى العقل. هذا كله ليس ناتجًا عن ضغط يهودي أو صهيوني، وإنما هو جزء من منظومة حضارية كاملة.

والسبب الرابع والأخير يمكن أن نسميه سبب، تأملي، نزعت الحداثة الداروينية القداسة عن العالم، وتركت الإنسان الغربي عاريًا تمامًا أمام عالم المادة بلا مقدسات أو ميتافيزيقا، وهذا أمر مستحيل بالنسبة إلى معظم البشر. فالإنسان كائن ميتافيزيقي دائم البحث عن شيء مقدس، فبدأ البحث عنه ولكن داخل إطار مادي مقدس يمكنه أن يدركه بحواسه الخمس (المصدر

الوحيد للمعرفة بالنسبة إليه)؛ ولذا فهو يحاول أن يصل إلى قداسة مادية وميتافيزيقا مادية إن صح التعبير، وهي مادية لأنها لا تحقق أي تجاوز لسطح المادة، مثل الإيمان بوجود الأطباق الطائرة أو بالأبراج الفلكية التي تحدد مصير الإنسان. وتتميز هذه الميتافيزيقا اللذيذة بأنها لا تحمل أي أعباء أخلاقية، فالإيمان بها لا يضطر المرء إلى تبني معايير أخلاقية معينة يضبط بها سلوكه. وقد وجد الإنسان الغربي ضالته في الهولوكوست، فحولها إلى أيقونة، يتعبد فيها ويقدسها، ويعتذر عن المذبحة دون أن يُكلفه هذا شيئًا.

هذا كله يعني أن المسألة ليس لها علاقة بالإحساس بالذنب، فالغرب، كما أسلفت، لا يريد أن يدفع ثمن خطاياه؛ ولذا في مؤتمر دربان في جنوب إفريقيا، رفض الوفد الأمريكي اقتراحًا بأن تقوم الولايات المتحدة بتعويض الأمريكيين السود عما حاق بهم من إبادة وتنكيل. ولو كان موقف الغرب من الهولوكوست نابعًا حقًّا من الإحساس بالذنب ورغبة التكفير عن الجريمة التي ارتكبت لاستقطعوا لليهود قطعة من أجود الأراضي في ألمانيا وأسسوا لهم فيها دولة، كما اقترح الملك آل سعود - رحمة الله عليه- على روزفلت، أو لأرسلوا قوات دولية تتأكد من أن اليهود في أوربا سيحصلون على حقوقهم الدينية والمدنية والسياسية (كما يحاولون أن يفعلوا الآن في دارفور وأماكن أخرى). فالتكفير عن الذنب لا يتم عن طريق ارتكاب ذنب آخر؛ أي احتلال فلسطين وطرد شعبها، ولا يمكن تصور أن دير ياسين وكفر قاسم وقانا الأولى والثانية وغيرها من المذابح التي ارتكبت في فلسطين، يمكن أن تكون هي العلاج الناجع للمذابح التي ارتكبها النازيون ضد اليهود في الغرب!

س: وماذا عن دور الضغط الصهيوني لتصعيد الاستجابة الغربية الهستيرية وكذا عمليات التزييف الإعلامي؟

ج: لا يمكن إنكار وجود قدر كبير من الضغط الذي تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفي والمعلوماتي القائم، الذي يحقِّق لها فوائد جمة. كما أن هناك الآلاف من أعضاء الجماعات اليهودية ممن

تقاضوا التعويضات الألمانية عما لَحِق بهم من أذًى وممن لا يزالون يطالبون بها، وهؤلاء أيضًا أصبحوا جزءًا من «جماعة مصالح» تحوَّلت إلى جماعة ضغط. وليس من صالح هؤلاء كشف حقيقة ما حدَث.

أصبح الخطاب الصهيوني يستند بشكلٍ شبه كاملٍ إلى الإبادة النازية، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند إلى حادث الإبادة. والشرعية عادة لا تستند إلا إلى مُطلقات، لا يمكن إخضاعها للتساؤل.

س: في أواخر عام ٢٠٠٥ صدر قرار من الأمم المتحدة بإحياء ذكرى الهولوكوست سنويًّا في ٢٧ كانون الثاني/ يناير، ما قولك في هذا؟

ج: حينما سألني صحفي أمريكي عن رأيي في هذا القرار، وهل سيحيي العرب ذِكْرى هذا اليوم، فأجبته بأنه من الواجب أن نفعل ذلك. فالضحايا اليهود بشر، وهذا الهجوم على الإنسان وتدميره لأسباب عنصرية ومادية أمر لا يقبله الإسلام. ولهذا السبب يجب أن نحيي ذكرى كل الضحايا بأن نضع الهولوكوست في إطارها الإنساني العام، بمعني يجب أن نحيي أيضًا وفي اليوم نفسه ذكرى إبادة الهنود الحمر والسود واستشهاد المليون شهيد في الجزائر، وغيرهم في فيتنام ثم في الشيشان وفي كوسوفو.

س: كيف يكون الموقف لو تطور إلى وضعه في مناهج الدراسة حسب منظومة العولمة حاليًّا؟

ج: عظيمٌ، توضع في المناهج في إطار إبادة الهنود الحمر والسود وشعوب الكونغو وغيرهم. وكما أسلفنا أن عدد الهنود الذين أُبيدوا أعلى بكثير من رقم الملايين الستة إياه.

س: وما قولك في رقم الملايين الستة؟

ج: الحضارة الغربية جعلت موضوع الهولوكوست ورقم الملايين الستة أيقونة لا يجب التشكيك فيها، سألني صحفي فرنسي مرة هذا السؤال، فأجبته بالقول: إنني لا أوافق على الرقم، فسألني بحزم بالغ: «لِمَ؟» فأجبته: «لأنني أعتقد أنهم ثمانية ملايين»! فصدم، فقلت له لا بد من الإحصاء الدقيق، فهل

حسبنا عدد اليهود الذين قضوا بسبب الأوبئة والمجاعات وضحايا الغارات إبان الحرب العالمية الثانية؟ لعلنا لو أحصينا هؤلاء لبلغ العدد ثمانية ملايين أو ربما لتراجع الرقم. ولكن الغرب يحجم عن مثل هذا لأن رقم ستة ملايين قد أصبح رقمًا أسطوريًّا. أعتقد يجب أن نُميز عدد الذين قضوا في أفران الغاز من عدد الذين اختفوا لأسباب لا علاقة لها بأفران الغاز. فيمكن أن نشير إلى من اختفوا بسبب الزواج المختلط والتنصُّر اللذين وصلت نسبتهما في برلين قبل الحرب العالمية الثانية نحو ٦٠٪. كما أن الإحجام عن الزواج والإنجاب (الذي تتزايد نسبته في أثناء الحروب) ساهم هو الآخر في تناقص عدد اليهود. والمعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا أساسًا سكان مدنٍ، وسكان المدن يتناقص عددهم عبر التاريخ وقد تركز يهود ألمانيا في برلين بالدرجة الأولى، وفي بعض المدن الأخرى. وقد حدَث أن كثيرًا من اليهود حصلوا على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية ليتمكَّنوا من الفِرار إلى أمريكا اللاتينية وغيرها من الدول، وقد شاء كثيرون منهم ألَّا يعلنوا عن هويتهم اليهودية بعد الحرب، عدد اليهود إذن كان يتناقص بسبب الإبادة وبسبب العوامل الأخرى التي أوردناها. ومن ثم فإن عدد الذين اختفوا قد يكون ٦ ملايين وربما أكثر، المهم أن نقوم بعملية إحصائية دقيقة. وما كنت أفعله هنا أنني أطلب أن نفتح باب البحث مرة أخرى، ولا نقبل الأرقام الشائعة وكأنها حقائق مطلقة ونهائية، علينا أن ننظر في طريقة الإحصاء نفسها، حتى نقرر بطريقة علمية ما إذا كان رقم ستة ملايين يضم هؤلاء الذين قَضَوا أو اختفوا لأسباب طبيعية أو غير طبيعية أخرى غير أفران الغاز.

س: ولكن ثمة إجماع من كل المؤرخين والعلماء اليهود والإسرائيليين على مسألة الملايين الستة؟

ج: هذه ليست الحقيقة، ولكن الإعلام لا ينشر أخبار العلماء اليهود أو الإسرائيليين الذين لا يوافقون على أسطورة الملايين الستة. في مقال كتبه بيتر ستاينفلس بعنوان (مراجعة أوشفيتس: حالة عالم إسرائيلي) نشر في ١٢

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٩ في جريدة النيويورك تايمز، يشير الكاتب إلى نقش حجري في أوشفيتس جاء فيه أن «أربعة ملايين شخص ماتوا في معسكرات النازي، وهي عبارة تكرر ذِكْرها حتى تحولت إلى ما يشبه «حقيقة إحصائية» صُلبة في وجدان كثيرين. ولكن طيهودا باور»؛ أحد أشهر مؤرخي الهولوكوست، ومدير قسم دراسات الهولوكوست بمعهد اليهودية المعاصرة بالجامعة العبرية في القدس، يقول: إن عدد الضحايا أقل من نصف هذا الرقم، فرقم أربعة ملايين، مضافًا إليه عدد الضحايا في أماكن أخرى، ينتج في مجموعه النهائي عددًا أكبر بكثير من الملايين الستة. فمن المعروف أن أكبر الأرقام التي تم نشرها تقدر العدد بـ ٥ , ٢ مليون يهودي، و٥ , ١ مليون ضحية أخرى، يفترض أن معظمهم من البولنديين. وقد نشر «يهودا باور» مقالًا بجريدة جيروزاليم بوست في نهاية شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٨٩ وصف فيه هذه الأرقام بأنها زائفة بشكل واضح، ويتفق يزرائيل جوتمان، العالم الإسرائيلي، مع يهودا باور في هجومه على الإحصائيات المتداولة. وللعلم جوتمان، زميل باور في الجامعة العبرية، قاد حركة المقاومة السرية في معسكر أوشفيتس، وصاحب موسوعة من أربعة أجزاء عن الهولوكوست. وقد بين باور أن المؤرخ اليهودي الفرنسي جورج ويلرز قدَّر عدد الذين لقوا حتفهم خنقًا بالغاز، أو بطرق أخرى أو تم تعذيبهم حتى الموت، أو كانوا ضحايا لمجاعات أو أمراض بمعسكر أوشفيتس بـ ٦ , ١ مليونًا. وحسب هذه التقديرات، فإن ١,٣٥ مليونًا منهم كانوا من اليهود. ٨٣٠٠٠ بولندي، و٢٠٠٠٠ من الغجر، و١٢٠٠٠ سجين حرب سوفيتي. بالإضافة إلى ١٥٠٠٠٠ بولندي تم حبسهم في معسكر أوشفيتس، ثُم تَم نقلهم إلى أماكن أخرى، حيث لقي كثير منهم - وليس معظمهم - حتفهم.

ويرى إيلان ستاينبرج، المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي العالمي، أن الإحصائيات المبالغ فيها تم تكرارها، مما أدى إلى تقبل كثير من اليهود لها مع أن كبار العلماء لا يوافقون عليها. كما يؤكد يهودا باور أن مؤرخي

الهولوكوست قد نبذوا الأرقام المضخمة منذ سنوات طويلة، إلا أن ذلك لم يعلن للجماهير، وأنه آن الأوان للإعلان عن ذلك.

وفي محاولة لتفسير ظاهرة تضخيم الأرقام يقول باور أن البولنديين الوطنين والشيوعيين على السواء روجوا للأرقام الأكبر لخدمة أغراض سياسية، مبالغين في أعداد الضحايا البولنديين واليهود على السواء، بشكل أصبح الفرق فيه بين مصير المجموعتين غير واضح ومبهم، مما أدى إلى خلط الأمور وطمس معالم الحقيقة، علاوة على أنه يجب التفريق بين ما حدث لليهود وما حدث للبولنديين على يد النازيين دون التقليل من شأن اعتداءات النازيين على البولنديين، الذي كان يهدف إلى تدمير كيان قومي من خلال اغتيالات محددة لأعداد كبيرة تم اختيارهم من بين من قاوموا النازيين. وفي هذا الإطار تم اغتيال صفوة المثقفين البولنديين في المعسكرات، ومنها أوشفيتس، أما بالنسبة إلى اليهود، فقد وضع النازيون خطة أكبر من مجرد تدمير قومية، فقد خططوا لإبادة عرقية، وثمة فرق بين الإبادة العرقية وتدمير كيان قومي. ثم يضيف باور أنه إذا أراد العالم أن يحارب كلًّا من الإبادة وتدمير الكيان القومي فعليه أن يتذكر جيدًا الفرق بينهما. فأنت لا تعالج الكوليرا والسرطان بالطريقة نفسها، بل تفرق بينهما، مع أنهما مرضان قاتلان.

س: كيف تفسر إعلان باور لموقفه هذا، مع أنه عدو لدود لكل من ينكر الهولوكوست؟

ج: يتحدث باور بحماس بالغ عن دور المؤرخ وعن إغراء تكوين «خرافات وأساطير قد تكون لها خطورتها على المدى الطويل، وهو يذهب إلى أن الواجب الأول لأي مؤرخ هو قول الحقيقة، وفي حالة أوشفيتس الحقيقة مرعبة بما يكفي؛ ولذا فالمبالغة في رقم الضحايا لن يفيد إلا الذين ينفون وجود الهولوكوست أصلًا. إن واجب المؤرخ، كما يؤكد باور، هو فحص الأساطير، بل وعليه أن يفجرها إذا تطلب الأمر ذلك. ويوضح وجهة نظره عن طريق تفجير إحدى الأساطير الصهيونية الأخرى.

س: ما هي هذه الأسطورة الأخرى؟

ج: يقول باور إن بعض الساسة الإسرائيليين يصورون الأغيار على أنهم كانوا كلهم مُعادين لليهود، ولم يقدموا لهم يد المساعدة في أثناء الاضطهاد النازي. ويعلق باور على ذلك بقوله: «إن هذا هراء، مجرد هراء؛ ففي عدة بلدان أنقذ السكان المحليون أفراد الجماعات اليهودية. ومع أن بعض الشعوب ساعدت النازيين، كما حدث في النمسا، فثمة بعض آخر ساعد اليهود وأواهم كما في الدانمارك وفنلندة ورمانية وبلغاريا وإيطاليا وهولندا. وفي فرنسا سلم خمسة وسبعين ألف يهودي للقوات النازية، ولكن أضعاف هذا العدد حظوا بالحماية في الوقت نفسه، ولا يمكن أيضًا تجاهل جهود الحكومة السوفييتية في نقل مئات الآلاف من اليهود بعيدًا عن المناطق التي احتلها النازيون، مع تحالفها في بداية الأمر مع هتلر. ويمكن أن نشير إلى أن المسلمين من مواطني بلغاريا أدوا دورًا نشيطًا في إنقاذ اليهود من الملاحقة النازية، كما رفض عاهل المغرب محمد الخامس تطبيق القوانين النازية على يهود المغرب، مع مطالبة حكومة فيشي الفرنسية بذلك. أما الأسطورة الأخرى فهي مقارنة العداء لليهود واليهودية في الوقت الحاضر بالإبادة النازية لليهود، ويقول باور: إن ثمة عناصر نازية في العداء الحديث لليهود واليهودية، ولكن ثمة اختلافات جوهرية بينهما. ولذلك ينبغي توخي الحذر من المقارنات السطحية.

س: ماذا كان رد فعل الصهاينة على موقف باور؟

ج: أثارت تصريحاته ضجة كبيرة فتلقى كثيرًا من الخطابات والمكالمات الهاتفية التي تقول: «لماذا يدلي هذا الرجل بهذه التصريحات التي تؤكد أن عدد اليهود الذين لقوا حَتْفهم في أوشفيتس أقل مما هو معلن؟» وكأن قول الحقيقة أمر مشين، ولاسيما حين توظَّف الأساطير في قمع الآخرين. إلا أن باور يصر على موقفه من الأسطورة الصهيونية الزائفة عن أعداد الضحايا وغيرها من الأساطير.

س: موضوع صناعة الهولوكوست، ما المقصود بهذا التعبير؟

ج: المصطلح ليس جديدًا تمامًا، فثمة أسرة من المصطلحات تشبهه في كثير من النواحي؛ فمصطلح هولوكيتش Holokitch والكيتش هو العمل الفني الرديء الرخيص السوقي، ومصطلح هولوكوست بيزنيس holocaust business؛ أي «تجارة الهولوكوست»؛ وأيضًا هولوكاش holocash، أي الهولوكوست باعتبارها مصدرًا للربح، أما مصطلح صناعة الهولوكوست فقد ظهر حين كتب نورمان فنكلشتاين كتابًا بعنوان «صناعة الهولوكوست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية»، احتجاجًا موثقًا بالأدلة والبراهين على توظيف موضوع الهولوكوست، وتحويله إلى صناعة ترمي إلى خدمة المصالح السياسية للنخبة من اليهود الأمريكيين، والتي تتوافق مع مصالح السياسة الخارجية للحكومة الأمريكية. ويلاحظ فنكلشتاين أنه مع نمو صناعة الهولوكوست، أخذ المنتفعون من هذه الصناعة يتلاعبون في أرقام الناجين وذلك بغرض المطالبة بمزيد من التعويضات، وبدأ كثيرون يتقمصون دور الضحية. ويعلق على ذلك ساخرًا: «لا أبالغ إذا قلت: إن واحدًا من كل ثلاثة يهود ممن تراهم في شوارع نيويورك سيدعي بأنه من الناجين من المحرقة، فمنذ عام ١٩٩٣، ادعى القائمون على هذه الصناعة» أن ١٠ آلاف ممن نجوا من الهولوكوست يموتون كل شهر، وهو أمر مستحيل كما يبدو؛ لأنه يعني أن هناك ثمانية ملايين شخص نجوا من الهولوكوست في عام ١٩٤٥ وظلوا على قيد الحياة، بينما تؤكد الوثائق أن كل اليهود الذين كانوا يعيشون على الأراضي الأوربية التي احتلها النازيون عند نشوب الحرب لا يزيد على سبعة ملايين فقط». ولكن وفقًا للحسابات الرياضية البسيطة، كما يقول فنكلشتاين، يتبين أن هذا التلاعب يؤدي في واقع الأمر إلى تقليل عدد الضحايا الذين يقال إنهم أبيدوا: وهكذا ينتهي الأمر برقم الملايين الستة إلى أن يصبح من الصعب التمسك به أو الدفاع عنه. ويعلق فنكلشتاين على هذا الأمر ساخرًا فيقول: إن القائمين على صناعة الهولوكوست يتحولون تدريجيًا إلى منكرين للإبادة.

ولا يقف الأمر عند حدود التلاعب بالأرقام، بل يتجاوز ذلك إلى التلاعب بالحقائق نفسها. فيلاحظ فنكلشتاين أن «متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية» في واشنطن، على سبيل المثال، «يتغاضى عن أثر السياسة التمييزية التي اتبعتها الولايات المتحدة بتحديد أعداد المهاجرين اليهود إليها قبل الحرب، بينما يبالغ في دور الولايات المتحدة في تحرير معسكرات الاعتقال النازية، كما لا ينبس ببنت شفة عن إقدام الولايات المتحدة على تجنيد أعداد كبيرة من مجرمي الحرب النازيين في نهاية الحرب. كما يشير فنكلشتاين إلى أن المتحف يمر مرور الكرام على موضوع المذابح الجماعية التي ارتكبها النظام النازي في حق الغجر والسلافيين والمعاقين فضلًا عن المعارضين السياسيين. ويخصص الكاتب جزءًا كبيرًا من كتابه لمسألة الأموال المجمدة من الحقبة النازية في المصارف السويسرية، ويتساءل عن الأموال المماثلة في المصارف الأمريكية، والتي لا يشير إليها أحد من قريب أو بعيد. وقد يتساءل المرء، على ضوء الشواهد المتوفرة، عما إذا كانت الولايات المتحدة تستخدم المنظمات اليهودية، من خلال مسألة الأموال المجمدة في المصارف الأوربية، من أجل زيادة الضغوط على البلدان الأوربية لإجبارها على الوقوف إلى جانب الدولة الصهيونية - إن التركيز على أوربا دون الولايات المتحدة يعني أنها تستخدم الهولوكوست طريقة لاستنزاف دول أوربا وبالذات ألمانيا التي هزمت في الحرب لتمويل الجيب الاستيطاني؛ لأن الولايات المتحدة لو مولته بمفردها، قد يؤدي هذا إلى ردِّ فعل سلبي، فالشعب الأمريكي يمكن أن يتمرد لو أن ملايين الدولارات الأمريكية أخذت تُصب في الجيب الاستيطاني.

س: هل يحاول فنكلشتاين بدراساته الخروج بقضية «الهولوكوست» من نطاق المقدس إلى نطاق التاريخ؟

ج: نعم، فهو يضعها في سياق محدد هو الصراع العربي الإسرائيلي، فيبين مثلًا أن كل الأدلة تقريبًا تؤكد أن موضوع الإبادة النازية لليهود لم يصبح أمرًا راسخًا في حياة اليهود الأمريكيين إلا بعد اندلاع هذا الصراع [حرب

يونيو/ حزيران ١٩٦٧ «بين العرب وإسرائيل». أما قبل عام ١٩٦٧، فكانت المؤسسات اليهودية تميل إلى التقليل من شأن الإبادة النازية ليهود أوربا، وذلك تمشيًا مع الأولويات السياسية للحكومة الأمريكية في مرحلة الحرب الباردة، والتي كانت تتطلب تأييد فكرة إعادة تسليح ألمانية، بل تجنيد أعداد كبيرة من الجنود السابقين في «قوات الأمن الخاصة» للنظام النازي.

إلا أن هذا الوضع أخذ في التغير منذ منتصف الستينيات، كما يبين فنكلشتاين. فعناصر مثل تصاعد السياسات القائمة على الهُويَّة أو الانتماء العِرْقي، من ناحية، وسيادة المناخ المتمثل في احتكار دور الضحية، من ناحية أخرى، فضلًا عن تزايد معدلات اندماج اليهود في المجتمع الأمريكي وتحولهم التدريجي من مواقف اليسار ويسار الوسط إلى اليمين، ساعدت كلها على بروز مسألة الإبادة النازية لليهود باعتبارها مصدرًا لتدعيم الإحساس بالهوية العرقية اليهودية، التي تضع اليهود في منزلة مختلفة عن الجماعات العرقية والدينية الأخرى باعتبارهم شعبًا مختارًا، وإن كان الاختيار هنا في إطار علماني.

ويري فنكلشتاين أن انضواء الدولة الصهيونية بشكلٍ كاملٍ في فلك الترتيبات الأمنية الدولية للولايات المتحدة، و«التحالف الاستراتيجي» بين الولايات المتحدة وإسرائيل، يمثل عاملًا حاسمًا، ويمكنني أن أُضيف هنا أيضًا أن تزايد التنافس بين الدول الأوربية والولايات المتحدة قد وضع حدًّا لكل الموانع والمحاذير المتعلقة بتوظيف حادثة الإبادة النازية واستغلالها. فهذه الحادثة، كما سبقت الإشارة، يمكن أن تستخدم هِراوةَ لابتزاز بعض الدول الأوربية لإرغامها على مساندة إسرائيل. كما يمكن استخدامها لتسويغ الممارسات الإسرائيلية إزاء الفلسطينيين.

س: ما قولك في مسألة إنكار الهولوكوست؟

ج: ليس من حقِّنا إنكار قضية الهولوكوست، فليس لدينا الأدوات البحثية لذلك؛ ولذا أري أهمية الدعوة لإقامة مؤتمر علمي عالمي لبحث القضية، مع التحفُّظ التالي أننا ندرسُ واقعة تاريخية، جزء من التاريخ

الأوربي، ولا علاقة لها بالصراع العربي الإسرائيلي. مع الأسف بعض العرب يتصور أن ذبح اليهود على يدِ النازيين كان في مصلحةِ العرب، وهذا غباء ما بعدَه غباء، يجب أن يعرف العرب أن المواطن اليهودي الذي يُضطهَد في بلاده ويضطر للفِرار منها، يتحول إلى مستوطن في بلادنا يحمِلُ السلاح ضِدَّنا. وثمة من لا يُدرك أن من يدعو إلى إبادة اليهود لأنهم يهود يتبنى رؤية مادية نفعية ويتخلّى عن المرجعية النهائية الإسلامية. إن من واجب العرب أن يُدافعوا عن حقوق أعضاء الجماعات اليهودية الدينية والسياسية والمدنية في بلادهم، وهذا بطبيعة الحال ما لا ترغب فيه الصهيونية، أو الدول الغربية التي تريد أن تزود إسرائيل بالمادة الاستيطانية القتالية!

أما بالنسبة إلى الإعلام الغربي فأنا عادة ما أؤكد أنه كي يُصدق العـالـم قضية الهولوكوست فلا بد من إثباتها علميًّا، بدلًا من استصدار قوانين غامضة تُجرِّم كل من يُنكر الهولوكوست كليًّا أو جزئيًّا. ماذا تعني هذه العبارة؟ «كليًّا» قد تَعني رقم ستة ملايين، ولكن «جزئيًّا» كلمة في غاية الغموض. كان من المفروض أن يُجرِّم القرار كلَّ مَن يُنكر الهولوكوست إن لم يأت بسند علمي تاريخي، ومن ثم تتحول القضية من صراع إعلامي يوظف بطريقة سياسية رخيصة إلى حوار علمي رصين، كما يجب الإشارة إلى أنه بدلًا من إنكار الهولوكوست أو التمسك بالرقم ستة ملايين لا بد من دراسة وثائق وزارة الخارجية الألمانية إبَّان حكم النازي ومحاكمات نورمبرج، وكلُّها تؤكد أن الهولوكوست قد حدثت حقًّا، كما أنها كشفت عن حقائق يحرص الإعلام الغربي على إخفائها؛ فهذه الوثائق تبين مدى تعاون الصهاينة مع النازيين ومدى عدم اكتراث يهود الولايات المتحدة بما كان يحدُث في ألمانيا النازية. لقد فُتح تحقيق في هذه القضية تحت إشراف سفير الولايات المتحدة في هيئة الأمم في السبعينيات آرثر جولدبرج، وهو أمريكي يهودي، ثم أُغلق فجأةً؛ لأن نتائجه كما قالوا كانت ستسبِّب كثيرًا من الألم. لِمن؟ ولِمَ؟ هل كانت ستبين حقيقة موقف الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة مما كان يحدُث في ألمانيا

النازية، وأن قوات الحلفاء رفضت مدَّ يدَ العَوْن لضحايا الإبادة، فأيزنهاور، قائد القوات الأمريكية، رفض أن تقوم الطائرات الأمريكية بضرب قضبان السكك الحديدية التي كانت تجري عليها القطارات التي تنقل الضحايا اليهود إلى أوشفيتس لأنه وجد أن في ذلك تبديدًا للمجهود الحربي، وأن الولايات المتحدة رفضت فتح أبوابها أمام المهاجرين اليهود من ألمانيا، وأن الصهاينة قد وقفوا ضد التهجير إلى أي مكان خارج فلسطين، كما حدث في مؤتمر إيفيان. وما أفعله هنا أنني أقْبَل الأُطروحة الغربية ولكني أوسِّع من نطاقها وأضيف عناصر يحرصون على استبعادها، وهم يفعلون ذلك حتى تُصبح الصورة إما أبيض وإما أسود، ومن ثم يسهُل توظيفها.

س: بعد دراستك للنازية والصهيونية، هل يُمكن القول إن الحلَّ الصهيوني للمسألة الفلسطينية يتطابق إلى حدٍّ كبير والحلَّ النازي للمسألة اليهودية؟

ج: الغرب الذي أفرز النازية هو ذاته الذي أفرز الصهيونية. كلتاهما حركة عنصرية إبادية، تضرب بجذورها في الفكر العنصري الإمبريالي، الذي وُلد في القرن التاسع عشر ونما وترعرع في أوائل القرن العشرين. ويجب أن نتذكر أن الآباء الأوائل للصهيونية، مثل هرتزل، كانوا ألمْانًا ذوي توجُّه ألماني قوى يُكنُّون كثيرًا من الإعجاب للعسكرية الألمانية، بل في المراحل الأولى كان التصور أن الجيب الصهيوني سيكون محمية ألمانية، «فألمانيا العظيمة ستأخذ اليهود تحت أجنحتها»، على حد قول هرتزل. أما زميله ماكس نوردو على سبيل المثال، فقد غير اسمه من سيمون ماكسيميليان سودفيلد إلى نوردو إعجابًا منه بالجنس النوردي! لا غَروَ إذن أننا نجد أمثلة كثيرة على التلاقي شِبه الكامل بين النازية والصهيونية.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، أسَّس أحد أتباع جابوتنسكي ما يسمي «عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) (بالعبرية: بريت هابريونيم)، وهي جماعة ذات طابع نازي واضح، وكان من بين هتافات أعضاء العصبة «ألمانيا لهتلر، وإيطاليا لموسوليني، وفلسطين لجابوتنسكي». كما أرسلت جماعة شتيرن

الصهيونية للحكومة النازية مذكِّرة تقترح حلًّا للمسألة اليهودية في أوربا، وتذهب إلى أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا هو شرط مُسبق لحل المسألة اليهودية، وقد عبّر كاتب المذكرة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية، ومصالح مشتركة بين النازيين والصهاينة، وتعبر عن تقدير جماعة شتيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا والهجرة الصهيونية إلى فلسطين. وتؤكد المذكرة ضرورة التعاون بين ألمانيا الجديدة و«الشعب اليهودي» في المجالين السياسي والعسكري. وقد اقترح كاتب المذكرة أن يشتركَ أعضاء جماعة شتيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء.

س: قد يقال: إن هذا شكلٌ من أشكال التطرُّف الذي لا يُعبر عن التيار الأساسي داخل الحركة الصهيونية، أو أن جماعة شتيرن كانت مجرد «انحراف» عن الإجماع الصهيوني، فماذا عن التيار الأساسي في الحركة الصهيونية؟

ج: لدينا من الوثائق ما يدل على أن التيار الأساسي في الحركة الصهيونية آنذاك كان هو الآخر نازي الهَوَى، ففي ٢١ يونيو/ حزيران ١٩٣٣؛ أي بعد وصول النازيين إلى السلطة، أصدرت المنظمة الصهيونية في ألمانيا «إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانيا الـجـديـدة»، Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat. والذي حدد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكلٍ واضحٍ لا إبهامَ فيهِ. وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرة إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة. فقد بدأت المذكرة / الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة؛ دولة البعث القومي، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم. وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل، وبينت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط

الوظيفي الذي يتبعونه، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي إنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها)، وبعد أن تبنّت المذكرة هذا النقد النازي لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية؛ فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة اليهود. وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العِرْق، أحد ثوابت الرؤية النازية، أساسًا لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعرقية. كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفًا عرقيًّا، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية.

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي، مؤكدة على إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات. وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها -باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحلٍّ للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خططها- حلًّا يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع النموذج النازي. ثم يمضي البيان موضحًا الهدف الصهيوني بجلاء فيقول: «علي تربة الدولة الجديدة، ألمانيا النازية، نريد أن نُعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين».

س: وكيف كانت استجابة النظام النازي؟

ج: كانت استجابة النظام النازي إيجابية، فقام بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان فضلًا عن نشر مجلاتها، بينما مُنع

الداعون إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم وكذلك اليهود الأرثوذكس من إلقاء الخطب أو الإدلاء بتصريحات أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر. وقد قام كورت جروسمان، في كتاب هرتزل السنوي (الجزء الرابع)، بدراسة الموضوع، ونشره تحت عنوان (الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات)، وألحَق الكاتبُ بالمقالِ ثماني وثائقَ نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية، وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٦٤٢٠/ ٨١١٣٤) بتاريخ ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٣٥ أنه «يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا». وقد مُنع مواطن صهيوني (جورج لوبنسكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب، ثم صدر توجيه آخر (رقم ١٩١٠٦/ ١١٣٥١) ليُصحِّح هذا الوضع، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه؛ لأنه مُدافع بليغٌ عن الفكرة الصهيونية، وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أي عوائق.

ولم يقف الأمر عند حدود التسامح مع نشاط المنظمات الصهيونية، بل تجاوز ذلك إلى التنسيق والتعاون في عمليات إفراغ ألمانيا من اليهود. ولعل اتفاقية «الهعفراه بين المنظمة الصهيونية والنظام النازي»، والتي تم بموجبها نقل آلاف اليهود إلى فلسطين، هي خير دليل عملي على مدى التعاون بين الصهاينة والنازيين ومدى التطابق بين أهداف الطرفين، حتى وإن حاول كلٌّ منهما فيما بعد التنصُّل من هذه الوقائع التاريخية.

س: ما هي اتفاقية الهعفراه؟

ج: «هعفراه» كلمة عبرية تَعْني «النقل» أو «الترانسفير»، وهو اسم مُعاهدة وقَّعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون في الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن الصهيوني وحماية مصالحهم بأي طريقة، ومن ذلك التعاون مع النظام النازي، في حين كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا، وتنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام. وفي إطار التعاون

بين النازيين والصهاينة تمَّ توقيع اتفاقية الهعفراه عام ١٩٣٣ التي كانت تقضي بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك هذا مع القيود التي فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة، وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترليني) في حساب مُغلق يفتح في بنك واسرمان في برلين وبنك وربورج في هامبورج، ثم يُسمح باستعمال هذا المبلغ لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا، يتم تصديرها إلى فلسطين. وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها بعد وصولهم مهاجرين إلى فلسطين، وتحتفظ بالفرق عمولة أو ربحًا لها، وقد تمَّ تعديل الاتفاقية فأصبح في مقدور اليهود الألمان الذين لا ينوون الهجرة مباشرة، ويريدون مع هذا تأسيس بيت في فلسطين والمساهمة في تطويرها، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألَّا يزيد المبلغ الإجمالي على ثلاثة ملايين مارك تُستعمل لشراء بضائع ألمانيا أيًّا كان نوعها.

وقد حققت اتفاقية الهعفراه نجاحًا باهرًا من وجهة نظر النازيين والصهاينة. فقد نجح النازيون في تصديع أُسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أي تعديل في سياستهم تجاه اليهود. وأما بالنسبة إلى المستوطنين، فإن مرحلة الهعفراه تُعد أهم مرحلة في تاريخ المستوطن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية، وقد ذكر ناحوم جولدمان في مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكية عام ١٩٣٥، اتهم الرئيس الصهاينة برفضهم الاشتراك في المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر، بل تخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفراء. وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعَر حينذاك بالبؤس والخجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول. ومما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفراه ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩

مع نشوب الحرب العالمية الثانية، ثم توقَّف العمل بموجبها ولكن دون أن تلغي رسميًّا.

س: هل ثمة نماذج أخرى للتعاون؟

ج: نعم، حالة فريدة، ولكنها ممثلة، وهي حالة الفريد نوسيج الفنان الصهيوني وعالم الديموجرافية، وهو من الآباء الصهاينة الأوائل، حضر نوسيج المؤتمر الصهيوني الأول وساهم في تنظيمه، وقد حاول شأنه شأن كثير من الصهاينة حل المشكلة اليهودية بنقل اليهود خارج أوربا. فأسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تسمي إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود، ولكنه أخفق على ما يبدو في محاولة نقل اليهود على الطريقة البلفورية، فقرَّر نقلهم على الطريقة النازية (أي الإبادة)، فاتجه إلى التعاون مع النازيين؛ فعمِل مخبرًا للسلطات النازية إبَّان الحرب العالمية الثانية، وعيَّنه تشيرنيا كوف-رئيس مجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي- عضوًا في المجلس ورئيسًا لقسم الفنون. ونظرًا لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزيعهم الجغرافي ومراحلهم العمرية المختلفة، ونظرًا لرغبته العميقة في إفراغ أوربا من يهودها، وضع نوسيج خُطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم، وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازيين وأنه عضو في الجستابو، فحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص ونفذ الحكم في ٢٢ فبراير/ شباط ١٩٤٣. وقد اختفي نوسيج تمامًا من الأدبيات الصهيونية والغربية؛ لأنه يعدُّ نموذجًا جليًّا يفضح المشروع الصهيوني باعتباره مشروعًا ينبع من كره عميق لليهود ورغبة في التخلص منهم.

س: تقول: إن نوسيج حالة فريدة ولكنها ممثلة، ألا توجد حالات مشابهة؟

ج: نعم، رودولف كاستنر؛ أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر، والذي ترأس عددًا من المنظمات الشبابية الصهيونية، ورأس تحرير مجلة أوج كيليت LUj Kelet (أي الشرق الجديد)، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر، ثم أصبح مسئولًا عن «إنقاذ» المهاجرين اليهود من

بولندا وتشيكوسلوفاكيا؛ إذ كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة في بواديست التابعة للوكالة اليهودية، ولكنه بدلًا من «إنقاذ» اليهود تعاون مع المخابرات النازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها)، ثم استمر في التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر. وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظفًا فحسب، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين، هذا في حين كان عدد يهود المجر يزيد على ٨٠٠ ألف، وهو ما يعني استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرّروا المقاومة. ومع هذا نجح أيخمان في مهمته بفضل تعاون كاستنر معه، إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية في المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها، أو إلى معسكرات تدريب مهني لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال، فلم يظهروا أي مقاومة لعملية النقل هذه وتعاونتِ الضحيةُ مع القاتلِ. وقد عقدت صفقة مع كاستنر تقضي بأن يتولى تهدئة اليهود في مقابل أن تسمح السلطات النازية بإرسال بعض الشباب اليهود إلى فلسطين بدلًا من إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والإبادة (يهود من أفضل المواد البيولوجية، على حدِّ قول أيخمان).

واستقر كاستنر في فلسطين بعد الحرب عام ١٩٤٦، وانضم إلى قيادة الماباي ورشح للكنيست الأول، وانتقلت معه مجلة أوج كيليت، وأصبح رئيسًا لتحريرها، بل كان يعد مسئولًا عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) في الحزب الحاكم.

ولكن في عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلي مايكل جرينوولد كتيبًا لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيه كاستنر بالتعاون مع النازيين، وبالدفاع عن أحد ضباط القوات النازية الخاصة (الإس. إس.) في أثناء محاكمات نورمبرج مما أدي إلى تبرئته وإطلاق سراحه. وقد بذل الحزب الحاكم في إسرائيل جهودًا مضنية لإنقاذ كاستنر ونفي التهم عنه.

إلا إن المحكمة الإسرائيلية قضت بأن معظم ما جاء في كُتيب جرينوولد يتطابق مع الواقع. وبعد إشكالات قضائية كثيرة، حسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق «أحدهم» الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع، وذلك مع ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر، بل كانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة، وقد سجَّل موشيه شاريت، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، هذه الكلمات في مذكراته: «كاستنر. كابوس مرعب، حزب الماباي يختنق. بوجروم». ويشير أحد الصهاينة المتورطين في التعاون مع النازيين إلى أن «رجال السياسة الذين يتسمون بالحذر، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته»، وكانوا يفكرون في «إسكاته».

(٣)

المؤامرة والنفوذ اليهودي

س: يقول البعض: إن فِكر المؤامرة هيمن على العقل العربي، فهل يمكن أن تشرح لنا ما هو فكر المؤامرة هذا؟ لنتحدث عن هذا الفكر فيما يتعلق باليهود؟

ج: فكر المؤامرة هو نموذج تفسيري يضع اليهود، كلّ اليهود، في سَلَّةٍ واحدة؛ ولذا فكل الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية شيء واحد. ويتم اختزال الإسرائيلي في الصهيوني والصهيوني في اليهودي، لأن الجميع «يهود والسلام». كما يتم اختزال اليهود (بل الواقع بأسره) في قوالب جاهزة وأنماط سابقة. فاليهود، حسب تصور «حملة الخطاب التآمري»، شخصيات مخربة هدامة دائمًا وأبدًا، تتآمر بطبيعتها ضد كل ما هو خير (فهذا - حسب تصورهم - مكوّن أساسي وثابت في طبيعة اليهود)، وهم مسئولون عن الشرور كلها (أو على الأقل معظمها)، وسلوكهم هو تعبير عن مُخطط جبار وضعه العقل اليهودي (أو حاخامات اليهود) لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد شعوب العالم كلها ضعفًا ووهنًا في حين يزداد اليهود قوة وبأسًا، وذلك بهدف السيطرة على العالم. والعالم كله -حسب هذا التصور - إن هو إلا رقعة شطرنج، والبشر كلهم إن هم إلا أحجار عليه يحركها اليهود بكل بساطة لإنجاز مخططهم؛ فهم أصحاب قوة خارقة لا تضاهيها قوة، وقادرون على فعل أي شيء يريدون، ولهم نفوذ كبير ليس مثله نفوذ. والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج الثابت، وهذه المؤامرة التي لا تتغير. ثم يبدأ أصحاب الفكر التآمري برَصْد الواقع لينتقوا منه التفاصيل التي تؤيد رؤيتهم وهم سيجدون مثل هذه التفاصيل دون شكٍّ، دون دراسة متجاهلين الإطار التاريخي والظروف الاجتماعية التي

أدت إلى وقوع حدَث ما أو تطور ظاهرة ما. كما أنهم عادة ما يركزون على بعض الحوادث ويتجاهلون تفاصيل أخرى عديدة، حتى يبينوا صحة رأيهم.

لقد تلقف التآمريون قصة مونيكا لوينسكي ليشيروا إلى أنها يهودية، ومن ثَم فهي بلا شك جزء من هذا المخطط (وكأن كلينتون ليس رجلًا منفلت العيار مثل الملايين غيره، وكأنه لا يوجد ضمن سكرتاريته امرأة يهودية حاولت قَدْر وسعها، ودون جدوى، أن توقف هذه الفتاة اللعوب وتصرفها عن هذا الرجل المنفلت، لتحمي مؤسسة الرئاسة الأمريكية منها ومن نزواته). والصهيونية- في تصور التآمريين- ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربي، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية، ذلك الشر الذي يتبدى في الغزو الصهيوني.

س: كيف تصف وتقيم الفكر التأمري بوصفه نموذجًا تفسيريًّا؟

ج: الفِكْر التآمري فكر كسول؛ ولذا يميل إلى التبسيط والاختزال. إنه فِكر يفسر كل شيء، وما يفسر كل شيء بالأسباب نفسها لا يفسر شيئًا على الإطلاق، فبدلًا من أن يكدَّ الباحث ويجتهد ويبحث عن الأسباب وبدلًا من أن يحاول اكتشاف العلاقات المتشابكة في الواقع، وهي عملية فكرية مركبة، فإن أصحابَ فكر المؤامرة؛ لأنهم كُسالي يبحثون عن الراحة والدَّعة، يواجهون الواقع بصيغ إدراكية بسيطة وبقوالب لفظية وصور نمطية جاهزة فيقولون دائمًا «اليهود هم السبب». وقد لاحظت أنه عندما يكتشف فساد أحد الوزراء عادة ما تسرب إشاعة أن أمه يهودية، كما لو أنه إذا كانت أمهات كل الوزراء تقيات ورعات لانتهى الفساد في مصر! فكرة الحكومة العالمية اليهودية التي ستسيطر على العالم لا توجد أي قرينة على وجودها، عندما ننظر إلى سلوك يهود أمريكا سنكتشف أن دعمهم للدولة الصهيونية لا يختلف أبدًا عن دعم أي أمريكي (لإسرائيل). في الواقع دعم الحكومة الأمريكية لإسرائيل يفوق بمراحل دعم يهود أمريكا لها. فأين هذه الحكومة الخفية؟ وأنا في نهاية الأمر أقول - من منظور إسلامي - هل من المعقول

بالنسبة إلينا نحن المسلمين أن نفترض أن سلوك كل يهودي مُقنن حسب ما جاء في البروتوكولات؟ أليس في هذا إسقاط للقيمة الأخلاقية والمسئولية الخُلقية. وأنا باعتباري مسلمًا من الضروري على أن أفترض أن كل إنسان مسئول عما يفعله. أما هذا الأسلوب في التفكير، فهو تفكير أعتقد أنه في جوهره علماني، أن نقول: إن البشر يعكسون المادة أو يعكسون هذه المؤامرة أو هذا المخطط. هذا إعفاء للإنسان من مسئوليته الخلقية المتمثلة في المَقدِرة على الاختيار بين الحق والباطل وبين الخير والشر.

س: لماذا كنتم من أكثر رافضي الترويج لـ(بروتوكولات حكماء صهيون)؟

ج: هذه وثيقة مُضحكة وأعتقد أن من يروِّج لها لم يقرأها، الوثيقة تقول على سبيل المثال: «نحن الذين دبرنا الثورة الفرنسية»، والمعروف أن الثورة الفرنسية قامت لظروف اجتماعية وسياسية محددة أدى الماسونيون دورًا فيها دون شكٍّ، لكن الماسونية تختلف من دولة لأخرى. فالماسونية في فرنسا كانت تحمل لواء الفكر الحر الاستناري، والمحافل الماسونية كانت المكان الذي يتجمع فيه دُعاة الفِكر الاستناري الجديد، إلى جانب أن إحدى نتائج الثورة الفرنسية أنها أدت إلى دمج يهود فرنسا وصهرهم إلى درجة أنهم كانوا يشيرون إلى فرنسا باعتبارها الدولة التي تأكل اليهود، فهل تصلح الثورة الفرنسية أن تكون مجالًا للتباهي والتفاخر من قبل اليهود؟

وتذهب البروتوكولات إلى الادعاء الصِّبياني أن اليهود سوف يتعاونون مع الماسونيين ثم يقتلونهم بعد ذلك، وأنهم سيسيطرون على جميع الحكومات حتى الحكومات المعارضة لهم. واليهود هم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها، والبلشفية بكل إرهابها، وهم الذين أسقطوا الدولة العثمانية (من خلال يهود الدونمة) وهم الآن يحركون اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية حتى يرغموا هذه الدولة العظمى (المسكينة التي لا حول لها ولا قوة، والتي تودُّ أن تعيش في سلام داخل حدودها!) على تحقيقِ

مآربهم في السيطرة على العالم! مثل هذه الادعاءات التي ليسَ لها سندٌ في الواقع تصلح أن تكون فصولًا في قصة خيالية رخيصة!

علاوة على هذا كلِّه، تروِّج البروتوكولات، للمقولات الصهيونية الأساسية فهي تتحدث عن اليهود بشكل عام، وعن الشعب اليهودي باعتباره كتلة متماسكة تتحرك في إطار تاريخ يهودي واحد؛ ولذا فهم يتحدثون عن «الشعب اليهودي عبر التاريخ» والحديث عن الوحدة اليهودية هو جوهر الصهيونية (ومعاداة السامية). كل هذا بدلًا من رؤية أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم جزءًا من تواريخ بلادهم وحضاراتها. وتتحدث البروتوكولات عن أن اليهود هم مصدر كل الشرور؛ لأن الشخصيةَ اليهودية شخصية شريرة بطبيعتها، ولا يدرك التآمريون أنهم بذلك يسقطون في مقولة تحليلية صهيونية ومعادية للسامية في ذات الوقت. فالحديث الصهيوني عن العبقرية اليهودية لا يختلف عن الحديث العنصري عن الجريمة اليهودية؛ فكلاهما يرى أن العبقرية والإجرام متأصِّلان في الشخصية اليهودية. وعلى التعارض الظاهري بين المفهومين إلا أنهما في واقع الأمر ينطلقان من مفهوم الوحدة اليهودية نفسها. ومن الواضح أن يهودية اليهودي ليست مسئولة عن إجرامه أو عبقريته لأنه لو كانت يهودية العبقري اليهودي مسئولة عن عبقريته، فيهودية المجرم اليهودي مسئولة عن إجرامه، وكلاهما منافٍ للحقيقة!

وتتسم البروتوكولات بنبرة طفولية ساذجة. فكبير الحاخامات الذي يقرأ البروتوكولات على الحاخامات، يقول: «نحن دعاة الشر»، ولكن من ذا الذي يكون شريرًا ويقول أنا شرير؟ ثم إذا كان شريرًا فلِمَ يُخبر باقي الحاخامات بهذا وهم يعلمون هذا أساسًا؟ ثم نقطة في غاية الأهمية غابت عن مروِّجي البروتوكولات، لم كُتبت بالروسيا ويهود روسيا كانوا لا يجيدون هذه اللغة، وجماهير عريضة منهم كانت لا تعرفها؟ وكان لدى الدولة الروسية القيصرية برنامج اسمه «الترويس» خاص بتعليم أعضاء الجماعة اليهودية

اللغة الروسية، حتى يتم دمجهم في المجتمع الروسي. فغالبيتهم كانوا يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانيا)، بالإضافة إلى أنه إذا كانوا ينوون كتابة وثيقة سرية فلِمَ لا يكتبونها باللغة «الآرامية» التي كان يُجيدها معظم الحاخامات، أو حتى اليديشية التي كانت تجهلها البيرقراطية الروسية؟ كما كان يمكن كتابتها بطريقة الجماتريا التي تستخدم الحروف ومقابلها العددي، ويلاحظ أن البروتوكولات ليس فيها أي إشارة ذات طابع يهودي، مما يدل على أن كاتبها لا يعرف شيئًا عن اليهودية، بل وثمة إشارة إلى الإله الهندوكي فيشنو!

البروتوكولات تفسيرٌ تآمُري مريحٌ، والتفسير التآمري مريح لأنه يفسر كل شيء. أنا شخصيًّا عندما أفقد نظارتي في المنزل أقول لزوجتي مازحًا: إن اليهود هم الذين أخذوها؛ حتى أريح نفسي، ولا تتهمني هي بالإهمال! والتفسير المريح أسوأ من الجهل، فعلى الأقل عندما تجهل شيئًا فأنت تعرف أنك لا تعرف، أما التفسيرات الاختزالية التآمرية فهي تخلق وهم المعرفة.

س: ما سر، وبماذا تفسر شيوع البروتوكولات في العالم الغربي؟

ج: البروتوكولات كانت شائعة في العالم الغربي في أواخر القرن التاسع عشر. وقد كتبها شخص مهووس اسمه سيرجي نبلوس يقال إنه كان عميلًا للبوليس السري الروسي، الذي ساهم في ترويج هذا الكتاب في روسيا القيصرية، التي كانت تعاني من الاضطرابات الاجتماعية بسبب تعثر التحديث فيها. وكانت الحركة الثورية آخذة في التصاعد بسبب تفاقم أزمة الحكم القيصري، وكانت العناصر اليهودية موجودة بشكل ملحوظ (وعلى سبيل المثال، ٣٠٪ من كل المساجين السياسيين في ذلك الوقت كانوا يهودًا). وكتاب مثل البروتوكولات يعلق كل شيء على شماعة اليهود الأمر الذي كان يُفيد الحكم القيصري المستغل الباطش. ومن الملحوظ أن البروتوكولات تمجِّد الحُكم الشمولي والإقطاعي وتحذِّر من الديمقراطية!

وانتشرت البروتوكولات في أوربا الغربية التي كانت تعاني من أزمة اقتصادية ونسبة بطالة عالية، وكانت الهجرة اليهودية من شرق أوربا تتدفق

على أوربا الغربية، وأعضاء هذه الهجرة لم يكن عندهم كفاءات تؤهلهم للانخراط في المجتمعات الحديثة في غرب أوربا؛ ولذا انخرطوا في وظائف هامشية مثل السمسرة والدعارة والشحاذة، كما كانوا يهددون الطبقة العاملة لأنهم كانوا يقبلون أي أجر يُعرض عليهم. في هذا الإطار تأتي البروتوكولات لتفسر كل شيء.

إلى جانب عنصر مُهم آخر ساعد على انتشار البروتوكولات وهو وجود اليهود في الأحزاب الشيوعية والرأسمالية في ذات الوقت، وهو ما أعطى إيحاء بأن ذلك الانتشار يعني توزيعًا للأدوار بين اليهود من أجل الهيمنة على العالم. الفكر التآمري دائمًا ما يجِد بعض الأحداث في الواقع تساند رؤيته، ولكن هذه الأحداث تفسر جزءًا ولا تفسر كلًّا.

أما سبب شيوعها في العالم العربي فيرتبط بالهزيمة وبالتراجع الذي حدَث. فالعقلية التآمرية أو لنقل الفِكر التبسيطي قادر على تفسير كل شيء بشكل أنه عندما يحدُث لنا أي شيء: هزيمة عسكرية، فساد أخلاقي، انتشار الأمراض، يتم تفسير هذا كله بالإشارة إلى المؤامرة التي وردت في البروتوكولات. عندما يتهم شخص بالرشوة يقفز التبرير: من المؤكد أن قريبه يهودي. المسألة بالنسبة إلى التفكير البروتوكولي واضحة جدًّا، ولكنه وضوح ناجم عن الكسَل الفِكري وتستند إلى عدم فهم للواقع ومِن ثَم فهو مُضلل، ولكنه تفسير جذاب؛ لأنه يفسر كل شيء ببساطة.

س: تحدثت أيضًا عمّا أسْمَيته مرض «النُّصوصية» وعددته أحد أسباب انتشار البروتوكولات؟

ج: النصوصية، كما أسلفت، هي محاولة تفسير سلوك اليهود وقراءة الواقع الإسرائيلي في ضوء ما جاء في العهد القديم والكُتب المقدسة اليهودية الأخرى (التلمود- كتب القبالاه- وبعض الجهابذة يضمون إلى ذلك بروتوكولات حكماء صهيون بحسبانه كتابًا مقدسًا باطنيًّا عند اليهود). وتنطلق محاولة التفسير من تصور مفاده أن سلوك اليهودي هو تعبير مباشر

عن بعض نصوص العهد القديم والتلمود والبروتوكولات، وأن ما جاء في هذه الكُتب يتحقق بحذافيره. وكأن واقع الصهاينة ويهود العصر الحديث سواء أكانوا في أمريكا أم جنوب إفريقيا أم إثيوبيا لا يختلف عن واقع العبرانيين القُدامي أو يهود الصين في القرن الخامس عشر، أو كأن ما ورد في العهد القديم والتلمود إن هو إلا مُخطط يهودي قديم، يعبر عن جوهر يهودي ثابت، وأن من يريد أن يفهم اليهود والصهيونية ويتصدي لهما عليه ألّا يضيع وقته في قراءة الواقع وتفاصيله، وإنما عليه أن يذهب إلى أحد هذه الكتب (ولا سيما البروتوكولات، فهي قصيرة وواضحة وسهلة وتأخذ شكل مخطط واضح) وسيجد فيها تفسيرًا لكل شيء، بل سيجد نبوءات توضح ماذا سيحدث في المستقبل. ومثل هذا النموذج الاختزالي لا يتنبه إلى أن علاقة الإنسان بالكتب المقدسة التي يؤمن بها علاقة مركبة إلى أقصى حدٍّ، فهي ليست علاقة سبب ونتيجة، كما أن مسألة التفسير مسألة حيوية في تحديد هذه العلاقة، فيمكن أن يكون التفسير حرفيًّا مغلقًا، ويمكن أن يكون مجازيًا منفتحًا. فتفسير الصهاينة لنص ما يختلف عن تفسير اليهود الإصلاحيين له. وأخيرًا، لا يُدرك هؤلاء التآمريون أن غالبية اليهود في العصر الحديث لا تؤمن بهذه الكتب أساسًا ولا تقرؤها.

وقد استشرى مرض النصوصية وانتقل من اقتباس العهد القديم إلى اقتباس أي تصريح صهيوني وتصديقه والإشارة إليه بشكل يجعله جزءًا من المخطط القديم ومن الواقع الذي يتشكل في الحاضر. فعلى سبيل المثال، حينما صرح مسئول صهيوني عام ١٩٨٣ بأنه سيتم توطين مليون يهودي في الضفة الغربية قبل نهاية القرن الحالي، ارتجف القائمون على الإعلام العربي بسبب هذه التصريحات ونشروها بموضوعية متلقية بلهاء، دون أن يخضعوها للاختبار، ودون أن يسألوا بعض الأسئلة البَدهية. البدِيهيَّة: من أين سيأتي هذا الصهيوني بكل هؤلاء المستوطنين؟ وبحلول عام ١٩٨٨ كان عدد المستوطنين لا يزال لا يتجاوز ١٣٠ ألفًا، وأدلى المسئول الصهيوني نفسه

بتصريح مليوني آخر، ومرة أخرى ارتجف الإعلام العربي ونشرت تصريحات بَبَّغائية مذهلة. ولعل هجرة اليهود السوفييت من أهم الشواهد على هذه الظاهرة، إذ كانت الصحف العربية تنشر «توقعات» الصهاينة بهجرة الملايين، وكأنها حقائق، في الوقت الذي كان عدد يهود الاتحاد السوفييتي لا يتجاوز مليونًا ونصف المليون!

المطلوب هو أن نخضع مقولات الصهاينة للتمحيص والتساؤل، فلا نهوِّن ولا نُهوِّل ولا نكتفي بالتلقِّي السلبي والرصد الآلي. فنبين أن بعض هذه التوقعات الصهيونية الوردية قد أطلق حتى يمكن لإسرائيل الحصول على بلايين الدولارات من الولايات المتحدة، وأن كثيرًا من المهاجرين اليهود ليسوا بيهود، بل مواطنين عاديين أرادوا أن يجدوا طريقة للخروج من الاتحاد السوفييتي.

س: إذن فأنتَ ترى أن «بروتوكولات حكماء صهيون» وثيقة مزيفة، بعد أن استقر في ذهن القارئ العربي عمومًا أنها وثيقة حقيقية، وأن الفكر التأمري لا أساس له في الواقع، ولكن ألَا يمكن القول إن هذا الفِكر له قيمة تعبوية عالية حتى إن لم يكنْ له قيمة تفسيرية؟ وألَا ترى أن ما تحاول أن تُقدمه بقولك بأن البرتوكولات مُزيفة هو رأي موضوعي قد يكون رأيًا موضوعيًّا حول قضية خِلافية دون أي اعتبار للجوانب العملية؟ ثم ماذا عن القيمة التعبوية التي يراها بعضهم للفكر التآمري، بعيدًا عن قُدرته التفسيرية؟

ج: لقد قمت بدراسة هذه الوثيقة بعد أن وضعتها في سياقها التاريخي المحدد. وقد فعَلت ذلك التزامًا منِّي بالقيم العلمية، وكذلك بالقيم الإسلامية؛ فالإنسان يجب أن يبحث وأن يكد ليصل إلى الحقيقة، والمسلم الحق لا يمكنه أن يكيل التهم لأحدٍ دون أساس. كما أن المسلم لا يؤمن بأن الهوية الدينية؛ يهودية كانت أم مسيحية أم إسلامية، متوارثة. فالهوية المتوارثة هذه مسألة مادية عنصرية، حتمية، تقع في إطار الحتميات المادية. كما أنني أطرح رأيي هذا في البروتوكولات محاولة لتحرير العقل العربي من التخاذل

والهزيمة، والتهويل من شأن اليهود الذي يجعلنا لا ندخل الحروب.. فمن لا يدخل الحروب لا ينكسِر ولا يتنصِر، فهو «شيء» بين الأشياء!

والبروتوكولات، مع الأسف، تحوّلت في العقل العربي إلى ما يشبه «الصيغة السحرية» التي تفسر كلّ شيء، ويؤكّد كل من يشير إليها أن ما جاء فيها «قد حدث بالفعل»، وهذا أكبر دليل - في تصورهم - على مقدرتها التفسيرية، وقد أدمن العرب (وغيرهم) تعاطيها، كما يتم تعاطي الأفيون، لاستعادة شيء من التوازن أمام الهزائم المتلاحقة التي حاقَت بنا نحن العرب! فكيف نفسّر هذه الهزائم إلا بتأكيد أن عدونا شيطان رجيم يمتلك قوى شيطانية عجائبية، وأنه قادر - والعياذ بالله - على كلّ شيء، ولا يتورّع عن فعل أي شيء؟! ولكنك وأنت أمام الشيطان لا تملك إلا أن تستعيذ بالله ثم تفرّ، أو على الأسوأ، تستسلم له. إن الخطاب التآمري خطاب انهزامي، وهذا ما حدث لنُخبَتنا الحاكمة التي شعرت بالهزيمة من الشيطان المُتخيَّل الذي لا يُقهر فوقعت وثائق الاستسلام. وهي تحاول الآن أن تقنع المقاومة أن تحذو حذوها. إن شيطنة العدو (أي تحويلهم إلى «ظاهرة شيطانية») يدخلنا في طريق الهزيمة المُظلم، أما لو افترضنا أنه بشر، فإنه يمكننا التعامل معه؛ يمكن أن نحاوره بشكل عقلاني إن كان ذلك ممكنًا، أو نطلق عليه النار إن اضطرتنا الظروف إلى ذلك! والعقل العربي يفضل «شيطنة اليهود» حتى لا يتعامل معهم، إن سلمًا أو حربًا. وبالنسبة إلى كثير من الباحثين أصبح الاقتباس من البروتوكولات هو جوهر التأليف لديهم، فمثل هذا الاقتباس يكفيهم مؤونة البحث وعناء الإبداع.

والأسوأ من هذا أن من يخاف من اليهود يكون قد خسر الحرب قبل دخول المعركة. ونحن نسمع عن أسلحة الرعب وعن الحرب النفسية. أنا أعتقد أن المخابرات الإسرائيلية وراء بث كُتب مثل (بروتوكولات حكماء صهيون) و(لُعبة الأمم). وعندنا الآن من الأدلة ما يُثبت أنه تحت شعار «اعرف عدوك»! بعد هزيمة ١٩٦٧ كان العدو الصهيوني يبث كتبًا تحوي شيئًا من الأسرار لكن الأهم من الأسرار حجم التضخيم لقوة العدو ليتحول

إلى كِيان أُخطبوطي مخيفٍ لا يمكن هزيمته! وهكذا كسب، كان العدو يكسب الحرب دون أن يدخل أي معارك، ولكن حينما عبرنا حاجز الخوف ظهر أنه نمرٌ من ورقٍ، انظري إلى ما حدَث لهم في لبنان في الحرب السادسة!

فمن الواضح أن العدو يجيد استخدام سلاح التخويف هذا. وهذا ليس جديدًا؛ الولايات المتحدة أحيانًا تضع سلاحًا لا لتستخدمه وإنما لتَبُث الرعب في قلب العدو؛ لهذا يتحدثون عن «توازن الرعب»، من الذي يُخيف الآخر أكثر؟ هم في حالتهم يضعون القنابل الذرية والصواريخ ولكنهم لا يستخدمونها، و(إسرائيل) تبث فكرة بروتوكولات حكماء صهيون وما شابه.

وقد قال يوئيل ماركوس في جريدة هآرتس (٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣): «إن كثيرًا من الدول تغازل إسرائيل، وتحاول أن تخطب ودَّها، نظرًا لأن حكام هذه الدول يؤمنون بأن البروتوكولات وثيقة صحيحة، وأن ما جاء فيها هو المخطط الذي يتحقق في العالم والذي سيؤدي إلى سيطرة اليهود، وأن اليهود يتحكمون حقًّا في رأس المال العالمي وفي حكومة الولايات المتحدة. ومن ثَم، فالطريق إلى المعونة الأمريكية يمرُّ من خلال اللوبي الصهيوني والدولة الصهيونية!». ويضيف ماركوس معلقًا على هذه المفارقة: «إن البروتوكولات بسبب أثرها هذا، الذي يولِّد الرهبة في النفوس، ويدفع الناس إلى مغازلة إسرائيل واليهود تبدو وكأن الذي كتبها لم يكن شخصًا معاديًا لليهود، وإنما يهودي ذكي، يتسم ببعد النظر!»، والفكر التآمري قد يُعبِّئ الناس في البداية، ولكنه يبث الهزيمة في قلوبهم، لينتهي بهم الأمر إلى الهزيمة الداخلية ثم الاستسلام.

وعلى الصعيد العملي أتساءل: ماذا يُفيدني فِكر المؤامرة عندما أعرف أن اليهود أشرار، وأنهم مسئولون عن مصائب العالم؟! وأن كل المحاولات لن تجدي للتصدي لهذا الشر؟! وأعتقد أن حزب الله تجاوز هذه المعضلة تمامًا، وقد أخبرني أحدهم أنه حين تذكر الآية الكريمة: «إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون» [النساء: ٤/١٠٤]، نفض

عن نفسه الخوف والهزيمة، وتقدَّم هو وإخوانه فألحقوا بالعدو الهزيمة تلو الهزيمة. لقد أدركوا أن الجندي الإسرائيلي ليس قوة شيطانية خارقة، وإنما إنسان عادي، وبدءوا يلاحظون أنه خائف، شأنه شأن أي إنسان في مثل هذا الموقف، ولا سيما إذا كان لا يؤمن بالله، وإذا كان إيمانه بالوطن مزعزع فكر المؤامرة لا يعطي خريطة للواقع ولا يدلنا على نقط القوة والضعف في العدو، ولكنني عندما أضع العدو في إطاره البشري فيمكنني البحث عن نقاط قوته وضعفه. وفي حديث صحفي أجرته مجلة التايم مع إيهود باراك قال: نحن نُطارد البعوض، ويقصد المقاومة، وأن العرب لا يتعدون كونهم بعوضًا نقتله. ولكنه عاد بعد قليل واعترف بأن حزب الله أبدى تفوقًا في قدرته على التعامل مع تطور الجيش الإسرائيلي، وأنه ابتكر وسائل تفجير لم تكن تخطر على بال الجنود الإسرائيليين حتى ضد السيارات المدرعة. وهذا دليل واضح على أن مقاتل حزب الله يعرف تمامًا أنه يتعامل مع عدو بشري يمكن هزيمته ومعرفة نقاط ضعفه. فكر المؤامرة يلغي كل ذلك، وبدلًا من أن يقرأ الباحث الواقع من خلال الملاحظة والاجتهاد يقرأ البروتوكولات والتلمود والتوراة، ثم يحاول قراءة الواقع من خلال النصوص التي قرأها.

س: يرى بعضهم أن التلمود هو الآخر، شأنه شأن البروتوكولات، مصدر كل المؤامرات اليهودية عبر التاريخ، فما هو التلمود؟

ج: التلمود كان من أهم الكتب الدينية عند اليهود، وهو الثمرة الأساسية لتفسيرات الحاخامات للتوراة، وهو مكون من نص وشرح وتعليق على التعليق، وقد استمرت عملية التفسير مئات الأعوام على يد ألف حاخام تقريبًا في أزمنة وأمكنة مختلفة، والتلمود ليس من الكتب الباطنية أو السرية (كما يتوهم البعض). وثمة نسخ منه في معظم المكتبات الجامعية المتخصصة في الولايات المتحدة، وفي بعض مكتبات مراكز البحوث أو الجامعات في الدول العربية. ويلاحظ أن التلمود كتاب ضخم متعدد الأجزاء، مجلداته كثيرة وضخمة تصل في بعض الطبعات إلى ما يزيد على عشرين مجلدًا.

س: ما هو موقع التلمود في التراث الديني اليهودي؟

ج: سيطر التلمود على الوجدان الديني اليهودي في الماضي واحتل مركزية في التراث الديني اليهودي. في بادئ الأمر كان ينظر إليه باعتبار أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد التوراة، ولكنه أصبح بعد حين يلقب بالتوراة الشفوية؛ أي صار مساويًا للتوراة المكتوبة في المرتبة، ولم يعُدْ في وُسْع أي يهودي مخالفته، وأخذت درجة قداسته في الازدياد والاتساع حتى أصبح أكثر قداسة من التوراة نفسها، وقد جاء في التلمود أنه: «لا خلاص لمن ترك التلمود واشتغل بالتوراة لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى، وهي أفضل من أقوال الأنبياء».

وفي معرض تقديس التلمود والإيمان المطلق بكل ما دونه الحاخامات فيه، ورد في التلمود أن خلافًا ما قد وقع بين الإله وعلماء اليهود حول أمر ما، وبعد أن طال الجدل، تقرَّر إحالة الأمر موضع الخلاف إلى أحد الحاخامات الذي حكم بخطأ الإله الذي اضطر إلى الاعتراف بخطئه. وفي هذا المقام أيضًا، ردد بعض الحاخامات أن الإله يستشير الحاخامات على الأرض إذا صادفته مسألة معضلة يتعذر عليه حلها في السماء. ولكن مع عصر الاستنارة في القرن الثامن عشر ومع ظهور صيغ مخففة من اليهودية هُمش التلمود حتى إن كثيرًا من اليهود يسمعون عنه ولا يقرءونه، بل إن بعضهم لم يسمع به قط، فمثلًا مارتن بوبر، أهـم مفكِّر ديني يهودي في العصر الحديث، لم تقع عيناه على التلمود إلا في عيد ميلاده الستين، حين أحضر أحد أصدقائه نسخة منه هدية له!

س: هل يمكن أن تُبين لنا بعض موضوعاته، وما هي أهم الموضوعات التي يتناولها التلمود؟

ج: التلمود كتاب جيولوجي ضخم يضم موضوعات شتّى، وتراكمت فيه رؤى مختلفة، الرؤية فوق الرؤية، فهو يضم فيما يضم دراسات في الدين والشريعة والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية، كما يتضمن، علاوة على ذلك، فصولًا في الزراعة وفلاحة البساتين والصناعة والمهن والتجارة

والربا والضرائب وقوانين الملكية والرِّق والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي، بل يغطي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصة؛ أي إنه كتاب جامع مانع بشكل لا يكاد يدَع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجوه النشاط في حياته العامة أو الخاصة، إن هو أراد تطبيق ما جاء فيه.

كما يضم التلمود موضوعات وطرائف لا تنضوي بالضرورة داخل إطار فلسفي واضح، أو رؤية دينية محددة، فهو يتحول أحيانًا إلى مجرد وثيقة اجتماعية لا توجِّه الواقع وإنما تعكسه فحسب، فصفحات التلمود تعكس وضع اليهود الاقتصادي جماعة وظيفيَّة تعمل بالتجارة ولذلك كان على اليهودي، حسب التقاليد التلمودية، أن يتلو ثلاث تسبيحات شكر كل يوم لأن الإله خلفه يهوديًا، ولأنه لم يخلقه امرأة ولم يخلقه فلاحًا، وقد جاء أنه لا يوجد عمل أكثر امتهانًا من فلاحة الأرض.

ولا يقتصر التلمود على حياة اليهود العامة، وإنما يمتد ليشمل أخص خصوصياتهم. فهو يتناول، ضمن ما يتناول، كل دقائق إعداد الطعام وتناوله، والعلاقات الخاصة بين الرجل وزوجته والطمث. وينبعث من صفحات التلمود احتقار عميق للمرأة، وقد كتب أحدهم يقول: «ثمة أربع خصائص للنساء: فهن شرهات ومتصنتات وكسولات وغيورات، وهن أيضًا كثيرات الشكوى وثرثارات»، وقد أفاض التلمود بشأن الصفة الأخيرة: «نزلت إلى العالم عشرة مقاييس للكلام، أخذت النساء تسعة منها وأخذ الرجال واحدًا».

والتلمود كتاب طبي أيضًا؛ ولذا، فإننا نجد فيه وصفات طبية عديدة، فهو ينصح بضرورة التعرض للماء البارد بعد حمام ساخن. كما نجد في التلمود شرحًا لأسباب الإمساك وطريقة معالجته. وينصح التلمود أيضًا بأن من: «يطيل البقاء في المرحاض، يطيل الرب أيامه وسنيه وسنينه». وهناك صلاة شكر تُتلى بعد تلبية نداء الطبيعة.

وعلاوة على هذا كله، يمكن اعتبار التلمود كتاب فولكلور يعكس شتى الممارسات والآراء الخرافية التي كانت سائدة في مكان نشأته، سواء في بابل أو في الأماكن الأخرى التي عاش فيها الشارحون. ولأن كُتَّاب التلمود يدورون في نطاق حلولي، فإننا نجدهم يؤمنون بإمكانية التحكم الكامل والتوصل للحل السحري (الغنوصي)، وبفاعلية العلاجات العجائبية والعقاقير الشيطانية والسحر والرقى والتعاويذ، والتلمود أيضًا كتاب تنجيم وسحر وتفسير أحلام، ومما يذكر فيه أن قارئه الراغب في رؤية العفاريت رؤية العين يمكنه ذلك باتباع خطوات تم تحديدها بدقة متناهية، وإن أراد طرد العفاريت فصفحاته تضم تعاويذ تفي بذلك الغرض. ويؤكد التلمود أن الحاخامات كانوا قادرين على الخلق.

س: ولكن كما قلت، يتناول التلمود أيضًا موضوعات مهمة؟

ج: نعم، فلنبدأ بالتصور التلمودي للإله فهو يُشكِّل نكسة للفكر التوحيدي وللرؤية التي طرحها الأنبياء في العهد القديم، فالتلمود يخلع العديد من الصفات الإنسانية واليهودية على الإله، والعصمة ليست من صفاته، فهو مشغول خلال اثنتي عشرة ساعة يوميًّا: يقرأ التوراة في الساعات الثلاث الأولى، ويحكُم العالم في الثلاث التالية، ويفكِّر في إفناء العالم، ثم يترك كرسي القضاء إلى كرسي الرحمة، ويجلس في الساعات الثلاث التالية يرزق العالم كله من أكبر الحيوانات إلى أصغرها. وفي الثلاث الأخيرة، يلعب مع التنين أو الحوت، والإله، في التلمود، مُتعصِّب بشكل كامل لشعبه المختار؛ ولذا فهو يعبر عن ندمه على تركه اليهود في حالة تعاسة وشقاء حتى إنه يلطم ويبكي. ومنذ أن أمر بهدم الهيكل وهو في حالة حزن وندم، توقف عن اللعب مع التنين الذي كان يسليه، وأصبح يُمضي وقتًا طويلًا من الليل يزأر كالأسد. ولكنه في آخر الأيام، بعد إقامة المجتمع اليهودي الأمثل بعد عودة الماشيح (أي المسيح المخلص اليهودي) في ظل الدولة المستعادة، يجلس على العرش يقهقه لانتصار شعبه، وعبثًا يتوافد الوثنيون طالبين قبولهم.

س: ما هو موقف التلمود من اليهود والأغيار؟

ج: يمجد التلمود اليهود ويشبههم بحبة الزيتون؛ لأن زيت الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد الأخرى، وكذلك جماعة يسرائيل، لا يُمكن أن تختلط مع الشعوب الأخرى. ويدعي التلمود أن روح الإله من روح الشعب كما أن الابن جزء من أمه؛ ولذا فمن يعتدي على يهودي فهو كمن يعتدي على العزة الإلهية، ومن يعادي جماعة يسرائيل أو يكرهها فإنه يُعادي الإله ويكرهه.

وكان الاختيار في بادئ الأمر تلقائيًّا نابعًا من رحمة الإله وإرادته الإلهية، ولكن اليهود -حسب الرؤية التلمودية- بينوا أنهم جديرون بهذا الاختيار. ولذا، تحول الاختيار من مجرد منحة من الإله إلى حق من حقوقهم ملزم له وإلى دين عليه أن يؤديه حتى لو ضلوا الطريق. وقد جاء في التلمود على لسان الإله: «لن أعامل جماعة يسرائيل كالأمم الأخرى، حتى وإن لم تعمل حسنات إلا قليلًا تافهًا كروث الدجاج المُتناثر في الحظيرة، فسأجمع هذه الحسنات ليكون لها حسنات كثيرة». هذه النزعة الانعزالية المتعالية توجد في معظم صفحات التلمود (ولا سيما سفر عفوده زاره أو عبادة الأوثان)، فقد جاء فيه أن الإله خلق الأغيار على هيئة الإنسان لكي يكونوا لائقين بخدمة اليهود الذين خُلقت الدنيا من أجلهم؛ إذ ليس من الملائم أن يقوم حيوان على خدمة الأمير، وهو على صورته الحيوانية، ولا يعتد بشهادة غير اليهودي أمام المحاكم إلا في حالات قليلة. وإذا وقع أذى بشخص، فمن المهم جدًّا تحديد هل هذا الشخص يهودي أم لا، بل إن هذا التمييز يسري أيضًا في المعاملات التجارية. وفي مسائل الطهارة، يعتبر الأغيار أنجاسًا في حياتهم ومماتهم؛ لأن مقابرهم غير مقدسة، ولذا هي لا تنجس الكهنة. والعكس صحيح بالنسبة إلى اليهود، فهم طاهرون في حياتهم وقبورهم مصدر نجاسة أساسي للكهنة اليهود.

وقد جاء في التلمود أنه لا يصحُّ أن يُباع لليهودي الشيء الذي يحتمل فساده إن ترك، ولكنه من الممكن أن يُباع لغير اليهودي، كما يحرم على الطبيب

اليهودي أن يعالج مريضًا غير يهودي (إلا لدرء أذى الأغيار).

ولأن التلمود يرى أن اليهود وحدهم يجسدون روح الإله؛ لذا نجده لا يرحب بالمتهودين، وقد ورد فيه «إن المتهودين مثل القَذَي في عين جماعة يسرائيل»، وهو موقف كان يسيطر على المؤسسة الأرثوذكسية وريثة التراث التلمودي في إسرائيل حتى عهد قريب (وإن كان بدأ يتغير بسبب الأزمة السكانية في إسرائيل).

وحتى حينما كان بعض المفسرين ينصحون اليهود بعدم الكذب على الأغيار، فإنهم يصرون على ضرورة عدم الاحتكاك بهم، أو الدخول معهم في علاقة، وقد قال أحد الشارحين في القرن السابع عشر في بولندا: إن مِن الواضح أن التوراة تأمر اليهود بأن يحتفظوا بالكراهية بينهم وبين الأغيار حتى يبعدوا خطر الزواج المختلط؛ ولذا، فلا يمكن السماح بتلك الأفعال التي قد تقلل الكره بين اليهود والأغيار. وتصل النزعة المتعالية ذروتها في عبارة: «اقتل أفضل الأغيار، اسْحَق رأس أنبل الأفاعي»، وقد اقتبس أحد كتيبات الحاخامية العسكرية الإسرائيلية هذه العبارة التلمودية التي أثارت ضجة داخل إسرائيل وتصدى لها بعض القادة الدينيين ووصفوها بأنها تشويه للعقيدة اليهودية. وقد استفاد الصهاينة من التلمود وتركيبه الجيولوجي إذ وجدوا فيه ما يدعَم اتجاهاتهم. فقد جاء في سفر «عفوده زاره» على سبيل المثال، لا الحصر: «ينبغي ألّا تؤجر البيوت لغير اليهود في أرض يسرائيل، ناهيك عن الحقول». وهذه إحدى القواعد الأساسية للصندوق القومي اليهودي.

وتجد التوسعية الصهيونية تسويغًا لها في الصورة التي يرسمها التلمود لحدود الأرض في المستقبل، فهي سوف تمتد وتصعد في جميع الجهات، ومن المُقدر لأبواب القدس أن تصل إلى دمشق، وسوف يأتي المنفيون لينصبوا خِيامهم في الوسط. وقد جاء أيضًا: «إن فلسطين تُدعى أرض الظَّبي، فكما أن جلد الظبي يعجز عن استيعاب لحمه وجسمه، كذلك هي أرض

يسرائيل: عندما تكون مأهولة تجد لنفسها متسعًا، لكنها تتقلص متى كانت غير مأهولة»، فحدود هذه الأرض متغيرة، وتزداد بازدياد المستوطنين اليهود فيها. ولا يختلف هذا القول كثيرًا عن موقف تيودور هرتزل من الحدود حين بين أن ما سيقرر حدود الدولة هو مدى حاجة الصهاينة: «كلما ازداد عدد المهاجرين ازدادت حاجتنا إلى الأرض».

س: هل ثمة إشارات في التلمود للعرب؟

ج: لقد تقصَّى الدكتور أسعد رزوق موقف التلمود من العرب، فوجد أنه (في بعض نواحيه) تعبير عن الانعزالية المتعالية نفسها. وقد جاء في سفر سوكاه (٥٢ ب) أن الإله ندم على خلقه أربعة أشياء: المنفى، والكلدانيين، والإسماعيليين (أي العرب)، ونزعة الشر، وينسب التلمود إلى العرب أعمال السحر، فقد جاء في سفر سنهدرين (٦٧ ب) أن عربيًّا امتشق السيف وقطع به الناقة، ثم قرع جرسًا فنهضت دون وجود آثار عليها، والعرب، حسبما جاء في التلمود، خبراء في الطب، ولا سيما الطب الشعبي، ويرد في التلمود العديد من القصص الطريفة والأعاجيب عن العرب، وثمة قصص ليست في صالح راويها الحاخامي إذ إن بعضها يدل على خبرة العرب وبراعتهم واحترامهم موتى اليهود أكثر من احترام الحاخام إياهم. وأخيرًا، فقد جاء في سفر السبت (١١أ) القول التالي: «لا بأس من الخضوع لحكم واحد من أبناء إسماعيل بدلًا من حكم الغريب [أي الأدومي]». وبحسب ما جاء في حاشية الشارح، فإن المقصود بذلك هو تفضيل الحكم العربي على البيزنطي، وهو ما يشكل أساسًا تلموديًّا للمصالحة مع العرب بل قبولهم حكامًا!

س: الأفكار متناقضة، مما يعني أنه يمكن لأي شخص أن يقتبس ما يريد؟

ج: نعم، يقرر جيمس باركس، وهو مؤرخ غير يهودي متعاطف مع اليهودية، قوله: «إنه لم يكن من الصعب أن يقتبس أي دارس للتلمود، وبيسر شديد، كثيرًا من الآراء والمشاعر التافهة والمضحكة بل الكريهة، وبوسعه أن يفعل ذلك دون أن يخطئ في الاستشهاد أو يزيف السياق، إذ إن مثل هذه

النصوص توجد في الأدب الحاخامي [الجيولوجي الضخم وغير المترابطة». ونحن إذا وافقناه على رأيه هذا، فلن نحيد عن جادة الصواب، فهذا أيضًا هو رأي الحاخام جيكوب أجوس أحد أهم مؤرخي اليهودية.

إن التلمود لا يتسم بالاتساق الداخلي؛ إذ يحوي داخله عديدًا من الأفكار والأطر الفلسفية المتناقضة، فثمة تعارض بين العقل والطبقة التوحيدية من جهة والنزعة الحلولية من جهة أخرى، وفيه الاهتمام المفرط بالطقوس مقابل الاهتمام بالتجربة الدينية الداخلية. وفيه من النصوص ما يؤيد هذا الموقف أو ذاك. وقد أشرنا في أثناء عرضنا بعض أفكار التلمود الأساسية إلى أفكار مثل الشعب المختار وضرورة العودة إلى أرض الميعاد، بل إلى أفكار أكثر تطرفًا تحمل الضغينة والكراهية نحو الآخرين، وقد أشرنا إلى أن التلمود يضم أيضًا أفكارًا متناقضة جدًّا تتصل بهذه الأفكار المحورية نفسها.

يمكن الإشارة إلى أن التلمود يحوي نصوصًا عن ضرورة العودة إلى صهيون أو آرتس يسرائيل أي فلسطين، وأن من يخطو فيها خطوة كأنه يخطو عدة خطوات إلى الجنة ... إلى آخره. وأنَّ من يقيم خارج أرض إسرائيل هو مثل إنسان من دون إله. ولكن نظرًا لخاصية التلمود الجيولوجية، فإننا نجد أنه يرد فيه عكس هذه الأفكار تمامًا، فقد قال الحاخام يهودا: «من يصعد من بابل إلى أرض يسرائيل، فقد انتهك إحدى الوصايا الإلهية». ويستشهد بسفر إرميا (٢٢/ ٢٧)، ثم يقول: «مثلما أنه ممنوع مغادرة أرض يسرائيل إلى بابل، فمن الممنوع أيضًا مغادرة بابل إلى غيرها من البلدان»، ثم يستطرد قائلًا: «إن من يعيش في بابل كأنه مُقيم في أرض يسرائيل» (كتوبوت ١١١ أ). كما توجد في التلمود أيضًا أفكار متناقضة عن العصر المشيحاني؛ أي بعد عودة المسيح المخلص اليهودي، بعضها ذو نكهة صهيونية انعزالية والبعض الآخر مُعادٍ لها وله نزعة اندماجية عالمية.

ويقتصر المعادون لليهود عادة على اقتباس الأفكار السلبية الحلولية الانعزالية والمتعالية وحدها متجاهلين الأفكار الإنسانية. وحتى نبين مدى

عمق ذلك التناقض، يمكننا أن نقتبس من التلمود بعض النصوص ذات البعد الإنساني العميق التي تتجاوز الانعزالية والحلولية، وسيُلاحظ على سبيل المثال، أن الاختيار يكتسب أبعادًا دينية عالمية، إذ إن الإله سينزل العقاب باليهود: «إن لم يتحدثوا عن قداسته للعالمين». فقد نفيت جماعة يسرائيل وشُتتت بهدف واحد هو «الدعوة إلى اليهودية وكسب المتهودين» (بساحيم ٨٧ ب)، وهذه النزعة التبشيرية، التي تنظر إلى اليهودية باعتبارها عقيدة لا باعتبارها ميراثًا عرقيًا وإثنيًا، تفترض تساوي البشر وتتجاوز الحلولية التي ترى أن الإله هو إله اليهود، مقصور عليهم، وقد تبنت اليهودية الإصلاحية هذا الموقف من عملية التهويد.

وتصل الإنسانية قمتها في ذلك النص الذي جاء فيه «أن الروحَ القُدس تستقر على الجميع؛ اليهودي وغير اليهودي؛ الرجل أو المرأة؛ العبد والجواري، كل امرئ احسب أفعاله». كما جاء في سفر جطين (٦١٦) «أن أحد الحاخامات أوصى بإطعام فقراء الأغيار مع فقراء اليهود، أو بزيارة مرضاهم مثلما نزور مرضانا، وأن يدفن موتاهم مع موتانا حتى ندعم سبل السلام».

س: ثمة من يرى أن التلمود مسئول عن سلوك اليهود في الوقت الحاضر؟

ج: هذا هو رأي المؤلف اليهودي الصهيوني برنارد لازار، الذي وصف التلمود بأنه «كتاب ضد المجتمع». وأنه أدى دورًا حاسمًا في تحويل اليهود إلى شعب واحد، فهو الذي صنع النفس اليهودية وصاغ خصائصها، وهو «خالق الجنس أو صانع العنصر اليهودي»، و«هو الذي علم اليهود الاستعلاء والتفوق المليء بعصبية ضيقة وضارية». ولعل مثل هذه الآراء، التي تفسر سلوك اليهود في إطار بعض ما جاء في التلمود، هي المسئولة عن موقف المعادين لليهود الذين يجعلون كل يهودي في كل زمان ومكان مسئولًا عمّا ورد فيه من آراء متعصبة. ومثل هذا الرأي ينم عن عدم إدراك لطبيعة التلمود أو طبيعة علاقة اليهود به؛ فالتلمود ليس كلًا متجانسًا، كما أن اليهود ليسوا على معرفة بما جاء فيه ككلٍّ، وهو لا يحدد سلوك اليهود كافة في كل

زمان ومكان. والواقع أن من يحول التلمود إلى نموذج تفسيري لسلوك اليهود أو أعضاء الجماعات اليهودية (كما يفعل كثير من الدارسين)، يكون قد حكم على نفسه بالانفصال عن الواقع والفشل الذريع في التنبؤ.

ويفترض الذين يهاجمون أعضاء الجماعات اليهودية بسبب ما جاء في التلمود، أن كل يهودي قد درس التلمود بعناية فائقة، وأنه يُخضع كل حركاته وسكناته لما ورد فيه من تعاليم سلبية. لكن هذا تصور ساذج وتبسيط آلي، فما يحدد سلوك فرد ما؛ يهودي أو غير يهودي، ليس كتبه الدينية ومُثله العُليا وحسب، وإنما مركب هائل من الأسباب التاريخية (الاقتصادية والاجتماعية) التي تختلف باختلاف الزمان والمكان. ولا يمكن فهم سلوك العرب المحدثين في ضوء ما جاء في تراثهم الديني، أو في ضوء ميثاق جامعة الدول العربية أو إيديولوجية القومية العربية، على أهمية ذلك كله في تحديد هذا السلوك. والواقع أن دراسة التلمود مسألة شاقة للغاية تتطلب معرفة بالقراءة والكتابة باللغتين العبرية والآرامية، وهما لغتان ساميتان يصعُب على الإنسان غير المتخصص دراستهما في الوقت الحاضر، ولذا، لم يكن يقرأ التلمود سوى أعضاء النخبة المتعلمة التي كانت في المراكز الدينية. أما جماهير اليهود، فكانت لا تعرف ما جاء فيه لأنها لم تكن تملك المقومات الثقافية لذلك، بل إن صغار الحاخامات أنفسهم الذين وجدوا في القرى المتناثرة، أو أولئك البعيدين عن المدارس التلمودية العليا، لم يكونوا يعرفون ما جاء فيه.

س: وماذا عن العصر الحديث؟

ج: علاقة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم في العصر الحديث بالتلمود مَثَل جيد على أن التلمود لا يصلح أن يكون نموذجًا تفسيريًّا لسلوك أعضاء الجماعات اليهودية، فقد بدأ العصر الحديث باليهودية الإصلاحية التي قامت بتوجيه النقد الحاد للتلمود ورفضته، ومن ثم ضعفت العلاقة بين أعضاء الجماعات اليهودية والتلمود حتى اختفت هذه العلاقة تمامًا بالنسبة إلى الأغلبية العظمي. فالأمريكيون اليهود والإسرائيليون لا يعرفون ما جاء في

التلمود، ويصدم كثير منهم حينما تُذكر أمامهم بعض أقواله. ويبدو أن أهم مفكرين دينيين يهوديين في العصر الحديث، مارتن بوبر وفرانز روزنزفايج، لم يَدرُسا التلمود، وربما لم يقرآه، وفي استطلاع للرأي أُجري في إسرائيل صرح ٨٤٪ ممن شملهم الاستطلاع أنهم لم يقرءوا التلمود قط.

لكل ما تقدَّم، يجب ألَّا تُجرد النصوص التلمودية من سياقها، وألا يُجرَّد التلمود نفسه من سياقه التاريخي، بل يجب أن ينظر إليه في كليته لا باعتباره كتابًا دينيًّا وحسب وإنما أيضًا باعتباره كتاب أدب شعبي لا يتسم بكثير من التناسق أو التجانس، كما يجب أن يقرأ باعتباره كتابًا يحوي الفكرة ونقيضها، وباعتباره كتابًا لا يُحدد وحده سلوك الفرد اليهودي الذي عادة ما يجهل ما جاء فيه. والواقع أن استخدام التلمود نموذجًا تحليليًّا ينم عن الكسل الفكري، فهو رفض للتعمق في كلية الظاهرة اليهودية وتركيبيَّتها وتنوعها بشكلٍ يصبح فيه كل أعضاء الجماعات اليهودية في كل زمان ومكان مجرد يهود، ويصبح المحدد الأساسي لسلوكهم هو التلمود؛ إذ يتم اختزال الواقع بأسره إلى مستوى واحد ويتم القضاء على التعددية وعلى كل الثنائيات. وينجم عن هذا، بطبيعة الحال، فشل كامل في رصد سلوك أعضاء الجماعات اليهودية أو التنبؤ به.

س: ما هي علاقة التلمود بالدولة الصهيونية؟

ج: أثر التلمود والشرع التلمودي واضح في قوانين الأحوال الشخصية في إسرائيل؛ فالتشريعات التي تضبط قضايا الزواج والطلاق فيها لا تختلف عن الأحكام التلمودية الواردة في أسفار سدر ناشيم. وفي شئون الطلاق، لا يزال سفر جيطين المصدر الأساسي للأحكام المتعلقة بوثيقة الطلاق (جيط) التي يكتبها الزوج. وفي مسائل الزواج وتسجيل المواليد، لا تزال أحكام الشريعة التي حددها التلمود هي الشريعة السائدة؛ فاليهودي هو المولود لأم يهودية، أو من اعتنق اليهودية على يدِ حاخام أرثوذكسي. وعملية التهود ليست هينة، إذ يُصِر الحاخامات الأرثوذكس على التقيد بالشعائر التلمودية،

ومن بينها الحمام الطقوسي الذي يجب أن تخضع له الأنثى التي تريد التهوُّد، فتدخل الحمام عارية تمامًا، بحضور ثلاثة من الحاخامات وتحت أنظارهم.

وكذلك تُطبق في إسرائيل الشرائع التلمودية الخاصة بقوانين الطعام والقوانين الزراعية التي وردت في سفر براخوت من سدر زراعيم. ويُدرس التلمود في إسرائيل، وتقتصر الدراسة في المدارس والمعاهد الدينية على دراسته، كما أن جامعة بار إيلان تشترط على طلابها تحصيل معرفة تمهيدية بالتلمود. ولكنه مع هذا ليس له أي أثر على الحياة العامة والخاصة لغالبية الإسرائيليين، فهم يعتبرون كثيرًا من التشريعات اليهودية مصدر ضِيقٍ لهم. فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع علماني، مغالٍ في علمانيته. **س: نعود إلى نظرية المؤامرة، ألا تحيك الدول الكبرى المؤامرات في حربها من يتصدى لها؟**

ج: ثمة من يخلط بين المؤامرة والمخطط؛ فالمخطط هو خطة أو استراتيجية تعبِّر عن مصالح دولة ما أو مجموعة من الدول (كما يتصورها أصحابها)، وهي تتبدى من خلال أنماط متكررة لها مسار يعبر عن منطق داخلي يمكن فهمه والتصدي له بمخطط مضادٍّ، فأصحاب المخطط المعادي لنا بشر، ونحن بشر، والحرب بيننا سِجال، إلى أن ينصر الله من ينصره.

أما المؤامرة فهي خُطة سرية وضعها في الظلام بضعة أفراد.دوافعهم خسيسة شريرة، يحاولون قدر طاقتهم الحفاظ عليها طَيّ الكتمان ويقومون على تنفيذها؛ ولأن المؤامرة ليست جزءًا من نمط، فإنها لا تتبع مسارًا مفهومًا وليس لها قوانينها الداخلية الخاصة والخارجية العامة. ويتصور أصحاب نموذج المؤامرة أن المؤامرة التي تحاك ضدهم موجودة في وثيقة بعينها، تتضمن معظم البنود أو كلها. وبدلًا من فهم الواقع وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه، تصبح مهمتنا هي ضرورة البحث عن مثل هذه الوثائق وأن ندرسها بعناية. ونموذج المؤامرة يشبه من بعض الوجوه النموذج المعلوماتي، فهذا النموذج الأخير يعطي القارئ معلومة بجوار معلومة، دون أن ينتظمها إطار. وهذا لا يختلف كثيرًا عن نموذج المؤامرة، الذي ينظر إلى الواقع فيحوله إلى شظايا متناثرة، فيحذف منه الجوانب التي تتحداه ويؤكد

الجوانب التي تروق له، ويفرض عليها المعنى الذي يريده. فنموذج المؤامرة ونموذج المعلوماتية صِنوان يعبِّران عن العقلية وطريقة النظر نفسها.

إن نموذج المؤامرة، كما لخَّصه أحدهم: نموذج قد يدعو إلى عدم الاستسلام، ولكن مقولاته تنطوي على دعوة إلى عدم الجهاد في الوقت نفسه؛ لأنه نموذج يؤدي إلى الشلل التام. كنت في إحدى الندوات أعرض وجهة نظري، فقام أحدهم وصرخ في بصوت عال: «إن حربنا مع اليهود إلى يوم قيام الساعة. قالها بحماسه شديدة جعلت الجمهور كله يصفِّق له بحماسة أشد، فانتظرت حتى انتهت الحماسة والتصفيق وقلت لهم: إن هذا القول يعني أن قيام دولة إسرائيل جزء من مخطط إلهي، وأن انتصاراتها علينا «أمر مكتوب» علينا تقبُّله إلى أن تحين الساعة!

س: ولكن يشير كثيرون إلى أن النبوءات الصهيونية قد تحقَّقت مما يدل على وجود المؤامرة، انظر على سبيل المثال، إلى مذكرات هرتزل مثلًا حيث تنبأ بتأسيس الدولة الصهيونية في غضون خمسين عامًا، وقد حدَث هذا حقًّا ألَا يقف هذا دليلًا على وجود المؤامرة؟

ج: أنا بدوري أطرح السؤال التالي: هل قام أحدهم بحساب عدد النبوءات التي أطلقها هرتزل بثقة ولكنها خابت؟ وما قولهم في نبوءته بخصوص ألمانيا القوية التي ستأخذ اليهود تحت جناحيها، وتساعدهم في مشروعهم الصهيوني؟ ألم تأخذ ألمانيا اليهود تحت جناحيها بعد أقل من ثلاثين عامًا من إطلاق النبوءة بمعنى مختلف تمامًا عما كان يقصد إليه هرتزل؟ وما قولهم عن نبوءات الصهاينة عن تدفُّق يهود العالم على الوطن القومي اليهودي حيث يتم صهرهم في بَوْتَقة الصهر الصهيونية ليخرج منها العبراني الجديد؟ ألا يمكن القول بأن الأزمة الاستيطانية وأزمة الهوية التي يعاني منها الكيان الصهيوني هما دليل ناصع على فشل النبوءات الصهيونية؟!!.

إن رفض نموذج المؤامرة يعني عدم تقبل الواقع السطحي كما هو، ورفض المقولات اللفظية الشائعة والصور النمطية السائدة والصيغ المسبقة

الجاهزة. كما يعني عدم تقبل ادعاءات الصهاينة عن أنفسهم وإخضاعها للنقد والبحث والتمحيص، وتفكيك الظواهر اليهودية الصهيونية والإسرائيلية وإعادة تركيبها بطريقة تجعلها مفهومة، ووضعها في حدود الزمان والمكان، وفي سياقها الحضاري والتاريخي والإنساني، والنظر فيها بحسبانها ظواهر تاريخية إنسانية، ومِن ثَم يمكن التعامل معها إن حربًا أو سلمًا.

نفعل ذلك كله دون إهمال الادعاءات التوراتية والتلمودية بحسبانها ديباجات تعبوية مهمة، وديباجات تسويغية تطرح أمام الرأي العام العالمي (أي الغربي) لتجنيده وراء الإمبريالية ومشروعها الصهيوني، ولكنها لا ترقَى أبدًا إلى مستوى البنية الواقعية.

س: لكن ثمة مؤامرات تُحاك مثل محاولات الاغتيال وعمليات التجسس؟

ج: إنكار المؤامرة لا يَعني بأي حال إنكار أن أصحاب المخطط أو الاستراتيجية يبذلون قصارى جهدهم لينفذوه بأي طريقة (أخلاقية أو غير أخلاقية) متاحة؛ ولذا كثيرًا ما نجدهم يلجئون إلى المؤامرات، انظري على سبيل المثال،إلى المخطط الغربي الرامي إلى تقسيم العالم العربي واستعمار فلسطين، إن اتفاقية سايكس بيكو هي مَثَل جيد على مؤامرة تمت في الخفاء في إطار الاستراتيجية الغربية الإمبريالية العامة تُجاه العالم العربي والإسلامي، وهي لا تختلف في توجهها وهدفها عن وعد بلفور، سوى أن الاتفاقية تمت في الخفاء، أما وعد بلفور فقد صرح به علنا، وتآمر أصحاب المخططات يظهر أيضًا في أشياء ليست بضخامة اتفاقية سايكس بيكو مثل محاولات الاغتيال السياسي، والتجسس وتقديم الرِّشا لبعض أعضاء النخب الثقافية والسياسية، وتحريك الأقليات بهدف إثارة القلاقل ضد بعض النخب الحاكمة والضغط عليها. وإلا فماذا تفعل مخابرات وجواسيس دولة (مثل إسرائيل) في الدول الأخرى؟ (اعترف الإسرائيليون بأنهم كان لديهم ٢٠٠٠ عميل في لبنان، ويقال إن عملائهم في أثناء الانتفاضة كانوا عشرات الألوف).

ومحاولات التجسس الإسرائيلية على العرب، ومحاولات التجسس العربية على إسرائيل مسألة مستمرة. ومن المعروف أن ميزانية المخابرات الأمريكية تزيد عن ميزانية كثير من دول العالم الثالث، ويخصص جزء كبير من هذه الميزانية لعمليات سرية؛ بعضها لا يعرف عنها الكونجرس شيئًا ولا حتى رئيس الجمهورية في بعض الأحيان.

س: تؤكد أن «الدراسات التآمرية» تتفق دون أن تدري مع منطلقات الصهيونية وتروج لها.. كيف؟

ج: الرؤية الصهيونية للعالم فيها ثوابت، وأحد هذه الثوابت أن اليهود شعب واحد، وأن كل اليهود يتسمون بشيء يسمى الخصوصية اليهودية والشخصية اليهودية، وأنه لا يمكن تفسير سلوك اليهودي إلا في إطار حركيات التاريخ اليهودي. هذه الرؤية الواحدية تجرد اليهودي من الزمان والمكان ومن ثم من إنسانيته؛ ولذا إذا كانت هذه هي نقطة الانطلاق الصهيونية فهي أيضًا جوهر العنصرية المعادية لليهود التي ترى اليهود باعتبارهم شعبًا واحدًا. حين يقول أحد التآمريين إن السلوك اليهودي يتسم بالغدر وحب المال فهو يقدح في اليهودي ويسبه، نعم، ولكنه دون أن يدري يدور داخل الإطار الصهيوني إذ إنه يرى هذا اليهودي باعتباره عضوًا في شعبه وينتمي إلى إطار يهودي؛ أي إنه يفترض وحدة يهود العالم في كل زمان ومكان!، ولهذا كان القادة المؤسسون للحركة الصهيونية مثل هرتزل وغيره يتحدثون عن أعداء اليهود باعتبارهم أفضل الحلفاء للصهاينة، وعندنا من الوثائق الآن ما يدلُّ على أن الصهاينة في حالة يهود بغداد أرسلوا بعملائهم ليضعوا قنابل في أماكن تجمع اليهود حتى يفزع اليهود ويفرّوا إلى إسرائيل. وما ينساه كثير من العرب والمعادين لليهود أن اليهودي طالما بقي في وطنه متمتعًا بحقوقه المدنية والسياسية والدينية سيظل مواطنًا يهوديًّا ينتمي إلى هذا الوطن، ولكنه إن تعرضت حقوقه للخطر وفقد الإحساس بالأمن فإنه سيفر إلى إسرائيل ليصبح مستوطنًا صهيونيًّا يحمِل السلاح ضِدَّنا. ليس من

مصلحتنا أن نحول المواطن اليهودي إلى مستوطن صهيوني، بل على العكس يجب دائمًا أن ندافع عن حقوقه المدنية والسياسية والدينية في وطنه.

س: يتحدث كثيرون عن اللوبي الصهيوني اليهودي حينما نفاجئ بقرار أو تصرف غربي أمريكي يبتعد تمامًا عن المنطق والحق والعدل، يفسِّر بعضهم هذا القرار أو التصرف بالحديث عن تأثير، بل سيطرة اللوبي اليهودي الصهيوني على مُقدَّرات القرار في الغرب وأمريكا، هل يُعد هذا شكلًا من أشكال التفكير التآمري؟

ج: إن أُطروحة اللوبي الصهيوني باعتباره المهيمن على السياسة الأمريكية والموجِّه لها هو شكل مصقول للغاية من فِكر المؤامرة، كما أن في الواقع كثيرًا من المؤشرات التي تعطى مصداقية لهذه الأطروحة. ولكن ثمة عنصر مشترك بين فكر المؤامرة وأطروحة نفوذ اللوبي الصهيوني وهيمنته على السياسة الأمريكية، وهو أن كليهما يسقط في محاولة تفسير الواقع بسبب واحد (سيطرة النفوذ اليهودي)، وكلاهما يخفق في تحديد ما هو الكل وما هو الجزء.

س: ما هي حدود نفوذ اللوبي الصهيوني إذن؟

ج: أولًا: من باب التعريف، «لوبي» كلمة إنجليزية تعني «الرواق» أو «الردهة الأمامية في فندق» وتُطلق الكلمة كذلك على الردهة الكبرى في مجلس العموم في إنجلترا، وعلى الردهة الكبرى في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة، حيث يستطيع الأعضاء أن يقابلوا الناس، وحيث تُعقد الصفقات فيها، كما تدور فيها المناورات والمشاورات ويتم تبادل المصالح، وقد أصبحت الكلمة تُطلق على جماعات الضغط التي يجلس ممثلوها في الردهة الكبرى ويحاولون التأثير على أعضاء هيئة تشريعية ما مثل مجلس الشيوخ أو مجلس النواب... ويوجد في الولايات المتحدة أكثر من لوبي أو جماعة ضغط تمارس نشاطاتها في العلن بشكل مشروع، وإن كان هذا لا يستبعد بعض الأساليب الخفية مثل الرشاوى أو منح عقود، أو التهديد بنشر بعض التفاصيل أو الحقائق التي قد تُسبب الحرج لأحد أعضاء النخبة الحاكمة وصانعي القرار. إذن كلمة «لوبي» بالمعنى

المحدد والضَّيق للكلمة، هي جماعات الضغط التي تسجل رسميًّا باعتبارها كذلك، ولكنها، بالمعنى العام، تشير إلى مجموعة من المنظمات والهيئات وجماعات المصالح والاتجاهات السياسية التي قد لا تكون مسجلة بشكل رسمي، ولكنها تمارس الضغط على الحكام وصُناع القرار. وثمة من يذهب إلى إعادة تصنيف الديمقراطية الأمريكية باعتبارها «ديمقراطية جماعات الضغط» وليس ديمقراطية تقليدية؛ أي ديمقراطية الجماهير والأحزاب السياسية التي تعبر عن وجهة نظرها.

س: وإذا قيل «اللوبي الصهيوني واليهودي» فما هو المقصود تمامًا بهذا القول؟

ج: عبارة «اللوبي اليهودي الصهيوني» في الأدبيات العربية، الغربية تشير إلى معنيين: اللوبي الصهيوني بالمعنى المحدَّد، واللوبي الصهيوني بالمعنى العام الشائع للكلمة. واللوبي الصهيوني بالمعنى المحدد يعني لجنة الشئون العامة الإسرائيلية الأمريكية (إيباك)، وهي من أهم جماعات الضغط، ومهمتها الضغط على المشرِّعين الأمريكيين لتأييد الدولة الصهيونية. أما اللوبي الصهيوني بالمعنى العام الشائع للكلمة فهو إطار تنظيمي عام يعمل داخله عدد من الجمعيات والتنظيمات والهيئات اليهودية والصهيونية مثل: مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الكبرى، والمؤتمر اليهودي العالمي، واللجنة اليهودية الأمريكية، وغيرها، وكل هذه المنظمات لديها ممثلون في واشنطن للتأثير على عملية صنع السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط.

س: وهل يعمل اللوبي الصهيوني بالمعنى العام الشائع بشكل مستقلٍّ عن الحركة الصهيونية؟

ج: إن اللوبي الصهيوني لا يعمل بشكلٍ مستقلٍّ عن الحركة الصهيونية، بل يُنسق معها، فعندما يثار موضوع مهم، فإن قادة مؤتمر الرؤساء ولجنة الشئون العامة يحتفظون باتصال وثيق مع العاملين في السفارة الإسرائيلية في واشنطن ومع المستويات العُليا في الحكومة الإسرائيلية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كلتا المنظمتين لديها القدرة على تنسيق أنشطتها مع الجماعات الصهيونية على المستوى العالمي من خلال المنظمة الصهيونية.

س: وهل يضم اللوبي الصهيوني عناصر غير يهودية؟

ج: أشرنا إلى أن اللوبي الصهيوني اليهودي بالمعنى المحدَّد للكلمة بأنه (إيباك) والمنظمات اليهودية التي تدعمه وتموِّله. ولكن ثمة معنى أكثر شمولًا واتساعًا؛ فاللوبي الصهيوني واليهودي يضم كل أصحاب المصالح الاقتصادية وأعضاء النخبة السياسية والعسكرية الذين يرون أن تفتيت العالم العربي والإسلامي يخدم مصالحهم. كما يضم اللوبي الصهيوني بهذا المعنى العريض كثيرًا من الليبراليين ممن كانوا يدعون إلى اتخاذ سياسة ردع نشيطة ضد الاتحاد السوفييتي سابقًا، وكثيرًا من المحافظين الذي يرون في إسرائيل قاعدة للحضارة الغربية وقاعدة لمصالحها، ولا يوظِّف اللوبي الصهيوني واليهودي بهذا المعنى عناصر يهودية وصهيونية وحسب، وإنما يوظف عناصر ليست يهودية ولا صهيونية، بل قد تكون معادية لليهود واليهودية، ولكنه يوظفها دفاعًا عن الدولة الصهيونية وعن مصالحها، بسبب الدور الذي تؤديه هذه الدولة في الشرق الأوسط، ولعل من أهم العناصر التي تحوَّلت إلى لوبي صهيوني غير يهودي جماعات الصهاينة المسيحيين ممن يرون في دولة إسرائيل إحدى بشائر الخلاص.

س: ثمة جدلية متعلقة بمسألة «من يهيمن على مَن».. إسرائيل على أمريكا أم العكس، وهي مرتبطة بحقيقة وجود اللوبي الصهيوني وهيمنته على القرار السياسي في الولايات المتحدة أو عدم وجود تلك الهيمنة، ما رأيكم؟ وهي تعيدنا إلى التساؤل عن حدود نفوذ اللوبي الصهيوني على القرار السياسي في الولايات المتحدة؟

ج: لا بد أن تتذكر أن الولايات المتحدة إمبراطورية ضخمة ذات مشروع استعماري عالمي. هذه الإمبراطورية لها مصالحها وقواتها ومؤسساتها العسكرية والفكرية والقمعية والمعلوماتية والتخريبية والإرهابية، وكلها تُدار بشكل منهجي وحديث، مما يعني أنها تشبه الآلة الضخمة التي لها قوانينها الموضوعية المُستقلة والتي لا تخضع لأهواء الأفراد ومطامعهم الشخصية، إلا

بقدر محدود لا يمكن الاكتراث به. وأعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة يعيشون في كنَف هذه الآلة الإمبراطورية الضخمة، وهم يحققون صعودهم وهبوطهم لا بوقوفهم ضدها أو بشكلٍ مستقلٍّ عنها، وإنما من خلال الانصياع لقوانينها والقيام على خدمتها وتحقيق مآربها، وأنا من المؤمنين أن اللوبي الصهيوني لا يمكنه التأثير في القرار السياسي الأمريكي في الأمور الاستراتيجية الكبرى، وإن كان له بعض التأثير في الأمور الجانبية، وهذا أمر متوقع باعتبار أن الدولة الصهيونية دولة عميلة (أو دولة وظيفية) تؤدي كثيرًا من الخدمات وتضطلع بكثير من الوظائف التي توكل إليها من قبل راعيها الإمبريالي، فهي دولة ذات نفع عظيم، من وجهة النظر الإمبريالية الأمريكية.

س: ومع هذا ثمة كثير من الأدبيات العربية التي ترى أن اللوبي اليهودي الصهيوني لا يؤثر في صُناع القرار الأمريكي فقط، بل إن اللوبي الصهيوني يسيطر سيطرة تامة على مراكز صُنع السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط؛ ولذلك فهو يدفع هذه السياسة في اتجاه مناقض للمصالح القومية الحقيقية، فما مدى صحة هذه الفرضية؟

ج: إن مفهوم المصلحة الاستراتيجية ليس مفهومًا بسيطًا أو عقلانيًّا، فعملية اتخاذ القرار السياسي في العالم الغربي مركبة لأقصى حدٍّ؛ فهي تتم من خلال مؤسسات يُديرها علماء متخصصون بطريقة رشيدة، بمعنى أنها تتبع إجراءات معروفة ومحددة لا تخضع للأهواء الشخصية؛ ولذا لا يتخذ القرار إلا بعد توفير المعلومات اللازمة وإشراك المستشارين والمتخصصين، ثم بعد ذلك تتم عملية موازنات صعبة ودقيقة بشأن حساب المكسب والخسارة وجدوى القرار وقوة العدو ونقط ضعفه. ولكن إذا كان التكنوقراط يتخذون القرار حسب إجراءات موضوعية ومعايير محسوبة، فإنهم لا يحددون الأهداف الاستراتيجية، وإنما تحدد هذه الأهداف في إطار مرجعية المجتمع النهائية. وهذه المصلحة ليست قضية بسيطة يمكن تحديدها موضوعيًّا ورياضيًّا وبشكل إجرائي غير شخصي، فرؤية أعضاء النخبة الحاكمة لمصالحهم،

والمصالح الفعلية التي يحاولون الحفاظ عليها، والعقيدة الدينية والسياسية التي تستند إليها شرعية النخبة تساهم كلها في تحديد مصلحة الدولة العُليا، وأعتقد أن الغرب قد عرف مصلحته الاستراتيجية منذ بداية القرن التاسع عشر بطريقة تجعله ينظر إلى المنطقة العربية باعتبارها مصدرًا هائلًا للمواد الخام، ومجالًا خصبًا للاستثمارات الهائلة، وسوقًا عظيمة لسلعه، أو قاعدة استراتيجية شديدة الخطورة والأهمية إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية له باستخدامها ضده. والمفهوم الصهيوني لعالمنا العربي يتفق تمام الاتفاق مع المفهوم الغربي، والصهيونية في نهاية الأمر وليدة التراث الفكري الاستعماري الغربي، وهي أداته في المنطقة، ومن هُنا جاء الدعم الغربي الحاسم للمشروع الصهيوني، وهذا هو السر الحقيقي للنجاح الصهيوني في الغرب، فالنجاح يعود إلى أن «صهيون» الجديدة جزء من التشكيل الاستعماري الغربي، وإلى أنه لا يمكن الحديث عن مصالح يهودية وصهيونية مقابل مصالح غربية، وإلى أن الإعلام واللوبي الصهيوني يمثلان أداة الغرب الرخيصة. والساسة الإسرائيليون يدركون هذه الحقائق إدراكًا كاملًا؛ ولذا فهم لا يكفون عن الحديث عن أهمية إسرائيل قاعدة عسكرية وحضارية وأمنية رخيصة للغرب.

إن العنصر المحدد لأي قرار أمريكي هدفه الأساسي مصلحة أمريكا الاستراتيجية كما تتصورها النخبة، وعلينا أن نفهم أن اللوبي الصهيوني لا يُقرر التوجُّه العام للسياسة الأمريكية وإنما يمكن أن يتدخَّل في التفاصيل، أما التوجُّه العام فتحدده النخبة الأمريكية الحاكمة والتي يلعب فيها كبار الرأسماليين وأصحاب الشركات دورًا مهمًا جدًّا في صياغة هذا التوجُّه، أما مهمة اللوبي الصهيوني فهي إيجاد حيز للدولة الصهيونية للتحرك داخل إطار الاستراتيجية العامة الغربية يمكن من خلاله التأثير، فاللوبي جزء وليس المؤثر الأكبر في السياسة الأمريكية. وصحيح أن المحافظين الجُدد معظمهم من اليهود إلا أن هذه المسألة تعد ثانوية، فتأثيرهم يأتي من خلال دفاعهم عن سياسة ترى النخبة الحاكمة أنها تخدم المصالح الأمريكية.

س: بنظركم مَن المستفيد من ترويج الصورة التقليدية للنفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية؟

ج: المستفيدون كثيرون؛ فالصهاينة يستفيدون من هذه الشائعات الأسطورية إذ تُضفي عليهم أهمية لا يستحقونها، ولذلك فهم يروِّجونها ويرسِّخونها في الأذهان. كما أن الحكومة الأمريكية نفسها تروج هذه المزاعم عن اللوبي الصهيوني حتى توحي للحكومات العربية أنها تريد اتخاذ مواقف أكثر اعتدالًا تُجاه القضايا العربية ولكنها لا تستطيع بسبب اللوبي الصهيوني، وهكذا تصبح هذه القوة العظمى الباطشة مجرد ضحية للنفوذ اليهودي وألعوبة في يد القوة الصهيونية التي لا تُقهر، وهو أمر يحسِّن صورتها أمام زبائنها من العرب. أما الأنظمة العربية فتستفيد من هذه الصورة فهي تبرر الهزيمة وتجعلها شيئًا مفهومًا متوقعًا، كما أن ساحة القتال تنتقل من فلسطين لتصبح في الكونجرس وعواصم الغرب المختلفة. ولعل مما زاد من رواج هذه الأسطورة نجاح إسرائيل في مهمتها بوصفها قاعدة عسكرية رخيصة تحرس المنطقة العربية، وثمة علاقة طردية بين ضعف العرب وقوة اللوبي الصهيوني، فكلَّما ازداد العرب ضعفًا ازداد تلاحم المصالح الإسرائيلية والغربية، أما إذا أصبحت إسرائيل أكثر تكلُفة من خلال المقاطعة والمقاومة والجهاد فسوف تعيد الولايات المتحدة حساباتها.

س: نموذج تلاقي المصالح الاستراتيجية بين العالم الغربي والدولة الصهيونية نموذج تحليلي له مقدرة تفسيرية عالية، ولكنه يهمل قوة اللوبي الذاتية، فهل ترون أن تلاقي المصالح وحده كاف، أم أن قوة اللوبي الذاتية تلعب دورًا مهمًا في القوة التأثيرية الكبيرة للوبي الصهيوني على مراكز صنع القرار الغربية؟

ج: إن نموذج تلاقي المصالح لا يهمل قوة اللوبي الذاتية على الإطلاق، وهي تعود إلى أسباب كثيرة نذكر منها: استناد اللوبي إلى قاعدة واسعة من الناخبين من أعضاء الجماعة اليهودية، ووجود نسبة عالية من هؤلاء الناخبين من الأثرياء يتبرعون بأكثر من نصف مجموع الهبات الكبرى للحملة الانتخابية

للحزب الديمقراطي، إضافة إلى مبالغ ضخمة للحزب الجمهوري، وأيضًا من أسباب قوة اللوبي اليهودي الصهيوني ارتفاع المستوى التعليمي لأعضاء الجماعات اليهودية، وأيضًا يوجد عدد كبير من المثقفين الأمريكيين اليهود الذي أصبحوا جزءًا عضويًّا من النخبة الحاكمة وهذا يجعلهم قادرين على ممارسة الضغط والتأثير بشكل مباشر. هذا بالإضافة إلى أن الجماعة اليهودية جماعة منظمة لدرجة كبيرة، وهذا يجعلها قادرة على مضاعفة قوتها وزيادة نفوذها لدرجة لا تتناسب مع عدد أعضائها. ونظام الانتخابات الأمريكية نفسه ساعد على أن يؤدي اللوبي الصهيوني دورًا ملحوظًا في الانتخابات بسبب تركزهم في بعض أهم الولايات التي تقرِّر مصيرَ كثير من المرشحين.

س: وما هو مصدر قوة اللوبي الصهيوني إذن؟

ج: إن اللوبي الصهيوني اليهودي في أمريكا يستمد قوته لا من القاعدة الجماهيرية الصهيونية، وإنما من المؤسسة الحاكمة، وأنا أطرح دائمًا السؤال التالي: هل موقف المواطن اليهودي الأمريكي من إسرائيل يختلف بشكل جوهري عن موقف المواطن الأمريكي غير اليهودي؟ إن الموقف الغربي منذ القرن التاسع عشر هو موقف مواجهة مع العالم العربي الإسلامي وحينما تمّ القضاء على تجربة محمد علي لم يكنْ لليهود بعد أي أثر؛ ومن ثم يمكننا أن نقول: إن المؤسسة الحاكمة الغربية قد نجحت في دمج معظم اليهود في مشروعها الاستعماري ويجب التنبيه إلى أن يهود أمريكا عارضوا الصهيونية وبحدة في بداية القرن العشرين وحتى أوائل الخمسينيات ثم أخذت هذه المقاومة تتهاوى، وتم دمجهم في المنظومة الأمريكية الإمبريالية.

إن اللوبي الصهيوني يستمد قوته من أنه يعبر عن المصالح الأمريكية لا لأنه يقف ضدها، وقد جاء في مقال الواشنطن بوست بقلم ريتشارد شتراوس (٢٧ إبريل ١٩٨٦) أن (السوبر لوبي) الصهيوني الجديد في واشنطن هو الرئيس الأمريكي ريجان نفسه إلى درجة أن اللوبي الصهيوني الآن لا يفعل شيئًا، بل إن معاداة العرب أصبح لها دينامية مستقلة عن اللوبي الصهيوني، وهذا الأمر

يؤدي إلى نشوء مواقف جديدة تمامًا الآن. ففي صفقة الأسلحة السعودية الأخيرة تصاعدت المعارضة في مجلس الشيوخ ومجلس النواب للصفقة مع أن اللوبي الصهيوني كان قد قرَّر عدم التصدي لها بالاتفاق مع المؤسسة الحاكمة. وكما قال ريجان: «إسرائيل تحمي آبار البترول ومصالحنا في المنطقة».

ولعلّ ما ورد في مقال ليندا فيلدمان «جنود كسر العظام يحطمون الصلة مع يهود العالم» في الكرستيان ساينس مونيتور (نشرت في الوطن ١٧ مارس ١٩٨٨) يبين أن مصلحة الولايات المتحدة في نهاية الأمر هي اللوبي الحقيقي. إذ تشير كاتبة المقال «إلى الدور المحتمل لليهود الأمريكيين بما يتمتعون به من مهارات وقوة ضغط هائلة في دفع عملية السلام». ولكنها تشير في الوقت نفسه إلى محللين آخرين يشكون في أن يشكل اليهود الأمريكيون عاملًا حاسمًا في عملية السلام وفي الضغط على إسرائيل؛ إذ إنه بسبب تحركات إسبانية واليونان لإغلاق القواعد الأمريكية، بالإضافة إلى سقوط شاه إيران، تعاظمت الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل بالنسبة إلى الولايات المتحدة، وهذا العنصر الأخير سيُقلل من أهمية رأي اليهود الأمريكيين في صياغة الاتجاه السياسي؛ أي إن مصلحة الولايات المتحدة لا اللوبي الصهيوني ولا القرار الإسرائيلي هو الذي يُحدد القرار الأمريكي في نهاية الأمر. وهذا أمر طبيعي ومنطقي بالنسبة إلى دولة عظمى مثل الولايات المتحدة لها مصالح استراتيجية في كل أنحاء العالم، ولا يُمكن لها أن تخضع لضغط هذه الأقلية أو تلك.

وقد طُرحت مرة السؤال التالي على أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي: لو أن إسرائيل اختفت من على وجه الأرض ولو لم يكن جماعة يهودية في الولايات المتحدة، هل كانت سياسة الولايات المتحدة تجاه البلاد العربية، التي تضم أكبر احتياطي للبترول في العالم، ستتغير؟ فكان رده هو أنه يمكنه تخيل العالم بدون إسرائيل ولا يمكنه تخيل الولايات المتحدة بدون يهود! أي إنه تهرب من الإجابة. ويمكن أن نطرح على أنفسنا بعض الأسئلة، حينما قامت المخابرات الأمريكية بمساعدة شاه إيران في إسقاط الزعيم الشعبي مصدق في إيران، وحينما قامت بقتل

الليندي الرئيس المُنتخب ديمقراطيًّا في تشيلي، وحينها تحاصر كاسترو عشرات السنين وحينها تحاول إسقاط شافيز، هل كانت تفعل ذلك بإيعاز من لوبي تشيلي أو كوبي أو فنزويلي، أم أنها كانت تتحرك في إطار ما تتصوره مصالحها الاستراتيجية؟

لا يمكن إنكار أهمية اللوبي الصهيوني أو فعاليته في التأثير على مراكز صنع القرار في واشنطن أو قدرته على تعبئة الرأي العام الأمريكي، ولكنني أرفض تفسير كل سلوك يصدر عن الغرب على أساسه.

س: هل يمكن أن تزيد هذه القضية إيضاحًا؟ إلام تستند في رؤيتك المحددة لنفوذ اللوبي الصهيوني على السياسة الأمريكية؟

ج: المعرفة الإنسانية معرفة تاريخية مقارنة، فإذا كان البعض يرون أن الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد إسرائيل بسبب نفوذ هذا اللوبي، فيمكن أن نخضع هذه المقولة كأي مقولة أخرى للدراسة التاريخية المقارنة ونقارنها بحالات مماثلة. فلننظر على سبيل المثال، إلى حالة إنجلترا أو ألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، المرحلة التي صدر فيها قرار وعد بلفور الذي هو أهم حدث في تاريخ الصهيونية، فنجد أنه كانت هناك أقلية يهودية قوية جدًّا في ألمانيا تسيطر على أهم ثلاثة بنوك، ومركز الصهيونية العالمية كان في برلين ولغة المؤتمرات الصهيونية كانت الألمانية، وغالبية يهود أوربا (الذين كانوا يشكلون ٩٠٪ من يهود العالم) كانوا يتحدثون اليدشية وهي رطانة ألمانيا مع أنها تكتب بحروف عبرية، وهرتزل كان يرى أن المشروع الصهيوني يجب أن يكون مشروعًا استعماريًّا ألمانيا. وفي إنجلترا كان العكس هو الصحيح، إذ كان يوجد أقلية يهودية صغيرة ثرية ومندمجة في المجتمع الإنجليزي، وكان يهود إنجلترا معادين تمامًا للصهيونية، حتى إن الوزير الوحيد الذي عارض إصدار وعد بلفور هو اليهودي الوحيد في الحكومة، وهو السير إدوين مونتاجو. ومع ذلك لم يصدر وعد بلفور في ألمانيا بل في إنجلترا. فكيف نفسر هذا الوضع؟ إن حللنا الموقف جيدًا سنكتشف أن ما حدد سياسة كل من ألمانيا وإنجلترا هو الاستراتيجية الكبرى لكل من البلدين.

ففي عام ١٩٠٥ رفضت إنجلترا إصدار وعد يشبه وعد بلفور؛ لأن

قرار تقسيم الدولة العثمانية كان لم يتخذ بُعد، فعرض على الصهاينة شرق إفريقيا أرضًا للاستيطان الصهيوني، ولكن في سنة ١٩١٧ كان قرار تقسيم الدولة العثمانية قد اتخذ، ومن ثَم تَم إصدار وعد بلفور الذي هو في واقع الأمر قرار بتقسيم الدولة العثمانية والعالم العربي. أما بالنسبة إلى ألمانيا فالوضع كان مختلفًا اختلافًا بينًا. فقد قام تحالف بينها وبين الدولة العثمانية؛ ولذا فمع كل النفوذ الصهيوني في ألمانيا، فإنها لم تُصدر أي وعدٍ بلفوري إذ حالت استراتيجية الدولة الألمانية دون اتخاذ مثل هذا القرار.

والشيء ذاته ينطبق على الولايات المتحدة؛ فالقرار بدعم الدولة الصهيونية قرار استراتيجي ليس له علاقة باليهود. وعلى دعاة النفوذ الصهيوني تفسير ما يلي: في السنوات العشرين الماضية بدأ الدعم الأمريكي لإسرائيل يزداد بشكل ضخم ومتسارع؛ لهذا عليهم أن يبينوا ما إذا كان النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة قد ازداد وتضخم بالمقدار نفسه، هل ازداد حجم الرأسمال اليهودي نسبة إلى حجم الرأسمال غير اليهودي؟ هل تزايد الوجود اليهودي في صفوف الإعلام الأمريكي أم تناقص؟

الدراسات تقول: إن العكس هو الصحيح؛ فعناصر غير يهودية هي التي بدأت تمسك بزمام الأمور في الولايات المتحدة. وهذا الأمر بدا واضحًا فالرأسمال الأمريكي بدأ يتمدد في مقابل الرأسمال اليهودي الذي لم يزد، بل تضاءل بشكل كبير. وعليهم كذلك أن يفسروا أن ثمة دولًا غربية لا يوجد فيها يهود أساسًا ومع هذا تؤيد الدولة الصهيونية بشكل شبه مطلق، في الوطن العربي يرى بعض أن ازدياد التأييد هو نتيجة ازدياد النفوذ الصهيوني. وهذه مغالطة كبيرة وهم بذلك يملئون الفراغ عن طريق الأسطورة لتبرير الوضع القائم ولإدراك ما يحدث ولعقلنتِه كذلك. إن الدعم الغربي للدولة الصهيونية يتزايد بمقدار ما تحقِّقه من مكاسب للعالم الغربي؛ ولذا إن جعلنا هذا الجيب الاستيطاني مكلفًا للغرب فأعتقد أن الأمر سيختلف كثيرًا.

والله أعلم.